

الْبَيْتَيْنِ الْكَاثِبَيْنِ

مَجْلَدُ الْجَوَاهِرِ الْغَنِيِّ

لِلْجَاهِ الْغَنِيِّ

سُورَةُ الشُّرَا وَالْأَنْبِيَاءِ وَالْأَنْبِيَاءِ



النفس الكاشفة
٦

مُحَمَّدٌ جَوَادٌ مَغْنِيَّتُهُ

النَّفْسُ الْكَاشِفُ

المجلد السادس

مِنْ سُورَةِ النَّحْلِ
إِلَى آخِرِ سُورَةِ الزُّخْرَفِ

مُحَمَّدٌ جَوَادٌ

دَارُ الْكِتَابِ وَالسَّلَامَةِ

شبكة كتب الشيعة



shiabooks.net

رابطہ بدیل < mktba.net



جميع حقوق الطبع محفوظة و مسجلة للناشر

الكتاب : التفسير الكاشف (ج ٦)
المؤلف: العلامة محمد جواد مغنية (ره)
الناشر: مؤسسة دار الكتاب الاسلامي
الطبعة: الرابعة ١٤٢٨ هـ / ٢٠٠٧ م
المطبعة: مطبعة ستار
عدد النسخ: (٢٠٠٠) دوره

الترقيم الدولي للمجموعة : ٩ - ٠٨٥ - ٤٦٥ - ٩٦٤ - ٩٧٨
الترقيم الدولي (ج ٦) : ١ - ٠٩٢ - ٤٦٥ - ٩٦٤ - ٩٧٨

قم - ميدان معلم - شارع سمية ٢٢ - رقم ٢٦
تليفون: ٧٧٤٤٩٧٠ - ٧٧٣٠٩٩٤
فاكس: ٧٨٣٧٣٨٣

سُورَةُ النَّمْلِ

مكية وآياتها ٩٣ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هدى وبشرى للمؤمنين الآية ١ - ٥ :

طَسَّ تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ * هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ *
الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ *
إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ * أُولَٰئِكَ
الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخَسِرُونَ *

اللفظ :

العمى للبصر ، والعمه للبصيرة .

الإعراب :

تلك آيات مبتدأ وخبر . وهدى وبشرى مصدر في موضع الحال من القرآن
أي هادياً ومبشراً ، والعامل بالحال معنى الإشارة . وهم بالآخرة هم يوقنون الجملة
حال ، وهم الثانية تأكيد لهم الأولى .

المعنى :

(طس -) تقدم الكلام عن مثله في أول سورة البقرة (تلك آيات القرآن وكتاب مبين) . تلك إشارة إلى هذه السورة ، والقرآن والكتاب بمعنى واحد ، والاختلاف بينهما بالوصف لا بالذات ، وبالعرض لا بالجواهر ، فهو قرآن لأنه مقروء ، وهو كتاب لأنه مكتوب ، وهو مبين لأنه واضح ، وهو أيضاً (هدى وبشرى للمؤمنين) يرشد من طلب الهداية إلى الحق ، ويبشره بالجنة ان آمن به وعمل (الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون) . ليس الإيمان بشيء عند الله إلا إذا ظهرت آثاره ومقتضياته للعيان ، ومن أهمها الصلاة والزكاة . وبالاختصار ليس الإيمان الحق فكرة في الرأس ، ولا كلاماً يدور على اللسان ، وإنما هو سلوك وعمل .

وتسأل : ان مقيمي الصلاة ومؤدي الزكاة هم الموقنون بالآخرة ، فما هو الوجه لقوله تعالى : « وهم بالآخرة هم يوقنون » ؟ .

الجواب : المراد أنهم يؤمنون بالآخرة إيماناً لا ريب فيه ، تماماً كمن قدر آها . (إن الذين لا يؤمنون بالآخرة زيننا لهم أعمالهم فهم يعمهون) . عمت قلوبهم عن أعمالهم وما فيها من فساد وضلال ، فاقترفوها دون خوف من حساب وعقاب .

وتسأل : أسند سبحانه هنا التزيين الى نفسه حيث قال : (زيننا لهم أعمالهم) وفي الآية ٦٣ من سورة النحل أسند التزيين إلى الشيطان حيث قال : (فزين لهم الشيطان أعمالهم) . فما هو وجه الجمع بين الآيتين ؟ .

الجواب : أسند التزيين في آية سورة النحل إلى الشيطان بالنظر إلى أنه هو الذي يغري ويوسوس ، وأسندته إليه تعالى هنا بالنظر إلى أن سنة الله ومشيته قضت بأن يعنى عن سوء أعماله من لا يؤمن باليوم الآخر ، تماماً كما قضت مشيته تعالى بالموت والهلاك على من يسلك الطريق المؤدية إليه ، وبتعبير ثان ان من لا يؤمن بالآخرة يفعل الحرام ، وهو يرى انه حلال ، لأن الله جعل عدم الإيمان سبباً للجهل بالحرام .. وإذا قال قائل : إن هذا شيء طبيعي قلنا في جوابه :

إن جميع الأشياء الطبيعية والأسباب الكونية تنتهي إليه تعالى لأنه هو الذي أوجد الطبيعة والكون .

(أولئك الذين لهم سوء العذاب وهم في الآخرة هم الأخسرون) . خسروا الدنيا لأنهم فارقوها ، وخسروا في الآخرة الثواب ، وحل بهم العقاب ، وذلك هو الخسران المبين .

موسى الآية ٦ - ١٤ :

وإِنَّكَ لَتَلْقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ * إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ
إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آيَةٍ أَوْ نَذِيرٍ أَوْ بَشِيرٍ قَبْسٍ لَعَلَّكُمْ
تَصْطَلُونَ * فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا
وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ *
وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى
لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ * إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا
بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضًا
مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا
فَاسِقِينَ * فَلَمَّا جَاءَهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ * وَجَحَدُوا
بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ
الْمُفْسِدِينَ *

اللغة :

تُلْقَى القرآن تُعْطَاه . وَأَنْتَ أَبْصَرْتَ . وشهاب شُعْلَةٌ . وقبس قطعة من نار . وتصطلون تستدفئون . ولم يُعْقَبْ لم يرجع . ومبصرة واضحة .

الإعراب :

إذ في محل نصب باذكر المحذوف . وأن بورك (ان) بمعنى أي مفسرة للنداء . وسبحان منصوب على المصدر . ورب العالمين بدل من الله . وضمير انه للشأن . وانا الله مبتدأ وخبر ، والجملة خبر ان . وجملة تهتز حال من عصاك . ومديرأ حال من الضمير المستتر في ولتي . وبيضاء حال من يدك . وإلى فرعون متعلق بحال محذوف أي مرسلأ إلى فرعون . ومبصرة حال من آياتنا . وظلماً مفعول من أجله لجحدوا . وكيف خبر كان ، وعاقبة اسمها .

المعنى :

(واثق لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم) . الخطاب لرسول الله (ص) ، والمعنى ان الله هو الذي أعطاك القرآن يا محمد ، وما هو من عندك كما يزعم الجاحدون (إذ قال موسى لأهله إني آنست نارا سأتيكم منها بخبر أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون) . تقدم مثله مع التفسير في الآية ١٠ من سورة طه .
(فلما جاءها نودي ان بورك من في النار ومن حولها وسبحان الله رب العالمين) . المراد بالنار هنا النور ، ومن فيها قدرة الله ، ومن حولها موسى ، والمعنى ان الذي رأيته يا موسى وظننته نارا هو نور مبارك أوجده الله بقدرة ، وأنت الذي تقف من حول هذا النور مبارك أيضاً ، لأنني قد اخترتك لرسالتي تبشر وتنذر وتشر البركة في الأرض .. هذا ما فهمناه من الآية بعد التبع والتأمل ، فإن كان هو المراد فذاك ، وإلا فإنه صحيح في ذاته .
(يا موسى إنه أنا الله العزيز الحكيم) . كشف سبحانه ان الذي يناديه ويحاطبه

الجزء التاسع عشر

هو رب العزة لسمع ويطيع (والقر عصاك فلما رآها نَهَزَ كأنها جان ولتى مديراً ولم يعقب يا موسى لا تخف اني لا يخاف لذي المرسلون) . المراد بالجان هنا الحية بدليل قوله تعالى : « فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى - ٢٠ طه » . وقوله : « فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ - ١٠٦ الأعراف » .. ان موسى إنسان ، ومن طبيعة الانسان الخوف .. ومن الذي لا يخاف إذا تحول القميص الذي على بدنه إلى حيوان مفترس ، والخاتم الذي في اصبعه إلى عقرب ، والعصا التي في يده إلى ثعبان ؟ . خاف موسى لأنه إنسان يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ، فأمنه الله سبحانه ، وقال له : أنت رسولي ، وجميع رسلي في أمان وسلام .

(إلا من ظلم ثم بدّل حسناً بعد سوء فلإني غفور رحيم) . إن الأنبياء لا خوف عليهم لأنهم لا يظلمون أنفسهم ولا غيرهم ، وانما الذي يجب أن يخاف هو من ظلم الله بالكفر والشرك ، أو ظلم نفسه بالمعصية ، أو غيره بالاعتداء إلا من تاب بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه ، ويشمله بعفوه ورحمته . (وأدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء) تقدم مثله في الآية ١٠٨ من سورة الأعراف ج ٣ ص ٣٧٥ والآية ٢٢ من سورة طه والآية ٣٣ من سورة الشعراء . (في تسع آيات إلى فرعون وقومه أنهم كانوا قوماً فاسقِينَ) . تقدم في الآية ١٠١ من سورة الإسراء .

(فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين) . مبصرة أي يبصر الانسان الحق إذا رأى تلك الآيات التسع التي جاء بها موسى ، وقد أبصر فرعون وقومه الحق حين رأوا هذه الآيات ، ولكنهم كابروا وعاندوا ، وكذبوا على الله وعلى أنفسهم في قولهم : انها سحر مبين ، ولذا قال تعالى : (وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً) . أيقنت قلوبهم وعقولهم بصدق موسى وآياته ، ولكنهم أنكروها بألستهم خوفاً على منافعهم وحرصاً على مناصبهم ، وهذا هو المراد بقوله تعالى : « ظُلماً وعلواً » . (فانظر كيف كان عاقبة المفسدين) في الأرض بالكفر والظلم والفساد .

سليمان الآية ١٥ - ١٩ :

وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ
مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ * وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا
مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأَوْيَيْنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ * وَحِشْرَ
لِّسُلَيْمَانَ جُنُودَهُ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ * حَتَّى إِذَا
أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا
يَخْطِبَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا
وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ
وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ *

اللفظة :

الوازع المانع، ويزعون يمنعون من القوضى ويسرون سراً منظماً . وأوزعني
المعنى .

الإعراب :

لا يخطبكنم في موضع الجزم جواباً للأمر وهو ادخلوا . وضاحكاً حال مؤكدة .

المعنى :

(ولقد آتينا داود وسليمان علماً) يهديان به إلى طاعة الله ومنفعة الناس ، ولم

الجزء التاسع عشر

بتطاولا به على عباد الله وعباله، أو يخترعا به أسلحة القناء والدمار ليستعبدا الضعفاء، ويسيطروا على أقواتهم ومقدراتهم ، بل أطاعا الله في أمره ونهيه ، وشكراه على نعمة العلم التي لا يعادلها شيء (وقالوا الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين) . المراد بالفضيلة هنا فضيلة العلم النافع ، وبالكثير من المؤمنين من لم يكن في مكانتها من العلم .. وفيه إيماء إلى أن في المؤمنين من هو أفضل من داود وسليمان .. وهذا هو الواقع ، بل أن الأفضل أكثر بكثير من المفضل بالنسبة إليها .. ومهما يكن فإن الفضل عند الله لا يقاس بالعلم ، ولا بتسخير الرياح ، ولا بإلانة الحديد ، ولا بشيء إلا بمنفعة الناس وصلاحهم بجهة من الجهات .

(وورث سليمان داود) . داود من نسل يعقوب بن إسحق بن إبراهيم ، وقد كرمه الله بالنبوة ، وأنزل عليه الزبور ، وجعله خليفة في الأرض ، وخصه بأجمل الأصوات ، والآن له الحديد ، وهو ثاني ملك لدولة اليهود ، ويطلق عليه لقب الملك داود ، أما الملك الأول فهو طالوت كما في الآية ٢٤٧ من سورة البقرة : « ان الله بعث لكم طالوت ملكا » . وكان ابنه سليمان نبياً أيضاً ، وخصه الله بكثير من النعم ، منها وراثة الملك عن أبيه ، ويقول التاريخ : ان ملكها امتد سبعين سنة . وكان ذلك من حوالى ثلاثة آلاف سنة ، وبعد موت سليمان انقسم اليهود الى دولتين متحاربتين : دولة اسرائيل ، ودولة يهوذا ، ولما جاء مختصر قضى عليهما ، ولم تقم لليهود بعدئذ قائمة حتى تعاون الاستعمار الانكلو أمريكي على إنشاء قاعدة عسكرية تحفظ مصالحه في الشرق الأوسط ، فأنشأوها باسم دولة اسرائيل على أرض فلسطين سنة ١٩٤٨ .

ويقول اليهود عن ملكهم داود : انه كان يخطف النساء ، ويقتل أزواجهن، وان ابنه سليمان كان من الجبابرة الطغاة ، والمسرفين المبذرين .

وقال بعض المفسرين : المراد بقوله تعالى : (وورث سليمان داود) ان سليمان ورث العلم فقط عن أبيه .. والصحيح ان الآية تعني وراثة الملك ، كما حدث ذلك بالفعل ، أما العلم فلا يكون بالوراثة بل بالجد والاجتهاد ، أو بالوحي من الله .. وحديث: نحن معاصر الأنبياء لا نورث، محل خلاف بين المسلمين ، فأثبتته طائفة ، ونفته أخرى .

سورة النمل

(وقال - سليمان - يا أيها الناس 'علِّمنا منطق الطير) . أقر الإسلام فكرة المعجزة الخارقة على أيدي الأنبياء ، ومن أنكرها فليس بمسلم ، لأن هذا الإنكار تكذيب لله ورسوله ، وبالمعجزة وحدها تفسر معرفة سليمان بلغة بعض الطيور .. إن الله سبحانه خص كل نبي بنوع خاص من المعجزات ، فكان نصيب سليمان تسخير الريح له وبعض الجن ، ومعرفته بلغة بعض الطيور والحشرات كالنمل (وأوتينا من كل شيء ان هذا هو الفضل المبين) . المراد بكل هنا الكثرة دون الشمول والاستغراق ، تماماً كما تقول : فلان يملك كل شيء كناية عن كثرة أملاكه وتنوعها . وتدل الآية على ان للطيور ادراكاً ولغة تفاهم بها ، ويؤكد ذلك قوله تعالى : « وما من دابة في الأرض ولا طائر بطير مجناحه إلا أم أمثالكم - ٣٨ الأنعام » .

(وحُشِر لسليمان جنوده من الجن والانس والطير فهم يوزعون) . و (من) هنا للتبعيض ، أي بعض الجن والانس والطير .. وقلنا مراراً : اننا نؤمن بوجود الجن لأن القرآن يثبت العقل لا ينفيه ، وقد كان لسليمان جيش من الجن والانس والطير ، وكان لكل صنف من هذه الأصناف الثلاثة قادة ومراقبون يحافظون على النظام في السبر وغيره ، وهذا هو معنى يوزعون .

العظام والعبر في نملة سليمان :

(حتى إذا أتوا على وادٍ النمل قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون) . اختلف المفسرون في مكان هذا الوادي ، فن قائل : انه في الطائف ، وقائل هو بالشام ، ومهما يكن فإن الآية تدل على ان للنمل ادراكاً ولغة ونظاماً ، وهذا ما أثبتته العلم ، أما معرفة سليمان بلغة النمل فلا تفسير لها إلا بالمعجزة الخارقة .

وتسأل : كيف سمع سليمان كلام النملة ، وبينه وبينها من البعد ما الله أعلم به ، مع ان أحدهما لو أدخل النملة إلى أذنه لا يسمع لها صوتاً ؟ .
وجاء في بعض الروايات ان الريح حملت لسليمان كلام النملة . ويؤيد هذه الرواية قوله تعالى : « فسخرنا له الريح نجري بأمره - ٣٦ ص » .

(فتبسم ضاحكاً من قولها وقسال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والديّ وإن أعمل صالحاً ترضاه وادخلني برحمتك في عبادك الصالحين). حين طلب سليمان من ربه أن يهبه ملكاً لا يبغي لأحد من بعده أراد بالملك تسخير الرياح والجن والطير ونحوه ، لأن الثمكين في الأرض قد منحه الله إلى كثيرين ، ولما أتى سليمان على وادي النمل ، وحملت له الريح قول النملة وفهم معناه أدرك بأن هذا مما لا يكون لأحد من بعده ، فاغبط بهذه النعمة ، وأدى حقها بالشكر لله ، ومجرد الشعور بأن هذه النعمة من الله هو نوع من الشكر ، وأعظم أنواعه هو عمل الخير لوجه الخير .

وكما دلت الآية على أن سليمان دولته وجنوده ، وإن الله سبحانه قد أهله العلم بلغة النملة ومنطقها فقد دلت أيضاً على أن للنملة دولتها ورعيتهما ، وإن الله قد ألهما العلم ببعض الآدميين وأسمائهم ، وإلا فمن أين لها العلم بأن هذا القادم العظيم بموكبه وجنوده هو سليمان بن داود ؟ .. إنها عظيمة في عالمها تماماً كسليمان في عالمه ، وإنها تعدل في الرعية ، وترفق بها ، وتسهر على مصالحها ، وتؤدي حق الولاية كاملة ، كما يفعل سليمان وغيره من ولاية الحق والعدل .

ومن تأمل وتدبر حادث النملة مع سليمان ينتهي إلى العبر والعظات التالية :

١ - أن النظام والتقدير يعم ويشمل جميع الكائنات من أصغر صغير كالنملة إلى أكبر كبير كالمجرات : ولا تفسير لهذا النظام الدقيق ، والتدبير العجيب إلا بوجود قادر عليم : « وخلق كل شيء فقدره تقديراً » - ٢ الفرقان .

٢ - أن المشاركة الوجدانية والشعور بالمسؤولية نحو الآخرين لا يختص بالإنسان ، بل يعم ويشمل الحيوانات والطيور والحشرات .. فهذه الذرة التي لا تكاد ترى بالعين حين أحست بالخطر على جاعتها ، وأبناء جنسها وقفت تحذرهم وتقول : (ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده) . وقد أورد أهل الاختصاص العديد من الشواهد على هذه الحقيقة من حياة الحيوان .

٣ - أن الله سبحانه إذا أنعم على عبد من عباده بنعمة كالعلم أو السلطان وغيره فعليه أن يشكر الله ويتواضع له وللناس ، ولا يأخذ الخيلاء والعجب ، ويتناول بنعمة الله على الآخرين ، وأن يكون على يقين بأن هذه النعمة قد أنعم

سورة النمل

الله يمثّلها ويخبر منها على أضعف الكائنات ، وان الانسان ليس هو الكائن المدلل الذي خصه الله بفضله ورحمته دون الخلق أجمعين .. وقد أثبتت الكشوف العلمية ان هناك أكواناً أعظم من هذا الكون الذي نراه ، وانه لا أحد يستطيع معرفة حقيقتها إلا خالق الكائنات ، وان الانسان بالنسبة اليها ليس شيئاً مذكوراً .. ويومئذ إلى ذلك قوله تعالى : « لخلقُ السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون - ٥٧ غافر » .

وعلى هذا فإن الآيات التي تقول : « تؤتي الملك من تشاء » .. « ويختص برحمته من يشاء » .. « وان من أمة إلا خلا فيها نذير - ٢٤ فاطر » . إن هذه الآيات وأمثالها نعم وتشمل الانسان وغير الانسان .. وتجسد الإشارة إلى أن الله سبحانه قد أطلق كلمة الأمة على غير البشر كما في الآية ٣٨ من سورة الأنعام : « الا أم أمثالكم » .

مالي لا أرى الهدهد الآية ٢٠ - ٢٦ :

وَقَفَّذَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَالِي لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ * لَأَعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ * فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ نَحْطُ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ * إِنِّي وَجَدْتُ أَمْرًا تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيْتُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ * وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ * أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ * اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ *

اللغة :

تفقد تعهد ، هذا هو المتبادر إلى الأذهان ، وتقضيه العناية بأمور الملك ،
وقيل : معنى تفقد فقدته عند غيبته . وسبأ اسم رجل تُنسب إليه قبائل باليمن .
والفرق بين النبأ والخبر ان النبأ للخبر الذي له شأن، والخبر لكل خبر حتى التافه .
والخبء المخبوء .

الإعراب :

ما لي مبتدأ وخبر . وام هنا منقطعة بمعنى بل والهمزة . والا بالتشديد كلمتان
ان ولا، والمصدر مفعول من أجله لزيّن أو لصدّهم أي زيّن لهم الشيطان أعمالهم
لعدم السجود ، أو صدّهم عن السبيل لذلك .

المعنى :

(وتفقد الطير فقال ما لي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين لأعذّبته عذاباً
شديداً أو لأذبحه أو ليأتيني بسلطان مبین) . كان لسلطان أصناف من الطيور
تأتمر بأمره ، وهي مطلقة غير مسجونة في قفص وشبهه ، وفي ذات يوم تعهد
الطيور ، كما يتعهد القائد جنوده ، فلم يجد الهدهد من بينها ، ولم يكن قد أذن
له بالغياب ، فتهدده - على مسمع من الطيور - بالعذاب كالسجن ونحوه ، أو
بالإعدام إذا لم يُدل بحجة واضحة تبرر غيابه .

(فكث غير بعيد فقال أحطت بما لم تحط به) . لم يحض أمد قصير على
تهديد سليمان حتى جاء الهدهد ، وقال له : اكتشفت شيئاً هاماً لا تعرفه أنت
على سعة علمك (وجئتك من سبأ بنياً يقين اني وجدت امرأة تملكهم واوتيت
من كل شيء ولها عرش عظيم) . المراد بسبأ القوم الذين ينتسبون إلى سبأ بن
يشجب بن يعرب بن قحطان ، والمرأة هي بلقيس بنت شراحيل ، وكان من
الملوك ، وورثت ابته بلقيس السلطان منه ، وكانت تملك جميع مظاهر الثراء

سورة النمل

والترف في زمانها، وكانت تجلس على سرير ضخم وثمين مرصع بقلوب المساكين ، ومطلي بعرقهم ودمائهم .. وطريف قول بعض المفسرين : انه كان مسقوفاً ، وان مساحته ثمانون ذراعاً مربعاً ، وأيضاً علوه ثمانون .

(وجلدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون) . وتسال : ان الطيور والحجوانات والحشرات تعرف بغريزتها ماكلها ومشربها وما يضرها وينفعها ، ويعرف الذكر منها الأنثى من نوعه ، والأنثى تعرف الذكر من نوعها ، تعرف ذلك وما إليه لأنه من مقومات وجودها ، وحافظ لحياتها واستمرار بقائها ، اما ان تميز بين الذكر والأنثى من الآدميين ، وتعرف ان اسم هذه القبيلة سبأ وتلك ثمود - مثلاً - وان هؤلاء القوم يؤمنون بالله ، وأولئك يكفرون به ، أما هذا وما إليه فلا يتصل بحياتها من قريب أو بعيد كي تعرفه بالفطرة والغريزة .. اذن فن أين جاء العلم للهدد باسم القبيلة ، وبالمرأة التي تملكهم ، وبأنهم يعبدون الشمس ، مع أننا نحن الآدميين لا نميز بمجرد النظر الذكر من الأنثى في أكثر أنواع الطيور ، وفي جميع الحشرات والأسمك ؟.

الجواب : ان الآية أثبتت هذه الأوصاف لهدد سليمان فقط ، وثبوتها له لا يستدعي ثبوتها لكل طير أو لكل هدد تماماً كما لا تستدعي معرفة فلان باللغة الانكليزية أن يعرفها كل الناس .. أما معرفة هدد سليمان بما أخبره به فلا تفسير له عندنا إلا بمشيئة الله .

(ألا يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في السموات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون) . المراد بالخبء هنا خيرات الكون ، والله سبحانه يخرجها لعباده بالأسباب الطبيعية كالنبات يخرج من الأرض بسبب المطر ، والتوالد بسبب التلقيح ، أو بالوسائل العلمية كالمعادن وما إليها يخرجها الله بأيدي العلماء وأدواتهم الفنية ، وقد عبّر سبحانه عن هذه الوسائل والأسباب بأيدي الله حيث قال : « أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا انعاماً فهم لها مالكون - ٧١ يس . » (الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم) الذي لا يقاس بملكه ملك ، ولا بعظمته عظمة .

اذهب بكتابي هذا الآية ٢٧ - ٣٥ :

قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ * إِذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا
فَالْقِيعَ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ * قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ
إِنِّي إِلْقَيْتُ إِلَيْكِ كِتَابُ كَرِيمٍ * إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ
الرَّحِيمِ * أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَيَّ وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ * قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي
أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ * قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوا قُضُوءِ
وَأَوْلُوا بِأَمْرِ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ * قَالَتْ إِنَّ
الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ
يَفْعَلُونَ * وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ *

اللغة :

تولّى تنحّ . ماذا يرجعون ماذا يدور بينهم . والملاّ أشراف القوم . ومسلمين
متقادين . أفْتُونِي أشيروا عليّ . وتشهدون تحضرون .

الإعراب :

ماذا يجوز أن تكون كلمة واحدة للاستفهام ، محلها النصب يرجعون ، وإن
تكون كلمتين ما للاستفهام مبتدأ وذات معنى الذي خبر ، وجملة يرجعون صلة الموصول .
ألاّ بالتشديد كلمتان إن المفسرة لكتاب ولا الناهية . ومسلمين حال من وار
اتوني . أمراً مفعول قاطعة . وتشهدون منصوب بأن بعد حتى ، والنون للوقاية
لأن الأصل تشهدونني .

المعنى :

(قال سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين) . أخبر الهدهد سليمان عن قوم سبأ ، فقال له : سنختبر مقاتلك لمعرفة مكانها من الصدق (اذهب بكتابي هذا فألقه إليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون) . كتب سليمان إلى القوم يدعوهم إلى طاعته ، وأعطى الكتاب للهدهد، وقال له : أوصله إليهم بطريق من الطرق ، وتنج عنهم إلى مكان تراقبهم منه ، وتسمع ما يقولون وما يتفقون عليه ، وترجع إليّ بنجرهم .

(قالت يا أيها الملأ اني القي إلي كتاب كريم انه من سليمان وانه بسم الله الرحمن الرحيم الا تعلوا عليّ واتوني مسلمين) . حل الهدهد الكتاب إلى القوم ، وألقاه في مكان من قصر الملكة ، بحيث ترى الكتاب ، ولا تعلم من جاء به ، كما تشعر كلمة ألقى بصيغة المجهول ، ثم تنحى الهدهد إلى مكان قريب يسجل حركات القوم وأقوالهم ، تماماً كالملوظ في الاستخبارات، ولما رأت الملكة الكتاب وعلمت ما فيه جمعت الوزراء والمستشارين ، وعرضته عليهم ، ووصفته بالكريم لأن صاحبه عظيم الجاه والسلطان .. والبسلة جزء من كتاب سليمان الذي اقتصر فيه على الدعوة إلى الطاعة من غير مقدمات وزيادة كلام .. وهذا هو شأن الأنبياء في رسائلهم ، يقتصرون فيها على الهدف المطلوب ، وكان الرسول الأعظم (ص) يقتصر في رسائله إلى الملوك على قوله : « اسلم تسلم » بعد البسلة والحمد .

(قالت يا أيها الملأ افتوني في أمري ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون) . أشيروا عليّ ، فلا أبئت بشيء حتى استظهر برأيكم ، وفيه إيماء إلى أن ديمقراطية الحكم لها جذور في التاريخ البعيد ، ثم تطورت بمرور الزمن إلى ما هي عليه الآن . (قالوا نحن اولو قوة واولو بأس شديد والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين) . قالوا هذا على طريقة الساسة في الاعلان عن قوتهم وحزمهم وصلابتهم ، وفي الاحتفاظ أيضاً بنقط الرجعة حيث ألقوا بالمسؤولية كلها على عاتق الملكة حتى إذا ساءت العاقبة كانوا منها في حل .

هل الفساد طبيعة في الملوك ؟

(قالت ان الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون) . تطلق القرية على المدينة وعلى بلدة ريفية ، وشرح بعض المفسرين الجدد هذه الآية بقوله : « فهي تعرف ان من طبيعة الملوك اذا دخلوا قرية أشاعوا فيها الفساد ، وحطموا الرؤساء وجعلوهم أذلة ، وهذا هو دأبهم الذي يفعلونه » .

والحق ان الفساد ينتشر في الأرض بمقدار ما للمجرمين من قوة ، ويتضاعف كلما تضاعفت مقدرتهم عليه ملوكاً كانوا أو غير ملوك ، وإنما خصت الآية الملوك بالذكر لأنهم أقوى وأقدر من غيرهم .. إن شخصية المجرم تختفي وراء ضعفه ، وتظهر مع قوته .. فمن الخطأ أن نحدد شخصية الضعيف من خلال تصرفاته .. فقد اشتهر البعض في زماننا بالتقى والصلاح قبل أن يتولى الرئاسة ، ولما أخذ نصيبه منها التصقت به نهم لا تمحوها الأيام .. نسأل الله الهداية لنا وله .

وهذا يتبين معنا ان صفة الفساد لا تختص بالملوك ، ولا هي من طبيعتهم ، وإلا استحال وجود العدل والصلاح فيهم ، وإنما هي من طبيعة القوي المجرم ، سواء أجهات قوته من المال أو الجسم أو العقل أو من منصب زمني أو ديني : ولا رادع للمجرم القوي إلا الدين . قال الإمام علي (ع) : « قد يرى الخوّل القلب وجه الحياة ، ودونه مانع من أمر الله ونهيه ، فيدعها رأي العين بعد القدرة عليها ، وينتهر فرصتها من لا حريجة له في الدين » . الخوّل القلب هو البصير بتحويل الأمور وتقلبها ، والحريجة التحرز من الإثم .

(واني مرسله اليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون) . أرجع الوزراء والمستشارون الى الملكية أمر السلم والحرب ، وقبل أن تبت بشيء رأيت أن ترسل الى سليمان هدية ، فيها كل غال وثمين ، ثم تنظر هل يقبلها أو يرفضها ؟ فإن قبلها فهو طالب دنيا ، لا طالب دين ، يمكن مصانعته بالمال ، وان رفض الهدية وأصر على أن تأتيه مسلمين فهو من أصحاب المبادئ والرسالات الذين لا يساومون

سورة النمل

على عقيدتهم ، ويضحون من أجلها بكل عزيز ، ومثلهم لا تجوز محاربتهم ،
وتصعب مقاومتهم .

عرش بلقيس الآية ٣٦ - ٤٠ :

فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَ بِمَالِي فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُمْ بَلْ
أَنْتُمْ بِهَدْيِكُمْ تَفْرَحُونَ * ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا
وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ * قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي
بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ * قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ
قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ * قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ
عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ
مُسْتَفِيراً عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ
وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَ شْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ *

اللغة :

لا قيل لهم لا طاقة لهم . والعرش سرير الملك . العفريت الداهية الماكر .

الإعراب :

فلما جاء فاعل (جاء) محذوف يدل عليه قول الملكة : وإني مرسله إليهم ،

الجزء التاسع عشر

والتقدير فلما جاء الرسولُ سليمان . فما آتاني (ما) مبتدأ وخبر خبر . وأذلة حال من ضمير الغائب في لنخرجنهم ، وجملتهم صاغرون حال .

المعنى :

(فلما جاء - الرسول - سليمان قال انحدون مال فما آتاني الله خير مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون) . حمل وفد الملكة الهدية إلى سليمان ، وفيها كل نفيس وثمين ، ولما رآها قال للذين جاءوا بها : دعوتكم إلى الله ، فأتيتموني بالمال ، وعندى منه الشيء الكثير كما رأيتم ، بل أنعم الله عليّ بما هو أعظم من المال ، أنعم عليّ بالنبوة والعلم ، وتسخير الرياح والجن والطير .. أتقيسوني بأنفسكم في عبادة المال وتعظيمه ؟

ويذكرنا هذا بقريش حين فاضوا رسول الله (ص) ، وقالوا له : ان كنت تريد بهذا الأمر مالاّ جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاّ ، وان كنت تريد ملكاّ ملكناك علينا . ولما استياسوا منه لجأوا إلى عمه أبي طالب ليقنع ابن أخيه بالملك والمال ، وإلا فالبطش والحرب . فقال رسول الله (ص) مقالته الشائعة الذائعة : والله يا عماء لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته .

(ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون) . الخطاطب في ارجع لرئيس الوفد الذين جاءوا بالهدية ، والمعنى ارجع أنت ومن معك بما جئتم به ، وبلغ قومك اني سأغزوهم بجيش من الانس والجن والطير لا طاقة لهم ولا لغيرهم بمقاومته والصمود له . وكان الهدهد قد نقل لسليان قول الملكة لقومها : (ان الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة) . فأكد سليمان ذلك بقوله للرسول : (ولنخرجنهم منها - من بلادهم - أذلة وهم صاغرون) .

(قال يا أيها الملأ أيتكم يأتيني بعرضها قبل أن يأتوني مسلمين) . لما رجع الوفد من عند سليمان إلى الملكة ، وأخبرها بما سمع ورأى لم ترَ بدأ من السمع والطاعة ،

سورة النمل

فتوجهت اليه مع حاشيتها ، وتركت عرشها العظيم يحفظه الجنود والحراس ، وحين علم سليمان بقدم بلقيس أحب أن يربها آية تدل على نبوته وعظمته ، وان تكون هذه الآية والمعجزة أخذ عرشها الذي هو مظهر عزها وملكها ، فسأل من كان بين يديه : أيكم يأتيني به ؟

(قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك واني عليه لقوي أمين) . سخر الله سبحانه لسليمان الريح تجري بأمره ، وهذه معجزة خارقة ما في ذلك ريب ، وسخر له الطير بأمره ، وهذه أيضاً معجزة ، وأيضاً خصه الله ببعض الجنود من الإنس والجن يأتون بمعجائب الأعمال بالنسبة إلى عصرهم ، وكانوا يرافقون جند سليمان يستعين بهم للتغلب على العدو تماماً كالفنيين وأهل الاختصاص الذين يحتاج اليهم الجيش المحارب في هذا العصر ، ويومئذ إلى ذلك طلب سليمان منهم أن ينقلوا اليه عرش بلقيس في لحظات ، وهو يعلم ما بينه وبين مكان العرش من البعد ، فقال له بعض الجن : أنا آتيك به سالماً كما هو ، وأنت في مجلسك هذا و (قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك) فكان النصر لهذا حيث استطاع بسلطان ما عنده من العلم أن يأتي بالعرش المطلوب في لحظة لا في لحظات .

هذا ما دل عليه ظاهر الآية ، أما التساؤل : من هو هذا الذي عنده علم من الكتاب ؟ . هل هو من الملائكة أو الخضر أو عبد صالح من الإنس اسمه آصف ابن برخيا ، وانه كان يعلم اسم الله الأعظم ؟ . وأي نوع من العلم استخدمه في نقل العرش هل هو اسم الله الأعظم أو غيره ، أما هذا التساؤل وما اليه من التساؤلات الكثيرة فجوابها عند ربي ، لأن الآية لم تصرح ، والحديث الصحيح لم يثبت ، فمن أين يأتي العلم باسم من نقل هذا السرير ، وينوع العلم الذي كان عنده ؟ وأقرب الاحتمالات انه لم يكن من الجن لأن النصر كان له على عفريت من الجن كما صرحت الآية السابقة ، وانه نقل العرش بمعجزة خارقة حيث أتى به قبل أن يرتد الطرف .. والمعجزة كما تظهر على أيدي الأنبياء فلها تظهر أيضاً على أيدي الذين يصطفاهم الأنبياء بأمر الله تعالى .

ومحل العبرة والعظة في هذا الحادث ان بلقيس صاحبة الملك والنعم قد خضعت

صاغرة لسليمان ، واستلبها عرشها العظيم في طرفة عين ، وهو مظهر مجدها وعظمتها .

(فلما رآه مستقراً عنده قال هذا من فضل ربي ليبلوني أشكر أم أكفر) .
المراد بالكفر هنا كفران النعم ، لا الكفر بالله ، وسليمان لا يجحد نعمة ربه ،
ومحال أن يجحدها لأنه نبي معصوم ، ولكن قال ذلك تمهيداً لقوله : (ومن شكر
فلنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربي غني كريم) . وفي معناه : ان أحسنتم
أحسنتم لأنفسكم وان أسأتم فلها - ٧ الإسراء .

نكروا لها عرشها الآية ٤١ - ٤٤ :

قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ *
فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ
قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ * وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ
مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ * قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً
وَكَشَفْتُ عَنْ سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي
ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ *

الآلة :

تنكير الشيء تغييره من حال إلى حال . والصرح كل بناء عالٍ . واللجة
معظم الماء . والممرَّد المملس . والقوارير الزجاج .

الإعراب :

نظر مجزوم بجواب نكروا . وما كانت (ما) فاعل صدّها . ورب العالمين بدل من كلمة الجلالة .

المعنى :

(قال نكروا لها عرشها بنظر أنهندي أم تكون من الذين لا يهتدون) . قال سليمان لبعض رجاله : غيروا شيئاً من عرش بلقيس لرى هل تترك انه هو أو يخفى عليها ؟ . (فلما جاءت قبل أهكذا عرشك) نكروا لها عرشها وسألوها عنه (قالت كأنه هو) لم تنف ولم تثبت .. لم تنف لأن وجه الشبه قوي ، ولم تثبت لأنها تركت عرشها في القصر ، ودونه الجنود والحراس . هذا ، إلى أن الساسة والحكام يحتفظون بخط الرجعة في أكثر كلامهم وأجوبتهم .

(وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين) . هذا من كلام سليمان وقومه، ومعناه انهم عرفوا الحق ، وآمنوا به قبل بلقيس (وصدّها ما كانت تعبد من دون الله انها كانت من قوم كافرين) . أي ان الذي منع بلقيس عن معرفة الحق والايّمان به هو شركها وعبادتها الشمس من دون الله .

(قيل لها ادخلي الصرح فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقها قال انه صرح حمرد من قواير) . المراد بالصرح هنا القصر ، واللجة كثرة الماء ، والمرد المملّس ، والقواير الزجاج ، وبدل ظاهر الآية أنه كان لسليمان قصر من زجاج شفاف ، وان الماء كان يجري من تحته ، وان بلقيس لما دخلت القصر لم تتبين الزجاج من شدة صفائه، ولذا كشفت عن ساقها لتخوض الماء ، فقال لها سليمان: هذا زجاج صافٍ ، والماء يجري من تحته (قالت رب اني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين) . ظلمت نفسها بالكفر ، ثم تابت وأسلمت، وحسن إسلامها .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ * قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * قَالُوا أَطِيعُوا بَنِيكَ وَبَيْنَ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّفْتِنُونَ * وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ * قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ * وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * فَاَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مُّكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ * فَتِلْكَ نِیُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ *

اللفظ :

المراء بالسبيته هنا العذاب ، وبالحسنه الرحمة . اطيرنا تشاءمننا . والرهط من ثلاثة رجال الى تسعة . وخاوية خالية .

الإعراب :

صالحاً بدل من (أخاهم) . وإذا للمفاجأة وما بعدها مبتدأ وخبر . وتقاسموا فعل أمر أي قال بعضهم لبعض : احلفوا . وكيف خبر كان وعاقبة اسمها . والمصدر من أنا دمرناهم بدل من عاقبة .

المعنى :

(ولقد أرسلنا الى نوحود أخاهم صالحاً ان اعبدوا الله) . تقدم في الآية ٧٣ من سورة الأعراف والآية ٦١ من سورة هود (فإذا هم فريقان يختصمون) فريق آمن بالحق ، وفريق كذّاب به ، لأنه يصطدم مع منافعهم وأغراضهم : ومن هنا وقع الخصام بين الفريقين ، ولولاها لقال الفريق الثاني للاول : لكم دينكم ولي دين .

(قال يا قوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون). أنذر صالح المكذّبين بالعذاب ان أصروا على الضلال والعناد ، فقالوا ساخرين : اثنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين كما في الآية ٧٧ من سورة الأعراف ، فقال لهم بعطف ولين : علام تستعجلون نعمة الله ، وهو سبحانه لم يعاجلكم بها ، وأمهلكم طويلاً لرجعوا عن غيكم .. فخير لكم أن تتوبوا اليه ، وتطلبوا منه الرحمة ، وهو كريم وغفور رحيم يقبل منكم التوبة ، وبشمركم بعفوہ ورحمته .

(قالوا اطيرنا بك وبمن معك) . التطير التشاؤم .. بعد أن دعاهم صالح إلى الله ، وأعرضوا عن دعوته أصابهم المرض والجذب ، فشاءوا به ، وبدعوته وبمن امن به وبها . (قال طائركم عند الله) . ان الذي نزل بكم من البلاء هو بارادة الله التي تنتهي اليها جميع الأسباب ، وتقدم نظيره في الآية ١٣١ من سورة الأعراف ج ٣ ص ٣٨٤ . وكان النبي (ص) يحب القول لأن فيه الأمل والثقة بالله ، ويكره الطيرة لأن فيها التوقع للبلاء ، وفي الحديث : اذا تطيرت فامض ، وإذا حسدت فلا تبغ ، وإذا ظننت فلا تحقق (بل أنتم قوم تُفتنون) "تختبرون بالسراء والضراء لتظهر أفعالكم التي تستحقون بها الثواب والعقاب .

(وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون) . كسانوا من المترفين يتناولون على الناس بثرانهم ، ويتخلون منه أداة للاستبداد والافساد في الأرض ، ويقاومون كل مصلح ومحب للخير ، ولم يكن فيهم جهة تُذم وجهة تُمدح ، بل كل ما فيهم قبيح ومذموم ، وهذا هو المراد بقوله تعالى : ولا يصالحون . (قالوا تقاسموا بالله لنبيته وأهله ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله وإننا لصادقون) . ضمير تقاسموا يعود للتسعة المفسدين ، وضمير لنبيته وأهله

ووليه يعود لصالح ، والمعنى ان هؤلاء التسعة قال بعضهم لبعض : احلفوا بالله ان نباغت صالحاً وأهله ليلاً ونقتلهم جميعاً ، ثم نقول لأرحامه وأولياء دمه : ما قتلناهم ، ولا نعرف من قتلهم ، ونحن صادقون فيما نقول .

(ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لا يشعرون) . أما مكر التسعة فهو تدبيرهم ان يباغتوا صالحاً يباناً ، ويقتلوه وأهله دون أن يشعر أحد بذلك ، وأما مكروه تعالى فهو انه تعالى عجل بأخذهم وهلاكهم قبل أن يصلوا إلى صالح من حيث لا يشعرون . انظر تفسير الآية ٥٤ من سورة آل عمران ج ٢ ص ٨٦ فقرة : « الله خير الماكرين » (فانظر كيف كان عاقبة مكروهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين) . أرادوا أن يهلكوا صالحاً فأهلكهم الله ، وفي ذلك عبرة وعظة لمن يبيت الاساءة للآخرين (فتلك ييسوهم خاوية بما ظلموا) أنفسهم . لأن الله حذرهم وأمهلهم ، فأصروا على الفساد والفضلال (ان في ذلك لآية لقوم يعلمون) المراد بالعلم هنا المقرون بالعمل والاعتبار ، أما العلم المجرد عن العمل فإن الجاهل خير منه لأنه وبال على صاحبه (وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون) . هذا على عادة القرآن الكريم إذا ذكر الظالمين وعقابهم ذكر المتقين وثوابهم ، والقصد الترهيب والترغيب .

لوط الآية ٥٤ - ٥٨ :

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ* أَنْتُمْ لَتَأْتُونَ
الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ* فَمَا كَانَ جَوَابَ
قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنْفُسُ
يَتَطَهَّرُونَ* فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَرْنَا مِنَ الْغَائِبِينَ* وَأَمْطَرْنَا
عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ*

سورة النمل

حكاية الخبر بالمعنى :

تقدم نظير هذه الآيات في سورة الأعراف الآية ٨٠ - ٨٤ ج ٣ ص ٣٥٢ - ٣٥٤ . ولا فرق إلا في بعض التعابير ، ففي سورة الأعراف حكى الله سبحانه عن لوط انه قال لقومه : « أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين » . وحكى عنه هنا انه قال لهم : « أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون » وكلاهما ذم وتوبيخ . وقال هناك : « بل أنتم قوم مسرفون » وقال هنا : « بل أنتم قوم تجهلون » وكل من الإسراف والجهالة تجاوز للحد . وقال تعالى هنا : « فأمطرنا عليهم مطراً فساء مطر المنذرين » وقال هناك : « فأمطرنا عليهم مطراً فانظر كيف كان عاقبة المجرمين » أي أنظر سوء عاقبتهم .

ومثله كثير في كتاب الله ، فهو يحكي كلام الأنبياء وغيرهم بلفظ آخر في آية ثانية ، وبثالث في آية ثالثة، وفيه دلالة على ان للانسان ان ينقل كلام الآخرين بنصه الحر في وبعينه أيضاً دون لفظه على شريطة أن لا يقلّم أو لا يطمع .

الجزء العشرون

قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى اللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ *
 أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ
 حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَلِلَّهُ مَعَ اللَّهِ بَلْ
 هُمْ قَوْمٌ بِغَدُلُون * أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا
 وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِي وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَلِلَّهُ مَعَ اللَّهِ بَلْ
 أَكْثَرُ هُمْ لَا يَعْلَمُونَ * أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ
 وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَلِلَّهُ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ * أَمَّنْ
 يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ
 رَحْمَتِهِ أَلِلَّهُ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ * أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ
 يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَلِلَّهُ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ
 إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ *

اللغة :

ذات بهجة أي ذات منظر حسن ينتهج به من يراه . والمراد يبعثون هنا
 يحيدون عن الحق لأنهم جعلوا لله عديلاً ومثيلاً ، وخلاها بين أماكنها . والرواسي
 الجبال .

الإعراب :

آله الأصل آله والهمزة للاستفهام والله خير مبتدأ وخبر . وأما كلمتان أم العاطفة المتصلة وما بمعنى الذي أي أم الذي يشركون . وأمن كلمتان أم المقطعة بمعنى بل والهمزة ومن اسم موصول ، وهي في محل رفع بالابتداء والخبر محذوف أي بل الذي خلق السموات والأرض خير . وكذا ما بعدها من نظائرها . والمصدر من أن تثبتوا اسم كان . وإله مبتدأ والخبر محذوف أي إله تثبتون مع الله . وقليلًا صفة لمفعول مطلق محذوف وما زائدة إعراباً أي تذكرون تذكراً قليلاً .

الصلاة والسلام على المتقين :

(قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى) . بعد أن ذكر سبحانه بعض الأنبياء وما خصهم به من الآيات والمعجزات أمر نبيه الكريم أن يحمد الله على ما خصه به من النعم ، وإن سلم على جميع الأنبياء الذين اصطفاهم لرسالته ، وقرن السلام عليهم بالحمد له تنبيهاً إلى منزلتهم وتعظيماً لشأنهم ، وكل من اتقى الله وعمل بسنة رسول الله (ص) يجوز السلام والصلاة عليه حياً وميتاً، نبياً أو غير نبى، وبالخصوص إذا كان من أهل بيت محمد (ص) وجاهد من أجل الاسلام وانتشار دعوته وعلو كلمته ، قال تعالى : « هو الذي يصلي عليكم وملائكته - ٤٣ الأحزاب » . وفي صحيح البخاري وغيره ، قالوا : كيف نصلي عليك يا رسول الله ؟ فقال : قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم ، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم إنك حميد مجيد .

وقد جرت عادة المسلمين من عهد الرسول الأعظم (ص) أن يفتحوا كتبهم وخطبهم بالبسملة والحمد والصلاة على محمد وعلى من استن بسنته من أهل بيته وصحابته ، ومصدر ذلك هذه الآية الكريمة : قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى .

(آله خير أمّا يشركون) . المراد بهذه الآية وما بعدها توبيخ المشركين والرد

عليهم بصيغة الاستفهام وبأسئلة لا جواب لها إلا الاذعان والتسليم ، وهي :
١ - (آله خير أمّا يشركون) ؟ أيها خير وأعظم ، الله جلت كلمته أم
الأوثان وما إليها مما تعبدون ؟

الجواب : الله ، ما في ذلك ريب حتى عند المشركين ، لأنهم لا ينكسرون
وجود الخالق ، وإنما يدعون معه إلهاً آخر .

٢ - (أمّن خلق السموات والأرض) بنظامها وترتيبها الدقيق العجيب الذي
يدل على ارادة عليم حكيم (وأنزل لكم من السماء ماء فأنبثنا به حدائق ذات
بهجة) ينزل المطر من السماء بأسبابه الطبيعية ، وأيضاً تنبت الأرض من كل زوج
بهيج بالأسباب الطبيعية ، وبما أن الله سبحانه هو الذي خلق الطبيعة بكل ما فيها
صح إسناد المطر والانبثاق وغيرهما إليه تعالى (ما كان لكم أن تنبتوا شجرها)
بل ولا أن تعرفوا مصدر الحياة في النبات وغيره إلا إذا فسرتموه بوجود إله قادر
يقول للشيء « كن فيكون » ومثله قوله تعالى : « أفأرأيتم ما نحرثون أنتم
تررعونه أم نحن الزارعون - ٦٤ الواقعة » . (إله مع الله) تزعمون أنه أعانه
على خلق السموات والأرض ، وإنزال الغيث ، وإنبات الحدائق ؟ (بل هم
قوم يعدلون) عن الحق لأنهم يساوون بين الله وغيره .

٣ - (أمّن جعل الأرض قراراً) أي مستقرة على ما هي عليه في شكلها
وحجمها وعناصرها ومركزها ، وما إلى ذلك مما لا يكون إلا بتصميم من خبير
عليم (وجعل خلالها أنهاراً) ينتفع بها الخلائق (وجعل لها رواسي) كيلا تميد
بكم (وجعل بين البحرين حاجزاً) المراد بالبحرين الماء المالح والماء العذب ،
وبالحاجز انخفاض مكان الأول عن مكان الثاني ، ولو انعكس الأمر لفسد الماء
العذب . أنظر ما قلناه في تفسير قوله تعالى : « وهو الذي مرج البحرين هذا
عذب فرات وهذا ملح أجاج وجعل بينهما برزخاً وحجراً محجوراً - ٥٥ الفرقان » .
(إله مع الله) شاركه في ذلك (بل أكثرهم لا يعلمون) أما غير الأكثر فإنهم
يعلمون ، ولكنهم يكابرون ويعاندون خوفاً على مكاسبهم .

٤ - (أمّن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء) . إن الله سبحانه يمد
بالعون والتوفيق من يلجأ إليه ، ويتوكل عليه ، فيهيئ له الأسباب التي يبلغ بها

حاجته ، وتكشف عنه البأساء والضراء اذا سعى لها سعيها المألوف .. ومن قبيح في مكانه ، وهو قادر على السعي ، فقد ظلم نفسه (ويجعلكم خلفاء الأرض) يخلف الجبلُ اللالحق الجبلُ السابق في ملك الأرض وعمارتها (إله مع الله قليلاً ما تذكرون) المراد بالتذكر هنا العمل بالدلائل ، والانتفاع بالنذر ، والانتعاظ بالعبر .

٥ - (آمَنَ يَهْدِيكُمْ فِي ظِلْمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ) بواسطة الجبال والكواكب والآلات ، وما الى ذلك مما يدخل في قوله تعالى : « وعلامات وبالنجم هم يهتدون - ١٦ النحل » . (ومن يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته) . تقدم في الآية ٥٥ من سورة الأعراف والآية ٥٠ من سورة الفرقان (إله مع الله ، تعالى الله عما يشركون) ويفترون بنسبة الشريك والولد اليه تعالى .

٦ - (آمَنَ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ) . يدل التدبير والإحكام في الخلق على أنه فيضٌ من مدبر حكيم ، ومتى ثبت ابتداء الخلق منه تعالى ثبت اعادته إذا أخبر هو بذلك لأن الاعادة أهون من الابتداء على حد تعبير الآية ٢٧ من سورة الروم . (ومن يرزقكم من السماء والأرض) بإزالة الغيث من الأولى ، وإخراج النبات من الثانية (إله مع الله قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين) في ان الله شريكاً أو ولداً .

والخلاصة ان الله سبحانه أورد العديد من الأدلة والبراهين على وجوده ووحدانيته ، وأوضحها بكل أسلوب ، فليأت الجاحد أو المشرك بدليل واحد على جحوده أو شركه .. وهذا الأسلوب في جدال الخصوم ودعوتهم الى حكم العقل دليل قاطع على ان الاسلام يرتكز على فطرة الله التي فطر الناس ، ومن أجل ذلك وصفه تعالى بالدين القيم .

عالم الغيب والبعث الآية ٦٥ - ٧٥ :

قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ
أَيَّانَ يُنْعَثُونَ * بَلِ أَدَارِكُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلٌ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ

فَمِنْهُمْ مَنْ عَمِيَ * وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاءُنَا أَتَيْنَا
لَمُخْرَجُونَ * لَقَدْ وَعَدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاءُنَا مِنْ قَبْلُ إِنَّ هَذَا إِلَّا
أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ * قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ
الْمُجْرِمِينَ * وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ *
وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ
رَدْفٌ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَنُورٍ فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ
وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَشْكُرُونَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ
وَمَا يُعْلِنُونَ * وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ *

اللفظة :

ادّارك تتابع وتلاحق . وعميون جمع عمى ، وهو أعمى القلب والبصيرة .
وأساطير خرافات . وردف فعل ماضٍ بمعنى لحق وتبع . وتكن تتر وتخفي .

الإعراب :

أيان ظرف زمان يتضمن معنى الاستفهام ، وهو مبني على الفتح في محل نصب
يبعثون . وادارك فعل ماضٍ وأصله تدارك . وأئذا كلمتان هزة الاستفهام وإذا
وهي متعلقة بفعل محذوف أي أخرج من القبور إذا كنا تراباً . وهذا إشارة إلى
الإخراج وهي مفعول ثانٍ لوعدنا . والمصدر من أن يكون اسم عسى . واسم
يكون ضمير الشأن ، وردف فعل ماضٍ ، ولكم اللام زائدة إعراباً والأصل ردفكم
أي لحقكم .

المعنى :

(قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله وما يشعرون أيان يبعثون) .
 طلب الجاحدون من الرسول الأعظم (ص) ان يحدد لهم أمد البعث ، فقال له العلي
 الأعلى : قل لهم : لا أحد من الانس والجن والملائكة يعلم الغيب وأمد البعث
 الا الله ، وانهم يحشرون من حيث لا يشعرون (بل ادرك علمهم في الآخرة) .
 ادرك تتابع ، والمعنى ان الأنبياء أخبروا المشركين بالآخرة ، فلم يصدقوا ، ولما
 بُعثوا ورأوا الآخرة رأي العين علموا ان إخبار الأنبياء كان حقاً وصدقاً ، فالتابع
 المقصود هنا ان علم المشركين بالآخرة حصل بعد إخبار الأنبياء بها وبعد رؤيتها
 (بل هم في شك منها) أي كيف يسألون عن وقت الآخرة ، وهم غير مؤمنين
 بها ؟ (بل هم منها عمون) بل عميت قلوبهم عن الآخرة لضلالهم وعنادهم حتى
 استحال أن يروها .

(وقال الذين كفروا أئذا كنا تراباً وآبأؤنا أئنا لمخرجون لقد وعدنا هذا نحن
 وآبأؤنا من قبل ان هذا إلا أساطير الأولين) . تقدم مثله في الآية ٥ من سورة
 الرعد والآية ٣٦ و ٨٤ من سورة المؤمنون .

(قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين) . هذا تهديد
 لمن كذب بنو محمد (ص) أن يصيبهم من الهلاك ما أصاب غيرهم من الأمم
 السابقة الذين كذبوا أنبياءهم . وتقدم نظيره في الآية ١٣٧ من سورة آل عمران
 ج ٢ ص ١٥٩ .

(ولا تحزن عليهم ولا تكن في ضيق مما يمكرون) . تقدم بنصه في الآية
 ١٢٧ من سورة النحل ج ٤ ص ٥٦٥ .

(ويقولون متى هذا الوعد ان كنتم صادقين) . حذر الرسول الأعظم (ص)
 قريشاً من عاقبة تكذيبهم وتمردهم ، فقالوا له ساخرين : ومتى يكون ذلك ؟ وكل نبي
 كان يسمع هذا الجواب الساخر من قومه اذا أنذرهم وحذرهم (قل عسى أن
 يكون ردف لكم بعض الذي تستعجلون) ربما كان العذاب وراءكم ، وأنتم لا
 تشعرون ، وفي هذا المعنى الآية ٥١ من سورة الإسراء : « ويقولون متى هو قل
 عسى أن يكون قريباً » .

(وان ربك لنو فضل على الناس ولكن أكثرهم لا يشكرون) . انه تعالى يتفضل عليهم بالإمهال وتأخير العذاب ليتوبوا ويرجعوا عن غيهم ، وكان عليهم ان يشكروا الله على ذلك ، ولكنهم استعجلوا العذاب ساخرين مستهزئين (وان ربك ليعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون) . أعلنوا الشرك بالله ، وأضمرُوا الكيد والشر لرسول الله ، والله يعلم ما يسرون وما يعلنون ، وانه مجازيهم لا بحالة على هذا وذاك بما يستحقون (وما من غائبة في السماء والأرض إلا في كتاب مبين) . لا يغيب شيء عن علمه تعالى ، ما في ذلك ريب ، والقصد من هذا الإخبار تهديد الخونة والعلاء الذين يشترون شوب النفاق والرياء .

ان هذا القرآن يقصى الآية ٧٦ - ٨٥ :

إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقْصُ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَآئِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ *
وَأَنَّهُ هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ * إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ وَهُوَ
الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ * فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ * إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ
الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ * وَمَا أَنْتَ بِهَادِي
الْعُمَىٰ عَنِ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ *
وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ
النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ * وَيَوْمَ نَخْشِرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا يَّمْنُ
يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ * حَتَّىٰ إِذَا جَاؤَا قَالَ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي
وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمْ آذًا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا
ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ *

سورة النمل

اللغة :

الفوج الجماعة . ويوزعون بمنعون .

الإعراب :

بهادي الباء زائدة وهادي خبر أنت على لغة نعيم ، وخبر (ما) على لغة أهل الحجاز . والمصدر من ان الناس مجرور بالباء المحذوفة أي تكلمهم بكون الناس غير موقنين بآياتنا .

شعار اسرائيل سمعنا وعصينا :

(ان هذا القرآن يقص على بني اسرائيل اكثر الذي هم فيه يختلفون) . تحدث القرآن عن غرائب بني اسرائيل ، وكرر الحديث عنها وعنهم ، تحدث عن خصائصهم وشعارهم ، وعما اختلفوا فيه على عهد موسى وبعده ، وتلخص شعارهم الذي يدينون به ولا يحيدون عنه ، يتلخص بقولهم : « سمعنا وعصينا » ، كما جاء في الآية ٩٤ من سورة البقرة والآية ٤٥ من سورة النساء . أي سمعنا من الله وأنبيائه وعصينا الله والأنبياء ، وقد التزموا هذا الشعار في عهد موسى نفسه حتى شكاهم إلى ربه ، ووصفهم بالفاسقين ، وهو يقول بحسرة ولوعة : « رب اني لا أملك إلا نفسي وأخي فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين - ٢٥ المائدة » ، وفي آية ثانية وصفهم بالسفهاء : « قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي أهلكنا مما فعل السفهاء منا - ١٥٥ الأعراف » . وما زالوا على هذا الشعار والمبدأ إلى يومنا هذا ، ففي سنة ١٩٦٧ قررت هيئة الأمم المتحدة التي تمثل شعوب الأرض شرقها وغربها ، قررت انسحاب اسرائيل من القدس ، فما كان جواب مندوبيها إلا أن قال : « الأمم المتحدة تنكة زبالة » كما نشرت الصحف .

أما الذي اختلفوا فيه فهو العمل بالتوراة على عهد موسى حتى رفع الله الجبل فوقهم وهددهم بالهلاك : « ورفعنا فوقكم الطور نحنوا ما آتيناكم بقوة وسمعوا

قالوا سمعنا وعصينا - ٩٣ البقرة ١. واختلفوا في الأنبياء الذين جاءوا بعد موسى ، ومنهم السيد المسيح (ع) ، ففريقاً كذبوا ، وفريقاً يقتلون كما في الآية ٨٧ من سورة البقرة . وأيضاً اختلفوا في نبوة محمد (ص) ، وما آمن به إلا قليل .. ولو كانوا طلاب حق لاتفقوا على الأخذ بالقرآن الذي قامت الدلائل والبراهين على صدقه (وانه لهدى ورحمة للمؤمنين) . هدى لمن طلب الهداية ، ورحمة لمن عمل بأحكامه وتعاليمه .

(ان ربك يقضي بينهم بحكمه وهو العزيز العليم) . يقضي يوم القيامة حيث تُزاح الأباطيل وتضمحل العلل ، يحكم ويفصل الله بين بني اسرائيل وغيرهم فيما اختلفوا ويختلفون فيه من شؤون الدين والدنيا (فتوكل على الله) فمن التجأ اليه فهو في كهف حريز ، ومانع عزيز (انك على الحق المبين) والمحق لا يبالي بما قيل ويقال عنه .

(انك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء اذا ولوا مدبرين وما أنت بهادي العمي عن ضلالتهم) . هذه الجمل تهدف الى شيء واحد، وهو ان هناك صفات تحجب القلب ، وتدفع بالانسان أن يصر على الكفر والتناق والضللال ، وتجعله والموتى سواء لا تجدي معه عظة ولا انذار، ومن أهم هذه الصفات الطمع والحرص على المكاسب والمناصب .. وقد تكرر هذا المعنى بأساليب شتى ، منها قوله تعالى: « لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون - ١٧٩ الأعراف » ج ٣ ص ٤٢٥ ، وقوله : « أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون .. أفأنت تهدي العمي ولو كانوا لا يبصرون - ٤٣ يونس ج ٤ ص ١٦٢) ان تسمع الا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون) . ان الذي يسمع منك ويطيعك يا محمد هو الذي يطلب الحق لوجه الحق بحيث اذا قام عليه الدليل آمن به واتقاد له ، أما أرباب المطامع والمصالح فيولون عنك مدبرين .

١ من أغرب ما قرأت ما نقل عن كتاب الطمود ، وهو كتاب منزل كالتوراة عند اليهود أو الكبير منهم : « ان الله اذا نزل به مسألة مضلة استشار الماخامات في حلها ، وانه في ذات يوم رأى رايأ خاطئاً ، فنبهه الى خطئه أحد الماخامات ، فاعترف وأذعن » .

سورة النمل

(واذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم ان الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون) . وقع أي ثبت ولزم ، والمراد بالقول هنا ما وعد الله به من قيام الساعة ، وبالناس الكافرون ، أما الدابة فقد كثر الكلام فيها ، والله سبحانه لم يبين لنا ما هي . والحديث عن المعصوم في بيانها لم يثبت ، حتى ولو صح سنده لم نعمل به لأنه خسر واحد ، وهو حجة في الأحكام الفرعية ، لا في الموضوعات وأصول العقيدة ، والقول بغير علم حرام ، فلم يبق إلا الأخذ بظاهر الآية الذي يدل على ان الله سبحانه عندما يحشر الناس للحساب يُخرج من الأرض مخلوقاً يعلن ان الكافرين جحدوا الدلائل الواضحة والبراهين القاطعة على وجود الله ووحدانيته ، ونبوة رسله .

وتسأل : لماذا لم يبين سبحانه حقيقة هذه الدابة ، وترك الناس في حيرة من أمرها ، حتى قال من قال فيها بالجهل والوهم ؟

الجواب : ان الغرض من ذكرها هو مجرد التشهير بالكافرين ، وانهم يحشرون غداً أذلاء مفضوحين على رؤوس الاشهاد ، وهذا الغرض يحصل بمجرد الإشارة إلى الدابة ، وان لم تُعرف باسمها وحقيقتها . فهذه الآية أشبه بقوله تعالى : « يوم تبيض وجوه وتسود وجوه - ١٠٦ آل عمران » .

(ويوم نحشر من كل أمة فوجاً ممن يكذب بآياتنا) . ممن يكذب (من) هنا بيانية ، وليست للتبعيض ، مثلها في قوله تعالى : « فاجتنبوا الرجس من الأوثان » أي كل الأوثان لا بعضها ، والمعنى ان في الأمم مصدقين بآيات الله ومكذبين بها ، والله سبحانه يحشر غداً للحساب والجزاء جميع المكذبين دون استثناء ، ومعلوم ان الله سبحانه يحشر المصدقين والمكذبين ، ولكن الغرض من ذكر المكذبين التهديد والوعيد (فهم يوزعون) تمنعهم الملائكة من الذهاب يمنة ويسرة ، وتسوقهم إلى الموقف سوق التعاج إلى الذبح .

(حتى إذا جاءوا قال أكذبتم بآياتي ولم تحيطوا بها علماً أما إذا كنتم تعملون) . إذا وقف الجاحدون بين يدي الله غداً للحساب يقول لهم موبخاً ومقرعاً : لماذا كذبتم رسلي ، ولم تستجيبوا لدعوتهم ؟ وإذا كنتم جاهلين بصدقهم فلماذا أعرضتم عن أدلتهم التي توجب العلم ، ولم تنظروا إليها نظرة من يطلب الحق ويبحث عنه

لوجه الحق ؟ وأي شيء أولى وأهم من ذلك ؟ وقد اتفق العلماء قولاً واحداً على ان العقل يحكم بوجود النظر إلى معجزة مدعي النبوة دفعاً للضرر المحتمل ، وقالوا : ان العقل لا يعذر الجاهل بما يجب عليه إذا كان قادراً على البحث وتحصيل المعرفة ، وفي الحديث : يقال للعبد يوم القيامة : هلا علمت ؟ فان قال : نعم . قيل له : هلا علمت ؟ وان قال : ما علمت . قيل له : هلا تعلمت حتى تعمل (ووقع القول عليهم بما ظلموا) حلّ بهم غضب الله وعذابه بسبب كفرهم وتقصيرهم في البحث والسؤال (فهم لا ينطقون) لانقطاع حججهم ، وأيضاً لدعشتهم من شدة الهول .

نمر الجبال مر السحاب الآية ٨٦ - ٩٣ :

أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لَيْسَكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنِّ فِي ذَلِكَ
لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ
وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوِّهٍ دَاخِرِينَ * وَتَرَى الْجِبَالَ
تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ
إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ * مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ
يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ * وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ
إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * إِنَّمَا أَمْرُهُ أَنْ أُعْبِدَ رَبِّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي
حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأَمْرُهُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ * وَأَنْ أَتْلُوَ
الْقُرْآنَ فَمَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ

الْمُنْذِرِينَ * وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ
عَمَّا تَعْمَلُونَ *

اللغة :

داخرين أذلاء صاغرين . والمراد بالبلدة هنا مكة .

الإعراب :

داخرين حال من فاعل أتوه . وصنَّع منصوب على المصدرية أي صنع الله ذلك صنعا . ويومئذ متعلق بآمنون والتنوين عوض عن جملة محذوفة أي يوم اذ جاء بالحسنة . وجملة هل تجزون مفعول لقول محذوف أي يقال لهم : هل تجزون . والذي حرمها بدل من رب . والمصدر من ان اعبد مجرور بالباء المحذوفة ومثله ما بعده . وبغافل الباء زائدة اعراباً وغافل خبر لربك .

المعنى :

(ألم يروا انا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصراً ان في ذلك لآيات لقوم يؤمنون) . تقدم مع التفسير في الآية ٦٧ من سورة يونس ج ٤ ص ١٧٧ (ويوم ينفخ في الصور ففزع من في السموات ومن في الأرض الا من شاء الله) . يُنفخ في الصور ايذاناً بقيام الساعة ، فتتخلع قلوب الخلائق من هذا النفخ خوفاً وعلماً الا قلوب النبيين والصديقين والشهداء والصالحين الذين استثناهم سبحانه بقوله : « الا من شاء الله » وأشارت اليهم الآية ٦٩ من سورة النساء : « ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا » .

وفي بعض التفسير ان التفخات في الصور ثلاث : نفخة الفزع ، ونفخة موت الجميع ، ونفخة البعث ، وبديل على النفخة الأولى الآية التي نفسرها ، أما الثانية والثالثة فيدل عليها قوله تعالى : « ونُفِخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون - ٦٨ الزمر » . (وكلُّ أتوه داخرين) أي ان الخائفين يُحشرون الى ربهم صاغرين .

الجبال وحركة الأرض :

(وترى الجبال جامدة وهي تمر مر السحاب) . موضوع هذه الآية والتي قبلها واحد ، وهو الحديث عن يوم القيامة وأهواله ، وعليه يكون المعنى ان الله سبحانه يقطع الجبال من أماكنها ويُسبِّرها في الفضاء تماماً كما تسير السحاب ، ولكن يخيل للرائي انها ثابتة ، ذلك ان الجرم الكبير إذا سار في سميت واحد وخط مستقيم فلا تدرك الأبصار حركاته لضخامته وبُعد أطرافه ، وبالحصول إذا كان الرائي بعيداً عنه .

وهذا يتبين معنا خطأ من استدل بهذه الآية على ان القرآن قد أشار إلى حركة الأرض ، وهناك آيات كثيرة تؤكد ان المراد بمرور الجبال في هذه الآية هو تسيرها في الفضاء يوم القيامة ، من تلك الآيات قوله تعالى : « ويوم نُسِبر الجبال وترى الأرض بارزة وحشرناهم - ٤٧ الكهف » . وقوله : « وسُيِّرَت الجبال فكانت سراباً - ٢٠ النبأ » . وقوله : « يوم تمور السماء - أي تضطرب - موراً وتسير الجبال سيراً - ٩ الطور » . وكلام القرآن واحد يشهد بعبءه على بعض ، وينطق ببعضه بعض .

أجل ، ان أهل بيت النبي (ص) الذين عندهم علم الكتاب والسنة قد صرحوا بحركة الأرض قبل « كوبرنيكوس » بحوالى ألف عام ، قال الإمام علي (ع) في نهج البلاغة : « وبسط الأرض على الهواء ... وأرساها على قرار ... ورفعها بغير دعائم ... وعدل حركتها بالراسيات » . وقال حفيده الإمام جعفر الصادق (ع) : « ان تدل الأشياء على حدوثها من دوران الفلك بما فيه هي سبعة أفلاك : تحرك الأرض الخ » .

سورة النمل

(صنع الله الذي أتقن كل شيء) من أكبر كبير إلى أصغر صغير ، وهذا الاتقان والترتيب والنظام من أقوى الشواهد على وجود الله ووحدانيته وعظيم قدرته (انه خير بما تفعلون) . والذي خلق الانسان ، وأتقن صنعه يعلم ما يفعل من خير أو شر ، وما توسوس به نفسه : « ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد - ١٦ ق ١ » .

(من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ آمنون ومن جاء بالسيئة فكُتبت وجوههم في النار هل تجزون إلا ما كنتم تعملون) . وأوضح تفسير لقول الله هذا هو قوله : « من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزي إلا مثلها وهم لا يُظلمون - ١٦٠ الأنعام : ج ٣ ص ٢٩٠ » .

(إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذي حرّمها وله كل شيء وأمرت أن أكون من المسلمين) . المراد بالبلدة مكة المكرمة ، وخصها بالذكر مع انه رب العالمين لينبه قريشاً الى نعمته عليهم بسببها ، فلقد كانوا يستمدون سيادتهم على العرب من تعظيمها وجعلها حرماً آمناً يحرم فيه القتل والقتال ، والصيد وقطع الأشجار ، وما إلى ذلك مما يدل على شرفها ومكانتها ، ومع هذا عبدت قريش الأصنام ، ودنست بها الكعبة ، فأشركت برب هذه البلدة المكرمة المعظمة الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف .. وقول الرسول الأعظم (ص) : (إنما أمرت ان أعبد رب هذه البلدة .. وأمرت أن أكون من المسلمين) هو تعريض بقريش وعبادتها الأصنام ، وان الواجب عليها أن تترك عبادة الأصنام التي لا تملك شيئاً ، وتعيد رب هذه البلدة الذي له الخلق والملك والأمر ، وهو على كل شيء قدير ، وقد تفضل على قريش بالكثير من عطائه وآلائه .

(وان أتلو القرآن) . المراد بتلاوة القرآن هنا الدعوة إلى الإيمان به ، والسير على منهجه (فن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فقل إنما أنا من المرسلين) . دعا الرسول الأعظم (ص) الى الهدى ، فن سمع وأطاع فقد أحسن لنفسه ، وسلك بها سبيل الخير والنجاة ، ومن أعرض وتولى فقد أساء إليها وأوردها موارد الشر والهلاك .. والنبي (ص) غير مسؤول عما يحل بأهل النبي والضلال بعد أن نصح لهم وأبلغهم رسالات ربه (وقل الحمد لله) على ما وقفني إليه من تبليغ رسالته

الجزء العشرون

إلى عباده كما أحب وأراد (سريكم آياته فتعرفونها) . لقد أراهم سبحانه آياته ودلائله في أنفسهم وفي الآفاق فأنكروها .. فقال لهم : تنكرونها الآن ، وتعرفون بها غداً حيث لا ينفعكم الاعتراف والاذعان (وما ربك بغافل عما تعملون) . هذا تهديد ووعيد على إعراضهم وانكارهم آيات الله وبيناته .

سُورَةُ الْقَصَصِ

قال الطبرسي : هي مكية ، وآياتها ٨٨ آية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

آيات الكتاب الآية ١ - ٦ :

طَسَمَ * تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ * نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى
وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ
أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يذِبحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ
كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ * وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا فِي الْأَرْضِ
وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي
فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ *

اللغة

شيعاً فرقا مختلفة متناحرة .

الإعراب :

بالحق متعلق بمحذوف حالا من فاعل نتلو أي متكلمين بالحق . وضمر منهم يعود الى الذين استضعفوا .

المعنى :

(طسم) تقدم الكلام على مثله في أول سورة البقرة (تلك آيات الكتاب المبين) . تلك إشارة الى هذه السورة ، والكتاب القرآن ، والمبين الواضح في تمييز الغي من الرشد (نلّو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون) . لقد تلا سبحانه هذا النبأ على نبيه الكريم مرات ومرات ، وأوضحنا الغاية من تكراره عند تفسير الآية ٩ من سورة طه ، فقرة : « تكرار قصة موسى » . (ان فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً) . طغى وبغى ، وتكبر ونجبر ، وقسم أهل مملكته إلى فئات متطاحنة ليدوم له الملك ، يعطي فئة ، ويمنع أخرى (يستضعف طائفة - أي بني اسرائيل - منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم انه كان من المفسدين) . تقدم مثله في الآية ٤٩ من سورة البقرة ج ١ ص ٩٩ والآية ١٢٧ من سورة الأعراف ج ٣ ص ٣٨٢ .

لماذا اضطهد فرعون بني اسرائيل ؟

قال بعض المفسرين الجدد في ظلاله : « اضطهد فرعون بني اسرائيل لأن لهم عقيدة غير عقيدته ، فهم يدينون بدين جدهم ابراهيم ويعقوب ، ومهما وقع في عقيدتهم من الانحراف فقد بقي لها أصل الاعتقاد بإله واحد » . ونحن نسأل هذا المفسر الجديد : من أين جاءك العلم ان اليهود كانوا في عهد فرعون على دين ابراهيم (ع) ، وأنه قد بقي لهم الاعتقاد بإله واحد ؟ هل جاءك هذا العلم من قولهم : « يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة » ، أو من قولهم له : « أرنا الله جهرة » ، أو من عبادتهم العجل ، أو من قتلهم الأنبياء ؟ وإذا كان فرعون قد اضطهدهم لأنهم على دين ابراهيم فلماذا وصفهم نبيهم ومخلصهم موسى بالفاسقين كما في الآية ٢٥ من سورة المائدة ، وبالسفهاء في الآية ١٥٥ ، وبالمبطلين في الآية ١٧٣ ، وبالجهل في الآية ١٣٨ من سورة الأعراف ، كما وصفهم الله سبحانه في العديد من آياته بالفساد وبكل جريمة ورذيلة ؟ .

لقد ذكر القرآن ان فرعون اضطهد بني اسرائيل ، وأنه تعدى الحدود في

ظلمه ، ولكنه لم يشر الى السبب ، ولذا اختلف الفقهاء في تحديده ، فن قائل : ان كاهناً قال لفرعون : يولد مولود في بني اسرائيل يتزع منه الملك . وقائل : ان الأنبياء الذين كانوا قبل موسى بشرّوا بجميعه ، ولما علم فرعون بذلك خاف وذبح أبناء اسرائيل .. وما رأيت أحداً من المفسرين أو غيرهم قال : ان فرعون اضطهد اليهود لأنهم على دين ابراهيم .

واذا نظرنا الى سيرة بني اسرائيل مع نبيهم وغلصهم موسى ، ومع غيره من أنبيائهم الذين جاءوا بعد موسى حيث كانوا يكذبون فريقاً وفريقاً يقتلون ، ونظرنا الى سيرتهم وأعمالهم في كل بلد يحلّون فيه من اثاره الفتن ، وتدبير المؤامرات ، ومحاولة السيطرة على وسائل الانتاج والدعاية وغيرها من المرافق العامة ، اذا نظرنا الى ذلك كله تبين لنا صحة ما قاله الشيخ المراغي في تفسيره : « ان فرعون انما اضطهد بني اسرائيل لأنه كان يتوجس خيفة من الذكّران الذين ينمرسون الصناعات وبأيديهم زمام المال ، فاذا طال بهم الأمد استولوا على المرافق العامة ، وغلبوا عليها المصريين ، والغلب الاقتصادي أشدّ وقعاً من الغلب الاستعماري » .

أجل ، ان فرعون طغى وبغى ، وتجاوز الحد في ذبح الأبناء واسترقاق النساء ، ولكن هذا التعدي والظغيان كان سببه اليهود ، فالتبعة تقع على الاثنين معاً : على اليهود لحقدهم وسوء تصرفهم وأهدافهم ، وعلى فرعون لأنه أخذ البريء بجرم المذنب .

من يمين الله على المستضعفين ؟

(ونريد ان نمن على الذين استضعفوا في الأرض) . المستضعفون في الأرض هم الذين يضطهدهم الأقوياء ، ويتسلطون على أقواتهم ومقدراتهم ظلماً وعدواناً ، والله سبحانه يمين عليهم بالحرية والخلاص من الاضطهاد إذا جاهدوا وثابروا واستعملوا من أجل حياتهم وكرامتهم تماماً كما يمين سبحانه على المريض بالشفاء إذا استعمل العلاج الصحيح ، وعلى الفلاح بالثمر إذا عمل واثقن .. ان الله سته في خلقه ، وهي ان تجري الأمور على أسبابها ، والغايات على وسائلها ، ولن تجد لسنة الله تبديلاً .. أبداً . كل من سار على الدرب وصل مؤمناً كان أو كافراً .. أما جزاء الكفر

والإيمان ففي يوم القيامة ، وليس في هذه الحياة ، فمن ركب للظالم خذله الله ، وأوكله الى من ظلمه حتى ولو صلى وصام وحج الى بيت الله الحرام : لأنه خذل الحق ، ونصر الباطل ، وما له في الآخرة من خلاق .

ومن ثار على الظلم وأهله ، واسمات من أجل كرامته نصره الله سبحانه على الظالمين الطغاة، وإن كان كافراً، لأنه التقى مع إرادة الله وأمره بهذا الجهاد والنضال .. ولا نرجع إلى التاريخ القديم لنستمد منه الشواهد على هذه الحقيقة ، فإن صمود الشعب الفيتنامي الأعزل أمام أعنى قوى الشر والفساد لدليل قاطع على أن الله مع المظلوم المجاهد الصابر كائناً من كان .

والخلاصة إن الله لا يقاتل من أجل المستضعفين ، ولكنه يقف معهم ويمدهم بعونه إذا قاتلوا وناضلوا مستهدفين الحق والعدل ، والتحرر من البغي والاستغلال، إن الله مع هؤلاء لأنه مع كل مجاهد وعامل من أجل الحياة . وتكلمنا عن ذلك مفصلاً عند تفسير قوله تعالى : « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم - ١١ الرعد » ج ٤ ص ٣٨٦ .

وتسأل : إن الله سبحانه أغرق فرعون وقومه ، ونجى بني إسرائيل من عذابهم واضطهادهم ، ومعنى هذا إن الله يقاتل عن المستضعفين ، بل جاء في الآية ٣٨ من سورة الحج : « إن الله يدافع عن الذين آمنوا » ؟

الجواب : إنه تعالى أغرق فرعون وقومه لشركهم وتكذيبهم الرسول ، وليس انتصاراً لبني إسرائيل تماماً كما أهلك قوم نوح وغيرهم من المشركين، فترتب على ذلك خلاص المظلومين والمضطهدين من بني إسرائيل وغير بني إسرائيل ، أما آية سورة الحج فالمراد بالذين آمنوا المجاهدون ، أما الكسالى فهم على دين من قال لموسى : « اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون » .

(ونجعلهم أئمة) أي نجعل منهم أنبياء (ونجعلهم الوارثين) ونجعلهم لهم في الأرض (يجعلهم الله أحراراً بعد أن استعبدهم فرعون أمداً طويلاً) (ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون) ضمير منهم يعود على بني إسرائيل ، والمعنى إن فرعون وملأه خافوا أن يذهب سلطانهم على يد رجل من بني إسرائيل، فاحتاطوا لذلك ولكن الله سبحانه أوقعهم فيما كانوا يحذرون .

وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ فَأَلْقَيْهِ فِي الْيَمِّ وَلَا
تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ * فَالتَقَطَهُ
آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا
كَانُوا خَاطِئِينَ * وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرْءُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ
عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * وَأَصْبَحَ فُؤَادُ
أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ
مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * وَقَالَتِ لِأُخْتِي قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ وَهُمْ لَا
يَشْعُرُونَ * وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاصِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ
أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ * فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَمَا
تَقَرَّرْ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلَنَعْلَمَ أَنْ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا
يَعْلَمُونَ *

اللغة :

أوحينا ألهما . واليم البحر والمراد هنا نهر النيل . وقرة عين فرح وسرور .
وفارغاً أي لا شيء فيه إلا الاهتمام بموسى . وربطنا ثبتنا . وقصصه تتبعي خبره .
وعن جنب أي جانب كأنه غير مقصود بالذات كما تقول : هذا شيء جانبي ،
وقيل : المراد بالجنب هنا البعد .

الإعراب :

ان أرضعيه (ان) بمعنى أي مفسرة لأوحينا . وليكون اللام للعاقبة مثل : لدوا للموت وابنوا للغراب، والمصدر المنسك من ان المضمره وما دخلت عليه متعلق بالتقطه . وقره خبر لمبتدأ محذوف أي هو قره عين . وعسى تامة والمصدر من أن يتفعنا فاعل . وأن كادت (ان) مخففة واسمها محذوف أي أنها كادت . والمصدر من ان ربطنا مبتدأ وخبره محذوف ، وأيضاً جواب لولا محذوف أي لولا ربطنا على قلبها حاصل لأبدت به . وعن جنب متعلق بمحذوف حالاً من فاعل بصرت أي بصرت به بعيدة .

المعنى :

(وأوحينا إلى أم موسى ان أرضعيه) . المراد بالوحي هنا الإلهام مثل قوله تعالى : « وأوحى ربك إلى النحل — ٦٨ النحل » . ونقلنا في ج ٣ ص ٣٧٣ عن كتاب «قصص القرآن» ان اسم أم موسى يوكابد، ثم قرأنا في التوراة ان هذا هو اسمها ، وانه قد تزوجها ابن أخيها عيرام أبو موسى ، وفي قاموس الكتاب المقدس ان معنى يوكابد في العبرانية «يهوه مجد» وان موسى كان أصغر أولاد أبيه ، وثالث ثلاثة : مريم البكر ، وهرون الثاني . (فإذا خفت عليه فألقيه في اليم) . إذا خافت عليه من الذبح تلقية بيدها في لجة البحر !.. كيف ؟ وأي عاقل يستجير من الرمضاء بالنار ؟ (ولا تخافي ولا تحزني أنا رادوه اليك وجاعلوهم من المسلمين) . لا تخافي عليه : ان الله هو الحافظ له والوكيل ، فالذي جعل النار برداً وسلاماً على ابراهيم يجعل البحر أماناً لموسى ، أخبرها سبحانه بسلامة وليدها ، وأنها ستريه وتحضنه ، وبشرها بأنه قد اختاره لرسالته ، وخصه برحمته . وتقدم نظيره في الآية ٣٩ من سورة طه .

(فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً) . التقطوه وربوه لينفهم أو يتخذوه ولداً ، فكان عاقبة أمره ان صار عدواً لعقيدتهم وعاداتهم ، يدخلهم والحزن على قلوبهم ، وفي النهاية كان مصرعهم وذهاب ملكهم على يده (ان

سورة القصص

فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين (ضالين في جميع أعمالهم وتصرفاتهم ، وبخاصة قتلهم ألوف الصبيان لينخلصوا من موسى ، فكانت النتيجة ان خلصوه هو من الموت ليقضي عليهم . وفي قاموس الكتاب المقدس^١ ان حياة موسى في بيت فرعون مجهولة التفاصيل ، وان العلماء المؤرخين اختلفوا في زمانه ، فقال بعضهم : انه كان في أيام أمون (١٤٣٦ - ١٤١١ ق.م .) . وقال آخرون : انه كان في أيام رمسيس الثاني (١٢٩٠ - ١٢٢٣ ق.م .) وقال ثالث : كان في أيام منفثاح (١٢٢٣ - ١٢١١ ق.م .) .

(وقالت امرأة فرعون قرة عين لي ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً وهم لا يشعرون) . امرأة فرعون هي آسية بنت مزاحم ، وقد أنثى الله عليها في الآية ١١ من سورة التحريم : « وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون اذ قالت رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة ونجني من فرعون وعمله ونجني من القوم الظالمين » . وفي الحديث : « خير نساء العالمين أربع : مريم بنت عمران ، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون ، وخديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد » .. ولما نظر فرعون الى موسى ثار وقال : كيف سلم هذا الصبي العبري من الذبح؟ هل خفي أمره على العيون والجواسيس ، أو أخفوه عني ؟ .. فلنطقف به أمرته ، وحببته بالصبي ليكون قرة عين لهم ، فكان قلبي في عيونهم ، وشجى لقلوبهم .

(وأصبح قواد أم موسى فارغاً ان كادت لتبدي به لولا ان ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين) . ألقت وليدها في البحر ، وهي تأمل أن يلتقطه من يحفظه من فرعون ، واذا بالقدر يخرجها من البحر الى بيت فرعون .. ولما أتاها الخبر انه وقع في يد الجلاد توقعت هلاكه ، فجزعت جزعاً شديداً ، ونسيت نفسها ، وما كان قد وعداها الله به من رده اليها ، وكادت تظهر جزعها ، وتهتف باسم عزيزها ، ولكن الله شملها بلطفه وعنايته ، فثبتها لتكون من المؤمنين بوعده ،

١ يطلق المسيحيون اسم الكتاب المقدس على التوراة والانجيل الأربعة ، والقاموس المذكور يبين معاني الكلمات التي جاءت في الكتاب المقدس ، ويشير الى تاريخ الوقائع والأشخاص ، وغير ذلك مما يتصل بالتوراة والانجيل .

وهو قوله سبحانه : « إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ » فصبرت وتمالكت (وقالت لأخته قصيه) اذهبي وتلمسي خبره ، فذهبت فرأت أخاها عند آل فرعون (فصبرت به عن جنب وهم لا يشعرون) . نظرته نظرة جانبية كأنها لا تريد بالذات ، وآل فرعون لا يعلمون قصدتها وإنما أخت هذا الصبي الذي التقطوه من اليم .

(وحرمنا عليه المراضع من قبل) . استمع فرعون لامرأته وأبقى الصبي بعد أن ألقى الله محبته في قلبه ، وأمر بالبحث عن مرضعة تكفله وترعاه ، وسيقت إليه المراضع من هنا وهناك ، وكل واحدة تود لو يقبل ثديها لتنال المنزلقة عند فرعون ، ولكنه عاف الجميع ونظر منهن قبل مجيء أمه (فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه وهم له ناصحون) . لما رأت أخت موسى حيرة آل فرعون في أمر الصبي عرضت عليهم أن ترشدهم إلى من يقبل ثديها من دون النساء ، وتهم بشأنه . ولا تقصر في رعايته . وتقدم مثله في الآية ٤٠ من سورة طه (فرددناه إلى أمه كي تفر عينها ولا تحزن) أيضاً تقدم في الآية ٤٠ من سورة طه (ولتعلم ان وعد الله حق) . ضمير تعلم يعود إلى أم موسى ، والمراد بوعدته تعالى قوله لها : « إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وجاعلوه من المرسلين » وليس لما وعد الله مترك (ولكن أكثرهم لا يعلمون) لطائف تدبره تعالى ، وغوامض حكمه .

ولما بلغ أشده الآية ١٤ - ١٩ :

وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ *
وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ
هَٰذَا مِنْ شَيْعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَعَاثَ الَّذِي مِنْ شَيْعَتِهِ عَلَى الَّذِي
مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَىٰ فَقَصَىٰ عَلَيْهِ قَالِ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ
عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ * قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ

هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً
لِلْمُجْرِمِينَ * فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ
بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِي مُبِينٌ * فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ
أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا
قَتَلْتَ نَفْساً بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّاراً فِي الْأَرْضِ وَمَا
تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمَصْلُحِينَ *

اللغة :

بلغ أشده استكمل قوته جسمياً وعقلاً . وعلى حين غفلة أي دخل موسى
المدينة والناس ذاهلون عنه . وظهرأ معيناً . ويتربص ينتظر . واستنصره طلب
نصره . ويستصرخه يطلب غوثه ومعونه . والغوي الضال .

الإعراب :

على حين غفلة متعلق بمحذوف حالاً من فاعل دخل . وهذا من شيعته وهذا
من عدوه بدل مفصل من مجمل . وبما أنعمت الباء للقسم وما مصدرية أي بانعامك
عليّ . وجملة يتربص حال من فاعل أصبح . فلما ان أراد (ان) زائدة إعراباً .
والمصدر من ان يبطش مفعول أراد . وان تريد (ان) نافية .

المعنى :

(ولما بلغ أشده واستوى آتيته حكماً وعِلْماً وكذلك نجزي المحسنين) . تقدم

بنصه الحرفي في الآية ٢٢ من سورة يوسف . وجاء هناك وصفاً ليوسف ، وهنا وصفاً لموسى .

(ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه) . المراد بالمدينة هنا مصر .. وفي ذات يوم دخل موسى بعض شوارعها دون أن يشعر أحد به ، فرأى رجلين يتشاجران ويقتتلان : أحدهما قبطي من أتباع فرعون ، والآخر اسراييلي من جماعة موسى ، وكان الأقباط بوجه العموم يضطهدون الاسراييليين ، وبحسبهم خدماً لهم وعبيداً ، فاستنجد الاسراييلي بموسى ، فوكز موسى القبطي يده أو بعصاه بقصد التأديب والردع عن البغي ، لا بقصد القتل ، فوقع جثة هامدة ، ويسمى هذا بقتل الخطأ (قال هذا من عمل الشيطان انه عدو مضل مبين). هذا اشارة إلى الشجار والقتال الذي وقع بين القبطي والاسراييلي ، لا إلى الوكز أو القتل غير المقصود ، والمعنى ان القتال بين الاثنين مصدره وسوسة الشيطان واغراؤه بالمعاصي والذنوب .

(قال رب اني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له انه هو الغفور الرحيم) . كل تقصير في حق الله تعالى ينسب الانبياء والأولياء إلى أنفسهم فهو دعاء وخشوع لله سبحانه ، ولا دلالة فيه على الذنب والتقصير ، لأن العارف بالله حقاً يتهم نفسه بالتقصير في طاعة الله وعبادته ، ومن أجل هذا يسأله العفو والصفح عن الذنب ، وقديماً قيل : سيئات الأبرار حسنات الأشرار . انظر ما قلناه بعنوان التوبة والفقرة ج ٢ ص ٢٧٥ (قال رب بما أنعمت علي فلن أكون ظهيراً للمجرمين) . سأل موسى ربه العفو ، وأعطاه عهداً على نفسه أن يكون حرباً على الطغاة المجرمين كفرعون وجنوده ، وعوناً لكل مؤمن صالح .

(فأصبح في المدينة خائفاً يترقب) . خاف موسى ان يطالب بدم القبطي ، وتوقع الشر من فرعون وقومه .. وبينما هو كذلك (فلما الذي استنصره بالأمس يستصرخه) يطلب النصر من موسى بصياح وصراخ (قال له موسى انك لغوي مبين) . ما شأنك تشبكت كل يوم مع قبطي ؟ وتسبب لنا المتاعب والمشاكل ؟ ألا ترعوي عن غيبك وضلالك ؟.

(فلما ان أراد أن يبطش بالذي هو عدو لها) . أراد موسى أن يبطش بالقبطي لأن الأقباط هم الذين كانوا يعتنقون على الاسرائيليين ويعاملونهم معاملة العبيد كما أشرنا ، وقد ظن القبطي أن موسى يريد قتله ، ولذا (قال يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس إن تريد إلا أن تكون جباراً في الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين) . بالأمس قتلت رجلاً ، واليوم تريد قتلي ، هل أنت من الجبارين ، أم المصلحين ؟ ويومئذ هذا إلى أن موسى كان معروفاً بالصلاح وحسن السلوك ، وان القتل لا يتفق مع سيرته ومسلكه .

ان الملأ يأتمرون بك الآية ٢٠ - ٢٨ :

وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْقَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ * فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ * وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءَ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ * فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ * فَجَاءَهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ

اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيَّ الْأَمِينُ* قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ
هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِي حَجَّجٍ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ
وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُلْشِقَ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ*
قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى
مَا نَقُولُ وَكِيلٌ*

اللغة :

أَنْصَى المدينة آخرها . ويسمى يسرع في المشي . وتلقاء مدين حذاءها
وجهتها . وسواء السبيل وسط الطريق . تذودان تمنعان غنمها عن ورود الماء .
ما خطبكما ؟ ما شأنكما ؟ حتى يصدر الرعاء حتى ينصرف الرعاء، والرعاء والرعاة
والرعيان بمعنى واحد . والاستحياء شدة الحياء . والقصاص الحديث المقصود .
والحجج جمع حجة ، وهي السنة .

الإعراب :

ليقتلوك منصوب بأن مضمرة والمصدر متعلق بياأمرؤن . وخائفاً حال من فاعل
خرج . وجملة يترقب حال ثانية . وتلقاء ظرف مكان . وجملة تذودان صفة
لامرأتين . وفقير خبر ان، ولما أنزلت متعلق بفقير . وعلى استحياء في موضع الحال
أي مستحية . والقوي الأمين خبر ان . وهاتين عطف بيان من ابنتي . وعلى ان
تأجرتني في موضع الحال أي مشروطاً عليك . وثمانى ظرف لأنها مضافة إليه وعشر
أيضاً ظرف لأن المعنى فإن أتممت العمل في عشر سنين . فن عندك متعلق بمحذوف
خبراً مبتدأ محذوف أي فالإمام كائن من عندك . وذلك مبتدأ وبيني وبينك خبر

سورة القصص

أي بيتنا . إما كلمتان (اي) الشرطية و (ما) الزائدة ، ومحل أي نصب بقضيت . فلا عدوان جواب الشرط .

المعنى :

(وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى قال يا موسى ان الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج اني لك من الناصحين) . علم فرعون وحاشيته بما كان من موسى مع القبطي الأول الذي قتله خطأ ، والثاني الذي قال له : « أتريد أن تقتلني » فتشاوروا في أمر موسى ، وصمموا على قتله ، ولما علم أحد المؤمنين بذلك أسرع إلى موسى ، وأخبره بما دبروا له ، وأشار عليه بالفرار من القوم الظالمين ، وقال كثير من المفسرين : ان هذا المؤمن هو الذي أشارت إليه الآية ٢٨ من سورة غافر : « وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه أتفتلون رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم » ؟ .

(فخرج منها خائفاً يترقب قال رب نجني من القوم الظالمين) . قبل موسى النصيح من المؤمن ، وخرج من مصر بلا زاد وماء وظهر ورفيق ، وهو خائف يترقب أن تلحق به جلاوزة فرعون ، وفوق هذا لا يدري أين يتجه ؟ فالتجأ إلى ربه ، وسلم إليه أمره ، وسأله الهداية والنجاة من فرعون وقومه (ولما توجه تلقاء مدين قال عسى ربي ان يهديني سواء السبيل) . سار موسى دون أن يقصد بلداً معيناً ، وهو على يقين من ربه ، وانه سيرشده إلى الطريق القويم الذي يؤدي به إلى النجاح والفلاح ، وأخذ سبحانه بيده ، واتجه به إلى مدين بلد شعيب ، وبين مصر وبينها صحراء واسعة الأطراف ، ممتدة الأبعاد ، يقطعها المسافر مشياً في ثمانية ايام ، فاجتازها موسى برعاية الله وتوقيفه ، وكان يأكل من نبات الأرض .. وبالأمس القريب كان في قصر فرعون يتمتع بما لذ وطاب ، ولكن حشائش الأرض والخوف خير الف مرة عند المخلصين الأحرار من النعمي مع الظلمة الطغاة كما قال الإمام الحسين (ع) : والله لا أرى الموت إلا سعادة والحياة مع الظالمين إلا برماً .

(ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين

تدودان قال ما خطبكما قالتا لا نسقي حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير فسقى لها (موسى .. فقد انتهى به السير إلى بئر ، فوجد عنده جماعة من الرعاء يستقون منها لما شربهم ، ورأى امرأتين في ناحية عن جماعة الرعاء ، ومعها غنيات تحاول أن ترد الماء ، والمرأتان تصرفانها عنه .. أثار هذا المنظر انتباه موسى ، وقال لها : لماذا تمنعان غنمكما عن الماء ، وهي عطاشي ؟ فقالتا : نحن نسوة ضعاف ، لا نقدر على مزاحمة الرجال ، وأبونا شيخ كبير يعجز عن الرعي والسقي ، فنتنظر حتى يفرغ الرعاء فنسقي ، فتحركت في نفس موسى نحوه الدين والانسانية وسقى لها .

ولا عجب إذا أعجب موسى نسوة ضعافاً ، فقد ينجد المرأة الضعيفة الكافر والشقي ، وأيضاً لا عجب أن يعيش شعيب وبناته من كد اليمين وعرق الجبين ، فهذه هي سيرة الأنبياء وخلفائهم الأتقياء من قبل ومن بعد ، وإنما العجب أن لا يكون لهذه الروح القرآنية أي أثر في نفوسنا نحن الذين ندعي العلم بالله وكتابيه وسيرة أنبيائه .. وأعجب العجب أن تتنافس في طلب الدنيا ومظاهرها .

(ثم تولى إلى الظل فقال رب اني لما أنزلت إليّ من خير فقير) . سقى موسى غنم الفتاتين ، وذهب إلى شجرة يتفأ ظلالها ، وكان قد أنهكه وأعباه التعب والجوع ، فسأل الله من فضله وكرمه ، ولم يبلغ ويلج في المسألة لأن المطلوب سد الخلة وكفى ، ولو طلب الآخرة لبالح وألح ، وفي نهج البلاغة : والله ما سأل إلا خبزاً يأكله لأنه كان يأكل بقلّة الأرض ، وقد كانت خضرة البقل ترى من شفيف صفاق بطنه لهزاه وتشدب لحمه الصفاق الجلد الأسفل ، والتشدب انهضام اللحم .

(فجاءته احدهما تمشي على استحياء قالت ان أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا) . رجعت الفتاتان إلى أبيهما ، وأخبرناه بما كان ، فقال لواحدة منها : اذهبي وادعيه لنجزيه على احسانه ، فجاءته الفتاة يكسوها الحياء والحجل ، والطهر والعفاف ، وقالت له ما قال أبوها (فلما جاءه وقص عليه القصص قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين) . استجاب موسى للدعوة ، ورحب به الشيخ وشكره على صنيعه ، ولما طابت نفس موسى واطمأنت إلى الشيخ حدثه بما جرى

سورة القصص

له مع فرعون وقومه فقال له الشيخ : لا تخف .. انك عندنا في مكان حصين أمين ، لا سلطان عليك فيه لفرعون ولا لغيره من الظالمين .

واختلف المفسرون في هذا الشيخ من هو ؟ فأكثرهم على أنه شعيب ، وقال فريق منهم : انه غيره .. ولا مستند هؤلاء وأولئك إلا مرجحات لا تغني عن الحق شيئاً .. ولستأ نهم بمثل هذه الاختلافات ، ما دامت لا تمت الى العقيدة والحياة بسبب .. وقد اخترنا اسم شعيب لهذه الشخصية لمجرد التعبير عنها ، ولأن هذا الاسم هو الشائع بين الأكثرية كما شاع بين طلاب التجف وعلمائها : ليس النزاع في التسمية من دأب المحصلين .

(قالت احدهما) وهي التي استدعته الى أبيها كما يشعر وصفها له بالقوي الأمين (يا أبت استأجره ان خبر من استأجرت القوي الأمين) . وما شهدت إلا بما رأت من قوته وهو يسقي لها ولاختها ، ومن عفته حين توجهت اليه بالدعوة إلى أبيها (قال إني أريد أن انكحك احدى ابنتي هاتين على أن تأجرني ثمانى حجج فإن أتممت عشراً فمن عندك وما أريد أن أشق عليك ستجدنني ان شاء الله من الصالحين) . موسى الشريد الطريد والفقير الذي لا يملك شيئاً ، والذي عاش أياماً على نبات الأرض حتى سأل الله لقمة يقيم بها الأود ، هذا الجائع اللاجئ يعرض عليه شيخ جليل احدى ابنتيه ، ويدع له الخيار في أبتها يريد .. اذن ، لا بد أن يكون هناك سر .. أجل ، هناك سر ، وهو يكمن في شخصية موسى وعظمته التي لمسها الشيخ في صنعه مع ابنتيه ، وفي حديثه وسيرته مع فرعون وقومه التي قصها عليه ، فأدرك الشيخ بفطرته النقية الصافية ان هذه الشخصية سيكون لها ابعاد الآثار لأن الأعمال التي تصدر عن الانسان تكون في الغالب من نوع واحد .. فالشيخ - اذن - هو الفائز الرابع بهذه المصاهرة ، وأي ربح أعظم من مصاهرة الأنبياء والأنقياء ؟ .

الشريعة الاسلامية نسخت جميع الشرائع :

وتكلم الفقهاء كثيراً حول هذه الآية، واستدلوا بها على ان لولي المرأة أن يعرض

زواجها على الرجل .. والحق ان العرض من الرجل والمرأة نفسها فضلاً عن وليها جائز بحسب الأصل ، ولا يحتاج إلى النص عليه ، وقال الإمامية والشافعية : ان الزواج لا ينعقد إلا بلفظ التزويج والانتكاح ، هذا بعد أن عطفوا على هذه الآية قوله تعالى : « فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها - ٣٧ الأحزاب » . وقال المالكية والحنابلة : ينعقد الزواج أيضاً بلفظ الهبة لقوله تعالى : « وامرأة مؤمنة ان وهبت نفسها للنبي - ٥٠ الأحزاب » . وقال الحنفية : ينعقد بكل لفظ يدل على إرادة الزواج .

وقال كثير من الفقهاء : ان الرعي مدة الثاني الحجج أو العشر ليس مهراً للزواج ، ولا هو جزء منه ، بل المهر مستقل تماماً عن الرعي، وان قول الشيخ : « على ان تأجرني الخ » معناه ان رعيت عندي بأجر زواجك احدى ابنتي بعمر ، تماماً كما تقول : ان فعلت كذا فعلت أنا كذا ، وهذا هو المعنى الصحيح للآية .

وعلى أية حال فانه لا حجة في هذه الآية على شيء مما قاله الفقهاء ، لأنها حكاية عن شريعة سابقة ، ونحن على يقين ان الشريعة الاسلامية نسخت جميع الشرائع السابقة ، ولا يجوز العمل بحكم من أحكامها إلا بدليل خاص أو عام من الكتاب أو السنة ، وعليه يكون العمل بهما لا بها ، أما الذين قالوا باستصحاب أحكام الشرائع المتقدمة فنرد عليهم بقوله تعالى : « ما فرطنا في الكتاب من شيء - ٣٨ الأنعام » وقوله : « ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء - ٨٩ النحل » أي لكل شيء من أصول الاسلام وشريعته، وقال الرسول الأعظم (ص) : « ما من شيء يقرّبكم إلى الجنة إلا أمرتكم به وما من شيء يبعدكم عن النار إلا نهيتكم عنه » .

(قال ذلك بيني وبينك أيما الأجلين قضيت فلا عدوان عليّ " والله على ما نقول وكيل) . هذا من كلام موسى ، والأجل الأول الثاني الحجج ، والثاني العشر ، والمعنى ان موسى قال للشيخ : قبلت ورضيت بالزواج والرعي ، والخيار لي في قضاء الثاني أو العشر ، فأيهما اخترت فلا حجة لك عليّ ، والله شهيد على ما أوجبه أنت على نفسك ، وما أوجبه أنا على نفسي . وفي الحديث : ان موسى

قضى أبرّ الأجلين أي العشر ، وفي كثير من التفسير انه اختار الصغرى ، وهي التي قالت له : ان أبي يدعوك ، وقالت لأبيها : انه القوي الأمين .

قضى موسى الأجل الآتية ٢٩ - ٣٢ :

فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُمُ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ * فَلَمَّا أَنَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِهِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تُهَنَّئُ كَانَتْهَا جَانٌّ وَثَى مُذِبراً وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ * أَسْلُكَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ يَبْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَأَضْمَمَ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ *

المعنى :

(فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور نارا قال لأهله امكثوا اني آنست نارا لعلي آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون) . بعد أن أتم موسى المسدة التي اتفق عليها مع أبي زوجته جمع أشتات متاعه ، وسافر قاصداً مصر مع أهله ، وفي قاموس الكتاب المقدس : « ذهب موسى إلى مصر مع زوجته وابنيه » . ولما وصل إلى الصحراء ضل الطريق في ليلة مظلمة

باردة كما يشعر قوله: لعلكم تصطلون . وبينما هو حائر في أمره رأى ناراً تضيء ، فقال لأهله : انتظروا مكانكم ، فأنا ذاهب إلى النار لأتيكم بخبر عن الطريق ، أو بقطعة من النار تستدفئون بها . وتقدم في الآية ١٠ من سورة طه والآية ٧ من سورة النمل .

(فلما أتاها نودي من شاطئ الواد الأيمن) أي الجانب المحاذي ليمين موسى (في البقعة المباركة من الشجرة ان يا موسى اني انا الله رب العالمين) . البقعة القطعة من الأرض ، وهي مباركة لكثرة أنبيائها وكثرة خيراتها ، وقوله : (من الشجرة) يشعر بأن الله سبحانه خلق الكلام في الشجرة ، وقد استدل بهذه الآية من قال ان كلام الله حادث وليس بقديم . وتقدم في الآية ٥٢ من سورة مريم والآية ١٢ من سورة طه .

(وان التى - إلى قوله - الآمين) تقدم في الآية ١٠ من سورة النمل (اسلك يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء واضمم اليك جناحك من الريب فذاذك يرهانان من ربك إلى فرعون وملكه انهم كانوا قوماً فاسقين) . اسلك يدك في جيبك ادخلها فيه ، والجيب فتحة القميص . ومن الريب أي إذا وضعت يدك على صدرك يذهب ما بك من الخوف . وتقدم في الآية ١٠٧ من سورة الأعراف ج ٣ ص ٣٧٥ والآية ٢٢ من سورة طه والآية ٣٣ من سورة الشعراء والآية ١٢ من سورة النمل .

فأخاف ان يقتلون الآية ٣٣ - ٣٧ :

قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ * وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ * قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكَ سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكَ بِآيَاتِنَا أَنْتُمْ وَمَنِ اتَّبَعُكَ الْغَالِبُونَ * فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا

مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ * وَقَالَ
مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ
الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ *

اللغة :

الردء بكسر الراء المعين . والمراد بالسلطان هنا القوة .

الإعراب :

ردءاً حال من الهاء في أرسله .

المعنى :

(قال رب إنني قتلت منهم نفساً فأخاف أن يقتلون) تقدم في الآية ١٤ من
سورة الشعراء (وأخي هرون هو أفصح مني لساناً فأرسله معي ردءاً يصدقني إنني
أخاف أن يكذبون) . ردءاً معيناً لي على بث الدعوة ، وفيه إيماء إلى انه لا بد
لكل دعوة من أنصار ، وإن العلم وحده لا يكفي لاثبات الدفاع عن الحق ما لم
تقرن الحجة بطلاقة اللسان وفصاحة البيان ، وأيضاً تدل الآية على ان القرآن
يبارك وسائل الدعاية كالصحف والاذاعات وغيرها على شريطة أن تتجه إلى احقاق
الحق والانتصار لأجله ، وإبطال الباطل والتشهير بأعدائه ، تماماً كما استعمل هرون
علمه وفصاحته ضد الطاغية فرعون .

وقيل : ان هرون أكبر من موسى بثلاث سنين .. ولا ندرى كيف نجا من
الذبح ، وغير بعيد ان هرون وُلِدَ قبل أن يأمر فرعون بذبح كل مولود يولد
لبني اسرائيل . وفي التوراة الاصحاح ٣٢ من سفر الخروج ان هرون هو الذي

صنع العجل لبني اسرائيل، وبني له مذبحاً ، وليس السامري كما جاء في الآية ٩٦ من سورة طه .

(قال سنشد عضدك بأخيك) . سأل موسى ربه أن يشد ازره بأخيه هرون ، فاستجاب له ، وآتاه سؤله ، أما قول موسى : « فأخاف أن يقتلون » فقد أجابه عنه تعالى بقوله : (ونجعل لكما سلطاناً فلا يصلون اليكما بآياتنا أنهما ومن اتبعكما الغالبون) . في الآية ٤٦ من سورة طه : « قال لا تخافا اني معكما أسمع وأرى » . وقال هنا : اني سلمتكما بسلاح يرهب فرعون وجنوده ، ويمتنعون بسببه عنكما وعن السذين يؤمنون بكما ، وهذا السلاح أو السلطان هو الآيات والمعجزات من انقلاب العصا حية وتحول اليد البيضاء إلى الجراد ، والقمل، والضفادع، وغير ذلك .

(فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات قالوا ما هذا إلا سحر مفترى وما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين) . تقدم في الآية ١١٠ من سورة الأعراف والآية ٦٣ من سورة طه (وقال موسى ربي أعلم بمن جاء بالهدى من عنده ومن تكون له عاقبة الدار انه لا يفلح الظالمون) . كذبوا موسى وقالوا له : أنت ساحر ، فأجابهم جواب من لا يكثر بتكذيبهم وعنادهم ثقة منه بالله ووعد ، ويتلخص الجواب بأن الله يعلم اني على الحق والهدى ، وانكم على الباطل والضلال ، وأيضاً يعلم ان العاقبة الحميدة لي ولمن اتبعني ، ولكم عقى الهلاك في الدنيا ، وعذاب النار في الآخرة .

ما علمت لكم من إله غيري الآية ٣٨ - ٤٣ :

وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانَ عَلَى الطِّينِ فَأَجْعَلْ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أُطْلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ * وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ

وَوَظَنُوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ * فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ
فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ * وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ
وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ * وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ
هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ * وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا
الْقُرُونَ الْأُولَى بِصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهَدَى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ *

اللغة :

هامان وزير فرعون . وصرحاً بناءً عالياً . وأطلع اصعد . فنبذناهم طرحناهم .
واللعنة البعد عن رحمة الله . والمقبوحين المخزيين المهلكين .

الإعراب :

من إله (من) زائدة إعراباً وإله مفعول علمت ، وغيري صفة له . وبصائر
حال من الكتاب وهدى ورحمة عطف على بصائر .

المعنى :

(وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري) . قال هذا لأنه
وجد من يصدقه .. وحفظت مثلاً أيام الطفولة ، وما زلت على ذكر منه ، وهو
« قيل لفرعون : من الذي فرعتك ؟ قال : ما وجدت أحداً يردعني » وأكثر
الناس « يتفرعون » لولا القوة الرادعة . انظر تفسير الآية ٢٤ من سورة النازعات :
« وقال أنا ربكم الأعلى » . وفي قاموس الكتاب المقدس ان فرعون كلمة مصرية ،
ومعناها البيت الكبير ، وهي لقب للملك مصر .

(فأوقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحاً لعلي أطلع إلى إله موسى واني لأظنه من الكاذبين) . عجز فرعون عن مقابلة الحججة بالحجة ، وخاف من موسى وعصاه ، فحاول أن يخفي خوفه وعجزه بالتمويه على شعبه العريق في السذاجة ، فأظهر الشك في وجسود إله سواه ، وانه سينظر ويبحث عن هذا الإله .. فإن وجده طلبه للبراز .. وإلا - وهذا هو المظنون عند فرعون - كان موسى من الكاذبين .. وليؤكد هذا التمويه على أعين الرعايا الذين عبدوه قال لوزير هامان: أوقد النار ، واصنع الآجر لبناء صرح رفيع أصعد منه إلى السماء ، لأبحث عن إله موسى .. ولم يبنِ هامان الصرح - كما نظن - لأنه على يقين من مكر فرعون وتدليس ، وأي عاقل يحاول البناء إلى ما لا نهاية ، ويتوهم انه بالخشب والآجر يبلغ السموات العلى ، ويعلم من فيها وعليها ؟ .

(واستكبر هو وجنوده في الأرض بغير الحق وظنوا أنهم ألينا لا يَرْجِعُونَ) . تعاضموا وتعالوا على الناس ، وأخذتهم العزة بالإثم ، وعاثوا في الأرض شراً وفساداً ، والسبب الأول والأخير أنهم لا يؤمنون بالله واليوم الآخر ، ولا بمبدأ وضيمير ، ولا بشيء إلا بأنفسهم ومنافعهم ، ولذا أخذهم جل وعز أخذ عزيز مقتدر (فأخذناه وجنوده فبيذناهم في اليم فأنظر كيف كان عاقبة الظالمين) . ألقى أم موسى وليدها في اليم خوفاً من فرعون ، فالتقطه هذا العدو لله ولموسى ليبتلع به أو يتخذ ولدأ . ولما شبَّ موسى وكبر حاول جهده أن ينفع فرعون وينقذه من الهلاك والعذاب ، ولكنه نفر وتكبر ، فكان عاقبة أمره ان أهلكه سبحانه في نفس اليم الذي ألقى فيه موسى ، والتقطه منه آل فرعون .. وان في ذلك لعبرة لأولي الأبصار .. ولكن أين هم ؟ .

(وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون) . ضمير جعلناهم يعود إلى فرعون وجنوده ، والمعنى أنهم في الدنيا ضالون ومضلون ، وأنهم في الآخرة هم الأخسرون ، ومعنى جعلناهم ان الله سبحانه قضى وقدر أن من يسلك طريق الضلال فهو ضال ، تماماً كما قضى وقدر أن من يسلك طريق الهلاك فهو هالك ، وبيتنا ذلك فيما تقدم أكثر من مرة . وعن الإمام جعفر الصادق (ع) ان الأئمة في كتاب الله نوعان : أئمة الهدى ، وهم الذين أشار سبحانه إليهم بقوله : « وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا - ٧٣ الأنبياء » فيقدمون أمر الله قبل أمرهم ،

وحكمه قبل حكمهم ، وأئمة يدعون إلى النار ، يقدمون أمرهم قبل أمر الله ، وحكمهم قبل حكمه ، ويأخذون بأهوائهم خلاف ما في كتاب الله .

(وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين) . عليهم في الدنيا لعنة الله ولعنة اللاعنين ، ولهم في الآخرة عذاب الجحيم (ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى بصائر للناس وهدى ورحمة لعلهم يتذكرون) . أنزل سبحانه التوراة على موسى بعد أن أهلك قوم نوح وعاد وثمود ، والغرض من انزالها أن يتعظ الناس بها ، ويعملوا بأحكامها لأنها كانت قبل التحريف نوراً وهدى ورحمة ، أما توراة اليوم فانها تقول لبني اسرائيل : « اقتلوا الرجال والأطفال والنساء إلا الأبقار منهن ، أبتوهن للذاتكم وشهواتكم .. وانهبوا البهائم والمواشي والأموال .. واحرقوا المدن والمساكن والحصون » كما في الإصحاح ٣٢ من سفر العدد . فهل بعد هذا يقال : لماذا أحرقت اسرائيل المسجد الأقصى ؟ . ان عقيدة اليهود عقيدة شريرة تعادي جميع الأديان والشرائع والقيم الانسانية .

محمد وأنباء الغابرين الآية ٤٤ - ٥١ :

وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ * وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ * وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مِمَّا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * وَلَوْلَا أَنْ نُصِيبَهُمْ مُصِيبَةً بِمَا قَدَّمْتْ أَيْدِيَهُمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا

قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى أَوْ لَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى
مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرُونَ * قُلْ فَأْتُوا
بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهَا أُتْبِعَهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَإِنْ
لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ
هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * وَلَقَدْ
وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ *

اللغة :

قرون جمع قرن ، والمراد به أهل عصر من العصور فاذا انقضى أكثرهم
قيل : انقضى القرن . فخطاؤهم عليهم العمر أي طال عليهم الأمد الذي بينهم وبين
القرون الماضية . وثاوباً مقبلاً . وصلناه ببناء آية بعد آية .

الإعراب :

إن ظرف متعلق بما تعلق به بجانب الغربي أي وما كنت موجوداً إذ قضينا . وجملة
تنلو حال من اسم كنت . ورحمة مفعول من أجله لفعل محذوف أي أوحينا إليك
رحمة . ولولا أن تصيبهم (لولا) تدل على امتناع شيء لوجود غيره . والمصدر
من أن تصيبهم مبتدأ وخبره محذوف أي لولا إصابتهم المصيبة كائنة ، وجواب
لولا محذوف أيضاً تقديره لم نحتاج إلى إرسال الرسل . فيقولوا بالنصب عطفاً على
أن تصيبهم . ولولا أرسلت (لولا) بمعنى هلا . فنتج منصوب بأن مضمرة بعد
الفاء لتقدم الطلب وهو لولا . ونكون عطف على فتتبع . وسحران خبر مبتدأ
محذوف أي هما سحران . وبغير هدى في موضع الحال أي غير مهتدين .

المعنى :

(وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين). الخطاب لمحمد (ص) ، والمراد بجانب الغربي المكان الواقع غربي الجبل ، كما في تفسير الطبري ، وهو المكان الذي كلم الله فيه موسى ، أما الجانب الأيمن الذي ورد في الآية ٥٢ من سورة مريم فالمراد به الجانب الذي يلي يمين موسى ، والمراد بالأمر الذي قضاه إلى موسى اختياره للرسالة والنبوة ، والمعنى ان إخبار محمد (ص) عما حدث لموسى في غربي جبل الطور هو دليل قاطع على أنه وحي من الله ، والا فمن أين لمحمد العلم بتلك الحقائق والدقائق ، ولم يقرأها في كتاب ، ولا سمعها من أحد ، ولا شاهدها بنفسه .

(ولكننا أنشأنا قروناً فتطاول عليهم العمر) . المراد بالقرون الأمم التي مرت وانقضت بين عهد موسى وعهد محمد ، وبين هذين العهدين حوالى ألفي عام . انظر ما نقلناه عن قاموس الكتاب المقدس عند تفسير الآية ٧ من هذه السورة ، والمعنى ان الأمم التي أنشأها الله بين العهدين المذكورين لم يبق منها أحد يخبر عنها ، وهذا دليل واضح على ان علم محمد (ص) بها انما هو بوحى من الله ، هذا الى ان الناس قد طال الأمد بينهم وبين الأنبياء ، وأصبحوا في جاهلية جهلاء ، واحتاجوا الى نبي يرشدهم ويهديهم الى سواء السبيل ، فأرسل الله محمداً بشيراً ونذيراً ، وأخبر الناس عن أحوال الأمم الماضية وأنبيائهم بوحى منه تعالى للدلالة على نبوته من جهة ، ولتعتظوا بمن كان قبلهم من جهة ثانية .

(وما كنت ثاوياً في أهل مدين تتلو عليهم آياتنا ولكننا كنا مرسلين) . مدين بلد شعيب ، وقد أخبر محمد (ص) عنه وعن قومه أهل مدين ، تماماً كما لو أخبر شعيب نفسه الذي كان يتلو على قومه آيات الله مع ان محمداً لم يكن نبياً لأهل مدين يتلو عليهم الآيات ويأتيهم بالمعجزات ، ولكن الله هو الذي أخبره بذلك لأنه رسول الله الى عباده وأمينه على وحيه (وما كنت بجانب الطور إذ نادينا) أي لم تكن حاضراً يا محمد حين نادى الله موسى بجانب الطور . وتساءل: لا فرق بين قوله تعالى : وما كنت بجانب الطور ، وبين قوله في الآية السابقة: وما كنت بجانب الغربي ، فما هو القصد من هذا التكرار في كلام واحد ؟.

الجواب : ان الله سبحانه كلم موسى وناداه بجانب الطور أكثر من مرة ، فمن الجائز أن تكون الآية الأولى اشارة إلى النداء الأول، والآية الثانية الى النداء الثاني ، هذا الى ان التكرار طريقة متبعة في القرآن . انظر ما كتبناه بعنوان : « التكرار في القرآن ج ١ ص ٩٦ وج ٢ ص ٤٤٠ .

(ولكن رحمة من ربك لتنذر قوماً ما أنأهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون).
أرسل الله محمداً رحمة للعالمين ينذر ويبشر الناس ليسلكوا الطريق الذي يؤدي بهم الى سعادة الدارين .

وتسأل : كيف تجمع بين قوله تعالى : لتنذر قوماً ما أنأهم من نذير من قبلك، وبين الآية ٢٤ من سورة فاطر : وان من أمة إلا خلا فيها نذير ؟ .

الجواب : ذكرنا أكثر من مرة ان آيات القرآن يفسر بعضها بعضاً لأن مصدره واحد ، وقد جاء في الآية ١٩ من سورة المائدة : « قد جاءكم رسولنا بين لكم على فترة من الرسل ، أي بعد انقطاع الوحي فترة من الزمن، وعليه فليس المراد بقوله : « ما أنأهم من نذير من قبلك » ان الله لم يرسل اليهم رسولا قبل محمد على الاطلاق ، بل المراد انه لم يرسل رسولا في فترة معينة من الزمن .

(ولولا أن نصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم فيقولوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا ففتيح آياتك ونكون من المؤمنين) . المراد بالمصيبة عذاب الله في الدنيا ، والمعنى ان الله سبحانه أرسل الرسل لكيلا يكون للناس على الله الحجة إذا حل بهم العذاب بسبب كفرهم وطفيتهم . وتقدم مثله في الآية ١٦٥ من سورة النساء ج ٢ ص ٤٩٥ والآية ١٩ من سورة المائدة ج ٣ ص ٤٠ .

(فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا لولا أوتي مثل ما أوتي موسى) . إذا لم يأتيهم الرسول قالوا : لو جاء لاتبعتنا ، وإذا جاء الرسول تعللوا بالباطيل .. ولا يختص هذا التمحك والروغان بالذين كذبوا محمداً (ص) وقالوا له : لو جئت بعضاً كعصا موسى ، ويد كيده البيضاء لآمنّا بك . كلا ، انه دأب المترفين الطغاة في كل زمان ومكان ، دأب الذين لا يؤمنون إلا بمنافعهم ومصالحهم ، ومن أجلها يتلونون بكل لون ، ويتحالفون مع الشيطان ضد كل صلاح ومصلحة . (أو لم يكفروا بما أوتي موسى من قبل) . طلبوا من رسول الله (ص) أن

يأتيهم بمثل ما جاء به موسى من المعجزات ، فأجابهم سبحانه بأن من طلب الحق لوجه الحق يستجيب له ، ويؤمن به متى استبان حجته وظهرت دلائله أياً كان نوعها وشكلها ، أما الذين لا يؤمنون إلا بأهوائهم ، ويتخذونها قائداً ودليلاً في جميع تصرفاتهم - أما هؤلاء فلا تنفي معهم الدلائل والمعجزات ، سواء أتى بها موسى ، أم أتى بها محمد ، أم الأنبياء مجتمعين .. ودليل هذه الحقيقة ان الطغاة كفروا بما جاء به موسى تماماً ككُفْر الطغاة من قريش بما جاء به محمد، ولو كان محمد بمعجزاته مكان موسى ، وكان موسى بمعجزاته مكان محمد لقاتل قريش : لولا أوتي موسى مثل ما أوتي محمد .. وهذا هو شأن المبطلين في كل زمان ومكان .

(قالوا سحران تظاهرا وقالوا إنا بكل كافرون) . المراد بالسحرين هنا التوراة والقرآن، وتظاهرا أي ان كلا منهما يصدق الآخر، والمعنى الجملي ان قريشاً قالت : التوراة سحر ، وموسى الذي جاء بها ساحر ، وأيضاً القرآن سحر ، ومحمد الذي جاء به ساحر ، ونحن نكفر بهما وبسحرهما .

(قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منها أتبعه ان كنتم صادقين) . قالوا : التوراة سحر ، ومثلها القرآن .. فقال سبحانه لنبيه الكريم : قل لهم : ان كان لديكم كتاب هو خير للانسانية من التوراة والقرآن فأتوا به، وأنا على أتم الاستعداد لاتباعه والعمل به ، وهذا مثل قوله تعالى : و قل ان كان للرحمن ولد فأننا أول العابدين - ٨١ الزخرف .

(فان لم يستجيبوا لك فاعلم انما يتبعون أهواءهم ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله) . لقد تحدى القرآن أهل الفصاحة والبلاغة بفصاحته وبلاغته، وتحدى البشرية كلها بمبادئه وتعاليمه ، وقال : انها تهدي الانسان التي هي أقوم في عقيدته وشريعته ، وهذا هو بين أيدي الناقدين والدارسين فليأتوا بما هو أهدى منه للناس ، أو بمثله ويدعوا من شاءوا وما شاءوا ، فإن عجزوا ولم يؤمنوا فلا دليل لهم الا العمى والضلال يقودهم الى كل سوء ، وهذا هو المعنى المراد بقوله تعالى : (ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ان الله لا يهدي القوم الظالمين) بعد أن جنوا على أنفسهم ، وسلكوا بها سبيل الهلاك والضلال .

(ولقد وصلنا لهم القول لعلهم يتذكرون) . المراد بالقول هنا القرآن الذي أُنزل بما أنزل ، والمعنى ان الله سبحانه أرشد العباد الى ما لهم وما عليهم ليطيعوا ويعملوا ، فمن عمل وأصلح فهو في أمن وأمان ، والعذاب على من كذب وتولى .

يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ الْآيَةُ ٥٢ - ٥٤ :

الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ
قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ * أُولَٰئِكَ
يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرُوكَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَيَمَّا
رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا
وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ *

: ۱۱۱

مسلمين متقادين . يدرأون يدفعون . اللغو ما لا فائدة فيه . لا نبتغي الجاهلين
لا نخاطبهم .

الإعراب :

الذين مبتدأ أول وهم مبتدأ ثان وجملة يؤمنون خبر الثاني ، وجملة الثاني
وآخره خبر المبتدأ الأول . مرتين قائمة مقام المفعول المطلق .

المعنى :

(الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون) . ضمير قبله وبه يعودان

سورة القصص

إلى القرآن بدليل قوله تعالى بلا فاصل : « وإذا يتلى عليهم » .. وقد ثبت بالتواتر ان كثيراً من النصارى وبعض اليهود آمنوا بمحمد (ص) لأن التوراة والانجيل قد نصتتا على أوصافه قبل تحريفها : « الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والانجيل - ١٥٧ الأعراف » ، وتقدم نظير هذه الآية في سورة البقرة الآية ١٢١ ج ١ ص ١٩٣ والآية ١٩٩ من سورة آل عمران ج ٢ ص ٢٣٦ .

(وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به انه الحق من ربنا انا كنا من قبله مسلمين) .
قرأ العلماء من أهل الكتاب أوصاف الرسول الأعظم (ص) والقرآن الكريم في التوراة والانجيل ، قرأوا ذلك قبل أن يُبعث محمد (ص) ، ولما بُعث نبي عليهم القرآن فعرفوه وعرفوا محمداً بأوصافها كما هي في الكتابين تماماً كما عرفوا أبناءهم : « الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم - ١٤٦ البقرة » . فأمن فريق منهم ، وفريق كتموا الحق وهم يعلمون ، حرصاً على المناصب والمكاسب .
(أولئك يؤثرون أجراً مرتين) : مرة على إخلاصهم في دينهم الذي أمرهم باتباع محمد والقرآن ، ومرة (بما صبروا) على أذى السفهاء من الكافرين لأن إسلامهم كان حجة دامغة على من أصر على الكفر والعناد .

الصبر حكمة وبطولة :

(ويدعون بالحسنة السيئة) . لاقي المسلمون الأولون الكثير من الأذى والتنكيل حتى محمد (ص) كان إذا مر في الطريق يصيح به السفهاء : « مجنون .. كذاب .. ساحر » فصبروا وتحملوا في غير شكاة ، وقد عبر سبحانه عن صبرهم بالحسنة ، وعن إساءة المشركين وإذابتهم بالسيئة ، وفي هذا التعبير إيحاء إلى أن السلاح الوحيد للضعيف هو الصبر ، وإن الجزع وانهيار الأعصاب ضرب من الجنون ، وإن المقاومة بغير سلاح موت وانتحار .. فصبر الضعيف عقل وحكمة ، وشجاعة وبطولة ، على شريطة أن يسعى ويعمل جاهداً لإزالة الضعف وأسبابه ، ومن تقاعس وتكاسل فقد هانت عليه نفسه ، ورضي لها الذل والهوان .. وبكلمة : ان الضعيف كالمريض ، عليه أن يسعى للشفاء ، ولا يصبر على الدواء إلا بعد العجز واليأس .

(وما رزقناهم ينفقون) يدرهون شر المسيء بالصبر عليه ، وأيضاً يحسنون إليه وإلى غيره بالاتفاق والعطاء إذا رزقهم الله من فضله ، قال الإمام علي (ع) : عاتب أخاك بالاحسان إليه ، واردد شره بالإنعام عليه (وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه) . تعرض الكافرون بالسب والشتم للذين أسلموا وآمنوا بالله ورسوله فتحملوا وتحاملوا (وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم) أنتم راضون بما عندكم من الباطل ، ونحن راضون بما عندنا من الحق (سلام عليكم) قال المفسرون : هذا سلام الاحتمال من الجاهلين ، وليس بسلام تحية ، تماماً كما تقول لمن تريد البعد عنه : اذهب عني بسلام (لا نبتغي الجاهلين) لا نخالطهم ولا نتخلق بأخلاقهم .

انك لا تهدي من أحببت الآية ٥٦ - ٦١ :

إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ
بِالْمُتَّبِدِينَ * وَقَالُوا إِنْ تَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ تَتَخَلَّفَ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ
لَمْ نُمْكِنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا
وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا
فَتِلْكَ مَسَاكِينُهُمْ لَمْ تَسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ *
وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ
آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ * وَمَا أَوْثَقْتُمْ مِنْ
شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا
تَعْقِلُونَ * أَفَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ *

اللغة :

تُخطف من التخطف ، وهو أخذ الشيء على وجه الاستيلاء . والبطر الطغيان عند النعمة . والمراد بأبهما هنا أكبرها أو عاصمتها . ومن المحضرين أي ان الله سبحانه يحشرهم غداً للحساب والجزاء .

الإعراب :

رزقاً مفعول من أجله ليحيى، أو مفعول مطلق لأنَّ يحيى يتضمن معنى الرزق، فيكون مثل قَت وقوفاً . ومن لدنا متعلق بمحذوف صفة للرزق . وكم خبرية في محل نصب بأهلكنا . ومن قرية تمييز . ومعيشتها منصوب بترع الحافض أي بطرت في معيشتها ، ويجوز أن يكون بطرت بمعنى كفرت ومعيشتها مفعول . فتلك مساكنهم مبتدأ وخبر ، وجملة لم تسكن حال من مساكنهم . وقليلًا صفة لمحذوف أي زمانًا قليلًا . وما أوتيتم (ما) اسم شرط مبتدأ . فتاع خبر لمبتدأ محذوف أي فهو متاع . وما عند الله (ما) اسم موصول مبتدأ، وخبر خبر .

أبو طالب والاسلام :

(انك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء والله أعلم بالمهتدين) .
اختلفوا في سبب نزول هذه الآية ، فقال أكثر المفسرين من أهل السنة : انها نزلت في عم النبي أبي طالب . وقال الشيعة : لم تنص الآية على أبي طالب ولا غيره ، والنبي (ص) يحب الهداية لكل الناس الأقربين والأبعدين ، وكلمة (من) من صيغ العموم ، وتفسيرها بأبي طالب وحده تصرف في كلام الله بغير دليل ، أما الروايات القائلة : ان الآية نزلت في أبي طالب فلم تثبت صحتها عندنا ، وعليه تكون الآية مرادفة لقوله تعالى : ه أفأنت تهدي العمي - ٤٣ يونس ٤ .

وقد أطال صاحب الظلال أو في الظلال ، أطال الحديث حول هذه الآية ،

ثم انتهى إلى الأخذ بمذهب الآباء والأجداد ، واعتمد أدلة الأقدمين دون محاكمة وتمحيص ، مع أنها تناقض الفطرة تناقضاً بيناً ، وقد كرر صاحب الظلال مرات ومرات ان القرآن يخاطب الفطرة في أعماقها ، ونحن نحاكم أقواله محاكمة فطرية وموضوعية ، لا مذهبية تعصبية ، ونرجو القارىء أن ينظر إلى أقوالنا نظرة العالم المنصف .

قال صاحب الظلال ما نصه بالحرف : « هذا عم رسول الله (ص) وكافله وحاميه والذائد عنه لا يكتب الله له الإيمان على شدة حبه لرسول الله وشدة حب رسول الله له ، لا يكتب الله له أن يؤمن » . ومعنى هذا ان الله كره أن يقول أبو طالب : لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ، ولكن رسول الله أحب هذا القول من عمه ، وأصر عليه .

ونسأل : هل يصح في حكم العقل والفطرة أن يحب رسول الله شيئاً يكرهه الله ويمقتة ؟ اذن ، كيف قرن الله طاعة رسوله بطاعته في العديد من الآيات ؟ وإذا كره الله الاسلام من أبي طالب ولم يكتبه له على حد تعبير صاحب الظلال فعلى أي شيء يعاقبه ويضمه في « ضحضاح » من نار كما روى المفرون ؟ وهل يجوز للقوي أن يأخذ الضعيف بما لم يفعل ؟ كيف وهو القاتل : « وما أنا بظلام للعبيد » ؟ ولماذا أحب الله الاسلام من أبي سفيان وكرهه من أبي طالب ؟ لأن أبا سفيان كان أشد الناس بغضاً لرسول الله ، ولذا حشد له الجيوش ، وشن عليه الحروب ، ولأن أبا طالب أحب رسول الله حباً شديداً وحضنه وحماه وذاد عنه على حد تعبير صاحب الظلال ، أو لأن أبا سفيان هو والد معاوية ، وأبا طالب والد علي ؟

وتجدر الإشارة إلى ان كل ما جاء في هذه التساؤلات فهو جائز على الله عند القائلين بكفر أبي طالب لأنهم يؤمنون بأن الله لا يحب عليه شيء ، ولا يقبح منه شيء ، وان له ان يعاقب الأبرياء ، ويمسح إلى سفاكي الدماء .. ولا أدري : هل أراد صاحب الظلال هذا المعنى من الفطرة التي يخاطبها القرآن في أعماقها ؟ .

وبعد ، فان كتابة التفسير وغير التفسير تتأثر بعقيدة الكاتب وميوله ، وثقافته وبيئته ، وظروفه وورائته ، وهذا ناموس طبيعي لا يشذ عنه كبير ولا صغير ..

ولكن ليس معناه ان جميع العقائد والميول لا تتفق مع الحق والواقع، والا استحال قول العدل والصدق .. وما على الانسان إلا ان يجدد ويجتهد في طلب الحق من مصدره ، لا من الميول والتقاليد .. وهذا ما نحاوله ونهدف اليه ، والله من وراء القصد . ونعطف هذه الأسطر على الصفحات التي كتبناها في هذا الموضوع عند تفسير الآية ١١٣ من سورة التوبة ج ٤ ص ١٠٧ .

(وقالوا ان نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا) . في رواية ان رسول الله (ص) قال : « والذي نفسي بيده لأدعون إلى هذا الأمر الأسود والأبيض ، ومن على رؤوس الجبال ، وفي لجج البحار ، ولأدعون أهل فارس والروم » ، ولما سمع ذلك عتاة قريش استعظموه ، وقالوا لرسول الله (ص) : « كيف نتبعك وأنت على نيتك هذه ، ولو استجبنا لك لاجتمع الناس بما فيهم فارس والروم ، وتظاهروا على اخراجنا من ديارنا ، وهدموا الكعبة حجراً حجراً » . وسواء أوضحت هذه الرواية أم لم تصح سنداً فإن مضمونها يصلح تفسيراً لهذه الآية ، فلقد دعا رسول الله الأسود والأبيض ، وأصر على دعوته ، وحاربه عتاة قريش من أجلها ، بالاضافة إلى ان هذه الرواية تتفق تماماً مع قوله تعالى : (أو لم نمكن لهم حرماً آمناً يُنجي اليه ثمرات كل شيء رزقاً من لدنا) . كيف تخافون يا أهل مكة من الناس ، والله سبحانه قد منع بلدكم هذا وصانه من القتل والسبي والنهب منذ يومه الأول ، وجعل أفئدة من الناس تحمل اليه من كل الثمرات والطيبات ؟ (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) أن الله سبحانه خص بلدكم بهذه المنقبة دون سائر البلدان .

(وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم نسكن من بعدهم إلا قليلاً وكنا نحن الوارثين) . قالوا للرسول (ص) : نخشى الناس ان اتبعناك . فأجابهم سبحانه في الآية السابقة : أتخافون من الناس وقد جعل الله بلدكم حرماً آمناً ؟ .. ثم قال لهم في هذه الآية : أتخافون من الناس ولا تخافون من الله ؟ ألا تعتبرون بالأثم الماضية التي طغت وكفرت بأنتم الله ، فأهلكها لكفرها به وبأنعمه ، وترك مساكنها خاوية على عروشها إلا من البقية الباقية ، أما أكثرها فلا وارث لها إلا وارث الأرض ومن عليها واليه المصير . وتقدم مثله في الآية ١٢٨ من سورة طه .

(وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولاً يتلو عليهم آياتنا وما كنا مهلكي القرى إلاّ وأهلها ظالمون) . الله عادل وحكيم لا يعذب أحداً إلا بعد التذكير والتحذير .

وتسأل : الظاهر من الآية ان الله لا يبعث رسولاً في البلد الصغير، أو إذا بعث فيه رسولاً ، ولم يستجب أهله لدعوته فلا يعذبهم ، لأن المراد بالأم في الآية البلد الكبير أو العاصمة .. ولا يتفق هذا مع مبدأ المساواة في التكليف ووجوب الدعاة بين عموم الناس ؟.

الجواب : ان الآية واردة مورد الغالب ، فان أكثر الأنبياء بُعثوا في البلد الكبير ، وكل نبي كان يبعث مرشداً من قبله إلى البلد الصغير . وتقدم نظير هذه الآية في سورة الأنعام الآية ٦ ج ٣ ص ١٦٢ وفي سورة هود الآية ١١٨ ج ٤ ص ٢٧٨ .

(وما أوتيتم من شيء فتنازع الحياة الدنيا وزينتها وما عند الله خير وأبقى أفلا تعقلون) . المذموم من متاع الحياة ما يطفئ معه الانسان ، ويعتو في الأرض فساداً بسببه ، وإلا فلا يُحرم زينة الله والطيبات من الرزق إلا جاهل بدِين الله . وتقدم مثله في الآية ١٠٣ من سورة البقرة ج ١ ص ١٦٢ والآية ٧٧ من سورة النساء ج ٢ ص ٣٨٣ .

(أفن وعدناه وعداً حسناً فهو لاقية كمن تمتعنا متاع الحياة الدنيا ثم هو يوم القيامة من المحضرين) . وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار ، والله منجز وعده لا محالة ، وليس من شك ان السذي يتنعم في جنة الخلد لا يقاس به من يتنعم أباماً في هذه الحياة ، ثم يساق قهراً إلى عذاب الجحيم .

أين شركائي الذين كُنتُم تَزْعُمُونَ * قَالَ الَّذِينَ

وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُم تَزْعُمُونَ * قَالَ الَّذِينَ

حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا كَغَاوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ
مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ * وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا
لَهُمْ وَرَأُوا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ * وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا
أَجَبْتُمْ أَلْمُوسِلِينَ * فَحَمِيتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءَ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ *
فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَغَسَى أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ *
وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى
عَمَّا يُشْرِكُونَ * وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ *
وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ
وَالِإِيَّاهِ تُرْجَعُونَ *

اللفظة :

حق عليهم وجب عليهم . والمراد بالقول هنا العذاب . والغواية للضلال .
فعميت خفيت . والمراد بالأنباء الأجوبة والاعذار . والخيرة الاختيار .

الاعراب :

هؤلاء مبتدأ والذين أغوينا صفة ، وأغويانهم كما غويينا خبر . وإيانا مفعول
مقدم ليعبدون .

المعنى :

(ويوم يناديهم فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون) . يحشر سبحانه غداً

عبدة الأوثان والجاه والحطام ، ويسألهم للتوبيخ والشهير : أين الذي كنتم تعملون من أجله ، وتخلصون له من دون الله ؟ .

(قال الذين حق عليهم القول ربنا هؤلاء الذين أغويناهم كما غوينا نبرأنا إليك ما كانوا إيانا يعبدون) المراد بالذين حق عليهم القول قادة الشرك والضلال ، والمراد بالقول كلمة العذاب التي جاءت في الآية ٧٩ من سورة الزمر : «ولكن حققت كلمة العذاب على الكافرين» وهؤلاء اشارة إلى الأتباع الضعفاء، والمعنى ان الله سبحانه حين يسأل المشركين : أين شركائي يجيبه الضعفاء : ربنا انا اطعنا سادتنا وكبراءنا فأصلونا السبيل ، فيقول السادة الأعداء : كلا ، لم نكره هؤلاء الأتباع على الشرك والغواية ، ولكن دعوناهم الى ذلك فاستجابوا مختارين ، تماماً كما استجبنا نحن لاهوائنا طائعين، وانا نبرأ منهم ومن أعمالهم، وما كانوا يعبدوننا وانما كانوا يعبدون الأصنام والشيطان .. وهكذا يفعل أرباب المصالح والأغراض يخدعون البسطاء ويغترون بهم ، وينخدعونهم أداة لأهوائهم حتى اذا جد الجدد ، ودارت دائرة السوء على رؤوس التابعين والمتبوعين - قال هؤلاء لاولئك ما يقوله الشيطان غداً لأتباعه : ما كان لي عليكم من سلطان الا ان دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم .. اني بريء منكم .. اني أخاف الله والله شديد العقاب.

(وقيل ادعوا شركاءكم) يقال غداً لأعوان الظلمة وأذنابهم : أين الذين كنتم تعبدون من دون الله ؟ ادعوهم لينقذوكم من العذاب (فدعوههم فلم يستجيبوا لهم) ضعف الطالب والمطلوب (ورأوا العذاب لو أنهم كانوا يهتدون) علموا ان العذاب واقع لا محالة ، فتمنوا لو كانوا مؤمنين (ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين) . مرة ثانية يسألهم سبحانه بقصد التوبيخ والتأنيب : لقد أرسلت اليكم رسلي ، وتلوا عليكم آياتي وانزلوكم لقاء يومكم هذا ، فاذا فعلتم ؟ هل استجبتم وأطعتم ، أو أعرضتم وتمردتم ؟ .

(فعميت عليهم الأنباء) خرسوا عن الجواب لعجزهم عنه ، ولما بهم من الدهشة والهوان (فهم لا يتساءلون) لا يسأل بعضهم بعضاً فيما ينجيهم من العذاب، كيف وقد يشوا من كل شيء (فأما من تاب وآمن وعمل صالحاً فعسى أن يكون من المقبلين) . هذا على عادة القرآن ، يقرن ذكر من أطاع وثوابه بذكر

من عصي وعقابه ، وبالعكس ، وعسى في كلام المخلوق تدل على الترجي في المحبوب ، والاشفاق في المكروه ، وتدل في كلام الخالق على الوجوب ، وعليه فالتائب الصالح من المفلحين المرضيين عند الله بالقطع واليقين .

(وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون) .
الله هو الخالق المالك ، ولا أحد يملك معه شيئاً ، وكل أفعاله حكمة وخير وصواب ، وما لأحد أن يرد ويعترض ، فكيف ينسبون اليه الشركاء (وربك يعلم ما تكن صلورهم وما يعلنون) وأيضاً هو عالم الغيب والشهادة ، والشركاء المزعومون لا يعلمون شيئاً (وهو الله لا إله إلا هو) وحده المستحق للعبادة (له الحمد في الأولى والآخرة) الحمد لله في الدنيا على فضله وآلائه ، وفي الآخرة على ثوابه وجزائه (وله الحكم) النافذ في كل شيء بكلمة « كن » . (وإليه ترجعون) ولا مناص لأحد من هذا المرجع ، والسعيد من ثبتت حجته ، وقُبات معذرتة .

الحكمة من الليل والنهار الآية ٧١ - ٧٥ :

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَوْ لَآ تَسْمَعُونَ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَوْ لَآ تُبْصِرُونَ * وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ * وَتَزَعَّنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَخَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ *

اللغة :

أرأيتم أخبروني . وسرمداً دائماً . ونزعنا أخرجنا .

الإعراب :

غير الله صفة لإله . وفي مفعلي ابن هشام ان جماعة من النحاة ، منهم الأخفش والكسائي قالوا : ان لعل تأتي بمعنى كي مثل لعلكم تشكرون . وهاتوا اسم فعل بمعنى قدموا .

المعنى :

(قل أرأيتم ان جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون . قل أرأيتم ان جعل الله عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون) . لا بد للإنسان من العمل والراحة بالنوم ، والعمل يحتاج إلى ضياء ، والنوم في الظلام أعمق وأصح للجسم ، فخلق سبحانه النهار للعمل ، والليل للراحة ، وقد ذكر ، جلت حكمته ، عباده بنعمة الليل والنهار ، وانه لو استمر الليل بلا صباح ، أو النهار بلا ليل لكانت الحياة إلى بوار .

وقال سبحانه عند ذكر الليل : أفلا تسمعون . وعند ذكر النهار : أفلا تبصرون لأن الليل يناسبه السمع ، والنهار يناسبه الإبصار . وقلنا فيما تقدم : ان تعاقب الليل والنهار يستند مباشرة إلى أسبابه الكونية ، واليه تعالى بالواسطة لأنه خالق الكون ومدبره بعلمه وحكمته .

(ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون) أي جعل الليل لتسكنوا فيه ، وجعل النهار لتبتغوا فيه الخ . ونقدم مثله في الآية ٦٧ من سورة يونس ج ٤ ص ١٧٧ والآية ١٢ من سورة الإسراء ج ٥ ص ٢٦ والآية ٤٧ من سورة الفرقان .

(ويوم يناديهم فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون) . تقدم بنصه الحرفي في الآية ٦٢ من هذه السورة ، ولا نعرف وجهاً لهذا التكرار إلا التثبيت والتأكيد (ونزعنا من كل أمة شهيداً فقلنا هاتوا برهانكم) يأتي الله غداً من كل أمة بنبيهم ، فيشهد عليهم بتبليغ الرسالة وبمسا قابلوها من التكذيب والإعراض بعد إقامة الحجج عليهم وقطع جميع الأعذار . وعندئذ يقول سبحانه للجاحدين : لقد أدلى الرسول بما عنده ، فهاتوا ما عندكم من تبرير موقفكم معه وتكليبكم رسالته تماماً كما هو شأن القاضي ، يستمع أولاً من المدعي ، ثم يستجوب المدعى عليه ، فيخرس المبطلون عن الجواب ، ويحقيق بهم العذاب . وتقدم مثله في الآية ١٤٣ من سورة البقرة ج ١ ص ٢٢٥ والآية ٨٩ من سورة النحل ج ٤ ص ٥٤٣ (فاعلموا ان الحق لله) أي علموا ان الحجة لله عليهم ، ولا حجة لهم على الله (وضل عنهم ما كانوا يفترون) على الله بوجود الشريك ، وعلى الطيبين بالاشاعات الكاذبة .

قارون الآية ٧٦ - ٨٢ :

إِنْ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءَ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ * وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُسْفِيذِينَ * قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِ الْمُجْرِمُونَ * فَخَرَجَ

عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ
مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ
كُتَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَن آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ *
فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ
اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ * وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَنْفُسِ
يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْ لَا
أَنَّ مِنَ اللَّهِ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ *

اللغة :

مفاتيح جمع مفتاح ، ومفاتيح جمع مفتاح ، والمعنى واحد ، وهو ما يفتح
به . وتنوء تثقل . والعصبة الجماعة يتعصب بعضهم لبعض . ويقدر بسكون القاف
بضيق .

الإعراب :

ما ان مفاتيحه (ما) اسم موصول ، وهي مفعول ثانٍ لآتيانه ، ومضامحه اسم
ان ولتنوء خبرها ، وأولي القوة صفة للعصبة . واذا قال (اذ) متعلقة بمحذوف
أي اظهر التفاخر إذ قال له قومه - كما في البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي -
وقوة وجمعاً تمييز . وويل يجوز إفرادها وإضافتها تقول ويل له وويله ، فإذا
أضفت وجب النصب بفعل محذوف أي ألزمه ويلاً أي عذاباً ، وإذا أفردت جاز
الرفع على الابتداء وله خبر ، وجاز النصب بفعل محذوف أيضاً . ووي كلمة تعجب
ولا محل لها من الإعراب .

قارون والرأسالية المستبدة :

(ان قارون كان من قوم مومى فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ما ان مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة) . كان قارون من بني اسرائيل، لأنه من قوم موسى ، وقيل : ابن عمه ، وهو واضع أسس الرأسالية المستبدة أو يمثلها ، لأنه احتكر المال ، وتسلط على قومه مبرراً ذلك بقوله : « انما أوتيته على علم عندي » ، وهذا هو المذهب الاقتصادي القائل : الفرد أولاً والمجتمع ثانياً ، وأيضاً تومى اليه الآية التي نفسرها حيث جمعت بين البغي وكثر المال .. وأي بغي أعظم من أن تكون مقدرات الخلاق رهناً بمشيئة الأفراد أو القنات ؟ وقد حاول قوم قارون أن يردعوه عن البغي بالحسنى ، ويثيروا فيه روح الخير والصلاح .

(إذ قال له قومه لا تفرح ان الله لا يحب الفرحين) . مالك تكثر فرحاً بالمال وتغتر به ، وتتخذ وسيلة للبغي والعدوان ، والترف والاسراف ، وحوالك الألوف يموتون جوعاً ؟ أفتأنتل وتفاخر بقدرتك على المآثم والردائل ؟ ان الله لا يحب كل غشال فخور .

(واتبع فيما آتاك الله الدار الآخرة) . جد واجتهد واعمل لوجه الله في كل ما أعطاك من مال وصحة وعقل ، فان المرء مسؤول أمام الله عن جسمه فميم أبله ، وعن عمره فميم أفناه ، وعن ماله فميم اكتسبه فميم أنفقه .

(ولا تنس نصيحتك من الدنيا) لا تترك ما أنت في حاجة اليه لحياتك ومتعتك ، فكل ما شئت من الطيبات ، والبس ما أردت من فاخر الثياب ، واسكن ما أحبيت من الدور ، ولكن على حساب جهدك وكذك ، لا على حساب الآخرين ، فانك بهذا تجمع بين الحظين معاً ، وتملك الزادين جميعاً : زاد الدنيا وزاد الآخرة .

(وأحسن كما أحسن الله اليك) . اتق الله فيما أنعم به عليك ، واشكره على ذلك بالاحسان الى عباده وعياله ، وتعاون معهم على ما فيه خيرك وخيرهم .

(ولا تبغ الفساد في الأرض) بالجور والحياة، والتكبر والتعبر ، والعيش في الإسراف والبلذخ ، وحوالك الجياح والمرأة .. ان هذا هو الفساد بالذات (ان الله لا يحب المفسدين) وأعد لهم عذاباً أليماً .

(قال انما اوتيته على علم عندي) . هذا المال من علمه هو .. من موهبته ومهارته .. وللانسان أن يستغل علمه وموهبته في السلب والنهب، والتقتيل والتشريد، وفي كل ما يهوى ويريد .. وليس قارون بدعاً في هذا المنطق .. فقد وضعت الولايات المتحدة الأمريكية مخططاً لشراء العقول والمواهب من مختلف أنحاء العالم ، وأغرت العلماء والخبراء بالهجرة إليها ، وأسست هذا المخطط « برين درين » أي استنزاف العقول ، والقصد منه أن تستخدم المواهب الانسانية في نهب ثروات البلاد وأقوات العباد في شرق الأرض وغربها .

(أولم يعلم ان الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً) ؟ وكيف يعلم وقد أطغاه المال وإجلاه ، وأعماه عن عاقبة الظلم والبغي ، وأنساه ما سمع عن القرون الأولى ، وانها كانت أكثر منه مالا وأعز نفراً ، ولما طغت وبغت أذاقها الله عذاب الخزي في الحياة الدنيا ، ولعذاب الآخرة أشد وأخزى .. وضرب المفسرون مثلاً بقوم نوح وعاد وثمود ، ولو كنت في عصرهم لم أعدُ امثلهم، ولو كانوا في عصري لاكتفوا بما حدث في «ليبيا» في هذا الشهر الذي أكتب فيه كلماتي هذه، وهو شهر أيلول من سنة ١٩٦٩ حيث قامت مجموعة من الشباب الليبي ، وعزلت الملك السابق ، وهو أقوى وأعنى من قارون ، ومن ورائه الصهيونية والاستعمار .. واستولى على الحكم الذين يمثلون الشعب الليبي ، ويعبّرون عن أمانيه ، وهم الذين نكّل بهم الملك المخلوع واضطهدهم بالحبس والتشريد ومصادرة الأملاك .

(ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون) أي ان الله يعذبهم بغير حساب . وتسأل: كيف تجمع بين هذه الآية ، وبين الآية ٩٣ من سورة الحجر : « فورك لسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون » وفي معناها كثير من الآيات ؟

الجواب : المراد بالمجرمين هنا الذين يعتدون على حقوق الناس وحرياتهم ، ويشيرون الفتن والحروب من أجل مصالحهم ومنافعهم ، فهؤلاء هم الذين يدخلون النار بغير حساب حتى ولو هلكوا وكبروا ، وعليه يكون قوله تعالى : ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون، مخصصاً لقوله لسألنهم أجمعين أي لو جمعنا بين القولين لكان المعنى لسألنهم أجمعين إلا من اعتدى على حقوق الناس فإنه يدخل النار من غير سؤال .

سورة القصص

(فخرج على قومه في زينته) . حللوه قومه من عاقبة البغي والفساد ، فنفخ الشيطان في أنفه ، وأخذته العزة بالاثم ، وجمع خدمه وحشمه ، وركب في موكب فخم يعرض على الناس ثراءه وكبريائه تحدياً للذين وعظوه وحلروه من سكرات الترف والبغي .

(قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون انه لننظره عظيم) . نظر ضعفاء العقول الى المال والزينة ، وذهلوا عن عاقبة البغي والكبرياء فتمنوا أن يكون لهم مثل ترف قارون وأهنته ليعرقوا في المملكات والشهوات ، ولو نظروا بعين البصيرة لقالوا كما قال أولو العلم .

(وقال الذين أوتوا العلم وبلغكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً ولا يلقاها إلا الصابرون) . ضمير يلقاها يعود إلى المثوبة والمثولة عند الله التي دل عليها سياق الكلام ، والمعنى ان أهل العلم بالله قالوا لضعفاء العقول : لقد نطق الشيطان على ألسنتكم .. ان ما عند الله خير وأبقى ، وما اعتر أحد بغيره تعالى إلا أذله وأخزاه ، قال الإمام علي : رب مغبوط في أول الليل قامت بواكيه في آخره . وقال : ما قال الناس لشيء طوبى له إلا وقد خبأ له الدهر يوم سوء .

(فخشنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كانوا من المنتصرين) . ولا ينجو ظلم من الخسف في الدنيا قبل الآخرة ، وليس من الضروري أن يكون الخسف بالأرض فقط ، فيكون أيضاً بالخزي واللعن على ألسنة الخلائق ، وبأيدي المظلومين والمحققين .. وقد دلتنا التجارب ان الظالم إذا نزل به القصاص والعقاب تخلى عنه وتبرأ منه كل الناس حتى أعوانه وأرحامه ، وحسبه هذا خسفاً ونكالا .

(وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون وي كان الله يسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر لولا ان من الله علينا لخسف بنا وي كأنه لا يفلح الكافرون) . بالأمس قال الضعفاء : يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون لأنهم نظروا الى الدنيا وزينتها ، وذهلوا عن عاقبة البغي والكبرياء ، أما اليوم ، وقد شاهدوا دائرة السوء تدور على رأس الطاغية قارون ، فقد أدركوا الحقيقة وحمدوا الله الذي لم يؤتهم مثل ما أوتي الطغاة . وفي نهج البلاغة : فكم من مقوص رابح ، ومزيد خاسر .. ومن هنا قيل : الأمور بخواتيمها .

تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين * من جاء بالحسنة فله خير منها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون * إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد قل ربي أعلم من جاء بالهدى ومن هو في ضلال مبين * وما كنت ترجو أن يلقي إليك الكتاب إلا راحة من ربك فلا تكونن ظهيراً للكافرين * ولا يصدنك عن آيات الله بعد إذ أنزلت إليك وأدع إلى ربك ولا تكونن من المشركين * ولا تدع مع الله الهاً آخر لا إله إلا هو كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون *

الله :

فرض أوجب . والمراد بمعاد هنا بلدة الرسول الأعظم (ص) وهي مكة . وظهيراً معيناً .

المعنى :

(تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين) . العلو في الأرض التعالي والتعظيم ، وإرادة التسلط على الناس بغير حق ، والفساد الظلم والعدوان ، والفسق والقجور ، والمعنى ان من تعالي وتعظيم على الناس ، أو اعتدى على شيء من حقوقهم فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه

جهنم وساءت مصيراً (من جاء بالحسنة فله خير منها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون) . تقدم مثله في الآية ١٦٠ من سورة الأنعام ج ٣ ص ٢٩٠ .

(ان الذي فرض عليك القرآن لرادك الى معاد). يقول سبحانه لنبه الكريم : ان الذي أوجب عليك العمل بالقرآن هو الذي سيعود بك الى مكة التي اخرجك منها قومك . وقيل : ان النبي (ص) حين هاجر من مكة الى المدينة اشتاق الى وطنه ، وهو في أثناء الطريق ، فتزلت هذه الآية تبشره بالعودة اليه (قل ربي أعلم من جاء بالهدى ومن هو في ضلال مبين) . أعلم هنا بمعنى يعلم ، أي قل يا محمد لمن لا ترجو الهداية منه ، وبصر على انه هو المهتدي وأنت الضال ، قل لهذا العنود : الله ولا أحد سواه يميز بين المهتدي والضال ، والطيب والخبيث، ويجزي كلاً بما يستحق .

(وما كنت ترجو ان يلقى اليك الكتاب إلا رحمة من ربك) . الاستثناء هنا منقطع أي لكن الله رحمك وتفضل عليك ، وهذا رد على من قال لرسول الله : لست مرسلًا من عند الله ، بل تغتري عليه ، وبيان الرد : كيف يقولون عنك يا محمد : انك تغتري على الله بادعاء الرسالة مع انها لم تمر بخاطرك من قبل ، ولا تطلعت اليها وحلمت بها في يوم من الأيام ، ولكن الله سبحانه هو الذي أنعم عليك بها ، واصطفاك لها دون خلقه .

إخبار الغيب عن العملاء والخونة :

(فلا تكونن ظهيراً للكافرين ولا يصدنك عن آيات الله بعد إذ أنزلت اليك وادع الى ربك ولا تكونن من المشركين ولا تدع مع الله إلهاً آخر لا إله إلا هو) . لقد اختارك الله يا محمد لتكون حرباً على الكافرين ، لا عوناً لهم ، وتبلغ رسالته الى عباده، ولا يأخذك في تبليغها لومة لائم ، ولتخلص لله وحده في جميع أقوالك وأعمالك .

وفيما تقدم قلنا ، ونحن نفسر هذا النوع من الآيات التي تخاطب المعصوم بالنهي عن المعصية ، قلنا : ان للأعلى ان ينهى من هو دونه بأي شكل أراد ، وعن

أي شيء مختار ، بالإضافة الى ان النهي عن الشيء لا يتوقف على إمكان وقوعه من المخاطب به ، أما الآن ، ونحن نفسر هذه الآية ، فقد استوحينا منها معنى آخر ، وهو ان كل ما جاء في هذا الباب من الآيات فهو إخبار بالغيب وتعرض بما عليه اليوم وقبل اليوم بعض أرباب العائسم والقلانس الذين يتظاهرون بالدين والصلاح ، وهم جنود وأعوان للكفرة الفجرة .. وخصصنا البعض منهم بالذات مع ان العملاء والخونة يكونون منهم ومن كل نوع وصنف لأن الآيات تخاطب من يدعو الى الله وشريعته .

(كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم واليه ترجعون) . هذا تهديد ووعيد لكل خائن وعميل يتأمر على دينه ووطنه مع أعداء الله والانسانية، وانه يحكم المشرك الذي قامت عليه الحجة ، ومع ذلك يحدد ويعاند إذ لا فرق أبداً عند الله بين من يدعو مع الله لهاً آخر ، ومن يوالي الظلمة الطغاة ، ويدافع عنهم ويبرر أعمالهم ، ويدعو الى موالاتهم ومؤازرتهم .

وتسأل : هل معنى هذا ان العملاء والخونة يجب ان نعاملهم معاملة المشرك من النجاسة وعدم التوريث والتزويج والدفن في مقابر المسلمين ؟

الجواب : علينا أن نعامل كل من قال : أشهد ان لا إله إلا الله وان محمداً رسول الله - معاملة المسلم مهما كان عمله ، بل ومهما انطوى عليه قلبه .. ذلك ان لهذه الشهادة آثارها الموضوعية التي لا تنفك عنها بحال ، وهي الطهارة والتوريث والتزويج والدفن في مقابر المسلمين ، أما الآخرة فهي لله وحده ، ولا شأن فيها لأحد سواه ، وقد دل ظاهر العديد من الآيات ان الظالم يوم القيامة هو والمشرك سواء . أنظر ما قلناه عند تفسير الآية ٥٥ من سورة الفرقان، فقرة « الظالم كافر » .

سُورَةُ الْعَنْكَبُوتِ

قيل : هي مكة ، وآياتها ٦٩ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الإيمان جهاد وصبر الآية ١ - ٩ :

الْم * أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ *
وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ
الْكَاذِبِينَ * أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا
يَحْكُمُونَ * مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنْ أَجَلَ اللَّهُ لَاتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ
الْعَلِيمُ * وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ *
وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ
أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ
جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ
فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ
فِي الصَّالِحِينَ *

اللغة :

لا يفتنون لا يمتحنون . يرجو لقاء الله يؤمن بحسابه وجزائه بعد الموت . وأجل الله الوقت المعين عند الله لهذا اللقاء . جاهدك حرصك مجتهدين .

الإعراب :

حسب تحتاج إلى مفعولين ، والمصدر من ان يتركوا ساد مسدما . والمصدر من ان يقولوا بدل من مصدر أن يتركوا . فليعلمن تحتاج إلى مفعول واحد لانها بمعنى ليميزن واللام للقسام . ساء ما يحكمون (ساء) بمعنى قبح و (ما) مصدرية ، والمصدر المنسبك فاعل ساء أي قبح حكمهم . وحسناً صفة للمفعول مطلق محذوف أي ووصيناه ايضاء حسناً . وما ليس (ما) اسم موصول مفعول لثرك .

المعنى :

(الم) تقدم تفسيره في أول سورة البقرة (احسب الناس ان يتركوا ان يقولوا آمنا وهم لا يفتنون) . ليس الايمان كلمة يقال ، بل لا بد من الابتلاء والامتحان بأنواع من السراء والضراء ، فمن صبر عند هذه ولم يخرج عن دينه ، وشكر وتواضع عند تلك ولم يطفه الجساء والمال فهو المؤمن حقاً ، والا فما هو من الايمان في شيء .. هذا ما دل عليه ظاهر الآية ، واذا عطفنا عليها بقية الآيات الواردة في هذا الباب نستخلص منها ان للايمان ظاهرة لا تنفك عنه بحال ، وهي أن يستجيب المؤمن لدعوة الله تعالى استجابة عملية ، لا لفظية مهما كانت النتائج ، أي ان يحرص أشد الحرص على طاعة الله في أمره ونهيه ، ويطبقها في عمله وسلوكه ، واذا ابتلي بالخطوب والمحن لأنه أخلص لله فما يزيده ذلك إلا ايماناً وتسليماً . أنظر ج ١ ص ٢٤٢ فقرة ٨ ثمن الجنة ، ، وص ٣١٤ فقرة ٨ لا ايمان بلا تقوى ، ، وج ٢ ص ٤٥٧ فقرة ٨ بين الدين وأهل الدين .

(ولقد فتنا الذين من قبلهم) . اخترنا بالشدائد أتباع الأنبياء من الأمم

سورة العنكبوت

السابقة ، فصبروا صبر الأحرار، وازدادوا تمسكاً بدينهم وإخلاصاً لربهم وأنبيائهم ، وأوضح تفسير لهذه الآية قوله تعالى : «وكان من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا... وما استكانوا والله يحب الصابرين - ١٤٦ آل عمران ، ج ٢ ص ١٧٤ . (فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين) . يمتحن سبحانه عبده بأقبال الدنيا عليه وادبارها عنه لتظهر أفعاله التي يستحق عليها الثواب والعقاب ، لأنه ، جلّت حكمته ، لا يحاسب الانسان على ما فيه من قابلية واستعداد للخير والشر ، وإنما يحاسبه على أعماله التي تظهر للعيان .

(أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا) . أحسب المسيئون ان الله عاجز عن طلبهم ؟ كيف وهو على كل شيء قدير ؟ وبمن يمتنعون عنه ولا ضد يعانده ولا شريك يساويه ؟ (ساء ما يحكمون) بأنهم يفلتون من سلطان الله وحكمه .

(من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت) بعد أن ذكر سبحانه من كفر باليوم الآخر ذكر من آمن به وقال لهذا المؤمن : اثبت على إيمانك ، فإن الساعة آتية لا ريب فيها ، فاعمل لها (وهو السميع العليم) . بسمع ما تقول ، ويعلم ما تضرر وتفعل ، ويجزيك بما أسلفت (ومن جاهد فلنما يجاهد نفسه) وتفسيره : « فن أبصر فلنفسه ومن عمي فعليها - ١٠٤ الأنعام ، ج ٣ ص ٢٣٨ . (ان الله لغني عن العالمين) لا تنفعه طاعة من أطاع ، ولا تضره معصية من عصى .

(والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرن عنهم سيئاتهم ولنجزينهم أحسن الذي كانوا يعملون) . من آمن بعد ما كفر ، وأصلح بعد ما أفسد فإن الله يغفر له ويعفو عما مضى ، وفوق ذلك يثيبه تفضلاً منه على إيمانه وإصلاحه تماماً كمن لا ذنب له.. وفي هذا المبدأ الخير كل الخير للانسانية لأنه يفتح باب الأمل للمذنبين والمجرمين ، ويدفع بهم إلى التوبة والاقلاع ، ولا سبيل أجدى من هذا السبيل لتطهير المجتمع من المظالم والمقاسد .

أيضاً البر بالوالدين :

(ووصينا الانسان بوالديه حسناً وان جاهداك لشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما إلى مرجعكم فأنتكم بما كنتم تعملون) . أمر سبحانه بالاحسان إلى الوالدين واطاعتها في كل شيء إلا فيما لا يرضيه تعالى ، حيث لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق . وتكلمنا عن ذلك مفصلاً عند تفسير الآية ٢٣ من سورة الإسراء ، فقرة ه البر بالوالدين ، ج ٥ ص ٣٥ . وفي كتب الحديث قصة تدل على ان البر بالوالدين ينفع عند الشدائد ، وأيضاً تدل على أن أفضل دعاء يتجه به الانسان الى الله عند المحنة هو العمل الصالح .

روي عن النبي (ص) ان ثلاثة رجال لجأوا الى غار في الطريق يبيتون فيه ليلتهم ، فسقطت صخرة ضخمة من الجبل وسدت عليهم باب الغار ، وبعد التفكير طويلاً لم يجدوا إلا التوجه بالدعاء الى الله وحده أن ينجيهم من هذا الهلاك ، ثم ذكر كل واحد منهم عملاً صالحاً كان قد صنعه .. فذكر الأول بره بوالديه وتوفير الراحة لهما ، فانفجرت الصخرة قليلاً . وذكر الثاني انه صرف نفسه عن عمل فاحش مع امرأة كانت في حاجة تضطرها الى ذلك ، فكفها هذه الحاجة ووفرها لهما ، فانفجرت الصخرة قليلاً أيضاً . وقال الثالث : ان أجيراً كان يعمل عنده ، فترك أجره ورحل عنه ، فاحتفظ له بأجره ونمّاه له ، فلما عاد اليه ، وقد كثر الأجر وأصبح قطعاً كبيراً من الأنعام ، أعطاه إياه ، فانفجرت الصخرة تماماً ، وخرجوا من الغار .

وسواء أصبحت هذه الرواية ، أم لم تصح فإن القصة تعبّر عن الاسلام في حقيقته وجوهره لأنه يحصر طريق النجاح في الدنيا والآخرة بالأعمال الصالحة ، لا بالأقوال والمظاهر .

(والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنهم في الصالحين) . وتساءل : ما الفرق بين قوله تعالى هنا : لندخلنهم في الصالحين وقوله في الآية السابقة: لنكفرن عنهم سيئاتهم ولنجزينهم أحسن ما كانوا يعملون ؟

الجواب : ان الادخال في زمرة الصالحين كالشهداء والأولياء أرفع بكثير من

سورة العنكبوت

العفو والجزاء ، فهو أشبه بقولك لمن أساء ثم أصلح وأخلص : لقد عفوت عنك ، وأحسن إليك بكذا ، وفوق ذلك أجعلك في عداد المصطفين الأخيار .

ومن الناس من يقول آمنا الآية ١٠ - ١٥ :

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوْ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ * وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ * وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ * وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ * فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ *

اللغة :

المراد بفتنة الناس أذاهم . والأثقال جمع ثقل والمراد بالأثقال هنا الأوزار لقوله تعالى في الآية ٢٥ من سورة النحل : « ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم » .

الإعراب :

لنحمل اللام للأمر ولذا جزم الفعل . وبجاملين الباء زائدة . ومن خطاياهم (من) للتبخيص . ومن شيء (من) زائدة وشيء مفعول حاملين، ومن خطاياهم متعلق بمحذوف حال مقدماً من شيء، والأصل وما هم حاملين شيئاً من خطاياهم . وألف سنة ظرف زمان منصوب بلبث . وخسين منصوب على الاستثناء . وعاماً تمييز .

إيمان أو سراب ؟

(ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أؤذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله).. هذه الآية صورة حقيقية لبعض الناس الذين نعرفهم ونعايشهم .. لقد زين الشيطان لهذا البعض انه من أهل التقى والإيمان ، فانطلت عليه الحيلة وصدق الشيطان في وسوسه وأحاييله ، وانه من المتقين، وهو في حقيقته وواقعه لا يعتقد بشيء ولا يرى إلا منافعه ومصالحه الخاصة ، ولا شيء أدل على ان إيمانه وهم وسراب من تنكره الحق أو تجاهله اياه حين يخاف الناس على أدنى شيء من أشيائه .. يخافهم اذا ناصر الحق والعدل بفعل أو قول تماماً كما يخاف الأولياء والأغنياء من الله اذا لم يعملوا بأمره ونهيه ، وتقدمت الاشارة الى هذا الفريق في الآية ٧٧ من سورة النساء : « فلما كتب عليهم القتال اذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية » . وقلنا فيما تقدم : ما من أحد اتبع الحق الا ودفع ثمنه من نفسه وأشيائه ، وإلا لم يكن لأهل الحق وأنصاره أية فضيلة . أنظر تفسير الآية ١٥٥ من سورة البقرة ج ١ ص ٢٤٢ ، فقرة « ثمن الجنة » . وفي الحديث : من خاف الله خوفاً الله منه كل شيء ، ومن لم يخف الله خوفاً من كل شيء .

(ولئن جاء نصر من ربك ليقولن انا كنا معكم) . هم مع الدين اذا كان متجراً رابحاً، وهم أعداء الدين اذا سألهم البلل والتضحية ولو باليسير، وأبلغ كلمة في هذا المعنى قول سيد الشهداء الحسين بن علي (ع) : « الناس عبيد الدنيا ، والدين لقي على ألسنتهم يحوطونه ما درت معايشهم ، فإذا محصوا بالبلاء قل الديانون » .

وتقدم مثله في الآية ١٤١ من سورة النساء ج ٢ ص ٤٦٦ (أو ليس الله بأعلم بما في صدور العالمين) . هل تريدون ان نتحدوا الله وتحتالوا عليه ، وهو العليم بما تخفون وما تعلنون ؟

(وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين) . تقدم مثله في الآية ٣ من هذه السورة ، والآية ١٥٤ من سورة آل عمران ج ٢ ص ١٨٢ . (وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم) . قال مشركو قريش للذين استجابوا لدعوة رسول الله (ص): كيف تتبعون محمداً وتتحملون الكثير من أجله ؟ دعوه وعودوا إلى ديننا ، وإذا كنتم تخافون عذاب الله بعد الموت كما خوفكم محمد فنحن نتحمله عنكم .. قالوا هذا ، وهم يريدون به ان البعث حديث خرافة (وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء انهم لكاذبون) لأن كل انسان مجزي بأعماله ، لا يحمل وزر غيره ، أو يسأل عنه : ه قل لا تسألون عما أجرنا ولا نسال عما تعملون - ٢٥ سبأ ه .

(وليحملن أثقاهم وأثقالاً مع أثقاهم) . كل من أضل غيره يحمل وزر نفسه ، ووزر من غرر به ، حيث تسبب في وجود الضلال وانتشاره ، أما من يتبع المضل فإنه يحمل وزر نفسه كاملاً ، ولا ينقص منه شيء لأنه استجاب الى دعوة الضلال بسوء اختياره ، وبكلمة للمضل عقوبتان : احدهما على ضلاله ، والثانية على اضلاله ، وللتابع عقوبة واحدة على عمله بالضلال مختسراً (وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون) بادعائهم الشريك لله ، وقولهم عن الرسول الأعظم (ص) : انه ساحر وقولهم للمؤمنين : اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم ، وغير ذلك .

(ولقد أرسلنا نوحاً الى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً فأخذهم الطوفان وهم ظالمون فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آية للعالمين) . يدل ظاهر الآية بوضوح ان نوحاً عاش ٩٥٠ عاماً ، والعقل لا يأبى ذلك ، فوجب التصديق أما التحليل بأن عدد البشرية كان قليلاً يومذاك ، والنسل كان محدوداً ، وانه كلما قل العدد والنسل طالت الأعمار ، كما قال بعض المفسرين الجدد ، أما هذا التعايل ونحوه فلا يصح الركون اليه في تفسير الوحي أو توجيهه .. وفي قاموس الكتاب

المقدس ان نوحاً اسم سامي ، ومعناه «راحة» وأبوه هو الذي سماه بذلك .
ويلاحظ ان السامية هي نسبة إلى سام بن نوح فكيف تُنسب الوالد إلى الولد؟
وفي ص ٤٤٨ من هذا القاموس ان ساماً وُلد لنوح وعمره ٥٠٠ سنة . ولم يشر
القاموس المذكور إلى تاريخ العهد الذي كان فيه نوح ، وربما لعدم المصادر .
وتقدم الكلام عن نوح في العديد من الآيات ، منها سورة الأعراف ج ٣ ص ٣٤٤
وما بعدها ، ومنها في سورة هود ج ٤ ص ٢٢٢ وما بعدها .

ابراهيم الآية ١٦ - ١٨ :

وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ
تَعْلَمُونَ * إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ
تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ
وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * وَإِن تَكْذِبُوا فَقَدْ كَذَّبَ
أُمُّمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ *

المعنى :

ان دعوة ابراهيم (ع) هي دعوة كل نبي : الاخلاص لله في كل شيء ، ونيزد
الشرك بشق صورته وأشكاله ، والايمان بأن الله هو المبدئ والمعيد ، بيده الضرب
والنفع ، ومن كذب وتولى عن هذه الدعوة فقد ظلم نفسه .
وفي قاموس الكتاب المقدس ان ابراهيم هو ابن تارح من نسل سام بن نوح ،
وانه من بلاد ما بين النهرين أي دجلة والفرات ، وأنه أقام فيها ٧٥ عاماً ، ثم
رحل مع زوجته ولوط إلى أرض كنعان ، وقال مؤلفو القاموس المذكور : ولا

يمكن أن نعبر على وجه التحديد التاريخ الذي عاش فيه إبراهيم ، ولكنه ولد وفقاً للتاريخ الذي حدده «اشره» حوالى سنة ١٩٩٦ ق. م. ١ . وتقدم الكلام عن إبراهيم في سورة الأنعام الآية ٧٤ - ٨٤ ج ٣ ص ٢١١ - ٢١٩ وسورة مريم الآية ٤١ - ٥٠ ، وسورة الأنبياء الآية ٥٢ - ٧٢ .

الله المبدى والمعيد الآية ١٩ - ٢٧ :

أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ *
قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ
الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ
يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ * وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ
وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ
اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * فَمَا
كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ
النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ
اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمُ
بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمُ بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ * فَأَمَنْ
لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَوَهَبْنَا لَهُ
إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ
فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لِمِنَ الصَّالِحِينَ *

اللغة :

الانشاء الایجاد . وتقلبون ترجعون .

الإعراب :

بمعجزين الباء زائدة ومعجزين خبر أنتم أي ما أنتم معجزين . ومن ولي (من) زائدة وولي مبتدأ ولكم خبر . والمصدر من ان قالوا خبر كان . وأوثاناً مفعول أول لاتخذتم والمفعول الثاني مخوف أي اتخذتم من دون الله أوثاناً آلهة . ومودة مفعول من أجله لاتخذتم .

المعنى :

(أولم يروا كيف يبدىء الله الخلق ثم يعيده ان ذلك على الله يسير) أولم يروا أولم يعلموا ، ويتلخص معنى الآية بقول الإمام علي (ع) : « عجيبت لمن أنكر النشأة الأخرى ، وهو يرى النشأة الأولى » . ووجه الملازمة بين النشأتين اتحادهما في العلة ، وهي قدرة الموجد ، فإن من قدر على إيجاد الشيء من لا شيء يقدر على جميع أجزائه بعد تفرقها ، بل الجمع أهون وأيسر من الإيجاد .. نقول هذا مع العلم بأنه لا شيء على الله أهون من شيء ، وأنه يوجد الخطير والحقيق بكلمة « كن » . وكررنا ذلك بتكرار الآيات . انظر ج ١ ص ٧٧ و ج ٢ ص ٣٩٦ و ج ٤ ص ٣٧٩ .

القرآن والفكر :

(قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة ان الله على كل شيء قدير) . نهى القرآن عن التقليد ، ونهى على المقلدين ، وأمر بالبحث والنظر ، وأثنى على العلماء والمجتهدين في العديس من آياته .. ولا شك ان البحث والنظر علامة من علامات الحياة ، وطريق الى نموها وتقدمها وحل

سورة العنكبوت

مشاكلها اذا كان مع البحث والنظر صبر وتصميم على بلوغ الهدف مهما كانت العقبات .. فبالصبر والايمان تُفهر كل القوى ، فلقد صمم انسان هذا العصر أن يصل الى القمر ، فاجتهد وثابر حتى وطىء أرضه بأقدامه ، وغداً أو بعد غد يطأ المريخ وغيره من الكواكب .. اذن ، فليس هناك قوة لا يتغلب عليها الانسان إلا قوة خالق الانسان ، ومن هنا قيل : ما فوق الانسان غير خالقه، ولو سألتني سائل : ما هو حد الانسان ؟ لقلت له : حده ان لا حد لطاقاته واستعداده ، والجهل والتقليد هو الذي يحول بين الانسان وقابليته ، ويفصله عن نفسه وواقعه، ومن أجل هذا حرم القرآن التقليد ، وأمر بالنظر واتباع العقل في جميع أحكامه، وأطلق عليه كلمة النور والهدى والبرهان .

وتسأل : صحيح ان القرآن نهى عن التقليد ، وأمر بالبحث والنظر ، وأثنى على العلماء ، ولكن السياق أو السبب الموجب لتزول الآيات الواردة في هذا الباب يدل على ان العلماء الذين أثنى عليهم هم أهل العلم بالله وحلاله وحرامه، وانه أمر بالنظر والتفكر في خلق الكائنات لينتهي الانسان من ذلك الى الايمان بالله واليوم الآخر ، ويفوز بالجنة ونعيمها ، وينجو من النار وجحيمها : وأوضح مثال على ذلك قوله تعالى : « أفرايتم ما تحرثون أنتم تزرعونه أم نحن الزارعون لو نشاء لجعلناه حطاباً فظلمتم تفكتهون - ٦٥ الواقعة » أي تعجبون . وأي عاقل يقول : ان هذه الآية تحت على علم الزراعة ؟ ومثلها بقية الآيات التي أمرت بالنظر والتفكر .

الجواب أولاً : ان هناك آيات باركت وأنتت على كل ما ينفع الناس كقوله تعالى : « فأما الزبد فيذهب جفاء واما ينفع الناس فيمكث في الأرض - ١٧ الرعد » . ولا شيء ينفع الناس كالعلم ، بل لا حياة بلونه في هذا العصر، هذا بالإضافة الى عشرات الآيات التي حثت على الأعمال الصالحة ، واعتبرت أهلها خير البرية ، قال تعالى : « ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية - ٧ البينة » ، والعلم في طليعة الأعمال الصالحة .

ثانياً : صحيح ان السبب الموجب لتزول الآيات التي أمرت بالبحث والنظر أو أكثرها هو الرد على من كفر بالله واليوم الآخر، ولكن سبب النزول لا يخص عموم اللفظ .

ثالثاً: ان العلم النافع حسن بذاته في نظر العقل ، وحكم العقل لا يقبل التخصص والاستثناء ، أجل للعلم منازل ومراتب تقاس بما يترتب عليه من فوائد ومنافع ، والعلم بالله وشريعته أنفع العلوم دنياً وآخرة ، أما دنياً فلأنه يتجه بكل شيء إلى خير الناس ومصالحهم ، وأما في الآخرة فلأنه سبيل النجاة من غضب الله وعذابه ، ومن هنا أطلق المسلمون كلمة عالم بلا قيد على رجل العلم بالدين، ومع القيد على غيره من أهل العلوم الدنيوية .

رابعاً : اتفق فقهاء المسلمين قولاً واحداً على ان كل علم لا يُستغنى عنه في الحياة فهو فرض كفاية ، وفي الحديث : « ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فيأكل منه طير أو إنسان إلا كان له به صدقة » . وفيه أيضاً : « اطلبوا العلم من مظانه » أي من مصادره الدينية والدنيوية ، « اطلبوا العلم ولو في الصين » . وبداية ان علم الدين يُطلب من كتاب الله وستة نبيه ، وليس من الصين ، إلى غير ذلك من الأحاديث .

(يعذب من يشاء) ممن يستحق العذاب (ويرحم من يشاء) ممن يستحق الرحمة ، لأن الله عادل وحكيم يجزي كل نفس بما كسبت (واليه تقلبون) ترجعون يوم القيامة للحساب والجزاء (وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء) ، أي ولا من في السماء بمعجزين ، وفي نهج البلاغة : لا يعجزه من طلب ، ولا يفوته من هرب (وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير) لا مرد لحكمه ، ولا ملجأ منه إلا إليه (والذين كفروا بآيات الله ولقائه أولئك يشوا من رحمتي وأولئك لهم عذاب أليم) . اليأس من رحمة الله نتيجة حتمية للكفر به وباليوم الآخر ، وجزاء من يشس من رحمة الله وثوابه كفراً وجحوداً هو أن يذوق عذاب الحريق .

(فما كان جواب قومه إلا ان قالوا اقتلوه أو حرّقوه فأنجاه الله من النار) . عاد الحديث الى ابراهيم (ع) وسبرته مع قومه الذين حاولوا التخلص منه ومن دعوته بالقتل أو الاحراق .. وهذا هو منطق الجبايرة الطغاة في كل زمان ومكان.. تدمغهم الحججة الواضحة ، فترتد منها فرائصهم ، ويخافون على مناصبهم ، ولا يملكون إلا الظلم والطغيان ، فيصدرون الأوامر : اسجنوا .. عذبوا .. صادروا

سورة العنكبوت

الأملاك .. اهللوا البيوت .. اشنقوا .. احرقوا .. وهنا تتدخل العناية الإلهية ، إما بنجاة المظلوم من أيدي الظالمين ، وإما بأجلهم أخذ عزيز مقتدر بيده أو بيد الأحرار من عبيده ، وتقدم مثله في الآية ٦٨ من سورة الأنبياء (ان في ذلك لآيات لقوم يؤمنون) أي يتفهمون بالنظر ، وبتعظون بالعبر ، ويبحثون عن الحق لوجه الحق ليؤمنوا به ويعملوا مخلصين .

(وقال انما اتخذتم من دون الله أوثاناً مودة بينكم في الحياة الدنيا) . قال ابراهيم لقومه : عبدتم هذه الأوثان ، وأنتم على يقين بأنها لا تنفع ولا تضر ، ولكن عظمتموها تقليداً لمن تودونهم وتحبونهم في هذه الحياة ، وستقلب هذه المودة الى عداوة وبغضاء (ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً) . قال الإمام علي (ع) : يتبرأ التابع من المتبوع ، والقائد من المقود ، فيتزايلون بالبغضاء - أي يتفارقون - ويتلاعنون عند اللقاء (وما واكم النار وما لكم من ناصرين) . هذه نهاية من كفر بالحق تابعاً كان أو متبوعاً .

(فآمن له لوط وقال اني مهاجر الى ربي انه هو العزيز الحكيم) . لوط هو ابن أخي ابراهيم ، وقال جماعة من المفسرين : لم يهتد أحد من قوم ابراهيم ويؤمن إلا لوط ، وليس هذا بعيد ، لأن هذه الآية تومئ الى ذلك بالإضافة الى ما جاء في كثير من الكتب ان ابراهيم هاجر هو وزوجته وابن أخيه لوط فقط . وفي الاصحاح التاسع عشر ان ابنتي لوط سقنا أباهما خراً ، فاضطجع معها ، وحملتا منه ، فولدت الكبرى ذكراً أسمته موآب ، وأيضاً حملت الصغرى ذكراً أسمته بن عمي .

(ووهبنا له إسحق ويعقوب وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب وآتيناه أجره في الدنيا وانه في الآخرة لمن الصالحين) . ضمير له يعود الى ابراهيم (ع) ، وفي هذه الآية دلالة واضحة على ان الله سبحانه لم يبعث نبياً بعده إلا من صلبه ، وإذا عطفنا على هذه الآية حديث « هذا الأمر في قريش .. الناس تبع لقريش .. الأئمة من قريش .. » اذا فعلنا ذلك كانت النتيجة ان جميع الأنبياء والأئمة من سلالة ابراهيم (ع) لأن نسب قريش ينتهي اليه . وتقدم مثله في الآية ٤٩ من سورة مريم و ٧٢ من سورة الأنبياء .

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ
مِنَ الْعَالَمِينَ * أَتُنْكُمُ اللَّاتُونَ الرَّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي
نَادِيَكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَتَيْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ
إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ رَبِّ أَنْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ *
وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُمْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ
الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانَوَا ظَالِمِينَ * قَالَ إِنْ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ
بِمَنْ فِيهَا لَنَنْجِيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ * وَلَمَّا أَنْ
جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِمْيَاءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا
تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجُواكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ * إِنَّا
مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ * وَلَقَدْ
تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ *

المعنى :

أرسل الله لوطاً الى مجتمع ما عرف التاريخ القديم له مثيلاً في انحلاله
وبشاعته .. يأتون الرجال شهوة من دون النساء ، ويقطعون الطريق على المارة بالأذى
ضرباً وسلباً واغتصاباً ، أما أندبتهم ومجالسهم فلا تعرف إلا الفحش والمنكر
والآثام .. فحلهم لوط ، وأنذرهم بعذاب الله .. وهذا كل ما يملكه ويقدر

سورة العنكبوت

عليه ، فسخرؤا منه ، وقالوا : أرنا هذا العذاب لنؤمن بك .. فالتجأ الى الله يستنصره على القوم المفسدين .

فاستجاب سبحانه الى تضرعه ، وأمدّه ملائكة غلاظ شداد ، مروا في طريقهم بإبراهيم ، وبشروه بغلام عليم من امرأته العجوز العقيم ، وأطلعوه على حكم الله في قوم لوط . قال : كيف وفيهم العبد الصالح لوط ؟ قالوا : هو ومن اتبعه في أمان إلا امرأته التي تظاهرت وتآمرت مع القوم الكافرين .

ودخل الملائكة على لوط بوجوه وضاء ناضرة ، فأوجس في نفسه خيفة عليهم من قومه الأشرار ، فكشفوا له عما قصصوا اليه .. وتمت كلمة العذاب على المفسدين ، وأصبحوا أثراً بعد عين ، وعبرة لأولي الأبصار .

وبعد الوف السنين يعيد تاريخ اللواط والفساد نفسه في مجلس العموم البريطاني حيث أقرّ واستحلت هذه الفاحشة التي تنفر منها طباع الوحوش والحشرات .. ونحن على يقين بأن نوعاً من العذاب سيحل على هذا المجتمع وأمثاله عاجلاً أم آجلاً تماماً كما حل على الذين من قبلهم .

وفي قاموس الكتاب المقدس : « ونعلم من الكشف الجيولوجية ان المنطقة الواقعة جنوب البحر الميت قد اكتست بالملح ، وربما كان سبب هذا انفجار تحت سطح الأرض حدث بفعل إلهي » . وتقدمت هذه الآيات في سورة الأعراف الآية ٨٠ - ٨٤ ج ٣ ص ٣٥٢ ، وفي سورة هود الآية ٧٧ - ٨٣ ج ٤ ص ٢٤٧ - ٢٥٦ .

شعب الآية ٣٦ - ٤٠ :

وَالِى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ
الْآخِرَ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ * فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ
فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَائِمِينَ * وَعَادَا وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِينِهِمْ

وَرَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ*
وَقَارُونُ وَفِرْعَوْنُ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا
فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ* فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُمْ مَن أَرْسَلْنَا
عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَن أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَن خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ
وَمِنْهُمْ مَن أَعْرَفْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنْفُسَهُمْ
يَظْلِمُونَ*

اللفظ :

الرجفة الحركة والاضطراب . والجثوم البروك على الركبة والمراد به هنا الهلاك .
والحاصب من الرمي بالحصباء أي الحجارة الصغيرة .

الإعراب :

أخاهم مفعول لفعل محذوف أي وأرسلنا إلى مدين أخاهم . وشعياً بدل من
أخاهم . وعاداً وثمود مفعول لفعل محذوف أي وأهلكنا . وفاعل تبيين ضمير مستتر
يعود إلى هلاكهم المفهوم من سياق الكلام . والمصدر من ليظلمهم متعلق بمحذوف
خبراً لكان، أي ما كان الله مريداً لظلمهم .

المعنى :

(وإلى مدين أخاهم شعياً فقال يا قوم اعبدوا الله وارجوا اليوم الآخر ولا
تعشوا في الأرض مفسدين) . شعيب عربي كهود وصالح ، وأهل مدين عرب ،
وهي من أطراف الشام، ولا وجود لهذا الاسم في قاموس التوراة والأنجيل الأربعة

سورة العنكبوت

والذي فيه ان يثرون اسم مدياني ، وهو كاهن مديان هو موسى أي أبو زوجته ويدعى أيضاً رعوثيل . وتقدم نظير هذه الآية في سورة الأعراف الآية ٨٥ ج ٣ ص ٣٥٦ .

(فكلذوبه فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين) . تقدم في الآية ٧٨ من سورة الأعراف ج ٣ ص ٣٥١ .

(وعاداً وثنود وقد تبين لكم من مساكنهم وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل وكانوا مستبصرين) أي يملكون التبصر والعقل الذي يهتدون به الى سبيل الحق ، ولكنهم اتبعوا الشيطان فكانوا من المهلكين ، وأنتم أيها المشركون عقلاء كعاد وثنود ، وقد رأيتم من الدلائل على هلاكهم ما فيه عظة وعبرة ، أفلا تتعظون وتنتهون عن متابعة الشيطان في خطواته وهزاته ؟

(وقارون وفرعون وهامان ولقد جاءهم موسى بالبينات فاستكبروا في الأرض وما كانوا سابقين) . أي ناجين من عذاب الله كما ينجو السابق ، وقارون هو السني كان له من الكنوز ما ان مفتاحه لتنوء بالعصبة أولي القوة . وفرعون هو القائل : أنا ربكم الأعلى ، وهامان وزيره .. هؤلاء جاءهم موسى بالدلائل والبصائر ، فأخذتهم العزة بالإثم ، فأهلكهم من له العزة جميعاً (فكللاً أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً) كقوم لوط (ومنهم من أخذته الصيحة كعمود) ومنهم من خسفنا به الأرض (كقارون) ومنهم من أغرقنا (كقوم نوح وفرعون وهامان) وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون . ولماذا يظلم الله الناس ؟ لأنه في حاجة الى الظلم وهو غني عن العالمين ؟ وكيف يظلم عباده وهو القائل : ان لعنة الله على الظالمين - ٤٤ الأعراف .

إن أوهم البيوت لبيت العنكبوت الآية ٤١ - ٤٥ :

مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا
وَأَنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبِيتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ * إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ

مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالَمُونَ * خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ * أَتُلُّ مَا أَوْحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ *

الإعراب :

جواب لو محذوف أي لو كانوا يعلمون ان هذا مثلهم . يعلم ما تدعون (ما) اسم موصول مفعولاً يعلم أي يعلم الذين يدعون ، وقيل (ما) استفهام ومحلها النصب يبدعون ، ويعلم معلقة عن العمل .

المعنى :

(مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً وان أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون) . علينا أولاً أن نحدد من هم الذين اتخذوا من دون الله أولياء؟ هل هم عبدة الأحجار والأوثان فقط أو انهم أعم وأشمل؟ وقبل أن نجيب عن هذا السؤال نذكر قوله تعالى : « من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً - ١٠ فاطر » . وقوله : « أيتفون عندهم العزة فان العزة لله جميعاً - ١٣٩ النساء » . ومعنى هذا انه لا عزة ولا قوة لمال أو علم أو سلطان أو لأي شيء إلا اذا قام على أساس من تقوى الله ومرضاته ، وكان مظهرأ لطاعته وادارته .. فالعلم قوة وخبر وإيمان بالله والانسانية اذا كان دعامة للحق والعدل ، ووسيلة لنمو الحياة وازدهارها ، والعلم ضعف وشر وكفر بالله وبالانسانية اذا كان وسيلة للبغي والعدوان ، وللخراب والدمار ، وكذا المال والسلطان وغيرهما .

سورة العنكبوت

إذا تمهد هذا عرفنا ان الذين اتخذوا من دون الله أولياء هم عبدة الأوثان، ومن أعرض عن الله مغترأ بمال أو علم وفهم أو سلطان ، ومن بغى وسعى في الأرض فساداً .. وقد شبه سبحانه قوة هؤلاء ببيت العنكبوت الذي يبقى اذا سكنت الرياح ، ولم يعترضه أي عارض ، واذا هبت الريح أو اعترضه أدنى شيء يصيح هباء لا عين له ولا أثر .. وبكلام آخر ان كل من أعرض عن الله سبحانه معتمداً على وثن أو علم أو مال أو سلطان فهو من الذين اتخذوا من دون الله أولياء ، ومن يتخذ من دون الله ولياً فهو من الخاسرين .

وفي كتاب الحيوان للجاحظ : ان ولد العنكبوت يقوم على النسج ساعة يولد ، ومادة نسجه من الخارج لا من جسده ، وانه لما عرف عجزه عما يقوى عليه الليث احتال بخيوطه على صيد الذباب من أجل قوته . وعلى كل عاقل أن يسأل نفسه وعقله : من الذي ألهم العنكبوت فن النسج ودله ساعة يولد على المادة التي تصلح لنسجه ؟ وأي مهندس وضع له تصميم هذا البيت على شكل مصيدة للذباب ؟ وهل جاء هذا بالصدفة ؟ وإذا تكررت الصدفة مرتين أو ثلاثاً فهل تتكرر في كل عنكبوت وُلد ويُولد إلى ما لا يبلغه عد ، ولا حصر ؟ تعالى الله عما يقول المفكرون .. كلا ، انه خلق فسوى ، وقدر فهدى .

(ان الله يعلم ما يدعون من دونه من شيء) أي من الأوثان وغيرها مما يعتمدون عليه من دون الله كالمال والسلطان ، والمعنى انه تعالى يعلم حقيقة هذه الأشياء التي يعتزون بها وانها لا تغني عن الله شيئاً (وهو العزيز الحكيم) . عزيز بقدرته ، حكيم بتدبيره .

(وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون) . تلك إشارة الى مثل العنكبوت ونظائره ، وأنه تعالى يبينه للناس بها الى وحدانيته وعظمته ، ولكن لا يفهم هذه الأمثال وغيرها من آيات الله إلا أهل العقول والبصائر .

(خلق الله السموات والأرض بالحق) أي على وجه الحكمة والمصلحة ، ولم يخلقها عبثاً ولهاً ، والحكمة من خلقها أن تسكنها الخلائق ، ويتنعموا بها ، ويستدلوا بصنعها وعجائبها على وحدانية الله وعظمته (ان في ذلك لآية للمؤمنين) . ذلك إشارة الى الاتقان والنظام في خلق السموات والأرض .. وهذا الاتقان دليل قاطع على وحدانية الله وعظمته عند المنصفين الذين يبتغون الحق ، ويؤمنون به لوجه الحق .

الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر :

(اتل ما أوحى إليك من الكتاب) . اقرأ يا محمد هذه الأمثال التي ضربناها للناس في القرآن لعلهم يفقهون ويقنون (وأقم الصلاة ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) . وتسال : ظاهر الآية يدل على ان المصلين ينتهون عن الفحشاء والمنكر ، ولا يفعلون منها شيئاً مع ان أكثرهم فاسقون ، بل ان البعض منهم أسوأ مسيرة من بعض الملحدين والمشركين ؟

الجواب : كلا ، ان ظاهر الآية يدل بوضوح على ان الصلاة تنهى المصلي عن الفحشاء والمنكر ، تنهاه بالقول والارشاد ، ولا دلالة فيها على ان المصلي ينتهي بسببها عن الفحشاء والمنكر ، والفرق بين النهي والانتهاك كبير وواضح .. وليس من شك ان كل كلمة من كلمات الصلاة وحركة من حركاتها تنهى عن معصية الله ، وتأمر بطاعته ، وبكلمة ان الصلاة كالقرآن تأمر وتنهى تشريعاً لا تكوينياً . انظر ج ١ ص ٧٢ فقرة : « التشريع والتكوين » .

ولابن عربي في الفتوحات المكية كلمة غامضة ومعقدة حول هذه الآية ، ولكنها دقيقة المعنى ، وتوضيحها ان المصلي يحرم عليه حين الصلاة أن يتفوه بكلمة أو يتحرك بحركة تناقض طبيعة الصلاة وتبطلها ، ولا يحرم عليه ان يقول ويفعل شيئاً يتلام مع الصلاة وصحتها ، كما لو زاد في التسبيح والتحميد حين الركوع والسجود ، أو تصدق لوجه الله في أثناء الصلاة دون أن يخل بشيء منها ، كما فعل علي أمير المؤمنين (ع) حين تصدق بخاتمته ، وهو راكم . وعلى هذا يكون المراد بالفحشاء والمنكر كل قول أو فعل يبطل الصلاة ، أن اي الصلاة تقول للمصلي : حافظ علي ولا تأت بشيء يبطلني ويخرجني عن هويتي وحقيقتي .

(ولذكر الله أكبر) . ليس المراد ان ذكر الله أكبر من الصلاة ، لأن الصلاة ذكر الله ، والشيء لا يكون أكبر من نفسه ، وانما المراد ان الله أكبر ذاكر لعباده باللطف والرحمة ، وبكلام أوضح ان الله ذاكر ومذكور ، هو ذاكر لأنه يذكر عباده بلطفه ورحمته ، وهو مذكور لأن عباده يذكرونه بقلوبهم إيماناً وإخلاصاً وبألسنتهم تهليلاً وتسبيحاً ، وبأفعالهم ركوعاً وسجوداً ، وهو أكبر الذاكرين والمذكورين لأنه رب العالمين (والله يعلم ما تصنعون) من خير وشر ، ويجزي كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون .

الجزء الحادي والعشرون

الجدال بالتي هي أحسن الآية ٤٦ - ٤٩ :

وَلَا تَجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ
وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ
وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ * وَكَذَلِكَ أُنْزِلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ
الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا
إِلَّا الْكَافِرُونَ * وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخْطُهُ يَمِينُكَ
إِذَا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ * بَلْ هُوَ آيَاتُ بَيِّنَاتٍ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا
الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ *

اللغة :

الجدل الحجاج والمناظرة مأخوذ من جدل الحبل أي قتله ، والمناظر يفتل خصمه
عن رأيه ، ومسلمون مستسلمون ومطيعون . والارتباب الشك .

الإعراب :

الذين ظلموا في محل نصب على الاستثناء المتصل ، إذا حرف جواب لكلام
محذوف أي لو خططه يمينك إذا لارتاب المبطلون ، واللام في ارتاب لام القسم .

المنهج الجدلي في القرآن :

(ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن) . المراد بأهل الكتاب اليهود

والنصارى . والجدال بالحسنى أن يكون بالحجة والدليل في أسلوب مبشر غير منفر ،
وواضح لا تعقيد فيه ولا تكلف مع إنصاف المناظر في الاستماع الى ما يريد ،
والاعتراف له بما هو محق فيه ، سواء أكان من أهل الكتاب ، أم من غيرهم ،
وأوضح مثال على ذلك قوله تعالى للمشركين الذين قالوا : « انا وجدنا آباءنا
على أمة وانا على آثارهم مقتدون قال أولو جثثكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم - ٢٤
الزخرف » . فهذا الرفق والتلطف في قوله : « أو لو جثثكم بأهدى » يدعم
الحجة ويشفع لها عند من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .. وانما خص
سبحانه أهل الكتاب بالذكر لأن المفروض فيهم أن يتقبلوا الحق أكثر من المشركين
لايمانهم بالله وملائكته ، وكتبه وأنبياؤه (الا الذين ظلموا منهم) وهم الذين
عانَدوا الحق ، وأصرروا على الضلال لا يرتدعون بحال ، فعليكم أن تدعوا هذا
النوع من أهل الكتاب ، ولا تجادلوهم في الدين على الاطلاق .

ومن تتبع آتى الذكر الحكيم التي جادلت المنكرين والمبطلين يرى ان المنهج
الجدلي في القرآن يقوم على حرية العقل واطلاقه في جميع الآفاق والميادين .. وتتجلى
هذه الحرية حين يقدم القرآن الدليل القاطع على صحة دعوته ووجوب الايمان بها :
« سرهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم انه الحق - ٥٣ فصلت » .
وأيضاً تظهر هذه الحرية حين يطالب القرآن المنكرين ان يبرروا موقفهم بالدليل :
« قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين - ١١١ البقرة » . « اتوني بكتاب من
قبل هذا أو أثارة من علم ان كنتم صادقين - ٤ الأحقاف » . « ولا يأتونك
بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً - ٣٣ الفرقان » .

هذا هو الجدل القرآني في حقيقته وواقعه : اقامة الحجة على الدعوى بما
تستدعيه طبيعتها في نظر العقل ، وطلب الحجة ممن جحد وعاند ، وردّه بحجة
أبلغ وأقوى ان كان لديه اثارة من شبهه أو دليل ، وقد ظهر هذا المنهج القرآني
في أساليب شتى :

« منها » : الاكتفاء ببيان حقيقة الشيء وتحليل معناه ، وقد استعمل القرآن
هذا الأسلوب للرد على عبدة الأصنام ونفي الربوبية عنها ، حيث أوضح انها
عاجزة عن أنفخ الأشياء : « ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا

له وانّ يسلبهم الذباب شيئاً لا يستقنوه منه ضعف الطالب والمطلوب - ٧٣ الحج . كيف يعبد الانسان من قعد به الضعف والعجز حتى عن الذباب ! وأيضاً استعمل القرآن هذا الأسلوب في الرد على من آله السيد المسيح (ع) : « ما المسيح بن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر انتى يؤفكون - ٧٥ المائدة » . ومن يأكل الطعام فهو مفتقر اليه ، والإله يفتقر اليه كل شيء ، ولا يفتقر هو إلى شيء . انظر ج ٣ ص ١٠٥ .

و « منها » : الاستدلال بوجود حادث على وجود علته بحيث يستلزم العلم بوجوده العلم بوجودها ، وقد استعمل القرآن هذا الأسلوب للدلالة على وجود الله في العديد من الآيات ، منها - على سبيل المثال - « أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها - ه ق » . ومحال أن يكون هذا البناء المحكم وتزيينه بالكواكب من باب الصدفة ، فتعين وجود التقدير الحكيم . وأيضاً استعمل القرآن هذا الأسلوب للدلالة على الوحدانية : « لو كان فيها آلهة إلا الله لفسدنا - ٢٢ الأنبياء » لأن تعدد الآلهة يستدعي فساد الكون ، وحيث لا فساد فلا تعدد . وبتعبير أهل المنطق أن نقي اللازم وهو فساد الكون يدل على نقي المألوم وهو تعدد الآلهة .

و « منها » الاستدلال بالأولية ، وقد استعمل سبحانه هذا الأسلوب للدلالة على إمكان المعاد لأن العلم بوقوعه تابع للعلم بإمكانه : « وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه - ٢٧ الروم » أي ان من قدر على إيجاد الشيء من لا شيء فبالأولى أن يقدر على جمع أجزائه بعد تفرقها .

وهذه الأمثلة برهان قاطع على ان الجدل القرآني يقوم على أساس العقل وحرية ، وان الهدف منه اظهار الحق للإيمان والعمل به ، أو لإفحام من جحد وعاند بأسلوب يقنع من طلب الحق لوجه الحق .

(وقولوا آمنا بالذي أنزل الينا وانزل اليكم وإلينا وإلهمكم واحد ونحن له مسلمون) . الخطاب للمسلمين ، والمعنى : كما يجب عليكم أيها المسلمون ان تتجادلوا من ترجون هدايته من أهل الكتاب فعليكم أن تدعوا جدال المعاندين منهم بالحسنى أيضاً أي لا تظهروا لهم العداوة ، بل خالطوهم وقولوا لهم : ان معبودنا ومعبودكم

سورة العنكبوت

واحد ، ونحن مؤمنون به ، وبالتوراة التي أنزلت على موسى ، والانجيل الذي أنزل على عيسى ، تماماً كما تؤمن بالقرآن الذي نزل على محمد . وبكلمة ، كونوا للإسلام زينة ، ولا تكونوا عليه شيناً .

(وكذلك أنزلنا اليك الكتاب) . الخطاب لرسول الله (ص) ، والمراد بالكتاب القرآن ، والمعنى كما أنزلنا التوراة على موسى ، والانجيل على عيسى من قبلك أنزلنا عليك القرآن (فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به) هذا إشارة الى الذين أسلموا من اليهود والنصارى (ومن هؤلاء من يؤمن به) إشارة الى الذين أسلموا من مشركي العرب آنذاك .

(وما يمجّد بآياتنا إلا الكافرون) . وتساءل : الجحود هو الكفر ، وعليه يكون المعنى لا يكفر إلا الكافرون ، تماماً مثل لا يقعد إلا القاعدون ، والقرآن متره عن هذا ؟

الجواب : المراد ان دلائل الصديق على القرآن قد بلغت من الوضوح مبلغاً لا ينكره إلا من اتخذ الباطل ديناً ، والكفر عقيدة لا يمجّد عنها حتى ولو ظهر بطلانها ظهور الشمس في رابعة النهار ، كما هو شأن اليهود الذين قال بعضهم لبعض : « ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم - ٧٣ آل عمران » .

(وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه يمينك اذا لارتاب المبطلون) . اتفق المؤرخون على أن محمداً (ص) لم يختلف إلى معلم صغيراً ولا كبيراً ، ومع هذا جاء بالقرآن معجزة المعجزات في عقيدته وشريعته وجميع مبادئه وتعاليمه وفي إخباره عن الانبياء السابقين وغير ذلك ، وهذا دليل كاف واف على أنه وحي من الله ، لا من صنع البشر ، ولو كان النبي (ص) يحسن القراءة والكتابة ، أو اختلف إلى معلم لقال المفترّون : القرآن من صنع محمد ، لا من وحي الله .. وقال من قال : أخفه محمد القرآن من راهب نصراني بالشام ، ولا نعرف مصدراً لهذا الزعم .. اللهم إلا قول القرآن : « لقد كفر الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثة - ٧٣ المائدة » وقوله : « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون - ٣١ التوبة » . انظر ج ٢ ص ٥٠٠ فقرة : « القرآن والمبشرون بالتثليث » .

(بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم وما يحد بآياتنا إلا الظالمون).
 كلا ، ليس القرآن من صنع محمد (ص) بل هو وحي من الله يؤمن به ويركن
 إليه الذين يطلبون العلم للإيمان بالحق وبه يعملون ، أما الذين يتخلون العلم متجرأ
 وحانوثاً فيكفرون به ، لأنه حرب على النفاق والاستغلال .

انما الآيات عند الله الآية ٥٠ - ٥٥ :

وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا
 أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ * أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ
 إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ
 شَهِيداً يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا
 بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ * وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى
 لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْةٌ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ
 وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ * يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ
 تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ *

الإعراب :

لولا أنزل هلا أنزل . والمصدر من أنا أنزلنا فاعل يَكْفِهِمْ . وجملة يتلى حال
 من الكتاب أي متلوا عليهم . وبالله الباء زائدة والله فاعل كفى . وشهيداً تمييز .
 وليأتينهم اللام جواب قسم محذوف أي والله ليأتينهم . وبغصة مصدر في موضع
 الحال من العذاب . ويوم متعلق بمحيطه .

المعنى :

(وقالوا لولا انزل عليه آيات من ربه قل انما الآيات عند الله وانما أنا نذير مبين) .
تقدم مثله في الآية ١١٩ من سورة البقرة ج ١ ص ١٨٩ والآية ٣٧ من سورة
الأنعام ج ٣ ص ١٨٤ والآية ٢٠ من سورة يونس ج ٤ ص ١٤٢ وغيرها .

(أو لم يكفهم انا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم) وكل ما فيه يشهد بأنه
من عند الله ، وقد تمدهم أن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا ، وكشف لهم عن
الكثير مما أضمرنا وخبأوا ، وقص عليهم قصص الماضين ، وشهد بصدقه المنصفون
من أهل الكتاب ، وفي ذلك حجة كافية شافية لمن يطلب الحق من معنده ،
والمشركون الذين كابروا وعاندوا رسالة محمد (ص) على يقين من ذلك ، وما
منعهم من اتباع الحق إلا المطامع والمنافع (ان في ذلك لرحمة وذكرى لقوم
يؤمنون) . ذلك اشارة الى القرآن ، وهو رحمة ونعمة لمن يعمل به ، وتذكير
وموعظة لمن يصدقه ويؤمن بشريعته وآياته .

(قل كفى بالله بيني وبينكم شهيداً) يشهد ويعلم اني قد بلغت رسالته ،
وانكم كذبتم وأعرضتم ، وأيضاً (يعلم ما في السموات والأرض) ولا تخفى عليه
خافية ، (والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون) كل ما نهى
الله عنه فهو باطل ، وكل من عصى الله فهو كافر أو فاسق ، وكل منها باء
بغضب الله ومأواه جهنم وبئس المصير .

(ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب) . دعا رسول
الله (ص) قريشاً إلى التوحيد والعدل ، وحذرهم عاقبة الشرك والظلم ، فقالوا
تعصباً لباطلهم : اثنتا بعذاب ألم .. وكان في قريش من يفضل الهلاك على الخضوع
لمحمد (ص) كرهاً له وحقداً عليه ، وقد شاهدنا كثيراً من الناس ينكصون عن
دعوة الحق كرهاً بالداعي لا بالحق .. فأجاب سبحانه المستعجلين بأن الله قضى
وقدر أمداً معيناً لعذابهم ، ولولاه لأنهم العذاب في الحال (وليأتينهم بفتنة وهم
لا يشعرون) . العذاب يأتيهم لا محالة ، ولكن فجأة ومن غير إشعار ليزدادوا
ألماً على ألم ، ألم الدهشة ، وألم الحريق .

(يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين) . يتمجلون عذاب الدنيا ، وما دروا أنهم في حصار من عذاب أشد وأعظم ، وأنه سيُطبق عليهم ، وهم في غفلة معرضون (يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ويقول ذوقوا ما كنتم تعملون) . هذا اليوم حق لا ريب ، والحق كائن ومتحقق بالفعل ، أو يكون ويتحقق في العاجل أو الآجل والا لم يكن حقاً ، أما نيران هذا اليوم فنعوذ بالله من لجبها وكتلبها .. تحبط بالمغضوب عليه من جميع جهاته . وتلتحم بلحمه وعظمه حتى إذا صار هباء عادت إليه الحياة من جديد ، وعادت النيران إلى سيرتها الأولى .. وهكذا إلى ما شاء الله .. اللهم اني أعوذ برحمتك من غضبك وأستشفع إليك بما انطوى عليه قلبي من النصيح وحب الخير لجميع عبادك ، وأنت أعلم بالسرائر .

وكأين من دابة لا تحمل رزقها الآية ٥٦ - ٦٣ :

يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ * كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ * وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعَمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ * الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * وَكَأَيِّنْ مِنْ ذَائِقَةِ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ * اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأُخْرِجُوا بِهِ

الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لِيَقُولَنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ
لَا يَعْقِلُونَ *

اللغة :

يُؤفكون يُصرفون عن الحق . ويقدر يضيئ .

الإعراب :

فإياي فاعبدون (إياي) مفعول لفعل محذوف يفسره الفعل الموجود، وفاعبدون
الأصل فاعبدوني . غرضاً مفعول ثانٍ لنبوتهم، وخالدين حال من المفعول الأول .
ونعم أجر العاملين فعل وفاعل ، والمخصوص بالمدح محذوف أي أجرهم ، وهو
مبتدأ وخبره جملة نعم أجر العاملين أو أجرهم خبر لمبتدأ محذوف أي هو أجرهم .
الذين صبروا صفة للعاملين . وكأين بمعنى كم وعملها الرفع بالابتداء . وجملة لا
تحمل رزقها صفة للدابة ، وجملة الله يرزقها خبر كأين . وأنتى مفعول مطلق
أي أي إفك يؤفكون .

المعنى :

(يا عبادي الذين آمنوا ان أرضي واسعة فإياي فاعبدون) . انفق الفقهاء على
ان المسلم لا يجوز له أن يقيم في بلد اذا تعذر عليه أن يقيم فيه الواجبات الدينية
كالصلاة ونحوها حتى ولو كان هذا البلد وطنه ، وان عليه ان يهاجر منه الى
غيره حيث يستطيع ذلك . وتكلمنا عن هذا الموضوع مفصلاً عند تفسير الآية ٩٧
من سورة النساء ج ٢ ص ٤١٩ فقرة ١ الفقهاء ووجوب الهجرة ، .
(كل نفس ذائقة الموت ثم اليها ترجعون) . بعد ان أوجب سبحانه الهجرة
من البلد المذكور قال : ومن خاف أن يموت في هجرته فان الموت لا ينجر منه

مقيم ولا ظاعن ، وبعد الموت يُبعث ويُسأل عما ترك من الواجبات ، وفعل من المحرمات ، ومنها الإقامة في بلد يضطر فيه إلى ترك العبادات وشرب المسكرات .

(والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوئتهم من الجنة غرفاً تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها) . من يخرج من بيته مهاجراً إلى الله عوقبه تعالى خيراً منه غرفاً وأشجاراً وأنهاراً في دار السلام والمقام (نعم أجر العاملين الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون) ، وأي أجر أعظم من الجنة ؟ ولأنها عظيمة كان ثمنها غالياً وعظيماً ، وهو أن يرفض مبتغيها الاستسلام لأعداء الله ، والخوف إلا من الله ، وأن يخلص لله وحده ، ويصبر من أجل ذلك على الخطوب والأحداث أيًا كان نوعها .

الرزق والثقة بالمخلوق دون الخالق :

(وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم وهو السميع العليم) . ان كثيراً من الناس يؤمنون - نظرياً - بالله ، وان أرزاق الخلاق بيده وحده ، وان خزائنه لا نفاذ لها ولا نهاية ، وانه كريم لا ينجب من توكل عليه ، ووثق به ، يؤمن بهذا نظرياً ، ولكنه يكفر بالله - عملياً - ويثق بالمخلوق دون الخالق ، ويتقرب إليه بما فيه ذهاب دينه وضيمره طامعاً بما في يده من جاه ومال ، ويتعد عن الله يائساً منه ومن جوده وخزائنه .. وهذه الآية تقرع وتهديد لهذا المؤمن الكافر .

ان الله سبحانه هو خالق الكون بما فيه ، وأسباب الرزق بشئ أنوعها تنتهي إليه ، وهي مهياة لكل طالب وراغب إذا سعى لها سعيها ، وان تعذر منها سبب تهيأ للراغب ما هو خير وأجدى من حيث لا يحتسب بشهادة الحس والعيان ، بل ان كثيراً من الكائنات الحية لا تعمل للرزق ولا تحمله ، ومع هذا يأتيها رغداً عند حاجتها إليه . وفي هذا عظة للخائنين العملاء ، ولكل من باع دينه للشيطان ، واتخذ من معصية الله ذريعة للرزق ولقمة العيش ، وحاشا لله أن ينهى عن شيء ويحصر سبب الرزق فيسه ، كيف ، ودينه دين الحياة ! قال الإمام علي (ع) :

سورة العنكبوت

« ان الذي أمرتم به أوسع من الذي نهيتم عنه ، وما أحل لكم أكثر مما حرم عليكم ، فلدوا ما قلّ لما كثر ، وما ضاق لما اتسع — وقال — ان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لخلق الله ، وانها لا يقربان من أجل ، ولا ينقصان من رزق . »

وأوضحنا فيما تقدم الفرق بين الإيمان الحق والإيمان الموهوم، وان الإيمان الصادق هو الذي يثبت في القلب ، ويتمثل في الخوف من الله والاهتمام بطاعته ومرضاته قولاً وعملاً ، أما الإيمان الموهوم فلا قرار له في القلب ، وانما هو لعق على اللسان ، ويعرض على الوهم والخيال تماماً كما تمرض الأطياف والأحلام، وأصدق شاهد على هذا الإيمان المزيف ان يؤمن صاحبه بالله — قولاً — وهو يبرجو المخلوق ويخافه — عملاً — من دون الخالق .

(ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله) .
ضمير سألتهم يعود إلى المترفين العتاة الذين عاندوا رسالة محمد (ص) . وتساءل :
إذا اعترفوا صراحة بأن الله هو خالق الكون فأين سبب الخلاف والتضاد بينهم وبين الأنبياء ؟

الجواب : انهم يعترفون بالله على أساس انه تعالى قد خصهم بالمال والسلطان ، وانه اختار لغيرهم الفقر والعبودية ، وان من أنكر هذا فهو في ضلال مبين ، هذا هو اعترافهم بالله ، وليس من شك ان من كفر بالله وآمن بأن له ما للناس ، وعليه ما عليهم أفضل عند الله من هذا الظالم الآثم ، أما الدليل على انهم يعترفون بالله على هذا الأساس فقوله تعالى : « وإذا قيل لهم انفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا للذين آمنوا انطعم من لو يشاء الله أطعمه ان أنتم إلا في ضلال مبين — ٤٧ يس . » (فأنتى يؤفكون) تُصرفون عن الحق بافرائكم ان الله خصكم بالمال والسلطان دون الناس أجمعين .

(الله ييسر الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له ان الله بكل شيء عليم) .
تقدم مثله في الآية ٢٦ من سورة الرعد ج ٤ ص ٤٠١ فقرة « الانسان والرزق »
(ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله) . إن سئلوا عن خالق الكون أجابوا معترفين بالله ، على شرطهم ، وإن سئلوا عن الذي نزل الماء وأحيا به الأرض ، وهو السبب المباشر لما في أيديهم من

رزق وثرأء؄ أءابوا أفضاً معترفين بأنة الله وحده .. وقد ناقضوا بهذا الاعتراف أنفسهم بأنفسهم؄ لأن أسباب الرزق اذا كانت من صنع الله لا من صنعهم فكيف تكون لهم وحدهم من دون الناس أجمعين ؟ ان الله للجميع ؄ فكذلك خيراته وبركاته (قل الحمد لله) الذي أظهر الحق حتى على السنة أعدائه المقتربين (بل أكثرهم لا يعقلون) انهم كاذبون مقترون يناقضون أنفسهم بأنفسهم .

الدنيا هو ولعب الآية ٦٤ - ٦٩ :

وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهيَ الْحَيَوَانُ لَوَ كَانُوا يَعْلَمُونَ * فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ * لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ * أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِالنِّعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ * وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ * وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ *

اللغة :

الحيوان بفتح الباء مصدر كالحياة ؄ وقيل : الحياة التي لا موت فيها. والمثوى المكان والمقر .

الإعراب :

مخلصين حال من فاعل دعوا . ليكفروا وليتمتعوا : اللام للأمر

سورة العنكبوت

ويجوز أن تكون للعاقبة ، مثل لدوا للموت ... وكذباً مفعول مطلق لا فترى .

المعنى :

(وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب) . المراد بالدنيا هنا دنيا القصور والفجور والليالي الحمراء، والبذخ والإسراف على حساب الضعفاء ، ودنيا المستعمرين والصهاينة صانعي الموت والمؤامرات العدوانية والانقلابات الرجعية ، ودنيا شركات الاحتكار والاستغلال والحياة والمالة والاتجار بالدين والوطنية ، ودنيا الصحافة المأجورة لتسميم الأفكار ونشوبه الحقائق والاشاعات الكاذبة .. هذه هي دنيا العبث والفساد والشر والضلال التي يمقتها الله وأعد لأهلها عذاب الحريق، أما دنيا الطيبين والأحرار المناضلين والشرفاء الذين يصلحون في الأرض ولا يفسدون فهي دنيا الحق والخير والهدى والفلاح التي يُحرمز بها رضا الله والقوز بنعيمه وجناته (وان الدار الآخرة لمي الحيوان لو كانوا يعلمون) وتفسره بقول الإمام علي (ع) : كل نعيم دون الجنة محقور، وكل بلاء دون النار عافية ، وقوله في وصف الجنة : لا ينقطع نعيمها ، ولا يظعن مقيمها ، ولا يهرم خالدها ، ولا يئأس ساكنها .

(فاذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم الى البر إذا هم يشركون) . قيل : ان أهل الجاهلية كانوا إذا ركبوا البحر حلوا معهم الأصنام، فإذا اشتدت بهم الريح ألقوها فيه ، وقالوا : يا رب يا رب . وليس هذا ببعيد فقد كان بعضهم يصنع صنماً من التمر ، فإذا جاع أكله . وتقدم مثله مع التضمير في الآية ٢٢ من سورة يونس ج ٤ ص ١٤٧ . ومن المفيد هنا الرجوع الى ما كتبناه في ج ٣ ص ١٨٨ فقرة : « الله والقطرة » .

(ليفكروا بما آتيناهم وليتمتعوا فسوف يعلمون) أي ليفكروا بما أنعم الله عليهم من النجاة وغيره وليتمتعوا الآن بكرمه وحلمه ، فيرون ما يحل بهم غداً من الخزي والعذاب (أو لم يروا انا جعلنا حرمأ آمناً ويتخطف الناس من حولهم) . ضمير

يروا يعود الى مشركي مكة المكرمة الذين حاربوا رسول الله (ص) بقرينة قوله تعالى : « حرماً آمناً » . وقد ذكرهم سبحانه بما خصهم به دون الناس من الإقامة في بلد الأمن والأمان على الأنفس والأموال ، والناس من حولهم في قلق وخوف على حياتهم وأشيائهم. وتقدم مثله في الآية ١٢٥ من سورة البقرة والآية ٩٧ من سورة آل عمران ، والآية ٥٧ من سورة القصص (أقبالباطل يؤمنون وبمنعمة الله يكفرون) . كل من خضع للباطل، ورضي بغير الحق طمعاً في الدنيا وحطامها فهو من الذين آمنوا بالباطل وكفروا بفضل الله واحسانه .

(والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين) . للجهاد في الله مظاهر ، منها طلب العلم لله ، وطلب العيش بكد اليمن ، ومنها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأفضلها جميعاً الجهاد لتطهير الأرض من الظالمين والمفسدين .. والله سبحانه يهدي الى الحق والرشد كل من أخلص في نيته ، وأحسن في عمله ، ولا يهدي من هو مسرف كذاب .

سُورَةُ الرُّومِ

مكية وآياتها ٦٠ ما عدا ١٧ آية فلها مدنية كما قيل .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

غلبت الروم الآية ١ - ٧ :

الهم * غَلَبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ *
فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ *
بَنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ * وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ
اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ *

اللغة :

المراد بأدنى الأرض هنا أقربها الى العرب . والبضع العدد ما بين الثلاثة والعشرة .
وظاهر الحياة الدنيا ما يدرك منها بالحواس كالغنى والفقر وما اليها .

الإعراب :

من قبل ومن بعد مبنيان على الضم . ويومئذ منصوب يفرح . وعد الله منصوب
على المصدرية أي وعد الله وعداً . وهم الثانية تأكيد للأولى .

المعنى :

(آلم) تقدم الكلام عنه في أول سورة البقرة (غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيفلون في بضع سنين) . فيها تقدم ذكرنا وجوهاً لاعجاز القرآن الكريم ، منها تحدي المنكرين بأن يأتوا بسورة من مثله ، ومنها عقيدته الإلهية ، وهدايته الى بواعث التقدم وأسبابه ، وشريعته الانسانية التي تفي بحاجات الناس في كل زمان ومكان ، وتقر من الشرائع الوضعية كل ما فيه صلاح للناس بجهة من الجهات ، مع العلم بأن الذي بلغ القرآن لم يختلف الى معلم ، ومنها ان كلام القرآن يحمل وجوهاً كثيرة دون كلام الناس ، وقد اهتمدبنا ، ونحن نفسر آياته ، الى ان السر في ذلك يكمن في عظمة المتكلم وعلمه الذي لا يحده بشيء . انظر ما قلناه عند تفسير الآية ٥٥ من سورة النور ، فقرة : و وجه آخر لاعجاز القرآن .

ومن مظاهر إعجاز القرآن إخباره عما لا بطلع عليه إلا علام الغيوب ، كالإخبار عما كان يضمرة المنافقون في قلوبهم ، وعن انتصار النبي على أعدائه ، وظهور الاسلام على الدين كله ، وعن رجوع النبي الى مكة متصراً بعد إخراجها منها ، وعما يحدثه أصحابه من بعده ، وعن اليهود وطبيعتهم ، وعن انتصار الروم على الفرس بعد بضع سنين من انتصار الفرس على الروم ، والآيات التي نحن بصدها تشير الى هذه الحادثة التي أجمع عليها الرواة والمفسرون .

وملخصها ان فارس كانت على دين المجوسية ، لا كتاب لها كالمشركين ، وكانت الروم على دين النصارى ، والنصارى أهل كتاب المسلمين ، وفي عهد رسول الله (ص) وقعت الحرب بين فارس والروم بأذرعَات وبُصرى من أرض الشام ، وكان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم لأنهم في الشرك سواء ، وكان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس لأن الطائفتين من أهل الكتاب ، وجاءت الأخبار بانتصار الفرس على الروم ، فشق ذلك على المسلمين ، وفرح المشركون ، وقالوا للمسلمين: ان الفرس الذين لا كتاب لهم غلبوا الروم أصحاب الكتاب ، وأنتم تزعمون انكم ستغلبون بالكتاب الذي انزل على نبيكم ، فنحن لا كتاب لنا ، وستغلبكم كما غلب الفرس الروم ، فترلت هذه الآيات ، وما

سورة الروم

مضت تسع سنين حتى أظهر الله الروم على الفرس ، ففرح المسلمون ، وحزن المشركون .

وهنا يكمن سر الاعجاز حيث أخبر القرآن الكريم بشكل قاطع جازم عن استئناف الحرب بين الروم وفارس ، وحدد وقتها في بضع سنين ، وانها تنتهي بانتصار الروم على فارس، فكان كما قال . وهذا الغيب المحجوب لا يعلمه إلا الله وحده .

(الله الأمر من قبل ومن بعد) قبل النصر وبعده ، واليه وحده ترجع الأمور (وبومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله) . يفرح المسلمون يوم تظهر الروم على فارس (ينصر من يشاء) . إذا تقاتل اثنان ينتصر من يملك أسباب النصر على الذي لا يملكها محقاً كان أو مبطلاً ، وأسند سبحانه النصر اليه لأن جميع الأسباب الكونية تنتهي اليه تعالى بالنظر إلى انه خالق الكون وما فيه (وهو العزيز الرحيم) ينتقم من الظالم ، ويرحم المظلوم .

(وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون) بعد أن أخبر سبحانه عن الغيب المحجوب ، وهو انتصار الروم على فارس أكد بأن ذلك واقع لا محالة ، ولكن من لا يؤمن بالله كيف يؤمن بوعده ؟ وهذا التأكيد القاطع أصدق شاهد على ان القرآن وحي من الذي يتساوى لديه عالم الغيب والشهادة ، ولو حصل الخلف بالوعد لاتخذ منه أعداء الرسول الأعظم (ص) ذريعة للظن بصدقه ورسالته (يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون) . الدنيا وأحوالها من عالم الشهادة ، والآخرة وأحوالها من عالم الغيب ، وبداهة ان عالم الشهادة يدرك بالحواس ، أما عالم الغيب فلا يدرك إلا بطريق الوحي ، وهم لا يؤمنون به ، فن أين يأتيهم العلم بالآخرة ؟

أولم يفكروا في أنفسهم الآية ٨ - ١٦ :

أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ*

أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ
كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ بَمَا عَمَرُوهَا
وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ
يَظْلِمُونَ * ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ أسَافُوا السَّوْءَ أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ
وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ * اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ *
وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ
شُفْعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ * وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْفِذُ يَنْفِرُونَ *
فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ * وَأَمَّا
الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ
مُخْضَرُونَ *

اللَّهُ :

أثاروا الأرض حراثوها وأصلحوها للزراعة . وعمروها من العمران . والسوأي
الحالة السيئة وهي تأنيث الأسوأ كالحسن تأنيث الأحسن . والابلاس اليأس من
الخير . والروضة الأرض ذات النبات والماء . ويحبرون يسرون .

الإعراب :

ما خلق (ما) نافية . وأجل معطوف على الحق . وكيف خبر كان وعاقبة
اسمها . وقوة تمييز وأكثر صفة لمفعول مطلق مخوف ، والمصدر من ليظلمهم

سورة الروم

متعلق بمحذوف خبراً لكان أي ما كان الله مريداً لظلمهم . والسوأي اسم كان أي كان السوأي عاقبة الذين أساءوا ، ومن رفع عاقبة فهي الاسم والسوأي الخبر . والمصدر من ان كذبوا مفعول من أجله . ويومئذ بدل من يوم تقوم الساعة .

المعنى :

(أولم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى) . الله حكيم لا يخلق شيئاً إلا بالحق ، والعبث في حقه محال ، وهو قادر على إعادة الانسان إلى الحياة بعد انتهاء أجله المحسدد له . ومن تدبر عظمة الكون يدرك حكمة الله في خلقه ، ويدرك قدرته على إحياء الموتى لأن خلق السموات والأرض أعظم من إعادة الانسان بعد الموت : « أولم يروا ان الله الذي خلق السموات والأرض ولم يعي بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى بلى انه على كل شيء قدير - ٣٣ الأحقاف » . (وان كثيراً من الناس بقاءهم لكافرون) بأنه قادر على الاعادة جهلاً منهم بأن القادر على الابداء قادر أيضاً على الاعادة لأن السبب فيها واحد ، امكاناً وامتناعاً .

(أولم يسبوا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة) . تقدم مثله في الآية ١٣٧ من سورة آل عمران ج ٢ ص ١٥٩ (وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليعظمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) . كانت الأمم السابقة أكثر حضارة وتقدماً من العرب في الزراعة والعمران ، ولما ظلموا أنفسهم بكفرهم وتكذيبهم الرسل أخذهم الله بالعذاب والملاك .. ألا يخشى الذين كذبوا محمداً أن يصيبهم ما أصاب الذين كانوا أقوى وأرقى .

(ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوأي ان كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزون) . جاءتهم رسلهم بالبينات لينقذوهم من الضلالة والغواية ، فأمنوا في الإساءة اليهم تكديماً واستهزاء ، فكان جزاؤهم سوء العذاب وبش المصير (الله يبدأ الخلق ثم يعيده ثم اليه ترجعون) تقدم في الآية ١٩ من سورة العنكبوت وغيرها .

(ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون) . في هذا اليوم يعلم المجرمون انه لا أمل ولا حيلة لمن أسلف المعصية ، وسوّف التوبة ، فتذهلهم مرارة اليأس لأنهم أمعنوا في الضلالة وأصروا عليها (ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء وكانوا بشركائهم كافرين) . كان لهم شركاء في الدنيا يتبعونهم في الضلال والفساد جهلاً وتقليداً ، ويرجون نفعهم وشفاعتهم يوم القيامة حتى اذا برزوا لله جميعاً ورأوا العذاب وأيقنوا ان لا شريك ولا شفيع تبرأ المتبوع من التابع ، والقائد من المقود . وتقدم مثله في الآية ١٦٦ من سورة البقرة ج ١ ص ٢٥٥ .

(ويوم تقوم الساعة يومئذ ينفرقون) ضمير ينفرقون يعود إلى أهل الجنة وأهل النار ، أي انهم كانوا في الدنيا يلتقون ويجتمعون في الأندية والأسواق والمعاهد والمعابد وغيرها ، أما يوم القيامة فلا اجتماع بينهم ولا لقاء (فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم في روضة يحبرون وأما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة فأولئك في العذاب محضرون) . يُخرج الله الخلائق غداً من الأحداث وجميعهم لما يريد من مسائلهم ، ثم يجعلهم فريقين : أهل الشر وأهل الخير ، فينعم على هؤلاء بمقام كريم وجنة نعيم ، وينتقم من أولئك بتزل من حيم وتصلية جحيم .

من مشاهد الكون وخلق الانسان الآية ١٧ - ٢٥ :

فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ * وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ * يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ
الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُنْخِئُ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ * وَمِنْ
آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ
أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً

وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ* وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَالْوَاوِنُكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ*
وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ
لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ* وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْزِلُ
مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْرِجُ بِهِ الْأَرْضَ بَغْدًا مَّوْنِيهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ
يَعْقِلُونَ* وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ
دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ*

اللغة :

تُظْهِرُونَ تَدْخُلُونَ فِي وَقْتِ الظُّهْرِ تماماً مثل تَمْسُونَ وَتَصْبِحُونَ . وَمِنْ أَنْفُسِكُمْ
مِنْ جَنْسِكُمْ . لَتَسْكُنُوا إِلَيْهَا لَتَطْمَئِنُّوا إِلَيْهَا ، فَسَكَنَ إِلَيْهِ مِنْ سَكُونِ الرُّوحِ ، وَسَكَنَ
عِنْدَهُ مِنْ سَكُونِ الْجَسَمِ .

الإعراب :

فَسَبَّحَانَ اللَّهَ مَنْصُوبٌ عَلَى الْمَصْدَرِيَّةِ ، وَمَعْنَاهُ الْأَمْرُ أَي سَبَّحُوا وَحِينَ مَنْصُوبٌ
بِهِ ، وَعَشِيًّا عَطْفٌ عَلَى حِينَ . وَلَهُ الْحَمْدُ مَبْتَدَأٌ وَخَبَرٌ وَالْجُمْلَةُ مَعْرُوضَةٌ . وَالْمَصْدَرُ
مِنْ أَنْ خَلَقَكُمْ مَبْتَدَأٌ وَمِنْ آيَاتِهِ خَبَرٌ . وَإِذَا أَنْتُمْ (إِذَا) لِلْمُفَاجَأَةِ . وَالْمَصْدَرُ مِنْ
لَتَسْكُنُوا مُتَعَلِّقٌ بِمَخْلَقٍ لَكُمْ وَهُوَ بِمَعْنَى الْمَفْعُولِ مِنْ أَجْلِهِ . وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ
(يُرِيكُمْ) فَعْلٌ مُضَارِعٌ فِي مَوْضِعِ الْمَصْدَرِ وَهُوَ مَبْتَدَأٌ وَخَبَرُهُ مِنْ آيَاتِهِ أَي مِنْ آيَاتِهِ
أَرَادَتْهُ إِيَّاكُمْ الْبَرْقَ . وَخَوْفًا وَطَمَعًا مَفْعُولٌ لِأَجْلِهِ .

المعنى :

(فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون وله الحمد في السموات والأرض وعشياً وحين تظهرون) . بعد أن ذكر سبحانه أهل الجنة وأهل النار أمر بتربيته وتمجيده في الاصباح والامساء والاظهار من أوقات النهار ، وفي الليل أيضاً ، فإنه تعالى هو المحمود في السماء والأرض . وفي بعض الروايات أن سليمان بن داود مر بحراث ، فقال : لقد أوتي ابن داود ملكاً عظيماً . فقال له سليمان : ان تسبيحة واحدة يقبلها الله خير مما أوتي آل داود . وفي نهج البلاغة جعل الله الحمد مفتاحاً لذكره ، وسبباً للمزيد من فضله ، ودليلاً على آلائه وعظمته .

(يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ويحيي الأرض بعد موتها) . يقول الماديون : ان المادة هي التي تُنشئ الحياة والاسماع والأفئدة .. ولو صح هذا لكانت كل مادة تبصر وتسمع وتقل ، لأن خصائص الشيء ملازمة له حيث كان ويكون ، ولما رأينا الحياة في بعض الكائنات دون بعض علمنا ان هناك قوة وراء المادة تهب الحياة لمن تشاء وتمنعها عن تشاء (وكذلك تخرجون) كما أخرج الله النبات الحي من الأرض الميتة يخرج الانسان حياً من قبره ، وكما أحياء ، ولم يكن شيئاً مذكوراً يحياه تارة أخرى بعد أن يصبح تراباً وعظاماً ، فأين مكان الغرابة ؟ انظر ج ٣ ص ٢٣١ فقرة : « من أين جاءت الحياة » ، وج ٤ ص ٣٧٩ ، فقرة « الماديون والحياة بعد الموت » .

(ومن آياته ان خلقكم من تراب ثم اذا أنتم بشر تنتشرون) . خلق الله الانسان الأول من تراب ، وجميع البشر ينتهون اليه ، وأيضاً غذاؤهم الذي فيه قوام حياتهم ينتهي الى التراب - إذن - فالتراب هو سبب كيان الانسان ووجوده ، وسبب بقاءه واستمراره .. كيف صار التراب انساناً ، له سمع وبصر وعقل وبيان وإرادة وطاقات تفعل العجائب ، وتخلق الحضارات ؟ هل هذا من فعل الصدفة أو من صنع المادة ؟ وليفرض الجاحدون ما شاءت لهم الفروض فإن العقل لا يؤمن إلا بمن ليس كمثله شيء ، وهو العلم الحكيم .

الزواج القرآني :

(ومن آياته ان خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة) . من أنفسكم أي من جنسكم وعلى شكلكم تبادلكم عطفاً بعطف واطمئناناً باطمئنان ، وقديماً قبل : كل شكل إلى شكله أليف ، ولو كانت الزوجة من غير جنس الزوج لتعثر التفاهم والمشاركة ولنظر كل إلى الآخر على أنه غريب وبعيد عن طبعه وأخلاقه .. انظر ج ٢ ص ٢٨٣ ، فقرة : « الزواج مبادلة روح بروح » وطريف قول بعض المفسرين : ان المراد بالمودة المجاعة ، وبالرحمة الولد .. وان دل هذا التفسير على شيء فلأنما يدل على تغليب الجنس عند المفسر ، وانه ينظر الى المرأة على انها مجرد آلة لإنتاج الأطفال .

ان القرآن الكريم يحدد الغاية من الزواج بالتآلف والراحم ، والعدل والمساواة ، لا بين الزوجين فقط ، بل بين أفراد الأسرة بكاملها ، قال تعالى : « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منها رجالاً كثيراً ونساء واتقوا الله الذي تساملون به والأرحام ان الله كان عليكم رقيباً » - النساء . والغرض من الأمر بالتقوى في هذه الآية أن يؤدي كل فرد من أبناء الأسرة حق الآخر ، ويتعاونوا بدأ واحدة على ما فيه خير الجميع لتحيا الأسرة حياة صالحة لا مشاكل فيها ولا تعقيد ، ومعلوم ان الأسرة الصالحة هي أساس المجتمع الصالح .

وبهذه المناسبة نشير إلى أن الخطبة تستحب عند طلب الزواج ، وعند اجراء العقد أيضاً تأسيماً بالنبي وأهل بيته (ص)، وهي حمد الله تعالى والشهادتان ، والصلاة على النبي وآله، والوصية بالتقوى ، والدعاء للزوجين ، وعن الإمام زين العابدين (ع) : من حمد الله فقد خطب .. ويستحب للتيمن والتبرك تلاوة آية من كتاب الله ، وحديث من سنة نبيه الكريم ، وعلى هذا جرت عادة السلف والكثير من الخلف ، فلهم يتلون قبل العقد من كتاب الله قوله تعالى : « ومن آياته ان خلق لكم من أنفسكم أزواجا للخت » . ومن السنة النبوية : « تناكحوا تناسلوا تكثروا ، فإني أباهي بكم الأمم يوم القيامة ولو بالسقط » .

وقلنا: يتلى هذا الحديث وما إليه للتبرك لأنه من الخطأ أن يُظن ان الخلق الكريم

والتهديب القرآني يتم بتلاوة الأحاديث والآيات .. كلا ، ان هذا التهديب لا يكون إلا بتربية الأبناء منذ الصغر تربية قرآنية تؤدي بهم الى تفهم الغاية التي أرادها الله من الزواج ، وانها انسانية خالصة من كل شائبة تجارية أو سياسية ، أما ان نربي أولادنا على حب التكاثر والتفاخر والمظاهر الفارغة ، فتقول الأم لبتها : أسعدك الله بزواج ثري ، وينصح الوالد ولده أن يتزوج بنت الوزير والتاجر الكبير ، أما هذه التربية فلا تغني عنها الآيات والأحاديث .

أما حديث تناكحوا.. تناسلوا فلا شك في صحته ، ولكن سيد الأنبياء (ص) يباهي بالمؤمنين الأنقياء ، والمجاهدين الأحرار .. وأيضاً بالسقط .. ويتبرأ من أهل الفسق والفجور ، من الشابات والشباب الذين لا يردعهم من الدين رادع ، ولا يزجرهم من الأخلاق زاجر ، ويتبرأ أيضاً من أهل الحيانة والعمالة لأعداء الله والانسانية .. وفي الحديث : « ليأتين على الناس زمان لا يسلم لذي دين دينه إلا ان يفر من شاق الى شاق . قالوا : ومتى ذلك يا رسول الله ؟ قال : إذا لم ينل المعيشة إلا بمعاصي الله ، فعند ذلك تحمل العزوبة » .

(ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون) أن الغرض من الزواج هو السكن والمودة والرحمة ، وان الزواج التجاري والسياسي كثيراً ما يؤدي الى شقاء الأسرة ، ويعرضها للزوال وتشريد الأطفال .

(ومن آياته خلق السموات والأرض) . يكرر سبحانه آية خلق الكون لأنه بما فيه من عجائب وأسرار أظهر الأدلة على وجود الله وعظمته ، وأيضاً للتذكير بفضلته تعالى وآلائه (واختلاف ألسنتكم وألوانكم) . اختلاف القوميات باللغة ، وأهل الأقطار بالألوان ، واختلاف الأفراد باللامح والأصوات وبصفة الإبهام وما إليها ، والحكمة من ذلك ان يتميز الناس بعضهم عن بعض ، فيعرف الوالد ولده ، والرجل زوجته ، والغريم غريمه ، وعمال أن تكون هذه الحكمة البالغة من صنع الطبيعة والصدقة (ان في ذلك لآيات للعالمين) أي دلائل واضحة على وجود المقدر والمدير .

(ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله) . وتقدير الكلام منامكم ليلاً ونهاراً لأن الانسان قد ينام في النهار – القيلولة – وابتغاؤكم من فضله أيضاً

سورة الروم

ليلاً ونهاراً لأن الانسان قد يسمى لرزقه في الليل ، أما قوله تعالى : « وجعلنا الليل لباساً والنهار معاشاً » - ١١ النبأ ، فانه محمول على الغالب ، ومهما يكن فان الغرض هو التذكير بحكمته تعالى من تقسيم حياة الانسان الى الكدح والراحة، حيث لا تنتظم الحياة إلا بهما (ان في ذلك لآيات لقوم يسمعون) دعوة الله فيستجيبون لها ، ومواعظه فيتعظون بها .

(ومن آياته يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينزل من السماء ماء فيحيي به الأرض بعد موتها ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون) . تقدم مثله في الآية ١٢ من سورة الرعد ج ٤ ص ٣٨٨ (ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره) . كل موجود يفترق إلى عناية الله في بقاءه واستمراره ، تماماً كما يفترق اليه تعالى في أصل الخلق والابحاد ، وما تخلت عناية الله عن شيء إلا صار هباء هو وجاذبيته ودعائه (ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون) . ان دعوة الله في الدنيا هي دعوة نصيح وإرشاد يستجيب لها المتقون ، ويعرض عنها المجرمون، أما دعوته في الآخرة فانها دعوة التكوين والتنفيذ لا مفر منها للمدعو إلا الى الداعي عظمت قدرته. وتقدم مثله في الآية ٥٢ من سورة الإسراء ج ٥ ص ٥٣ .

كل له قانون الآية ٢٦ - ٢٩ :

وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَهُ قَانِتُونَ * وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ

يَغْفُلُونَ* بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ
أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ*

اللغة :

قانتون طائعون متقادون . والمثل الأعلى الصفة العليا . وما ملكت أيمانكم العبيد
والمالِك .

الإعراب :

لكم مما ملكت متعلق بمحذوف خبراً مقدماً لشركاء، ومن زائدة إعراباً . ومثله
وما لهم من ناصرين .

المعنى :

(وله من في السموات والأرض كل له قانتون) . الكون بمن فيه وما فيه
ملك لله وطوع إرادته وحده حتى الذين يعصون أمره ونهيه يتصرف فيهم بلا
معارض ومعاند (وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه) . خلق سبحانه
الكون فأحكم خلقه ، ثم يفنيه ويعيده نارة أخرى ، والمراد بأهون هين ، مثل الله
أكبر أي كبير لأن الذي ليس كمثل شيء ، وتساوى في قدرته جميع الأشياء ،
لا يصح القول بالنسبة إليه : انه أكبر من غيره ، ولا هذا أيسر عليه من سواه
(وله المثل الأعلى في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم) . المراد بالمثل الأعلى
الصفة العليا التي لا يشاركه فيها أحد ، وهي انه لا إله إلا هو، والعزيز هو الذي
لا يُغلب ، والحكيم هو الذي لا يعبث .

(ضرب لكم مثلاً من أنفسكم هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم
فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم) . هذا المثل ضربه الله سبحانه للمتفرفين الطغاة

سورة الروم

الذين يملكون العبيد والمسال ، ويزعمون ان الله شركاء في خلقه . وتوضيحه :
انظروا أيها المشركون المترفون : ان لكم عبيداً ومالك لا تشاركونهم في أموالكم ،
ولا تقبلون أن يتصرفوا فيها إلا بإذنكم ، ولا تهابونهم حين تتصرفون أنتم فيها كما
تهابون شركاءكم الأحرار ، مع العلم بأن الذين استعبدتموهم ليسوا بملوكين لكم حقيقة
- إذن - كيف جعلتم الملوكين لله حقيقة وواقعاً ، جعلتموهم شركاء لله في
ملكه وخلقهم ؟ كيف نسبتم إلى الله ما لا ترضونه لأنفسكم ؟ أنأنفون أنتم من شراكة
ما تزعمون أنهم عبيد ، وهم مخلوقون لله مثلكم ، ولا يأنف الله من شراكة
مخلوقاته ؟ . ويلكم كيف تحكمون ؟ وهذا تماماً كقولهم : الله البنات ولنا البنون :
ويعملون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون - ٥٧ النحل ه . (كذلك تفصل
الآيات لقوم يعقلون) . ان هذا المثل واضح تمام الوضوح في أن الله لا شريك له ،
ولا يعنى عنه إلا أرباب المنافع والأهواء .

(بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم) حيث خيل اليهم ان الحق فيما
يهودون ، والعدل فيما يشتهون .. وهذا هو الجهل القاتل والضلال المبين (فمن يهدي
من أضل الله) . أضلهم الله لأنهم سلكوا طريق الضلال ، وكل من سار على
الدرب وصل سواء أكان درباً للخير أم للشر ، للنجاة أم الهلاك (وما لهم من
ناصرين) كيف وقد سلكوا سبيل الهلاك بسوء اختيارهم ، ولم يرتدعوا عنه
برادع ولا زاجر ؟

ذلك الدين القيم الآية ٣٠ - ٣٢ :

فَأَمَّا وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ
لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * مُبِينًا
إِلَيْهِ وَأَقْوَهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ * مِنَ الَّذِينَ
فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ *

اللغة :

أقم وجهك للدين أخلص* له . وحنيفاً مائلاً إلى الدين . والقيم المستقيم .
والشيخ الفرق .

الإعراب :

حنيفاً حال من الضمير في أقم . وفطرة الله مفعول لفعل محذوف أي الزموا
فطرة الله . ومنيبين حال من الناس . ومن الذين فرقوا بدل من المشركين مع إعادة
حرف الجر .

دين الله والفطرة :

(فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق
الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون) . هذه الآية تدور كثيراً على
ألسنة الخطباء وأقلام الكتّاب ، ومنهم من يستشهد بها وكفى ، ومنهم من يطلق
حولها كلمات رنانة عامة ويقول : هذا هو الدين الصحيح الضخم المائل الخ .

وليس من شك ان هذه الآية تقرر أصلاً هاماً يرتكز عليه الاسلام عقيدة
وشرعية ، وهو يدل دلالة واضحة ان تعاليم هذا الدين من أليفه إلى يائه تهدي إلى
الرشد والوفاء بمطالب الحياة ونموها وتقدمها إذا فهم الاسلام على أساس فطرة الله
التي فطر الناس عليها . ونبدأ أولاً بتفسير المفردات الواردة في الآية ، ثم نذكر
المعنى المراد من مجموعها .

وتعني كلمة الفطرة عند تعميمها وإطلاقها غريزة في داخل الانسان تقبل الخير
حين تعلم أنه خير وتلتزمه لا لشيء إلا لأن الخير يجب أن يُقبل ويُلتزم، وترفض
الشر حين تعلم أنه شر أيضاً لا لشيء إلا لأن الشر يجب أن يرفض ويُجتنب..
هذا إذا خلّي الانسان وفطرته التي فطره الله عليها ، ولم تدنسها العادات والتقاليد،
وتلوّثها الأهواء والأغراض ، وقد ضرب العلامة الحلّي مثلاً لهذه الغريزة بقوله :

سورة الروم

« لو خَيْرَ العاقل بين ان يصدق وَيُعْطَى ديناراً ، وبين ان يكذب وَيُعْطَى ديناراً لتخير الصدق على الكذب ، وهذه الفريزة التي تختار الصدق على الكذب هي التي خاطبها الله أو خاطب أربابها بقوله : « أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بلى - ١٧٢ الأعراف » وعناها الحديث المشهور عن الرسول الأعظم (ص) : كل مولود يولد على الفطرة حتى يكون أبواه هما اللذان يهودانه أو ينصرانه . أما كلمة حنيف هنا فإنها تعني من استقام على فطرة الله التي فطر الناس عليها مبتعداً عما يندسها من الأهواء والأغراض . والمراد بقوله تعالى : لا تبديل لخلق الله، ان الدين عند الله قائم وثابت على أساس هذه الفطرة لا يحول عنها ولا يزول . وذلك اشارة الى ما أوجب الله على العباد أن يلتزموه قولاً وعملاً لأنه هو الدين المستقيم الذي لا ترى فيه عوجاً ولا أمناً .

أما الآية بمجموعها فإنها تدل على ان الدين يرتبط بالفطرة، ولكن ليس معنى هذا ان الفطرة هي المشرع والأمر الناهي ، وان وظيفة الدين هي الكشف والتعبير عن أحكامها .. كلا ، فان الله الذي خلق الدين والفطرة هو المشرع الأول، وله وحده الأمر والنهي ، وانما القصد من الآية هو تحديد المقياس الذي تقيس به دين الله ، وانه بما فيه من عقيدة وشريعة وأخلاق ينسجم مع فطرة الناس ومصلحتهم، وانه سبحانه لم يشرع حكماً لعباده منافياً لمصلحة الفرد أو الجماعة .. هذا هو الضابط والفاصل بين أحكام الله وأحكام غيره ، بين شريعة الحق وشريعة الباطل، أما أقوال العلماء من الفقهاء والمفسرين والفلاسفة فما هي بأصل من أصول الاسلام، ولا يصح الاعتماد عليها كدليل شرعي^١ لأنها تعكس اجتهادهم وفهمهم للدين الله وأحكامه ، ولا تعكس الدين كما هو في حقيقته وواقعه .

ونخلص من هذا إلى ان الاسلام لا يرفض بقية الأديان والمذاهب بكل ما فيها، بل ينظر اليها نظرة المدقق المنصف ، فيقر منها ما يتفق مع فطرة الله ، ويرفض ما عدا ذلك .

(منيبين اليه واتفقه) ارجعوا إلى هذا الدين، وأطيعوا جميع أحكامه (وأقيموا

١ لا يعتمد على الاجماع في العقائد ، ولا في المسائل الفقهية مع الاحتمال أنه لم يكشف عن رأي المصوم .

(الصلاة) فانها تذكركم بالله (ولا تكونوا من المشركين) اخلصوا له وحله في جميع أفعالكم وأفعالكم (من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً كل حزب بما لديهم فرحون) . تقدم مثله في الآية ١٥٩ من سورة الأنعام ج ٣ ص ٢٩٠ والآية ٥٣ من سورة المؤمنون .

واذا مس الناس ضرر الآية ٣٣ - ٤٠ :

وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضَرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ * لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمْتَعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ * أَمْ أَنْزَلْنَاهُ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ * وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ * أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * فَآتَ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبَاٍ لَّيْرَبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرَبُّوْا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْغِفُونَ * اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ *

سورة الروم

اللغة :

منبين اليه أي راجعين اليه . والمراد بالسلطان هنا الحجة أو الكتاب . ويقدر يضيق . وابن السبيل هو الذي سافر في غير معصية ، وانقطع عن ماله وأهله . والربا الزيادة . والمضعفون الذين يضاعف لهم الأجر والثواب .

الإعراب :

منبين حال من واو دعوا . إذا فريق (إذا) للمفاجأة . وما آتيم (ما) في محل نصب بآتيم .

المعنى :

(وإذا مس الناس ضر دعوا ربهم منبين اليه ثم إذا أذاقهم منه رحمة إذا فريق منهم برهم يشركون) . تقدم مثله في الآية ١٢ من سورة يونس ج ٤ ص ١٣٩ والآية ٦٧ من سورة الإسراء (ليكفروا بما آتيناهم فتمتعوا فسوف تعلمون) . تقدم مثله في الآية ٦٦ من سورة العنكبوت .

(أم أنزلنا عليهم سلطاناً فهو يتكلم بما كانوا به يشركون) . أم هنا بمعنى بل وهمزة الاستفهام . والمراد بالسلطان البرهان ، والمعنى هل يشهد لكم شيء من الوحي أو العقل بأن الذي أنتم عليه من الشرك حق وصواب ، والقصد من ذلك الاستنكار والتهديد .

(وإذا أذاقنا الناس رحمة فرحوا بها وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم يقنطون) . هذا هو الانسان ، إن مسه الخير فهو فرح فخور ، وإن مسه الشر فيثوس كفور . وتقدم مثله في الآية ٩ من سورة هود ج ٤ ص ٢١٢ (أولم يروا أن الله ييسر الرزق لمن يشاء ويقدر إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون) . تقدم في الآية ٢٦ من سورة الرعد ج ٤ ص ٤٠١ والآية ٣٠ من سورة الإسراء ج ٥ ص ٤٢ .

(فَأَتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ) . للقریب الفقير حق على قریبه الغني ، وهو الإنفاق عليه بما يسد الخلة . وقال الشافعية والإمامية : تجب نفقة الأقارب إذا كانوا من الآباء وان علّوا ، والأبناء وان نزلوا . وقال المالكية : لا تجب إلا نفقة الأبوين والأبناء الأذنين دون آباء الآباء وأبناء الأبناء . وقال الحنابلة : تجب نفقة القريب بشرط أن يكون المنفق وارثاً للمنفق عليه . أما الحنفية فيرون الشرط الأساسي أن تكون القرابة موجبة لحرمة الزواج . والتوضيح في كتابنا : « الأحوال الشخصية على المذاهب الخمسة » .

أما المسكين وابن السبيل فقد تقدم الكلام عنها عند تفسير الآية ٦٠ من سورة التوبة ج ٤ ص ٥٩ (ذلك خبر للذين يريدون وجه الله وأولئك هم المفلحون) . ذلك إشارة إلى الإعطاء ، وأنه يجب أن يكون لوجه الله ، كما هو شأن أهل الصلاح والفلاح (وما آتيتم من ربا ليربو في أموال الناس فلا يربو عند الله) . قال جماعة من المفسرين : المراد بالربا هنا الربا المحرم . وقال آخرون : بل المراد به الربا الحلال ، ومثاله أن يهدي الرجل غنياً من الأغنياء ليرد الهدية أضعافاً . والأولى حل الآية على الاثنين ، وإن كلاً من آكل الربا المحرم والمهدي بقصد الربح لا ثواب له عند الله ، سوى أن الأول عليه عقاب ، والثاني لا ثواب له ، ولا عقاب عليه .

(وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون) أي يضاعف لهم الثواب والجزاء ، والمعنى الجملي أن من ينفق لوجه الله تعالى يزيد الله في ماله بالدنيا ، وفي ثوابه بالآخرة . قال الإمام علي (ع) : إذا أملكتم فتأجروا الله بالصدقات . وهذا مأخوذ من قوله تعالى : « من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة - ٢٤٥ البقرة ج ١ ص ٣٧٥ .

(الله الذي خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء) أتدخلون بما آتاكم الله ، وتبتغون الرزق من غيره ، وهو الذي أوجدكم بعد العدم ، وأفاض عليكم من بركاته الواسعة ، وهو الذي يميتكم ثم يحييكم ، ثم يعثكم للحساب والجزاء ؟ فهل من أحد ممن ترجون فضله وتأملون نفعه بحيي ويميت ؟ وإذا قدر على إعطاء بعض القنات في هذه الحياة فهل يقدر

سورة الروم

غداً على النفع والضرر (سبحانه وتعالى عما يشركون) . وفي الحديث : الشرك أخفى من ديب النمل ، وفيه إيماء إلى ان الشرك على أنواع ، ومنها الثقة بالمخلوق دون الخالق .

ظهر الفساد في البر والبحر الآية ٤١ - ٤٥ :

ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ
الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ
كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ * فَأْتِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ
الْقَاسِمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يُصْدَعُونَ *
مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نَفْسَ لَهُمْ يَمْهَدُونَ * لِيَجْزِيَ
الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ *

اللفظ :

يُصْدَعُونَ أصلها يتصدعون من التصدع ، والمراد هنا التفرقة ، يقال تصدع
القوم أي تفرقوا . ويمهدون من مهد بمعنى وطأ وهبأ .

الإعراب :

ليذيقهم اللام بمعنى كي ، وان مضمرة بعدها ، والمصدر المجرور متعلق
بظهر . والمصدر من ليجزي متعلق بيصدعون .

المعنى :

(ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس) . قال جماعة من المفسرين : المراد بالبحر هنا البلاد القريبة من البحر ، وبالبر البلاد البعيدة عنه ، وقال آخرون : المراد بالبحر المدينة لكثرة سكانها ، وبالبر القرية لقلتهم .. والذي نفهمه نحن ان البر والبحر كناية عن كثرة الفساد وانتشاره .. وكل ما حرمه الله ونهى عنه فارتكابه جريمة وفساد في الأرض ، كالحرب والبغي والإسراف والخلاعة والفجور والخمر والميسر والاستخفاف بفرائض الله وعبادته ، وما إلى ذلك .

وإذا وصف سبحانه عصر الجاهلية بظهور الفساد برأ وبجراً حيث لا أسلحة كيمياوية ولا قنابل نووية ، ولا شركات للاستغلال والاحتكار ، ولا كازينوهات واخلاعات فبأي شيء نصف عالم اليوم الذي يهدده الفناء والدمار الشامل في كل لحظة ، يهدده الفناء والهلاك لا بفعل الله ، ولا بكوارث الطبيعة ، بل بفعل الناس الذين يملكون أشنع أسلحة الاقناء والاهلاك .. ولا سبيل لأمن البشرية وصيانتها من هذا الخطر إلا أن تدمر هذه الأسلحة تدميراً كاملاً ، أما هيئة الأمم ومعاهدة التجارب الذرية الجزئية فانها لم تحقق للبشرية ما تثق به وتطمئن اليه . (ليذيقنهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون) . الفساد في الأرض نتيجة طبيعية للإعراض عن الله ، وعدم الالتزام بأمره ونهيه ، وكلمة «بعض» في الآية تشير إلى عذاب الدنيا ، ولعذاب الآخرة أشق وأخزى . وفي الدعاء المأثور: اللهم اني أعوذ بك من الذنوب التي تغير النعم وتنزل النقم، وقال سيد المرسلين (ص): « اتقوا الذنوب فانها ممحقة للخيرات » ، وكفى شاهداً على ذلك قوله تعالى : « وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعداً - ٦٠ الكهف » ، وقوله : (قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل كان أكثرهم مشركين) . تقدم مثله في الآية ١٣٧ من سورة آل عمران ج ٢ ص ١٥٩ والآية ١١ من سورة الأنعام و ٦٩ من سورة النمل .

(فأقم وجهك للدين القيم من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله) وهو يوم الحساب والجزاء الذي لا مفر منه ، والسعيد من أخلص لله في أعماله

ومقاصده وحاسب نفسه قبل أن 'تحاسب' (بومئذ يصدّعون) يتفرقون إلى فريقين: فريق في الجنة ، وفريق في السعير ، ومرثله في الآية ١٤ من هذه السورة .

(من كفر فعليه كفره ومن عمل صالحاً فلأنفسهم يمهّدون) . مهّد الفراش بسطه وسهّله ، وأصحاب الأعمال الصالحات يفرشون قبورهم ويجهّزونها بما يحتاجونه لأنهم وراحتهم قبل أن ينقلوا إليها تماماً كما يُجهّز البيت في الحياة الدنيا قبل سكناه ، وعن الإمام جعفر الصادق (ع) : ان العمل الصالح يسبق صاحبه ليمهّد له كما يمهّد الخادم لسيده . وتقدم مثل هذه الآية في سورة البقرة الآية ٢٨٦ ج ١ ص ٢٥٥ .

(ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات من فضله انه لا يحب الكافرين) . ليجزي متعلق بيصدعون ، والمعنى ان الله يجعل الناس يوم القيامة فريقين ليكافئ المؤمنين على أعمالهم بالجنة لأنه يحبهم ويجب ما عملوا من الصالحات ، أما الكافرون فإن الله يكرههم ويجزيهم بما يستحقون . وفي نهج البلاغة : « ان الله يحب العبد ، ويغض عمله ، ويحب العمل ، ويغض بدنه » أي يحب المؤمن لإيمانه ، ويغض ما يأتيه من السيئات ، ويغض الكافر لكفره ، ويجب ما يفعله من حسنات .

من الآيات الكونية الآية ٤٦ - ٥١ :

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْزِيَ الْفَلَكَ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاؤُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَاَتَقَمَّنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ * اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ *

وَأِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ * فَانْظُرْ إِلَى
آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُخْفِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُخْفِي الْمَوْتَى
وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا
مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ *

اللغة :

كسفاً جمع كسفة ، وهي القطعة من الشيء . والودق المطر . ومبلسين جمع
مبلس ، وهو المتحسر الآيس .

الإعراب :

مبشرات حال من الرياح . وليذيقكم عطف على معنى مبشرات أي لبشركم
وليذيقكم . وحققاً خبر كان ، ونصر اسمها . وكيف مفعول مطلق وتقديره أي
مشيئة بشاء ، ومثله كيف يحيي الأرض . وان كانوا (ان) مخففة واسمها مخدوف
أي أنهم كانوا . واللام في مبلسين اللام الفارقة ومبلسين خبر كانوا وجملة كانوا
مع خبرها خبر ان . واللام في لئن لام التوطئة للقسم . واللام في لظلوا واقعة
في جواب القسم ، وظلوا فعل سد مسد جواب القسم والشرط معاً .

المعنى :

(ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات وليذيقكم من رحمته ولتجري الفلك بأمره
ولتبتغوا من فضله) . كل شيء يترتب على وجوده حكمة لا غنى عنها فهو
دليل قاطع على نفي الصدفة ووجود القصد والارادة ، وهذا الدليل هو المراد بآية

سورة الروم

الله الدالة على وجوده . وللرياح فوائد كثيرة، فهي - اذن - آية دالة على وحدانية الله وقدرته ، ومن فوائدها اثاره السحاب الذي يبشر الناس بالخير ، وجريان السفن على متن الماء تحمل الأقوات من بلد إلى بلد ، وغير ذلك مما أشار اليه الامام جعفر الصادق بقوله : « لو كفت الريح ثلاثة أيام لفسد كل شيء على وجه الأرض ونتن ، لأن الريح بمنزلة المروحة تذب وتدفع الفساد عن كل شيء وتطيبه فهي بمنزلة الروح إذا خرجت من البدن نتن وتغير .. فتبارك الله أحسن الخالقين » . (ولعلكم تشكرون) أي تتقون معاصي الله في السر والعلانية . وأشرنا فيما تقدم أكثر من مرة ان الله يجري الأشياء على أسبابها ، ويسندها اليه لأنه السبب الأول الذي تنتهي اليه جميع الأسباب .

(ولقد أرسلنا من قبلك رسلاً الى قومهم فجاءوهم بالبينات فانقمنا من الذين أجرموا وكان حقاً علينا نصر المؤمنين) . أرسل الله محمداً (ص) بالحجة الواقية، كما أرسل من قبله بالحجج الواضحة ابراهيم وموسى وعيسى وغيرهم من الأنبياء، فكذب بهم كثير ، وآمن بهم قليل ، فأخذ الله المكذبين بعذاب يوم عظيم ، ونصر الله الأنبياء ومن معهم ، وهذا النصر واجب على الله ، وهو الذي أوجبه وكتبه على نفسه تماماً كما كتب عليها الرحمة .. ومحال ان تضيع عند الله ظلامسة مظلوم وإلا كان الظالم أحسن حالاً من المظلوم عند الله . انظر ج ٤ ص ١٣٢ فقرة : « الحساب والجزاء حتم » . والغرض من هذه الآية تهديد الذين كذبوا محمداً (ص) ان يصيبهم مثل ما أصاب الذين كذبوا أنبياءهم من قبل .

(الله الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً فيسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كسفاً فترى الودق يخرج من خلاله فإذا أصاب به من يشاء من عباده اذا هم يستبشرون وان كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبشرين) . هذا توضيح للآية السابقة، وهي : « ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات » ويتلخص المعنى بأن الله سبحانه يرسل الرياح ، فتتحرك السحاب ، وتنشره في السماء ، ثم تقسمه بأمره إلى قطع، وتدفع بكل قطعة إلى البلد الذي أرادته الله ، فإذا وصلت اليه خرج الماء من السحابة وتساقط على البلد المقصود ، فيفرح أهله ، ويبشر بعضهم بعضاً بالخبر ، ومن قبل كانوا قانطين يائسين . وتقدم مثله في الآية ٥٧ من سورة الأعراف ج ٣ ص ٣٤٢ .

العقل وفكرة البعث :

(فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها ان ذلك لمحبي الموتى وهو على كل شيء قدير) . المراد برحمة الله هنا المطر ، وبآثاره إحياء الأرض بعد موتها ، وهذا الإحياء ثابت بالعيان ، وهو دليل قاطع ومحسوس على ان فكرة البعث والإحياء بعد الموت من حيث هي صحيحة لا تقبل الشك ، لأن العاقل اذا تنبه وتدبر إحياء الأرض بعد موتها لا بد أن يسلم ويؤمن بفكرة البعث كفكرة ، وإلا كان من الذين يجمعون بين الإيمان بوجود الشيء والإيمان بعدمه في آن واحد.. وبداهة ان هذا الجمع ممتنع بذاته وطبيعته .. وهنا يكمن السر في تكرار الآيات التي تنبه العقول إلى إحياء الأرض بعد موتها كدليل على امكان البعث ، ومن هذه الآية قوله تعالى : « فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور - ٩ فاطر » ، وقوله : « ومن آياته انك ترى الأرض خاشعة فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ان الذي أحياها لمحيي الموتى - ٣٩ فصلت » . وغيرها كثير .

(ولئن أرسلنا ريحاً فرأوه مصفراً لظلوا من بعده يكفرون) . الهاء في رأوه تعود إلى الزرع المفهوم من سياق الكلام ، ومصفراً صفة له ، لا للريح ، والمعنى إذا أرسل الله ريحاً يصفر منها زرعهم بعد خضرته يشوا من رحمة الله ، واعترضوا على حكمته ، وكفروا به وبنعمته ، وان دل هذا على شيء فانما يدل على ان إيمانهم بالله وهم وخيال ، ولو كان مستقراً في القلوب لثبتوا عليه في السراء والضراء . قال الإمام علي (ع) : « من الإيمان ما يكون ثابتاً مستقراً في القلوب ، ومنه ما يكون عواري بين القلوب والصدور إلى أجل معلوم » .. ان المؤمن يتألم ويحزن كإنسان إذا أصيب في نفسه أو ولده أو ماله ، ولكنه لا يخرج عن دينه . قال الرسول الأعظم (ص) عند وفاة ولده ابراهيم : تدمع العين ، ويحزن القلب ، ولا نقول ما يسمخط الرب .

خلقكم من ضعف الآية ٥٢ - ٩٠ :

فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الضُّمَمُ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ *

وَمَا أَنْتَ بِهَادٍ الْعَمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا
فَهُمْ مُسْلِمُونَ * اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ
قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ
الْقَدِيرُ * وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لِيُشَاءَ غَيْرَ سَاعَةٍ
كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ * وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ
فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا
تَعْلَمُونَ * فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ *
وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ
لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ * كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى
قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ * فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفُّكَ
الَّذِينَ لَا يُؤْقِنُونَ *

الإعراب :

الله الذي خلقكم مبتدأ وخبر . وما لبثوا جواب القسم . ولئن اللام للتوطئة .
وليقولن اللام في جواب القسم ، ويقولن يسد مسد جواب الشرط والقسم .

المعنى :

(فانك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين وما أنت بهادٍ
العمي عن ضلالتهم ان تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون) . تقدم بالنص

الحرفي في سورة النمل الآية ٨٠ و ٨١ .

(الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير) . لم يكن الانسان شيئاً مذكوراً ثم كان ، وانتقل في العديد من الأطوار ، فن التراب إلى النطفة والجنين ، ومنه إلى الرضيع والقطيم ، ومن الصبي والشاب إلى الكهل والشيخ القاني ، والضعف الأول الذي أشارت إليه الآية هو ضعف البنية والادراك في الطفل ، وقيل : بل ضعف النطفة ، والمراد بالقوة قوة الشباب ، أما الضعف الثاني فهو ضعف الهرم والكبر باتفاق المفسرين ، ومن أجل هذا قلنا : ان المراد بالضعف الأول الطفولة لأنها أنسب إلى الهرم من النطفة . وعلى أية حال فان القصد من الإشارة إلى تغير الانسان من حال إلى حال هو أن يدرك انه في قبضة الله يتصرف به كيف يشاء إحياء وإماتة وإضعافاً وتقوية ، ثم إليه المنقلب والمصير . وتقدم مثله في الآية ٧٠ من سورة النحل ج ٤ ص ٥٣٠ .

(ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة) . المراد بالساعة يوم القيامة ، وبقوله : ما لبثوا غير ساعة الجزء من الزمن في الحياة الدنيا ، والمعنى ان المجرمين حين ينسلون إلى ربهم من الأجداث يحلفون بالله من الدهشة ما لبثوا في قبورهم إلا قليلاً . وتقدم ذلك مفصلاً في الآية ١٠٢ من سورة طه ج ٥ ص ٢٤٤ ، وجمعنا هناك بين ثلاث آيات : الأولى : يتخافتون بينهم ان لبثتم إلا عسراً . والثانية : قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم . والثالثة الآية التي نحن بصدددها . (كذلك كانوا يؤفكون) يصرفون عن الصدق إلى الكذب في الدنيا حيث كانوا يحلفون : لا بعث ولا حساب . وفي الآخرة أيضاً حيث حلفوا ما لبثوا غير ساعة .

(وقال الذين أوتوا العلم والایمان لقد لبثتم في كتاب الله الى يوم البعث فهذا يوم البعث) . قال المجرمون ما قالوا عن أمد مكثهم ، فقال لهم أهل الإيمان بالله وحسابه وثوابه : لقد لبثتم ما شاء الله أن تلبثوا ، والأمد الذي قضيتموه في قبوركم الى هذا اليوم ثابت في علمه تعالى ، ولا يعلمه أحد سواه .. وأية جدوى من قسمكم وحديثكم عن أمد المكث في القبور وقد أنكرتم من قبل هذا اليوم الذي

سورة الروم

ترون شدائده وأهواله ؟ (ولكنكم كنتم لا تعلمون) أنكم في عمى وضلال مبين .
(فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم ولا هم يُستعتبون) . المراد بالاستعتاب
هنا الاقالة أي ان المجرمين يستقبلون ربهم فلا يقلبهم ، ومنه قوله تعالى : « وان
يستعبوا فما هم من المعتبين - ٢٤ فصلت » وعليه يكون المعنى لا عذر ولا إقالة
لمجرم في ذلك اليوم بعد أن حُدّر وأنذر فأبى إلا كفروراً .

(ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل) . تقدم في الآية ٥٤ من سورة
الكهف ج ٥ ص ١٣٩ .

(ولئن جئتكم بآية ليقولن الذين الذين كفروا ان أنتم إلا مبطلون) . يقولون عن
الأنبياء والمصلحين وعن الأحرار والمجاهدين : أنهم مبطلون .. وعن الخونة المنافقين
والعملاء المأجورين : أنهم محقون .. ولا بدع فان الطغاة المجرمين يقيسون الحق
والباطل بمنافعهم وأهوائهم ، فما وافقها فهو حق وان كان شرأ وفساداً، وما خالفها
فهو باطل وان كان خيراً وصلاًحاً .

(كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون) . طبع الله على قلوبهم لأنهم
سلكوا باختيارهم السبيل المؤدية إلى ذلك حتماً .. فالعمى عن الحق نتيجة الجهل ،
والبغي والطغيان نتيجة الانحراف عن طريق الهداية ، أما نسبة ذلك إليه تعالى فعناها
ان هذه النتيجة تلزم مقدماتها وأسبابها ولا تنفك عنها بحال (قاصبر ان وعد الله
حق ولا يستخفك الذين لا يوقنون) . اصبر يا محمد وامض في دعوتك، وتحمل
الأذى في سبيلها ، فما هي الا أيام حتى تنتشر رسالتك في شرق الأرض وغربها ،
ويقرن اسمك باسم الله تعالى وبالصلوات والتحيات .. والحمد لله الذي من علينا
بمحمد صلى الله عليه وآله نبي الرحمة وقائد الانسانية الى الخير ، فارزقنا شفاعته
يا مبدل السينات بأضعافها من الحسنات .

سُورَةُ الْمُحْتَمَلِ

مكية إلا بعض آيات ، وآياتها ٣٤ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هذا خلق الله الآية ١ - ١١ :

أَلَمْ * تَلِكْ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ * هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ * الَّذِينَ
يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُولَئِكَ عَلَى
هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ
الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ
عَذَابٌ مُهِينٌ * وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَتِلْكَ مُسْتَكْبِرًا كَانُوا لَمْ يَسْمَعُوا
كَأَنَّ فِي أُذُنِهِمْ وَقَرَأَ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ * خَالِدِينَ فِيهَا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ
الْحَكِيمُ * خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ
أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا
فِيهَا مِنْ كُلِّ ذَوْجٍ كَرِيمٍ * هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ
مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ *

اللغة :

المراد بلهو الحديث هنا كل ما يصد عن الحق الذي عبر عنه سبحانه في نفس الآية بسبيل الله . والوقر الصمم . والرواسي الجبال . وبث فرق . وزوج كريم صنف حسن .

الإعراب :

تلك آيات الكتاب مبتدأ وخبر . وهدى ورحمة حال من الآيات والعامل معنى الإشارة في تلك . ومن الناس خبر مقدم ، ومن يشترى مبتدأ مؤخر . ويتخذها عطف على ليضل . وبغير علم متعلق بمحذوف حالاً من فاعل يضل أي جاهلاً . ومستكبراً حال . وكان ، أصله كأنه . وخالدين حال من الضمير في لهم . وعد الله منصوب على المصدرية أي وعد الله وعداً حقاً ، وحقاً صفة للوعد المحذوف . وماذا بمنزلة الكلمة الواحدة ومحلها النصب بحلق والتقدير أي شيء خلق .

المعنى :

(آلم) تقدم مثله في أول سورة البقرة (تلك آيات الكتاب الحكيم) . تلك إشارة إلى آيات هذه السورة ، وأنها من كتاب الله ، ووصفه سبحانه بالحكيم لأن فيه الحكمة البالغة (هدى ورحمة للمحسنين) وهم الذين يطلبون الحق ويعملون به لأنه حق ، ولا ريب أن القرآن هدى ورحمة لكل من أخلص لله وللحق ، أما الذين أعمت المطامع قلوبهم فهم الداء الذي لا دواء له إلا الاستئصال (الذين يقيمون الصلاة) يداومون عليها (ويؤتون الزكاة) لمن يستحقها (وهم بالآخرة هم يوقنون) ولا يشكون أنهم مسؤولون أمام الله عن أقوالهم وأفعالهم (أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون) . فيزان الهداية والفلاح عند الله أن تخلص للحق قولاً وعملاً ، ولا تعبد إلا الله ، ولا تبخل بما آتاك من فضله . وتقدمت هذه الآيات في أول سورة البقرة .

الانحجار بالدين والضمير :

(ومن الناس من يشترى له الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزواً) . قال صاحب مجمع البيان : « أكثر المفسرين على ان المراد ببلهوا الحديث الغناء .. وعن الإمام جعفر الصادق (ع) انه الطعن بالحق والاستهزاء به » .

وهذا التفسير أقرب الى الواقع ، وأليق بالسياق ، فإن الله سبحانه بعد أن ذكر المؤمنين المفلحين ذكر المجرمين الذين يشترى الذم من الذين يتاجرون بالدين والضمير ليضلوا الناس عن الحق ، ويصرفوهم عنه بالأوهام والأباطيل .. وأوضح مثال على ذلك ما تلجأ اليه قوى الشر والاستغلال في هذا العصر لتدعيم مكانتها وبث دعايتها، حيث تنفق الملايين على الصحف المأجورة لتنتشر الأكاذيب والافتراءات، وتروج للخونة والعملاء، وتشكك بالمخلصين الأحرار ، وفوق هذا ان تلك الأجهزة الشريرة ألبت عملاءها ثياب أهل الدين ليلصقوا به البدع ويفسروه بما شاء لها البغي والاستغلال ، ويثووا الفن والشقاق بين الطوائف وأهل الأديان .. وبعد حرب الشرق الأوسط سنة ١٩٦٧ شاهدنا ألواناً من الاشاعات الكاذبة والحرب النفسية في الصحف المأجورة ، أما نشاط الدخلاء فقد بلغ الغاية في الجرأة على الله ورسوله.. ولكن الأيام كشفت الحقائق ، وفضحت الدخلاء والعملاء ، وأوان التصفية آت لا محالة (أولئك لهم عذاب مهين) لأنهم باعوا دينهم للشيطان ، وتآمروا معه على الحق وأهله .

(وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبراً كان لم يسمعها كأن في أذنيه وقراً فبشره بعذاب أليم) . المؤمن المخلص يستمع للحق ، ويتصامم عن الباطل ، والحيث المجرم صاحب الغايات والأهداف يصغي للباطل، ويتصامم عن الحق .. ولا جزاء له إلا عذاب أليم ، قال الرازي : « العاقل يطلب الحكمة بأي ثمن ، وهم ما كانوا يطلبونها، وإذا جاءتهم مجاناً ما كانوا يسمعونها » (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات النعيم) . لما بين سبحانه جزاء من أعرض عن آياته وانه عذاب أليم بين جزاء من آمن وعمل بها وانه جنات النعيم (خالدين فيها) ولهم ما يشتهون (وعد الله حقاً) لأنه واقع لا محالة (وهو العزيز الحكيم) عزيز بقدرته التي لا تغلب ، حكيم بتدبيره الذي لا ينكره إلا جاهل أو مكابر .

سورة لقمان

(خلق السموات بغير عمد ترونها وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم وبث فيها من كل دابة وأنزلنا من السماء ماء فأنبثنا فيها من كل زوج كريم) . تقدم في الآية ٢ وما بعدها من سورة الرعد ج ٤ ص ٣٧٣ (هذا خلق الله فاروني ماذا خلق الذين من دونه) . كل ما في الكون يشهد لله على قدرته ووحدانيته ، فأين الدليل أيها المشركون على أن معبودكم شريك لله في صفة من صفاته ؟ (بل الظالمون في ضلال مبين) . وكل من جحد الحق، أي حق، بعد أن تظهر دلائله فهو ظالم آثم .

وتسأل : من ينتج الآيات الكريمة يرى أن الله سبحانه كثيراً ما يؤكد البدييات والواضحات فيها يعود إلى أبطال الشرك مثل قوله للمشركين : فأروني ماذا خلق الذين من دونه . وقوله : لن يخلقوا ذباباً ، فما هو السر ؟
الجواب : السر أن يكشف سبحانه أن الفضة الباغية لا تؤمن إلا بمصلحتها ، وإنها تنكر من أجل مصلحتها الشخصية كل حقيقة حتى ولو كانت من الواضح على مثل ضوء الشمس . وهذه الصفة من أقبح الصفات وأخطرها ، ولا دواء لها إلا القوة الرادعة .

لقمان الآية ١٢ - ١٩ :

وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ * وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ * وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا وَهُمَا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفَصَّالَهُ فِي سَبِيلِنَا أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ * وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ

إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَنْبِئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ
 مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ
 يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ * يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ
 وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصِرْ عَلَى مَا أَوْصَاكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ *
 وَلَا تُصْعَقْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ
 كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ * وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنْ أَنْكَرَ
 الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ *

اللغة :

الوهن الضعف . والفصال القطام . وجاهدك بذلا الجهد . وأناب رجع .
 ولا تصعر خدك لا تمل بوجهك وهو كناية عن التكبر . ومختال من الخيلاء ،
 وهي العجب والتكبر . واقصد في مشيك من القصد ، وهو وسط بين الافراط
 والتفريط .

الإعراب :

ان اشكر (ان) مفسرة بمعنى أي . وجملة حملته حال على تقدير قد حملته .
 وهنأ مصدر في موضع الحال من أمه أي موهونة . ومعروفاً صفة لمحنوف أي
 مصاحباً معروفاً بمعنى مصاحبة معروفة كما في مجمع البيان . والضمير في أنها يعود
 إلى فعلة الانسان من خير وشر . وتك ، أصلها تكون فحذفت الواو لالتقاء
 الساكنين والنون للتخفيف ، واسم تك ضمير مستتر يعود إلى الفعلة ومثقال خبرها .

سورة لقمان

ومن خردل متعلق بمحذوف صفة لحبة . فتكن عطف على تك . وبأت جواب
ان الشرطية . ومرحاً مصدر في موضع الحال أي متكبراً .

المعنى :

(ولقد آتينا لقمان الحكمة ان اشكر الله) . تطلق الحكمة على ما هنا ، منها
العلم بالله وصفاته ، ومنها وضع الشيء في محله ، ومنها الكلمة الواظعة ، ومنها
طاعة الله ، وفي الحديث : « رأس الحكمة مخافة الله » . وكان لقمان من أهل
العلم بالله وطاعته والدعاة اليه تعالى بأسلوب هادئ ورزين ، وواضح ومقنع
(ومن يشكر فانما يشكر لنفسه ومن كفر فان الله غني حميد) . تقدم في الآية ٤٠
من سورة النمل .

واختلفوا : هل كان لقمان نبياً أو عبداً صالحاً وكفى . ولا يمت هذا الاختلاف
بسبب الى العقيدة والحياة ، والذي يجب الايمان به هو ما نص عليه القرآن الكريم
من ان الله سبحانه منّ على لقمان بالحكمة التي هي العلم بالله وطاعته والدعوة الى
سييله بالموعظة الحسنة . وذكر المفسرون وأهل السير الكثير من حكم لقمان وفطنته ،
من ذلك انه كان عبداً مملوكاً ، وكان أهون مملوك على سيده ، وفي ذات يوم
بعثه مع غيره من ممالিকে الى بستان له ليأتوه بشيء من ثمره ، ولما وصلوا الى
البستان أكلوا ثمره ما عدا لقمان .. فتأمروا عليه لأنه لم يشاركهم في الجريمة ،
وكادوا له عند سيدهم حيث قالوا له : ان لقمان أكل الثمر ولم يبق منه شيئاً ..
ولما سأل لقمان قال له : اسقنا جميعاً دواء نقياً به ما في بطوننا وعندئذ تظهر لك
الحقيقة ، وهكذا كان .. تقيأوا الفاكهة دون لقمان، وحاق المكر السيئ بمن أساء .

ومن ذلك أيضاً ان سيده سكر يوماً ، وراهن قوماً على مال كثير ان يشرب
بحيرة هناك ، ولما أفاق ندم وعلم انهم اصطادوه من حيث لا يشعرون ، فالتجأ الى
لقمان وقال له : هذا يومك . فقال لقمان للقوم : ان للبحيرة أنهرأ تصب فيها ،
فاحبسوها عن البحيرة كي يشرب ماءها . قالوا لا نستطيع ذلك . فقال لهم لقمان :
انه راهن على شربها ، ولم يراهن على مواردها ومصادرها .

وسواء أصبحت هذه الرواية ، أم لم تصح فلانها أوضح مثال على ان الله سبحانه قد منح لقمان الحكمة والمعرفة ، ويظهر من أقوال المفسرين وأهل السير انه كان معاصراً للنبي داود . انظر تفسير الآية ٨٠ من الأنبياء .

(واذا قال لقمان لابنه وهو يعظه) . بعد ان ذكر سبحانه انه قد منّ على لقمان بالحكمة ذكر طرفاً من مواظبه لابنه رفقا به وشفقة عليه، وقد أوصى الإمام علي ولده الإمام الحسن (ع) بوصية طويلة جاء في مقدمتها : « وجدتكَ بعضي بل وجدتكَ كلي حتى كأن شيئاً لو أصابك أصابي ، وكأن الموت لو أتاكَ أناني فعناني من أمرك ما يعنيني من أمر نفسي » . قال لقمان :

١ - (يا بني لا تشرك بالله ان الشرك لظلم عظيم) . يرى بعض المفسرين ان هذا القول من لقمان لابنه يشعر بأن ابنه كان مشركاً . والحق ان النهي عن الشيء لا يدل على صدوره من المخاطب، فقد خاطب سبحانه خليله ابراهيم (ع) بقوله : « ان لا تشرك بي شيئاً » - ٢٦ الحج ، وقال لحبيبه محمد (ص) : « فلا تطع الكافرين - ٥٢ الفرقان » . وقال الإمام علي (ع) للإمام الحسن (ع) : اعتصم بالله .. وليكن له تعبدك .. ولو كان لربك شريك لأنتك رسله .

٢ - (ووصينا الانسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن) . هذه الآية والتي بعدها استطراد في سياق وصية لقمان لابنه .. والوهن الضعف والجهد ، وكلما نما الجنين في بطن أمه زادها ضعفاً وجهداً (وفصاله في عامين) . ترضع الأم ولديها عامين ، ثم نفضته عن الرضاع ، وتقاسي خلالها الشدائد بالاضافة إلى ما قاسته أيام الحمل وعند الوضع . وتقدم الكلام مفصلاً عن مدة الرضاع عند تفسير الآية ٢٣٣ من سورة البقرة ج ١ ص ٣٥٦ وما بعدها (ان اشكر لي ولوالديك إلى المصير) فأسالك يومئذ: هل كنت من أهل الشكر والطاعة أو العقوق والمعصية لي ولوالديك (وان جاسداً ذاك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعمها) حيث لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق (وصاحبها في الدنيا معروفاً) بخفض الصوت وطيب الكلام ولين العريكة ، والحرص على ما يرغبان . وتقدم الكلام عن البر بالوالدين مفصلاً عند تفسير الآية ٢٣ من سورة الإسراء ج ٥ ص ٣٥ وتفسير الآية ٨ من سورة العنكبوت .

(واتبع سبيل من أناب) . بعد أن أمر سبحانه بالشكر له وللوالدين أمر بطاعة الله في كل شيء ، لا في بر الوالدين فقط ، وعبر عن ذلك بمتابعة الصالحين الذين أطاعوا الله في أوامره ونواهيه . قال الإمام زين العابدين (ع) : اللهم الحقني بصالح من مضى ، واجعلني من صالح من بقي ، وخذ بي سبيل الصالحين (ثم إلي مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون) . هذا تهديد ووعد لمن يعصي الله والوالدين .

الصخرة وقرون الثور :

٣ - (يا بني إنها ان تلك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السموات أو في الأرض يأت بها الله ان الله لطيف خبير) . عاد الكلام الى وصية لقمان لابنه .. وضمير أنها يعود على الفعلة من الحسنات والسيئات ، ولفظ الفعلة وان لم يذكر في الكلام ، ولكن السياق يدل عليها و « مثقال حبة من خردل » كناية عن الفعلة الصغيرة ، و « في صخرة أو في السموات أو في الأرض » كناية عن السر والخفاء ، والمعنى الجملي ان الله سبحانه يعلم مقاصد الانسان وأقواله وأفعاله ما خفي منها وما ظهر ، لا يغادر منها صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها وحاسب عليها .. والقصد من سياق هذا الكلام هو انذار الضالين المضلين الذين يعيشون مع الناس بالاستتهم ، ومع أعداء الله والانسانية بقلوبهم ، وان يعلموا ان مصيرهم الى الخزي والوبال .

وتساءل بعض المفسرين وقال : كيف ذكر الله السموات والأرض بعد أن ذكر الصخرة مع العلم بأن الصخرة لا بد أن تكون في الأرض ، لا في السماء . وأجابه آخر بأن هذه الصخرة ليست في السماء ولا في الأرض ، وانما هي تحت سبع أرضين ، وبالضبط هي نفس الصخرة التي يقف الثور عليها وهو يعمل الأرض على قرنه ، وقال قائل : كلا ، ان هذه الصخرة قائمة في الهواء بمحض خلق الله تعالى . وقال ثالث : هي خضراء اللون . (انظر تفسير الطبري والرازي) . والقرآن الذي وصفه الله بالنور والهدى وفصل الخطاب متره عن هذه التأويلات التي يتخذ العدو منها وسيلة للطمع والاستهزاء بالدين .. وان دلت هذه التفسير وما إليها على شيء فانما تدل على ان أصحابها لا يعرفون حكمة الله في ارسال رسله

وانزال كتبه ، ويجهلون ان الاسلام هو دين الفطرة والحياة ، وان أساس دعوته الايمان والاخلاص ، وضوءها العلم والعدل ، وطريقها الجهد والعمل ، وهدفها السعادة والهناء .

٤ - (يا بني أقم الصلاة) لأنها تذكرك بالله وتترهك عن الكبر (وأمر بالمعروف وانه عن المنكر) . ومن أمر بالمعروف شد أزر المؤمنين، وأرغم أنوف المنافقين (واصبر على ما أصابك ان ذلك من عزم الأمور) والمراد بعزم الأمور قوة الإرادة الخيرة ، والثبات على الحق .. والأمر بالصبر بعد الأمر بالمعروف يومئذ الى ان من دعا دعوة الحق لاقى في ذات الله ما يلاقيه كل مجاهد مخلص من سرّ المبطلين والانتهازين .

(ولا تصبر خذك للناس) لا تمل بوجهك عنهم تكبراً ، بل أقبل عليهم ، وتواضع لهم .. وفي نهج البلاغة : لا وحدة أوحش من العجب ، ولا حسب كالتواضع (ولا تمش في الأرض مرحاً ان الله لا يحب كل مختال فخور) .. بعد أن نهى عن مشي المرح بين معناه بأنه المشي باختيال وفخر ، والاختيال هو الزهو ، والفخر هو المباهاة ، ولا شيء أدل على الجهل والنقص من هذه الصفات .

(واقصد في مشيك) لا تبطيء ، ولا تسرع ، واتخذ بين ذلك سبيلاً (واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير) . وأنكرها أوحشها وأقبحها ، وفيه إيماء الى ان رفع الصوت أكثر مما تدعو الحاجة اليه - يدل على البلادة ، ومثله الانخاض المخل ، ومن أخذ بالقصد والاعتدال فقد عرف السبيل ، وانما يحسن الكلام مع القصد في الصوت إذا كان في موضعه، والا فالسكوت أجمل وأكمل ، وما جاء في وصف لقمان انه كان يسمع كثيراً ويتكلم قليلاً، فإذا تكلم جاءت كلمته كالدرة بين الحصى . وإلى مثلها ينبغي السكوت والاصغاء، وفي بعض الروايات : ان الصمت باب من أبواب الحكمة . أي من الحكمة السكوت والاصغاء للحكمة ، أما قول من قال : اذا كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب فعناه السكوت عن الباطل والفضول ، وإلا فان كلمة الحق نور وجهاد بخاصة إذا كانت ضد الظلم والجور ، وفي الحديث : الساكت عن الحق شيطان أخرس .

أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانِ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ * وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ * وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * فَتَعْتَهُم قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ * وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * اللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ * وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمْدُ مِنْ بَغْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَغْنَمُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ *

اللغة :

أسبغ أتم . ويسلم وجهه لله كناية عن الإخلاص له . والعروة من الدلو ما

يمسك به القابض ، ومن الثوب مدخل للزر . والوفقى مؤنث الأوثق ، وهو الأشد والأحكم . وذات الصدور القلوب والضمائر .

الإعراب :

ظاهرة وباطنة حال من نعم الله . أولو الهمة للانكسار والواو للعطف ولو للامتناع ، وجوابها محذوف والتقدير لاتبعوهم ، وضمير الجمع يعود للآباء . وجملة وهو محسن حال ، وجملة فقد استمسك خبر من يسلم . وقليلًا صفة لمفعول مطلق محذوف أي تمتعًا قليلًا .

المعنى :

(أولم تتروا ان الله سخر لكم ما في السموات وما في الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة) . ان نعم الله كما وصفها سبحانه بقوله : « وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها - ٣٤ ابراهيم » ج ٤ ص ٤٤٨ . ومن يحصي ويحيط بما في السموات والأرض غير خالق السموات والأرض؟ ومثل المفسرون للنعم الظاهرة بما تدركه الحواس ، وللباطنة بقوى النفس وغاياتها . وقال الملا صدرا في المجلد الثالث من أسفاره :

« ان أفاضل البشر عاجزون عن إدراك الأمور السبوية والأرضية على وجهها ، وعن الاحاطة بما فيها من الحكمة والعناية ، بل الأكثرون لا يعرفون حقيقة النفس التي هي ذات الشخص وتفاصيل أحوالها ، وما خفي على ذوي الاختصاص أكثر مما ظهر لهم ، وإذا كانت احاطة الانسان بنفسه وبدنه متعذرة فكيف يحيط بالعالم الجسماني والروحاني، وما لنا مع هذا العجز إلا أن نتأمل ونفكر في عجائب الخلقه وبدائع القطرة » .

(ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير) . جمعت هذه الآية على إنجازها بين أسباب المعرفة الثلاثة : الأول الحس والتجربة ، وإليه الإشارة بالعلم ، والثاني العقل ، وهو المراد من الهدى ، والثالث الوحي السذي

عبر عنه ، جلّت عظمته ، بالكتاب المنير . وتقدمت هذه الآية بنصها الحرفي في سورة الحج الآية ٣ و ٨ (وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا أو لو كان الشيطان يدعوهم الى عذاب السعير) . تقدم في الآية ١٧٠ من سورة البقرة ج ١ ص ٢٥٩ .

من هو المستمسك بالعروة الوثقى ؟

(ومن يسلم وجهه الى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى والى الله عاقبة الأمور) . العروة الوثقى الطرف القوي الذي لا ينقطع ، وهو كناية عن القرآن وعن حبلى الله ومراضاته ، وما الى ذلك مما يكون معه الانسان آمناً من عذاب الله وغضبه .. وكل من اجتمع له وصفان فقد أخذ بهذا الطرف القوي الأمين : الأول أن يؤمن بالله ، ويفعل ما أمره به من العبادة كالصوم والصلاة ، ويترك ما نهاه عنه كالزنا والكذب والخمر . الثاني : أن يكون محسناً ، والمحسن هو الذي يتعدى إحسانه الى الآخرين ، ولا يقف عند الاحسان لنفسه وذويه ، فيشارك الناس في آلامهم ، ويعمل لخلاص المظلومين والمحرومين ، ومن أجل الحق والعدل أينما كان ويكون ، وبالايجاز ان المحسن تماماً كالماء الطهور طاهر بنفسه ، مطهر لغيره .

وهذا يتبين معنا ان الآمنين من غضب الله وعذابه هم المؤمنون المحسنون ، أما من آمن بالله وتعبد له ولم يحسن الى الآخرين بالتعاون معهم على ما فيه خير الجميع ، أو أحسن ولم يؤمن بالله ، أما هذا وذلك فلا أمان لها من عذاب الله وغضبه لأنها لم يستمسك بالعروة الوثقى .. وفي ذلك كثير من الأحاديث منها : « من لا يهتم بأمور المسلمين فليس منهم .. لا يصدق إيمان العبد حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه .. أحب الناس الى الله أنفعهم للناس » . وكفى بقول الرسول الأعظم (ص) : « اني بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » وقوله : « أنا رحمة مهداة » كفى بهذا شاهداً على ان رسالة الاسلام هي رسالة الانسانية .. ومن خلالها حدد بعض العارفين المسلم بأنه « انسان ممتد بمنافعه في معناه الاجتماعي حول أمته كلها لا انسان ضيق حول نفسه بهذه المنافع » .

(ومن كفر فلا يحزنك كفره لينا مرجعهم فننبثهم بما عملوا ان الله عليم بذات الصدور) . علام تحزن وتتألم يا محمد لكفر من كفر، وقد بلغت وأنذرت وأديت الرسالة كاملة ؟ فذع المجريين ودينهم ، فحن أعلم بهم ، لينا معبرهم وعلينا حسابهم (نمتهم قليلاً ثم نضطرهم الى عذاب غليظ) ما هي إلا أيام يلعبون بها وتلعب بهم ، ثم يحيط بهم العذاب الشديد من حيث لا يشعرون. وتقدم في مثله أكثر من آية ، منها الآية ١٧٦ من سورة آل عمران ج ٢ ص ٢٠٩ .

(ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون) . تقدم مثله في الآية ٨٤ من سورة المؤمنون ج ٥ ص ٣٨٣ والآية ٦١ من سورة العنكبوت (لله ما في السموات والأرض ان الله هو الغني الحميد) له وحده الملك والحمد ، ولا غني إلا من استغنى به .

(ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر عوده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله ان الله عزيز حكيم) . سبعة أبحر كناية عن الكثرة ، والمراد بكلمات الله قدرته تعالى على إيجاد الكائنات متى شاء ، والمعنى لو فرض ان البحر مداد ، والأشجار أقلام تكتب قدرة الله على إيجاد ما يشاء لانتهت البحار والأقلام وبقيت قدرة الله الى ما لا نهاية .. وبكلمة ان الحد لقدرة الله ان لا حد لها . وتقدم مثله في الآية ١١٠ من سورة الكهف ج ٥ ص ١٦٦ .

وقال ابن عربي في المجلد الرابع من الفتوحات المكية : « البحار والأقلام من جملة الكلمات ، فلو كانت البحار مداداً ما انكتب بها سوى عينها، وبقيت الأقلام والكلمات الحاصلة في الوجود ما لها ما تكتب به مع تناهيا بدخولها في الوجود ، فكيف بما لم يحصره الوجود من شخصيات الممكنات » . يريد لو كانت البحار حبراً ، وأردنا أن نكتب عن المعجائب والأسرار التي أودعها الله في البحار فقط لنفدت البحار بنفاد الكتابة عن عجائبها وأسرارها ، واذا نفذ الحبر بنفاد البحار تعطلت الأقلام عن الكتابة ، وعليه تظل بقية الكائنات الموجودة بلا كتابة عنها .. هذا بالنسبة الى ما هو موجود بالفعل ، فكيف بما يدخل تحت قدرة الله من الكائنات التي يوجد بها بكلمة « كن » متى يشاء ؟

(ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة والله سميع بصير) . كل قادر غير

الله يقدر على شيء ، ويعجز عن أشياء ، والشيء الذي يقدر عليه منه ما لا يحتاج إلى جهد ، ومنه ما يحتاج إلى جهد يسير، ومنه ما يحتاج إلى جهد كثير .. والله قادر على كل شيء ، ويتساوى عند قدرته الخطير والحقير ، وعليه يكون خلق الناس جميعاً تماماً كخلق واحد منهم ، وكذلك بعثهم للحساب والجزاء . قال الإمام علي (ع) : « لا شيء إلا الواحد القهار الذي إليه مصير جميع الأمور بلا قدرة منها كان ابتداء خلقها ، وبغير امتناع منها كان فناؤها ، ولو قدرت على الامتناع دام بقاؤها ، لم يتكأده - أي لم يشق عليه - صنع شيء منها إذ صنعه ، ولم يؤده - أي لم يشق عليه - منها خلق ما خلقه وبرأه » .

بولج الليل في النهار الآية ٢٩ - ٣٢ :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ*
ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ* أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَةِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ* وَإِذَا غَشِيَهم مَوجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ*

اللغة :

الظل جمع ظلة ، وهي ما يظلل ويعلوك من كل شيء ، والمراد هنا ان المروج ارتفع فوق من في السفينة . والختار الغدار مبالغة في الغدر .

الاعراب :

مخلصين حال من فاعل دعوا . ونقل ابن هشام في كتاب المغني عن ابن مالك ان (لما) هنا بمعنى اذا، بدليل دخول الفاء على جوابها .

المغنى :

(ألم تر أن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل) . تقدم في الآية ٢٧ من سورة آل عمران ج ٢ ص ٣٧ والآية ٦١ من سورة الحج (وسخر الشمس والقمر كل يجري إلى أجل مسمى وان الله بما تعملون خبير) . تقدم في الآية ٢ من سورة الرعد ج ٤ ص ٣٧٣ (ذلك بأن الله هو الحق وان ما يدعون من دونه الباطل وان الله هو العلي الكبير) . تقدم بالحرف الواحد في الآية ٦٢ من سورة الحج .

(ألم تر ان الفلك تجري في البحر بنعمة الله ليريكم من آياته) . من نعم الله تيسير المواصلات ، ومن وسائلها الفلك ، وهي تحتاج الى الماء والرياح والسماء ، وهذه الأسباب وما اليها تنتهي اليه تعالى (ان في ذلك لآيات لكل صبار شكور) يصبر على التأمل والنظر إلى عجائب الله في خلقه ، ويشكره على آلائه .

(واذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم الى البر فمنهم مقتصد وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار كفور) . قال بعض المفسرين : المراد بالمقتصد هنا من أضمر الكفر . وقال الرازي : هو من اقتصد في الكفر . والصواب ان المراد به المعتدل الذي لم يظلم نفسه بتعريضها لعذاب الله وغضبه ، ولم يكن من السابقين إلى الخيرات . قال تعالى : « فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات - ٣٢ فاطر » . أما الختار فهو شديد القدر ، والمراد به هنا من نقض عهد الفطرة التي وُلد عليها كل مولود . وتقدم مثله في الآية ٢٢ من سورة يونس ج ٢ ص ١٤٧ والآية ٦٥ من سورة العنكبوت .

سورة لقمان

ان الله عنده علم الساعة الآية ٣٣ - ٣٤ :

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ
وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ
الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ* إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ
وَيُنْزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَآذَا تَكْسِبُ
غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ*

اللفظة :

جازٍ مغني . وكل ما غرك فهو غرور انساناً كان أو غير انسان .

الإعراب :

يوماً مفعول به لآخشوا . ولا مولود عطف على والد ، ويجوز أن يكون مبتدأ
أول وهو مبتدأ ثانٍ وجازٍ خبر الثاني والثاني وخبره خبر الأول . وشيئاً
مفعول جازٍ .

المعنى :

(يا أيها الناس اتقوا ربكم وآخشوا يوماً لا يجزي والد عن ولده ولا مولود
هو جاز عن والده شيئاً ان وعد الله حق فلا تغرّنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله
الغرور) . أمر سبحانه بالتقوى لأنها سبيل النجاة من يوم يفر فيه المرء من بيته
وأمه وأبيه .. وهذا اليوم آتٍ لا محالة ، والمخدوع من اغترّ بالأباطيل
والأكاذيب .

لماذا خلق الله الانسان ؟

قرأت لكاتب يقول : « من الأسئلة التي لا جواب لها هذا السؤال : لماذا خلق الله الانسان ؟ » . وما من شك ان كل واحد يتمنى لو عرف الجواب عن هذا السؤال لأنه يرتبط ارتباطاً طبيعياً ومباشراً بوجوده وحقيقته ، ولا أخفي سراً كان في نفسي ، وهو اني قرأت أجوبة كثيرة عن هذا السؤال للفلاسفة وعلماء الكلام وغيرهم من القدماء والجدد، ولكني لم اقتنع بشيء منها بيني وبين نفسي .. مع ان هذا السؤال قد وُجّه إليّ أكثر من مرة ، وأجبت عنه بما أجبوا لا لشيء إلا لأنني لا أملك غير ما قالوا، والالآني أريد أن أجيب .

وحين باشرت بتفسير آي الذكر الحكيم نسبت السؤال وما كنت أحفظ من جوابهم لأن « التفسير الكاشف » أفقطني كل شيء حتى ذاكرتي ، ولم يدع لي إلا البصيرة التي أهتدي بها إلى معاني كتاب الله وأهدافه وربطها بواقع الحياة .. وما مضيت في التفسير إلا قليلاً حتى وجدت الجواب في آيات الله واضحة لا يقبل الشك والتأويل .. ولا بدع فإن خالق الشيء هو أعلم بما أراد من خلقه .. وجدت في كتاب الله آيات تدل دلالة واضحة على ان الانسان خلق للآخرة لا للدنيا ، لحياة طيبة لا مشاكل فيها ولا تعقيد .

ولكن شئت حكمة الخالق ان يربط بين الحياة الطيبة في الآخرة التي خلق الانسان من أجلها ، وبين صدق الإيمان بالحق والإخلاص له والعمل لحمايته ، كما قضت حكمته تعالى ان من لا يؤمن بهذا الارتباط ، أو يؤمن به نظرياً ولا يعمل له — أن يحاسبه حساباً عسيراً ، ويعذبه عذاباً أليماً لأنه جهل أو تجاهل الغاية التي من أجلها وُجد ، وتنبك عن الطريق السوي بسوء اختياره بعد أن أرشده الله إليه ، وأمره بسلوكه .. وبكلام آخر ان حياة الانسان في واقعها باقية ببقاء خالقها، وإنما وضعه تعالى في دار الدنيا مؤقتاً وإلى حين ، ثم ينتقل به إلى دار القرار ، وأمره أن يعمل للدارين معاً ، ويحتاط لما يمكن أن يقع له في الدار الأولى ، ولما هو واقع لا محالة في الدار الثانية ، فإن أمثل وأطاع فقد اختار لنفسه الأمن والفلاح تماماً كمن سافر ، وهو مزود بما يحتاج إليه في سفره ، ومن أعرض

وتولى فقد اختار لها شر العواقب كمن سافر إلى بلد بعيد وغريب على غير زاد، وشيء من الاستعداد^١ .

والآن نذكر طرفاً من الآيات التي دلت على ان الغاية من خلق الانسان هي الحياة الثانية ، وهذه الآيات على أنواع :

« منها » ما تصف الدنيا باللهو واللعب ومتاع الغرور ، وبالزوال والفساد ، وبالهشيم والتفاجر والتكاثر ، وتصف الآخرة بدار الله والخير والحيوان والرضوان، فكيف يخلق سبحانه الانسان، ويودع فيه من الأسرار والطاقات ما يخلق الحضارات، ويغير تاريخ الانسان والأرض والسماء، كيف يخلق هذا الكائن العجيب للهو ومتاع الغرور والحياة أشبه بالأحلام ، وهو القائل : « ولقد كرمتا بني آدم - ٧٠ الإسراء . ولا شيء يناسب الكرامة الانسانية ، والحكمة الإلهية إلا الحياة الباقية ببقاء خالقها .

و « منها » الآيات الدالة على ان الله سبحانه يبتلي الانسان ويمتحنه - وهو أعلم به - ليكشف الستار عن دخليته وحقيقته ، وتظهر أفعاله التي يستحق بها الثواب والعقاب في الآخرة ، ومن هذه الآيات قوله تعالى : « وما كان له - أي لإبليس - عليهم من سلطان إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها في شك - ٢١ سبأ » وقوله : « انا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملاً - ٧ الكهف » . وليس المقصد مجرد الاعلان والاظهار .. كلا ، بل « ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى - ٣١ النجم » . وبما ان هذا الجزاء لم يتحقق في الدنيا فتعين أن يكون في اليوم الآخر ، وإلا كان وعد الله تهويلًا .. تعالى الله عما يقول الجاهلون .

و « منها » الآيات الدالة على خلود من آمن وأحسن في الجنة ، وخلود من كفر وأساء في النار .

وتسأل : وماذا تصنع بقوله تعالى : « وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون - ٥٦ الذاريات » حيث دل بصراحة على ان الغاية من خلق الانسان ان يعبد الله

١ انظر تفسير الآية ٧٧ من سورة القصص : « وابتغ فيها اتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا» .

في الحياة الدنيا ، لا أن يحيا حياة طيبة دائمة في الآخرة ؟

الجواب : المراد بالعبادة هنا كل عمل يرضي الله تعالى ، ويقترب به إليه ، وليس من شك ان مرضاة الله هي السبيل الوحيد للحياة الطيبة الدائمة ، وعليه يكون المعنى ما خلقت الجن والانس إلا ليعملوا عملاً صالحاً يحيون بسببه حياة طيبة دائمة في الآخرة، وبكلام آخر ان قوله تعالى : « وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون » يرادف قوله : « وقضى ربك ان لا تعبدوا إلا إياه - ٢٣ الإسراء » وقوله : « وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين - ٥ البينة » . ونتيجة الاخلاص في الدين حياة دائمة ، وجنة قائمة .

أما الآيات التي أناطت بنعيم الآخرة بعمل الخير والصالح في الحياة الدنيا ، وأناطت عذاب الآخرة بعمل الشر والفساد في الأرض فهي تعد بالعشرات ، منها الآية ٧٢ من سورة الإسراء : « ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً » ومنها الآية ١٤٢ من سورة آل عمران : « أم حسبم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين » . والمراد بالجهاد هنا الجهاد لحاية الحق وأهله ، والاستشهاد في سبيل الله ، والمراد بالصبر الثبات ضد المبتلين والمعتدين .. لا صبر الذين يستسلمون لقوى الشر واليفسي ، وعلى الذل والفقر . ومضى تبين معنا ان الغاية من خلق الانسان هي الحياة الباقية، وان نعيمها منوط بعمل الخير والصالح في الحياة الدنيا ، وجحيمها منوط بعمل الشر والفساد في الأرض، اذا تبين معنا هذا أدركنا ان أي تفسير للغاية من خلق الانسان لا يعكس هذه الحقيقة فهو بعيد عن الصواب والواقع ، وكفى دليلاً على ذلك قوله تعالى : « أفحسبتم انما خلقناكم عبثاً وانكم الينا لا ترجعون - ١١٥ المؤمنون » أي لو لم يخلق الله الانسان للآخرة لكان الله عابثاً جلّت حكمته .

علم الساعة والغيب وما في الأرحام :

(ان الله عنده علم الساعة وينزل الغيب ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي أرض تموت ان الله عليم خبير) . وتساءل : ان معلومات الله سبحانه لا يبلغها الاحصاء ، كما قال في الآية ٣ من سورة سبأ :

« عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، والآية: «ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين» - ٥٩ الانعام » وقال الإمام علي (ع) : ان الله يعلم مسقط القطرة ومقرها ومسحب الندرة ومجرها ، وما يكفي البعوضة من قوتها . فلماذا خص سبحانه هذه الأشياء بالذكر ؟

وقيل في الجواب : ان سائلاً سأل النبي (ص) عن هذه الأشياء فترلت الآية . وقال الرازي : لما ذكر سبحانه يوم القيامة ناسب أن يذكر هذه الأشياء . وقلنا نحن أكثر من مرة : ان القرآن كتاب دين وهداية يتنقل بالانسان من شأن إلى شأن . قال الإمام جعفر الصادق (ع) : ان الآية يكون أولها في شيء وآخرها في شيء آخر ، وهو كلام متصل ينصرف بعضه إلى وجوه .. ومهما يكن فقد تضمنت الآية خمسة أشياء ، وهي :

١ - (ان الله عنده علم الساعة) «لا يعلمها لوقتها إلا هو» - ١٨٦ الأعراف ، والحكمة في ذلك أن يكون الناس على حذر وتوقع دائم فيحتاجوا لمواجهة الاحتمالات .
٢ - (وبتزل الغيث) قال كثير من المفسرين : ان المراد بـ « يتزل الغيث » ان العلم بتزوله مختص بالله وحده..والصواب ان تؤخذ كلمة « يتزل » على ظاهرها أي ان القدرة على انزال الغيث تختص بالله لأن أسبابه الكونية تنتهي اليه تعالى .. وهذا لا يمنع أبداً ان يعلم الانسان وقت نزول المطر عند ظهور دلائله .. ولو سلمنا - جدلاً - بأن المراد من « يتزل » العلم فنقول : ان الانسان يعلم وقت نزول المطر حين تظهر دلائله وعلاماته ، ولكن لا يعلم متى تظهر هذه الدلائل والعلامات إلا الله وحده .

وتسأل : ان العلماء يتزلون المطر الصناعي، وعليه فلا يختص إنزاله بالله وحده ؟
الجواب : ان العلماء يحولون السحاب الموجود إلى مطر ، والله يكون السحاب ويوجده ، ثم يسوقه من بلد الى البلد الذي يشاء ، والفرق بعيد بين ايجاد الشيء وبين تحويل الشيء الموجود الى شيء آخر .

٣ - (ويعلم ما في الأرحام) . وتسأل : ان العلم بالحديث يعلم أيضاً بواسطة الأشعة ما في الأرحام من ذكر أو أنثى ؟

الجواب : ان الأشعة تعكس المادة الموجودة بالفعل ، أما غيرها من الصفات

والغرائز التي سيكون عليها الحمل في المستقبل كالحسن أو القبح ، والذكاء أو
 البلادة ، وما إلى ذلك ، أما هذه فعلمها عند الله وحده ، قال الإمام علي (ع) :
 « يعلم سبحانه ما في الأرحام من ذكر أو أنثى ، وقبيح أو حسن ، وسخي أو
 بخيل ، وشقي أو سعيد ، ومن يكون في النار خطباً ، أو في الجنان للنبيين مرافقاً » .
 ٤ - (وما تلدري نفس ماذا تكسب غداً) لأن كل يوم هو في شأن ، وقد
 أثبتت الأيام نظرية الفيلسوف اليوناني هرقليطس الذي قال : « انك لا تنزل النهر
 الواحد مرتين » يشير الى ان جميع المظاهر الكونية والاجتماعية تتغير بين لحظة ولحظة
 من حال إلى حال ، وعليه يتعذر العلم بما يحدث للانسان في مستقبله .
 ٥ - (وما تلدري نفس بأي أرض تموت ان الله عليم خبير) ولا بأي زمن
 أيضاً لأن الموت لا ضابط له ، فقد يأخذ الطفل الصغير والشاب المعافى ، ويترك
 العليل والشيخ الكبير .

سُورَةُ السَّجْدَةِ

عدد آياتها ٣٠ ، قال صاحب مجمع البيان : هي مكينة ما خلا ثلاث آيات فلانها مدينية ، ابتداء من قوله تعالى : أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستون : إلى تمام الآيات الثلاث .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الذي أحسن كل شيء خلقه الآية ١ - ٩ :

السم * تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَمْ يَقُولُونَ
افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ
قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ * اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا
فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا
شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ * يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ
إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ يُمْرَأَ تَعْدُونَ * ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ
وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ * الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ
الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ * ثُمَّ سَوَّاهُ
وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا
مَّا تَشْكُرُونَ *

اللغة :

يعرج يصعد . ومهين ضعيف والمراد به المهني .

الإعراب :

تنزيل خبر مبتدأ محذوف أي هذا تنزيل ، وقال أبو حيان الأندلسي : تنزيل مبتدأ ، ومن رب العالمين خبر ، ولا ريب فيه جملة معترضة . أم يقولون (أم) منقطعة بمعنى بل والهمزة . ومن ربك والمصدر من لتنزل يتعلقان بمحذوف حالاً من الحق . من ولي (من) زائدة إعراباً وولي مبتدأ ومن دونه حال من ولي ولكم خبر لولي . والذي أحسن خبر بعد خبر لذلك أو خبر لمبتدأ محذوف أي هو الذي أحسن . وخلق الجملة صفة لكل شيء . وقليلاً صفة لمفعول مطلق محذوف وما زائدة أي شكراً قليلاً تشكرون .

المعنى :

(ألم) أنظر أول سورة البقرة (تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين) . لا شك في صدق القرآن وأنه من وحي السماء لا من صنع الانسان .. وقدمنا على ذلك العديد من الشواهد . أنظر ج ١ ص ٦٥ وج ٢ ص ٣٨٩ وج ٥ تفسير الآية ٥٥ من سورة النور .

(أم يقولون افتراء بل هو الحق من ربك لتنزل قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يهتدون) . قال المترفون المستغفلون من عتاة قريش : القرآن من نسج محمد (ص) .. فقال سبحانه رداً عليهم : كلا ، انه من وحي الله ، وقد أتاكم بما لم يأتكم به أحد من قبل ولا يأتكم به أحد من بعد ، جاءكم بخير الدنيا والآخرة ، وهماكم عما أنتم فيه من البغي والفساد لتتعظوا وتنتهوا قبل أن تدور على رؤوسكم دائرة السوء ، وكان المفروض أن تشكروا محمداً (ص) على هذا الفضل بدل أن تضرعوا له العداء ، وتنسبوه إلى الكذب والافتراء .

(الله الذي خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع أفلا تتذكرون) . ستة أيام كناية عن الدفعات أو الأطوار ، والمراد بالعرش الاستيلاء . وتقدم مثله في الآية ٥٤ من سورة الأعراف و ٣ من سورة يونس و ٥٩ من سورة الفرقان . وفي ج ٣ ص ٣٣٨ ذكرنا الأقوال حول الأيام الستة ورأينا فيها .

(يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون) . المراد بـ « يدبر الأمر » ان الله سبحانه خلق الكون ، ومنح كل مخلوق من الصفات ما تستدعيه الحكمة والعناية الإلهية ، وأوجب على من منحه القدرة والادراك ان يلتزم الطريق الذي أرشده إليه . والمراد بـ « يعرج إليه في يوم » ان أعمال الخلائق ترفع إليه يوم القيامة . وألف سنة كناية عن تطاول الزمن ، والمعنى ان الخلائق مشغولة بتدبير الله وعنايته ، فهو سبحانه أوجدنا وأنقذنا « الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى - ٥٠ طه » وهو يقينها ويعيدها، واليه ترفع الأعمال في يوم هو أطول وأثقل يوم على العصاة والمجرمين .

(ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم) . ان خالق كل شيء ، والقائم على كل شيء هو العالم بما كان ويكون كبيراً أو صغيراً ، ظاهراً للعيان أو خفياً عنها ، والعزيز بقدرته وسلطانه ، والرحيم بخلقهم وعبادته (الذي أحسن كل شيء خلقه) . كل مخلوق وُجد على النظام الأتم فهو حسن ومتقن يدل على قدرة الصانع وعظمته ، وما من شيء في الوجود إلا وترى فيه النظام والتناسق الذي يدل على العليم الحكيم : « ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور - ٤ الملك » .

(وبدأ خلق الانسان من طين) . المراد بالانسان هنا أبو البشر آدم (ثم جعل نسله من سلاله من ماء مهين) . نسله ذريته ، وسلالة لانسلاله من صلبه، والماء المهين المني (ثم سواه) في أحسن تقويم (ونفخ فيه من روحه) هذا كناية عن الحياة . وتقدم مثله في الآية ٢ من سورة الأنعام ج ٣ ص ١٥٨ والآية ١٢ من سورة «المؤمنون» . (وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون) . تقدم في الآية ٧٨ من سورة «المؤمنون» . ولا تقلّ نعمة البيان عن نعمة السمع

والبصر والادراك ، أما شهوة الغذاء فهي لحفظ الحياة ، وشهوة الجنس لبقاء النوع ، وما من غريزة في الانسان إلا ولها فائدة وحكمة .

المجرمون فاكسو رؤوسهم الآية ١٠ - ١٤ :

وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ يَلْقَاءُ رَبَّهُمْ كَافِرُونَ* قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ* وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ* وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى وَكَلِمَةً لَّكِنَ حَقُّ الْقَوْلِ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ* فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ*

اللغة :

للضلال معان ، منها ضد الهداية ، والموت ، والغياب ، وهو المراد بضلنا في الأرض أي غيبنا فيها . والتكس قلب الشيء على رأسه وجعل أعلاه أسفله . ونسيناكم أهملناكم .

الإعراب :

نقل أبو حيان الأندلسي عن سيبويه ان (لو) في قوله تعالى « ولو ترى »

هي لوقوع شيء في المستقبل عند وقوع شيء آخر . وأجمعين تأكيد للناس .
وجملة فذوقوا مفعول لقول مخدوف أي يقال لهم : فذوقوا . وهذا عطف بيان
من يومكم .

المعنى :

(وقالوا أئذا ضللنا في الأرض أئنا لفي خلق جديد) . هذا مثل قولهم :
« أئذا كنا تراباً أئنا لفي خلق جديد » - الرد ٥ ج ٤ ص ٣٧٨ (بل هم
ب لقاء ربهم كافرون) .

وتسأل : لقد أعلن المشركون كفرهم ب لقاء الله صراحة، فما هو وجه الاضراب
في قوله تعالى : « بل هم ب لقاء ربهم كافرون » ؟ وهل هو إلا كقولنا : أنت
كافر لمن أعلن الكفر ؟

الجواب : المراد انهم لم يكفروا باليوم الآخر عن علم، بل عن جهل وتقليد ،
فهو تماماً كقولنا لمن أعلن الكفر: أنت جاهل .

(قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم ثم إلى ربكم ترجعون) . قل يا محمد
للذين كفروا باليوم الآخر : أنتم ميتون ما في ذلك ريب ، وبعد الموت تنكشف
لكم الحقيقة ، وتعلمون ان الساعة آتية لا ريب ، وان الله يبعث من في القبور .

(ولو ترى إذ المجرمون ناكسو رؤوسهم عند ربهم) . أنكسروا البعث ،
وسخروا من آمن به ودعاهم إلى العمل له ، وحذرهم من عواقبه .. ولما بعثوا ووقفوا
بين يدي الله للحساب طأطأوا رؤوسهم حياءً وندماً وقالوا: (ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا
نعمل صالحاً انا موقنون) . تقدم مثله في الآية ٢٧ من سورة الأنعام ج ٣ ص ١٧٨
والآية ١٠٠ من سورة «المؤمنون» .

(ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها) . قال الرازي : « هذا صريح في ان
مذهبنا صحيح حيث نقول : ان الله ما أراد الإيمان من الكافر ، وما شاء منه
إلا الكفر » .

ونقول للرازي : إذا كان الله هو الذي أراد الكفر من الكافر ولا راداً لمشيئته فعلى أي شيء يعذبه ويعاقبه ؟ كيف وهو القاتل : « وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين - ٧٦ الزخرف » . والصحيح ان المراد بمشيئة الله هنا المشيئة التكوينية التي هي عبارة عن كلمة « كن » . وعليه يكون المعنى لو أراد الله إلباءهم الى الهداية لاهتدوا .. ولو فعل ذلك لبطل الثواب والعقاب ، ولم تازم الأسماء معانيها . وتقدم ذلك أكثر من مرة . انظر ج ٣ ص ٦٩ .

(ولكن حق القول مني لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين) . لقد حق القول من الله تعالى أن يملأ جهنم من الذين أفسدوا وتمادوا في الغي بملء اختيارهم ولرادتهم ، أما الذين استجابوا لربهم فلهم مغفرة وأجر كريم . وفي الحديث القدسي : خلقت الجنة لمن أطاعني ولو كان عبداً حبشياً ، والنار لمن عصاني ولو كان سيداً قرشياً .

(فلو قوا بما نسيم لقاء يومكم هذا أنا نسيناكم وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون) . ما اتقاد أحد لأهوائه وشهواته إلا ونسي الله والحساب ، وكفر بالحق والضمير .. وغداً تقول ملائكة العذاب لهذا المجرم : سكرت بحلاوة الدنيا فذق الآن مرارة الآخرة . وتقدم مثله في الآية ٥١ من سورة الأعراف ج ٣ ص ٣٣٦ والآية ٦٧ من سورة التوبة ج ٤ ص ٦٧ .

أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً الآية ١٥ - ٢٢ :

إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ * تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَإِنَّمَا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن

كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ * أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ
الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ
كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ
النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ * وَلَنَذِيقَنَّ هُمُ مِنَ الْعَذَابِ الْأَذْنَىٰ ذُونَ
الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ
أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ *

اللغة :

تجناني تبتعد من الجفاء . والمضاجع جمع مضجع وهو فراش النوم . والمأوى
ما تأوي اليه . والمراد بالنزل هنا العطاء . والمراد بالعذاب الأدنى عذاب الدنيا ،
وبالعذاب الأكبر عذاب الآخرة .

الإعراب :

سجداً حال من فاعل خرُّوا . وخوفاً وطمعاً وجزاء مفعول من أجله . أفن
(من) مبتدأ وكمن خبر . ولا يستوون الجملة مستأنفة . ونزلاً حال أو مفعول
مطلق .

المعنى :

(انما يؤمن بآياتنا الذين إذ ذُكِّروا بها خرُّوا سجداً وسبحوا بحمد ربهم) .
المراد بال مؤمنين هنا الذين يعرفون الحق ، ويعملون به ، ويضحون من أجله ،

ويعبدون الله في ليلهم ونهارهم ثقة به وإخلاصاً له وحده لا شريك له، أما التسبيح والركوع والسجود بدافع الكسب والتجارة بالدين فهو تفارق لا عبادة ، وزندقة لا إيمان (وهم لا يستكبرون) أي ان المؤمنين يرحبون بالحق، ويتخلون من أجله عن مصالحهم الشخصية لأنه هو دينهم ومصلحتهم . ويجب أن يسجد لله من قرأ هذه الآية أو استمع إليها ، وقيل : من سمعها أيضاً من غير قصد .

(تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً) . المضاجع كناية عن النوم . وإذا عطفنا هذه الآية على قوله تعالى : « رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة - ٣٧ النور » وجمعنا الآيتين في كلام واحد يكون المعنى ان المؤمنين لا تلهيهم تجارة ولا بيع ولا نوم عن عبادة الله التي تعكس خوفهم من عذابه ، وطمعهم بثوابه . وهذه العبادة هي التي عناها الله بقوله : « ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » وفي الحديث : « ان قيام العبد قربة إلى الله ، ومنهارة عن الإثم ، وتكفير للسيئات ، ومطرقة للداء عن الجسد » . أما صلاة التجار المرائين ، فإنها تأمر بالفحشاء والمنكر لأن السيئة تقود إلى مثلها ، وكذلك الحسنة (وما رزقناهم ينفقون) عبدوا الله بالقلوب والأجسام والأموال .

(فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون) . المراد بالنفس أية نفس كانت وتكون في الأرض أو في السماء ، والمعنى لا أحد يعلم حقيقة ما أعد الله للمؤمنين العاملين من الأجر والثواب الذي يغتبطون به ويفرحون . وفي الحديث الصحيح : « يقول الله تعالى : أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، بله ما اطلعكم عليه ، اقرأوا ان شئتم : فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين » .

(أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستوون) . جاء في كثير من التفسير ، منها جامع البيان للطبري ، والبحر المحييط للأندلسي ، وروح البيان لحقي : ان هذه الآية نزلت بالمدينة في علي بن أبي طالب والوليد بن عتبة بن أبي معيط ، ونختار النص الذي جاء في تفسير الطبري : « كان بين الوليد وبين علي كلام ، فقال الوليد : أنا أبسط منك لساناً ، وأحدك منك سناناً ، وأرد منك لكتيبة . فقال علي : اسكت فإنك فاسق . فأنزل الله فيها « أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً

سورة السجدة

لا يستون • .. لا والله ، ما استوا في الدنيا ، ولا عند الموت ، ولا في الآخرة .

(أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى نزلاً بما كانوا يعملون). هذا بيان للفرق بين المؤمنين الأتقياء والمجرمين الأشقياء ، وانه تماماً كالفرق بين الطيب والحيث ، والخير والشر ، والجنة التي أعدها الله للمتقين ، والنار التي أعدها للمجرمين (وأما الذين فسقوا فإواهم النار كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وقيل لهم فوقوا عذاب النار بما كنتم تكذبون) للمؤمنين جنات النعيم ، وللناسقين نار الجحيم ، وتقدم مثله في الآية ٢٢ من سورة الحج ج ٥ ص ٣٢٠.

(ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون). المراد بالعذاب الأدنى عذاب الدنيا كالقحط والوباء وما إليها ، ينذر الله به وبالحجج البالغة الغافلين والمتشاغلين بالباطل عن الحق ليتعظوا ويرتدعوا، وإلا أخذهم بالعذاب الأكبر: جهنم خالدين فيها هي حسبهم ولعنهم الله ولهم عذاب مقيم - ٦٨ التوبة • . وتجدر الإشارة إلى ان القادة والولاة هم المصدر الأول للفساد والشقاء ، وفي بعض الروايات : « إذا كذب الولاة حبس المطر ، وإذا جار السلطان هانت الدولة » .

(ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها إنا من المجرمين منتقمون). من رأى العظة ولم يتعظ فهو أعظم جرمًا من كل مجرم ، وقد عظمهم الله سبحانه بلسان أنبيائه ، ثم بالبأساء والضراء ، ففقت قلوبهم وتمادوا في الظلم والفساد ، فانتقم الله منهم ، والله عزيز ذو انتقام .

فلا تكن في مربة من لقاه الآية ٢٣ - ٣٠ :

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ
هُدًى لِبَنِي إِسْرَآئِيلَ * وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا
وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ * إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا

كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ * أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ
يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ * أَوَلَمْ يَرَوْا
أَنَّا نَسُوقُ الْآهَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ
وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ * وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ *
قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ *
فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ لَهُمْ مُنْتَظَرُونَ *

اللفظ :

الأرض الجرز هي اليابسة التي لا نبات فيها من العطر . ويوم الفتح هو يوم
الفصل والحكم بالحق ، والمراد به يوم القيامة ، قال تعالى : « قل يجمع بيننا ربنا
ثم يفتح بيننا بالحق - ٢٦ سبأ ، أي يحكم بيننا بالحق .

الإعراب :

فاعل يهد محذوف أي أَوَلَمْ يَهْدِ اللهُ لَهُمْ . وعمل كم النصب بأهلكنا . والزرع
مصدر والمراد به اسم المفعول أي مزرع .

المعنى :

(ولقد آتينا موسى الكتاب فلا تكن في مرية من لقاءه وجعلناه هدى لبني
اسرائيل) . قال كثير من المفسرين : ان الهاء في لقاءه يعود إلى موسى ، وان محمداً

يلتقي به في السماء ليلة المعراج .. والصواب ان الماء تعود إلى القرآن وان النبي يلقاه من الله لا من سواه ، قال تعالى : « وانك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم - ٦ النمل » . وفي كتب اللغة : تلقى الشي بمعنى لقيه ، واستقبله ، وعليه يكون معنى الآية لقد أنزلنا اليك القرآن يا محمد كما أنزلنا التوراة على موسى ، ولا ينبغي الشك في ذلك منك ولا من غيرك . أما نهى النبي عن الشك فقد تكلمنا عنه مراراً . انظر ج ٢ ص ٧٥ .

(وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون) . المراد بالأئمة هنا أنبياء بني اسرائيل كموسى وعيسى الذي ينتهي نسب أمه الى داود .. وكل نبي اسرائيلي كان يلاقي من قومه ألواناً من الأذى والعناء، بل قتل الاسرائيليون العديد من أنبيائهم : « يقتلون النبيين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون - ٦١ البقرة » . ومع هذا صبروا واستمروا في تأدية رسالتهم ، فاصبر أنت يا محمد على أذى قومك ، واستمر في دعوتك (ان ربك هو يفصل بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون) . تقدم في الآية ١١٣ من سورة البقرة والآية ٩٣ من سورة يونس والآية ١٢٤ من سورة النحل .

(أولم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم ان في ذلك لآيات أفلا يسمعون) . تقدم مثله في الآية ١٢٨ من سورة طه ج ٥ ص ٢٥٣ (أولم يروا اننا نسوق الماء الى الأرض الجرز - اليابسة - فنخرج به زرعاً تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون) كيف أحيا الله الأرض بعد موتها ، وأثبت فيها من كل زوج بهيج يأكل منه الناس والانعام ؟ كذلك يحيي الله الموتى بعد أن تصبح تراباً وعظاماً .. وتقدم هذا المعنى في العديد من الآيات . انظر تفسير الآية ٥ من سورة الحج ج ٥ ص ٣١١ .

(ويقولون متى هذا الفتح ان كنتم صادقين) . هذا مثل : « ويقولون متى هذا الوعد ان كنتم صادقين - ٣٨ الأنبياء » لأن المراد بالفتح هنا اليوم الذي يُحكم فيه بالحق ، ويؤيد ذلك قوله تعالى : (قل يوم الفتح لا ينفع الذين كفروا) وعاندوا الحق في الحياة الدنيا (إيمانهم) في الآخرة حين يرون العذاب لأن هذا فرار من حريق الجحيم ، وليس إيماناً من القلب وإيقاناً من العقل (ولا هم

ينظرون) لا يمهلهم الله يوم القيامة لأنه أمهلهم في الدنيا طويلاً فلم يبادروا إلى التوبة ويغتنموا الفرصة قبل فواتها (فأعرض عنهم وانتظر أنهم منتظرون) . أنهم يترصدون بك يا محمد ريب المنون .. فدعهم وشأنهم ، واصبر قليلاً ترى حكم الله فيك وفيهم .. انه ناصر ك ومخزيهم : و هو الذي أرسل رسوله بالهدى ردين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون - ٣٣ التوبة » .

سُورَةُ الْأَحْزَابِ

مدنية وآياتها ٧٣ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يا أيها النبي اتق الله الآية ١ - ٣ :

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا
حَكِيمًا * وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ
خَبِيرًا * وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا *

المعنى :

أمر سبحانه في هذه الآيات نبيه الكريم ، أمره بالتقوى والتوكل عليه والعمل
بما أوحاه إليه ، ونهاه عن طاعة الكافرين والمنافقين .. وتساءل المفسرون : ان
النبي معصوم ، فما هو المبرر لأمره بالطاعة ، ونهيه عن المعصية ؟

وأجاب بعضهم بأن هذا تأكيد لما عليه النبي (ص) من الطاعة والانقياد .
وقال آخر : ان أبا سفيان طلب من رسول الله (ص) أن يكف عن سب الأصنام
التي تعبدوها قريش ، وكان مع أبي سفيان جماعة من الكافرين والمنافقين ، فنزل
قوله تعالى : « وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ » وقلنا نحن فيما تقدم : ان للأعلى
أن يأمر بالطاعة ، وينهى عن المعصية من هو دونه حتى ولو كان معصوماً ، والآن
نعطف على قولنا هذا ما يلي :

لا شيء أثقل على من لا يخشى الله من كلمة : « اتق الله » ولا علو له أعدى وألد من قائلها .. نقل عن عبد الملك بن مروان انه حين تولى الملك قال في خطبة العرش : « من قال لي بعد اليوم : اتق الله ضربت عنقه » . أما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فهي عنده كلمة الحب والاشفاق، ويتمنى لو سمعها في كل حين ، حتى ولو كان معصوماً من الخطايا والدنوب ، بل ان حبه لها ولسماعها من عصمته وعظمته .. ان العظيم يتهم نفسه بالتقصير منها اجتهد.. اذن ، لا داعي للتأويل والتخريج .. هذا الى ان في أمر سيد الكونين بالتقوى حكمة بالغة ودرساً عظيماً لأصحاب الجاه والسلطان ، وانهم منها بلغوا من السمو والرفعة فليسوا فوق أن يؤمروا بالعدل والتقوى ، وفي نهج البلاغة : من استغل الحق أن يقال له ، أو العدل أن يعرض عليه كان العمل بهما عليه أثقل .

ما جعل الله لرجل من قلبين الآيتة ٤ - ٥ :

مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمْ اللَّائِنِي تَظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكَ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ * أَدْعَوْهُمْ لِأُبْنَانِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً *

الآيتة :

يقال : ظاهر من امرأته وتظاهر منها إذا قال لها : أنت علي كظهر أمي

سورة الأحزاب

ويأتي التفصيل في سورة المجادلة . وادعياء جمع دعي وهو الذي يتباهى الانسان .
والمراد بالسبيل هنا طريق الحق . واقسط أعدك .

الإعراب :

اللائي صفة لأزواجكم ، وهي جمع التي . ذلكم أي دعاءكم . ومسا تعمدت
عطف على فيها أخطأتم أي ولكن فيها تعمدت .

قلب واحد وإيمان واحد :

(ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه) . والمرأة أيضاً مثل الرجل، وخص
سبحانه الرجل بالذكر لأنه أمر نبيه الكريم بتقوى الله ، فناسب ان يعقب بعد
هذا الأمر بأن الرجل لا يملك قلبين يتقي الله بأحدهما ، والناس بالآخر ، والغرض
من ذلك أن يبين سبحانه أن الانسان لا يستطيع أن يؤمن في وقت واحد بشيئين
متناقضين ، فيؤمن - مثلاً - بدين يحرم الظلم والعدوان كالاسلام والمسيحية، وفي
نفس الوقت يستحل الظلم والعدوان إلا إذا كان له قلبان ووجهان ولسانان كأبناء
الولايات المتحدة الأمريكية التي ينص قانونها الجديد على أن للأمريكي من رعاياها
أن يتجنس بالجنسية الاسرائيلية ، ويقا تل العرب باسم اسرائيل ، وهو يحتفظ بجنسيته
الأمريكية .. اللهم الا ان تكون اسرائيل قاعدة استعمارية عدوانية للولايات المتحدة،
وان الجنسية الاسرائيلية اسم بلامسمى حتى الجنسية التي يحملها الحاكمون في اسرائيل،
لأنهم مجندون كمرتقة لحماية الاستعمار والاحتكار . قال رجل للإمام علي (ع) :
اني أحبك وأحب معاوية . فقال له الإمام : أنت أعور ، فلما أن تعمى ، وإما
أن تشفى من العور .

وتسأل : ما رأيك فيمن يقول : أنا من الوجهة الدينية ألتزم بعقيدة الاسلام
أو المسيحية ، ومن الوجهة السياسية ألتزم بسياسة الكتلة الشرقية أو الغربية ، فهل
يمكن الجمع بين هذين الالتزامين ؟

الجواب : ان أي انسان يؤمن بالحق عن صدق واخلاص يجوز له بل يجب

عليه أن يؤيد كل من يقف موقفاً يناصر فيه الحق والعدالة ، سواء أكان شرقياً أم غربياً ، ولا يجوز له محال أن يؤيد أحداً - كائناً من كان - تأييداً مطلقاً ومن غير قيد حتى ولو كان مطلقاً ، لأن الجمع بين الإيمان بالحق وتأييد الباطل وأهله جمع بين المتناقضين ، وهو محال بطبعه ، وعليه فلا يمكن الجمع بين الالتزام بعقيدة الاسلام وبين الالتزام بأية سياسة أو أي مبدأ التزاماً مطلقاً وعلى كل حال . هذا فيما يعود إلى الاسلام ، أما فيما يعود إلى العقيدة المسيحية فندع الكلام « للفاسوسة الأحرار الذين عبروا عن غضبهم لرفض البابا الاجتماع بهم واجتماعه في الوقت نفسه برواد القضاء الأمريكيين ، فقد قالوا في احتجاجهم : ان اجتماع البابا بهؤلاء الرواد هو دليل واضح على الصلة الوثيقة الموجودة بين الكنيسة كمؤسسة دينية ، وبين السلطة السياسية والاقتصادية التي تقوم بعمليات الاضطهاد والظلم ضد الأغلبية من البشر ، وهي الصلة التي أعلن هؤلاء الفاسوسة انهم يكافحون من أجل القضاء عليها »^١ .

(وما جعل أزواجكم اللائي تظاهرون منهن امهاتكم) . كان الرجل في الجاهلية يطلق امرأته بقوله : أنت علي كظهر امسي . فنهى الاسلام عن ذلك لأن الزوجة لا تصير أمّاً بهذا القول ، وأوجب الكفارة على قائله إذا توافرت الشروط التي يأتي بيانها في سورة المجادلة .

(وما جعل ادعياءكم أبناءكم) . كان الرجل في الجاهلية يثنى المولود من غيره ، ويلحقه بنسبه ، ويجري عليه أحكام الابن الحقيقي في كل شيء ، وكان الناس يدعون هذا المولود باسم الذي تنبأه دون اسم أبيه ، فحرم الله اثني بهذه الآية (ذلكم قولكم بأفواهكم) والقول لا يغير الواقع (والله يقول الحق وهو يهدي السبيل) . والقول الحق والسبيل القويم ان المثني لا يصير ابناً بالتبني ، ولا الزوجة أمّاً بالمظاهرة (ادعوهم لأبائهم) الذين ولدوهم لا للذين تنبؤهم (هو أقسط عند الله) . ضمير « هو » يعود الى المصدر المتصيد من ادعوهم أي دعاؤكم اياهم لأبائهم أعدل عند الله .

(فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم في الدين ومواليكم) . يطلق المولى على المنعم

والمنعم عليه ، وعلى القريب نسباً أو مودة ، والمعنى ان جهلتم أبا المتنبى فقولوا : هذا أخي في الدين أو مولاي إشارة الى المسودة ، أو مولى فلان ان كان رقياً وأعتقه . وقال المفسرون وأهل السير : ان زيد بن حارثة سُبِي صغيراً ، فاشتراه حكيم بن حزام لعمته خديجة بنت خويلد ، ولما تزوجها رسول الله (ص) وهبته له ، وبعد نزول الوحي على النبي (ص) دعاه الى الاسلام فأسلم ، وأخى بينه وبين عمه حمزة بن عبد المطلب . وجاء حارثة أبو زيد الى رسول الله (ص) وقال له : إما ان تبع ابني زيدا ، وإما ان تعتقه ، فأعتقه الرسول، وقال له : اذهب حيث شئت ، فأبى أن يفارق رسول الله ، وكان الناس يدعونه ابن محمد (ص) إلى أن نزل القرآن يلطال النبي .

(وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم وكان الله غفوراً رحيماً) . من دعا انساناً الى غير أبيه ، وهو يرى انه أبوه فلا بأس عليه ، وإنما الأثم على من علم وتعمد . قال رسول الله (ص) : « رُفِعَ عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه وما لا يعلمون وما لا يطيقون وما اضطروا عليه ، شريطة أن لا يقع ذلك عن تقصير وإهمال .

النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم الآية ٦ - ٨ :

النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا * وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا * لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صَدَقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا *

الإعراب :

أهماتهم على حذف مضاف ، أي مثل أهماتهم . وأولو الأرحام مبتدأ وبعضهم مبتدأ ثان وأولى خبره والجملة خبر المبتدأ الأول . والمصدر من أن تفعلوا مبتدأ وخبره محذوف والجملة في محل نصب على الاستثناء المنقطع ، والتقدير ولكن فعلكم إلى أوليائكم معروفاً جازئ .

هل النبي حاكم بأمره ؟

(النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم) . للولاية معان تختلف باختلاف من تنسب إليه ، فولاية الله سبحانه معناها السلطة والقوة التي لا تغلب ، ومعنى ولاية النبي الطاعة من غير اعتراض ، وهذا المعنى هو المراد من قوله تعالى : « النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم » .

وتسأل : أليس معنى هذا ان النبي حاكم بأمره ، ولا خيرية معه لفرد أو جماعة ؟ وكيف تجمع بين هذا وبين مبدأ الحرية التي هي حق طبيعي لكل انسان؟
الجواب : نجمع بينهما كما نجمع بين حرية الانسان وطاعته لله .. ان النبي لسان الله وبيانه : « وما ينطق عن الهوى ان هو إلا وحي يوحى - « التجسم » . وصح الحديث عن رسول الله (ص) : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به » . فالتبعية والطاعة لما جاء به من عند الله لا من عند نفسه .. هذا إلى أن الحر هو الذي يلتزم الطريق القويم ، ويعمل بالحق ويتحمل مسؤوليته بإرادته ، ويدافع عنه حسب طاقته ، أما من يندفع وراء الرغبات غير مكثر بحسب ورقيب فهو عبد الأهواء والشهوات . قال فيلسوف شهير : « الحرية ليست فضيلة داخلية تسمح بأن تفصل أنفسنا عن المواقف الملحة ، وإنما هي القدرة على بناء مستقبل أفضل » .

(وأزواجه أهماتهم) . ان لأزواج النبي (ص) من الاحترام وحرمة الزواج بهن من بعده تماماً ما للأمهات ، وما عدا ذلك فهن والأجنبيات سواء (وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين) . تقدم في

الآية ٧٥ من سورة الأنفال ج ٣ ص ٥١٦ (الا ان تفعلوا إلى أولياتكم معروفًا). المراد بالمعروف هنا الوصية ، وبالأولياء الأصدقاء والمعتقون والأقارب غير الوارثين. والمعنى ان المراث هو لأقرب الناس إلى الميت ، أما الوصية فهي للموصى له قريباً كان أم بعيداً (كان ذلك في الكتاب مسطوراً) أي ان هذا الحكم ثابت عند الله ومن عصاه فهو من المالكين .

(واذا أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم) . الخطاب في « منك » لمحمد (ص) ، والمراد بالميثاق تبليغ رسالة الله على أكملها ، والصبر على ما يصيبهم في سبيلها .. وخص سبحانه بالذكر نوحاً وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمداً بعد أن ذكر النبيين على وجه العموم ، ذكرهم بالخصوص لأنهم أفضل الأنبياء ، وقدم محمداً لأنه أفضل الخمسة ، وفي الآية ٣٥ من سورة الاحقاف اشارة الى أنهم من اولي العزم، وسبب هذه التسمية كما في بعض الروايات ان كل نبي بعد نوح كان تابعاً لشريعته، ثم نُسخت شريعة نوح بشريعة إبراهيم ، ونُسخت هذه بشريعة موسى ، وشريعته بشريعة عيسى ، ثم نسختها شريعة محمد (ص) التي لا تُنسخ الى يوم القيامة حيث لا نبي بعده .

(وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً) . هذا الميثاق هو الأول بالذات ، وأعاد سبحانه ليصفه بالثانية والقوة، وقد وصف الميثاق بالغليظ في مواضع ثلاثة من كتابه العزيز: الأول ميثاق الزواج : « وأخذنا منكم ميثاقاً غليظاً - ٢١ النساء » . الثاني الميثاق الذي أخذه على بني إسرائيل : « وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً - ١٥٤ النساء » . الثالث الميثاق الذي أخذه على النبيين . وقد ذهل الشيخ محمود شلتوت عن ذلك حيث قال : « ان وصف الميثاق بالغليظ لم يرد في موضع من مواضعه - أي مواضع القرآن - إلا في عقد الزواج » . والعصمة لله .

(ليسأل الصادقين عن صدقهم) . أرسل سبحانه الأنبياء وأخذ عليهم ميثاق التبليغ كي يسأل الصادقين : ماذا أرادوا بالصدق ؟ هل أرادوا به وجهه الله ، أو ليقول للناس : أنهم صادقون وما إلى ذلك من الأغراض الشخصية ؟ قال الإمام جعفر الصادق (ع) : « اذا سأل الله الانسان عن صدقه على أي وجهه قاله ، فيجازى بحسبه ، فكيف حال الكاذب ؟ » . (وأعد للكافرين عذاباً أليماً) .

لما ذكر سبحانه الرسل قال : من كفر به فله عذاب ألیم ، وبالمقابل من آمن وعمل صالحاً فله جنات النعيم .

الأحزاب الآية ٩ - ١٥ :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا * إِذْ جَاؤُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا * هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا * وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا * وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا * وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوuha وَمَا تَلَبَّسُوا بِهَا إِلَّا لَيْسِيرًا * وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُؤْلُونَ الْأَذْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا *

اللغة :

زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وبلغت القلوب الحناجر كناية عن شدة الخوف . وابتلي المؤمنون اختبروا وامتنحوا . وزلزلوا اضطربوا من الفزع . والمراد بالذين في قلوبهم مرض

سورة الأحزاب

ضعفاء العقل والایمان الذين ينعمون مع كل ناعق . ويثرب من أسماء المدينة المنورة ومن أسمائها أيضاً طيبة . ويوتنا عورة أي منكشفة للعدو والسارق .

الإعراب :

قال أبو البقاء : كتبت الظنون بالألف في المصاحف لتناسب الآيات ، ومثله الرسولا والسيلا . وهناك للبعيد ، وهنا للقريب ، وهناك للمتوسط . ويثرب لا تنصرف للعلمية ووزن الفعل . ويسيراً صفة لظرف زمان محذوف أي الا زمناً يسيراً . ولا يولون جواب عاهدوا لأنه بمعنى أقسموا .

ملخص قصة الأحزاب :

هذه الآيات وما بعدها إلى الآية ٢٧ نزلت في غزوة الأحزاب ، وتسمى أيضاً وقعة الخندق ، وخلاصتها ان قرأ من زعماء اليهود استحثوا قريشاً وغيرها من قبائل العرب على حرب رسول الله (ص) ، ورصدوا لذلك كثيراً من المال ، واستطاعوا أن يحزبوا الأحزاب ، ويؤلفوا جيشاً ضخماً لا عهد للجزيرة العربية بمثله من قبل ، وزحف الجيش الهائل على المدينة بقيادة أبي سفيان .

ولما علم الرسول الأعظم (ص) بقصدهم أمر بحفر الخندق بإشارة من سلمان الفارسي ، وعمل الرسول فيه بيده ، وعمل معه المسلمون المخلصون ، وكان سلمان يلهمهم حماساً بحديثه عما أعد الله للعاملين والمجاهدين ، ولكن المنافقين كانوا يشبطون عزم رسول الله ويتسللون بغير علمه .

وانتهى حفر الخندق على أية حال ، وأقبلت الأحزاب بألوفها المؤلفة ، ولما رآهم المسلمون سيطر الخوف على كثير منهم ، واشتد عليهم البلاء ، وأخذوا يظنون بالله الظنون ، وزاد من فرعهم وهلعهم ان بني قريظة ، وهم قبيلة من اليهود ، كانوا يساكنون رسول الله (ص) بالمدينة، وكان بينه وبينهم عهد وميثاق أن لا يعينوا عليه عدواً ، وظلوا قائمين على العهد حتى جاء جيش الأحزاب ، فنقضوا العهد وأعلنوا الحرب في أصعب الظروف وأشقها على المسلمين .. وهذا

هو شأن اليهود في كل زمان ومكان ، يتنزلون كالكلاب حينما لا تساعدهم الفرصة على البغي والعدوان ، فإذا سنحت عقروا وغدروا .. وبعث الرسول (ص) سعد ابن معاذ وجماعة من الصحابة إلى بني قريظة في محاولة لبقائهم على العهد: فأصروا على الغدر ، فوقع المسلمون في حصار شديد يحيط بهم العدو من فوقهم ومن أسفل منهم .

وفي فقه السيرة للشيخ الغزالي : « أقبل عمرو بن ود وعكرمة بن أبي جهل وضرار بن الخطاب حتى رأوا مكاناً ضيقاً من الخندق ، فضربوا خيلهم فاقترحتهم ، وأحس المسلمون بالخطر الداهم ، فأسرع فرسانهم يسدون الثغر بقودهم علي بن أبي طالب ، وقال علي لعمرو بن ود ، وهو فارس شجاع معلّم : يا عمرو انك عاهدت الله لا يدعوك رجل من قريش إلى إحدى خلتين إلا أخذتها منه . قال : أجل . قال له علي : أدعوك إلى الله ، إلى الاسلام . قال عمرو : لا حاجة لي بذلك . قال علي : أدعوك إلى النزال . فأجابه عمرو : ولم يا ابن أخي فوالله ما أحب أن أقتلك - استصغاراً لشأنه - فقال له علي : لكنني والله أحب أن أقتلك .. فحمي عمرو واقتحم عن فرسه فعفره وضرب وجهه ، ثم أقبل على علي ، فتنازلا وتجالدا ، فقتله علي ، وخرجت خيل المشركين من الخندق منهزمة حتى اقتحمته هاربة » .

ولما شعر جيش الأحزاب انه لا سبيل إلى اقتحام الخندق أخذوا يصوبون سهامهم على المسلمين ، فأصاب سهم منها أكحل سعد بن معاذ وجرحه جرحاً بليغاً ، فأمر النبي (ص) ان يحمل إلى امرأة بالمدينة تدعى ربيعة كانت تدأوي جرحي المسلمين لوجه الله . فقال سعد ، وقد رأى جرحه المميت: اللهم ان كنت أبقيت من حرب قريش شيئاً ، فأبقني لها فإنه لا قوم أحب إلي أن أجاهدهم من قوم آذوا رسول الله وكذبوه وأخرجوه ، وان كنت قد وضعت الحرب بيننا وبينهم فاجعله لي شهادة، ولا تمنني حتى تفر عيني من قريظة . وقد استجاب الله دعاءه ، حيث حكّمه في بني قريظة ، فعاقب رجالهم بالقتل ، ونساءهم بالسبي . ويأتي التوضيح عند تفسير الآية ٢٦ : « فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً » .

ودام الحصار بضعاً وعشرين ليلة ليس فيها إلا الترامي بالنبل والحجارة. وفجأة

سورة الأحزاب

هبت ربيع عاتية دكت معسكر الأحزاب ، واقتلعت خيامهم ، وأفسدت كل شيء ، فانسحبوا غلذولين بقيادة أبي سفيان ، وأيسد الله نبيه بنصره ، وهتف يقول : لا إله إلا الله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده ، فلا شيء بعده .

واتفق الرواة على أن هذه الغزوة كانت في السنة الخامسة من الهجرة ، واختلفوا في تعيين الشهر ، فمن قائل : انه ذو القعدة ، وقائل : انه شوال . هذا مجمل غزوة الأحزاب ، والتفصيل فيما يلي من شرح الآيات :

المعنى :

(يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيراً) . اذكروا أيها المؤمنون الذين كنتم مع رسول الله (ص) في غزوة الخندق تحيط بكم الأعداء من كل جانب ، اذكروا ذلك واشكروا لإنعام الله عليكم بالخلاص والنصر حيث أرسل على أعدائكم ريحاً عاتية (وجنوداً لم تروها) قال المفسرون : انها الملائكة . ويجوز أن تكون كناية عما ألقاه سبحانه في قلوب الأحزاب من الخوف والهلع .

وفي البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي : كان جيش الأحزاب يتألف من خمسة عشر ألفاً ، والمسلمون ثلاثة آلاف ، واتفق أهل التفسير والسير ان صخرة ظهرت في بطن الخندق ، فكسرت حديدتهم وشقت عليهم ، فأخذ رسول الله (ص) المعول من سلمان ، وضرب به الصخرة ضربة صدعها ، ولعلت من تحت المعول برقة ، ثم ضربها ثانية ، فلمعت برقة أخرى ، وثالثة فلمعت ثالثة . فقال رسول الله (ص) : رأيت في البرقة الأولى مدائن كسرى ، وفي الثانية قصور قيصر ، وفي الثالثة قصور صنعاء ، وأخبرني جبريل ان أمتي ظاهرة عليها جميعاً فأبشروا . وتحقق كل ما قاله سيد الكونين (ص) .

(اذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم) . المراد ان جيش الأحزاب حاصر عسكر المسلمين ولم يدع له منفذاً ، وقال جماعة من أهل التفسير : جاءت غطفان

وبنو قريظة وبنو النضير من اليهود من قبل المشرق، وجاءت قريش وبنو كنانة وأهل تهامة من قبل المغرب (واذ زاعمت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر) . هذا كناية عن شدة الخوف والفرع (وتظنون بالله الظنون) . ظن بعض من آمن إن الله لن ينصر دينه ونيبه ، وقال بعض المنافقين : وعدنا محمد بكنوز كسرى وقيصر، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى حاجته .. وليس من شك أنه لا عذر أبداً للمنافق ، أما من آمن ثم تساءل بحرقه وقال : لماذا لم يخسف الله الأرض بالظالمين ، أو ينزل عليهم صاعقة من السماء ، أما هذا فلا نستبعد أنه معذور عند الله ما دام مؤمناً به في قرارة نفسه .

(هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً) . لا تظهر كوامن النفس على حقيقتها إلا عند الشدائد والامتحان بالمخاوف والمكاره .. وكانت وقعة الخندق امتحاناً قاسياً للمؤمن والمناق على السواء حيث ظهر كل على حقيقته (واذ يقول المنافقون) وهم الذين أبطنوا الكفر وأظهروا الإيمان (والذين في قلوبهم مرض) وهم أصحاب الإيمان الضعيف الذين صدقوا المنافقين من غير روية . قال هؤلاء وأولئك : (ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً) . هم لا يؤمنون بالله ولا برسوله لأن المؤمن لا ينطق بمثل هذا الكفر ، وإنما قالوا هذا ليشككوا البسطاء وضعاف العقول .

(واذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا) . حين باشر النبي والصحابة بحفر الخندق قال جماعة من المنافقين : وما جدوى الخندق ؟ انه لا يغني عن الحرب شيئاً ، قالوا هذا قبل أن تأتي الأحزاب ، ولما جاءت قالوا للمقاتلين : لا طاقة لكم بهذا الجيش الجرار، ولا نجاة منه إلا بالفرار والاستسلام.. تذكرت وأنا أفسر هذه الآية عملاء الصهيونية والاستعمار الذين ينشرون في هذه الأيام الملح والفرع من قوة اسرائيل ، تذكرتهم حيث علمت ان لهم أشباهاً ونظائر في الزمان القديم ، وان للحرب النفسية جنوراً عميقة في التاريخ ، وما هي من بدع الصهيونية والاستعمار ، بل شيء بال وعتيق لا ينخدع به إلا ساذج العقل وقاصر النظر .

(ويستأذن فريق منهم النبي يقولون ان بيوتنا عورة) . كان بعض المنافقين

سورة الأحزاب

يخلفون المعاذير للهرب من عسكر رسول الله (ص) ، ويقولون له : ان بيوتنا منكشفة للصوص ، فأذن لنا بمجابتها ، فأكلبهم الله وكشف عن نفاقهم بقوله : (وما هي بعورة ان يريدون إلا فرارا) من الجهاد ونصرة الحق .
 (ولو دخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لآتوها وما تلبثوا إلا يسيرا) .
 ضمير عليهم يعود إلى المنافقين ، وإلى أصحاب الايمان المستودع الذي لا قرار له ، وضمير أقطارها إلى المدينة ، والمراد بالفتنة هنا الارتداد عن الدين . والمعنى لو دخلت جيوش الشرك المدينة وأحاطت بها من كل جانب ، وقال المشركون للمنافقين ولرضى القلوب : ارتدوا عن الاسلام وأعلنوا الشرك لاستجابوا على الفور من غير تردد ، أو ترددوا قليلاً ، ثم استسلموا للقوة .. وبالبدهاسة ان المؤمن الحق لا يرتد عن عقيدته ، بل يقتل عليها ، وهو يعلم ان السعيد من سلم له دينه مهما كانت النتائج ، كما هو شأن شهداء العقيدة الذين لا يبالون بسيف الجلال .
 (ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الادبار) . تذرعو بالأكاذيب للفرار من عسكر رسول الله (ص) بعد أن أعطوه العهود والمواثيق على أن يثبتوا في الجهاد بين يديه حتى الموت . وفي تفسير الطبري : « ان بني حارثة وبني سلمة همتوا بالقتل يوم أحد ، ثم عاهدوا الله على أن لا يعودوا لمثلها أبداً ، فذكرهم الله الآن بهذا العهد الذي أعطوه من أنفسهم » . أنظر تفسير قوله تعالى : « إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا - ١٢٢ آل عمران » ج ٢ ص ١٤٩ (وكان عهد الله مسؤولاً) يوم القيامة عن الوفاء به : « فن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً - ١٠ الفتح » .

لن ينفعكم الفرار الآية ١٦ - ٢٠ :

قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تُمْتَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا * قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِيكُمْ مِنْ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهْمٍ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا

نَصِيرًا * قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا
وَلَا يَأْتُونَ الْبَاسَ إِلَّا قَلِيلًا * أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ
يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ
الْخَوْفُ سَلَقُواكُمْ بِالْسِنَةِ حَدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا
فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا * يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ
يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ
يَسْأَلُونَ عَنِ أَنْبَاءِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا *

اللغة :

المعوقين المشيطين . والمراد بالباس هنا القتال والجهاد . وأشحة جمع شحيع ،
والمراد به من يبخل بالتضحية بالنفس والمال لنصرة الحق . سلقوكم آذوكم . السنة
حداد قادرة على الكلام . لو انهم بادون أي لو أنهم من أهل البادية . والأعراب
هم أهل البادية من العرب .

الإعراب :

لا تتمون إلا قليلاً أي إلا زمناً قليلاً . وهلم اسم فعل بمعنى أقبل وتعال عند
أهل الحجاز ، وتقال بلفظ واحد للمفرد والمثنى والجمع والمذكر والمؤنث . وأشحة
حال في الموضعين . كالذي الكاف بمعنى مثل صفة لمصدر محذوف أي تدور أعينهم
دوراناً مثل عين الذي يغشى عليه . الأحزاب مفعول أول ليحسبون وجملة لم يذهبوا
مفعول ثانٍ . وبادون جمع بادٍ .

المعنى :

(قل لن ينفعكم الفرار ان فررتم من الموت أو القتل) . فروا من الجهاد خوفاً من الموت ، وما ينجو من الموت من خافه ، ولا يعطى البقاء من أحبه (وإذا لا تمنعون إلا قليلاً) . وان سلمتم من القتل في ساحة الوغى فستلاقون حتفكم بعد قليل ، ثم الى عذاب السعير ، أما الشهداء فإلى جنات النعيم . قال الإمام علي (ع) : « والذي نفسي بيده لألف ضربة بالسيف أهون علي من ميتة على الفراش » .

(قل من ذا الذي يعصمكم من الله ان أراد بكم سوءاً أو أراد بكم رحمة ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً) . ونفسره بقوله تعالى : « قل فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضرراً أو أراد بكم نفعاً - ١١ الفتح » . وتقدم مثله في الآية ١١ من سورة الرعد ج ٤ ص ٣٨٦ (قد يعلم الله المعوقين منكم والقاتلين لانخوانهم لهم الينا ولا يأتون البأس إلا قليلاً) . الله سبحانه يعلم المنافقين ، وأنهم يشيطون الناس ، ويقول بعضهم لبعض : تعالوا الى الراحة والدعة ، مالنا وللقتال ؟ وان ينكشف أمرهم وتظهر دخيلتهم يمشوا الى القتال كالذي يساق الى الموت ، ويقاتلوا لماماً ، وهم مضطربون متشاقون .. ول هؤلاء أشباه ونظائر في كل عصر .

(أشحذ عليكم) بالمال ونصرة الحق .. وكل بخل يخلف الله عنه إلا البخل بحق الجهاد والمال (فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون اليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت فإذا ذهب الخوف سلقوكم بالسنة حداد) . تعكس هذه الآية جبن المنافقين وخورهم عند القتال ، وجرائهم على الذنوب والآثام وهم آمنون مطمئنون ترتعش منهم القلوب ، وتدور العيون في رؤوسهم فزعاً وهلعاً في ساحة الوغى وعند السلم والأمن يطلقون ألسنتهم السلاط تنهش المؤمنين والمجاهدين . وفي نهج البلاغة : « ان المنافق يتكلم بما أتى على لسانه لا يدري ماذا له وماذا عليه » . وقد قال رسول الله (ص) : « لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه ، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه » .

(أشعة على الخير) . المراد بالخير هنا الغنيمة أي انهم عند البأس جناء ، أما عند توزيع الغنيمة فتعلو أصواتهم بالاحتجاج ، وانهم أحق بها من الجميع (أولئك لم يؤمنوا) بل أظهروا الايمان ، وأضمرُوا الكفر ، وقالوا معكم نفاقاً ورياءً (فأحبط الله أعمالهم) أي أبطل قتالهم معكم لأنه لغير وجه الله، وفي الحديث : من كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى ديارٍ يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه (وكان ذلك على الله يسيراً) . ذلك إشارة إلى إحباط قتالهم ، وهو يسير على الله تعالى لأنه لا جور فيه ولا ظلم ما داموا منافقين مرائين .

(يحسبون الأحزاب لم يذهبوا) .. ذهبت الأحزاب إلى غير رجعة ، ومع هذا يأبى المنافقون أن يصدقوا ، لا شيء إلا لأنهم يتمنون أن تقضي الأحزاب على النبي والصحابه ، وقد صورت لهم أمنيته هذه ان الأحزاب ما زالت تحاصر المدينة ، وانها ستقضي على المسلمين غداً أو بعد غد (وان يأت الأحزاب يودوا لو انهم بادون في الأعراب يسألون عن أنبائكم) . وإذا تأكد المنافقون من هزيمة الأحزاب ، ثم عادت إلى المدينة كرهة ثانية تمنى المنافقون لو كانوا بعيدين عنها يقيمون في البادية مع أهلها يسألون كل قادم عما جرى على المسلمين (ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلاً) . هنا مثل قوله تعالى في الآية السابقة من هذا المقطع : ولا يأتون البأس إلا قليلاً ، .

في رسول الله أسوة حسنة الآية ٢١ - ٢٧ :

لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ
الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا * وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا
مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا *
مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَن قَضَىٰ

نَحْبُهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا * لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً * وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْراً وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيّاً عَزِيزاً * وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقاً تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقاً * وَأُورِثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضاً لَمْ تَطَّوُّوها وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً *

اللغة :

أسوة بضم الألف وكسرها قدوة . وقال صاحب مجمع البيان : « قضى نحبه أي مات أو قتل في سبيل الله » . وظاهروهم عاونوهم . والصياصي جمع صبيصة ، وهي كل ما يُمتنع به كالحصن ونحوه ، ويقال لقرون البقر والظباء صياصي .

الإعراب :

لمن كان يرجو متعلق بحسنة . وكثيراً صفة لمصدر محذوف أي ذكر كثيراً . وفاعل زادهم ضمير مستتر يعود الى البلاء . وما عاهدوا الله (ما) اسم موصول في محل نصب بنزع الخافض أي صدقوا فيما عاهدوا الله عليه . وكفى هنا تتعدى الى مفعولين مثل كفاك الله شر الأعداء ، والمؤمنين مفعول أول ، والقتال مفعول ثانٍ .

المسلم على قسمين :

(لقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً) . المراد بالاسوة الحسنة هنا الاقتداء برسول الله (ص) . و(يرجو الله واليوم الآخر) أي يأمل ثواب الله ونعيم الآخرة . و(ذكر الله كثيراً) كناية عن إقامة الفرائض الخمس . والخطاب في «لكم» للذين انصرفوا عن رسول الله (ص) في وقعة الأحزاب ، والقصد منه التوبيخ والتقريع لأنهم تركوا الرسول (ص) في ساعة العسرة ، وهم يتظاهرون بالاسلام ، فيصلون مع المسلمين ، ويدعون الإيمان بالله واليوم الآخر ، وفي معنى هذه الآية قوله تعالى : « ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه » - ١٢٠ التوبة ، ج ٤ ص ١١٦ .

وتسمى الآية الى أن المسلم الحق هو الذي يقتدي بنبه ولا يعصي له أمراً . وتساءل : لقد اتفق الفقهاء على ان من قال : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، يعامل معاملة المسلم ، سواء أطاع أم عصى ؟

الجواب : أجل ، انه يعامل معاملة المسلم في الحياة الدنيا من حيث الزواج والارث وما اليها ، ولكن معاملته في هذه الحياة كمسلم شيء ، واعتباره مسلماً عند الله وفي يوم الحساب شيء آخر . وبكلمة أوضح ، ان المسلم على قسمين : مسلم عند الناس لا عند الله ، وهو الذي يقول : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، ويعصي الله والرسول ، وهذا يعامل معاملة المسلم في الدنيا فقط ، ومسلم يقول : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، ويطيع الله والرسول ، وهذا يعامل معاملة المسلم في الدنيا والآخرة . قال الإمام علي (ع) : الفقر والغنى بعد العرض على الله . (ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً) . ذكر المفسرون القدامى لهذه الآية معنيين ، أرجحهما ان النبي (ص) كان قد وعد المسلمين من قبل بأنهم سيلاقون ألواناً من المحن والشدائد ، وان أهل الكفر والشرك سيتظاهرون على حربهم واستئصالهم ، وقد جاء هذا الوعد في الآية ٢١٤ من سورة البقرة : « أم حسبكم ان تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء » ج ١ ص ٣١٩ .

سورة الأحزاب

ولما رأى المؤمنون جيش الأحزاب يحاصرهم من كل جانب : « قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله » وازدادوا إيماناً على إيمان ، وطاعة على طاعة لله وللرسول حيث رأوا بالبيان صدق الوعد والنبوءة ، أما المنافقون والذين في قلوبهم مرض فقد ازدادوا نقاقاً وعناداً وقالوا : « ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً » .

(من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه) من الجهاد والثبات عند لقاء العدو حتى الموت (فنههم من قضى نحبه) قبل وقعة الأحزاب كالذين استشهدوا يوم بدر وأحد (ومنهم من ينتظر) الشهادة أو النصر (وما بدلوا تبديلاً) . وأيضاً المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما بدلوا بل ماتوا على النفاق . وقال المفسرون : ان انس بن النضر غاب عن بدر ، فشق ذلك عليه ، وقال : لقد غبت عن أول مشهد شهده رسول الله (ص) ، ولئن أراني الله تعالى مشهداً مع رسول الله (ص) فيما يعد ليرين ما أصنع ، فشهد يوم أحد ، فاستقبله سعد ابن معاذ ، فقال له : يا أبا عمرو إلى أين ؟ قال : واهاً لريح الجنة ، والله اني لأجدها دون أحد .. فقاتل حتى قتل رضوان الله عليه ، وقد وجد في جسده الشريف بضع وثمانون ضربة وطعنة ورمية .

(ليجزي الله الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين ان شاء أو يتوب عليهم ان الله كان غفوراً رحيماً) وعادلاً وحكيماً ، لا لغو ولا عبث في مشيئته وأفعاله ، فهو يثيب من يستحق الثواب كأهل الصدق والإيمان ، ان استمروا على صدقهم وإيمانهم ، ويعذب أهل الكفر والنفاق ان أصروا على الكفر والضلال ، وان تابوا شملهم برحمته ، وغفر لهم ما سلف ، فقوله تعالى : « ويعذب المنافقين ان شاء » معناه انه يشاء تعذيبهم ان لم يتوبوا ، والدليل على ذلك قوله : « أو يتوب عليهم ان الله كان غفوراً رحيماً » أي ان تابوا تاب عليهم وغفر لهم وشملهم برحمته .

(ورد الله الذين كفروا بغيظهم) وهم الأحزاب الذين تجمعوا لقتل النبي (ص) بقيادة أبي سفيان (لم ينالوا خيراً) أي ما زعمته الأحزاب انه خير ، وهو الظفر بالنبي ومن آمن معه (وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزاً) .

قال أبو حيان الأندلسي في تفسيره البحر المحيط : « كفاهم القتال بإرسال الرياح والجنود ، وهم الملائكة ، وقيل : المراد علي بن أبي طالب ومن معه ، برزوا للقتال، وقتل علي عمرو بن ود . وفي الحديث : « لضربة علي يوم الخندق أفضل من عمل الثقلين » . وفي رواية ثانية : « لمبارزة علي لعمره أفضل من عمل أمي الى يوم القيامة » . نقل هذه الرواية الحاكم في المستدرک ج ٣ ص ٣٢ . (السيد محسن الأمين، أعيان الشيعة ج ٢ والشيخ المظفر، دلائل الصدق ج ٢) .

ملخص قصة بني قريظة :

(وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيمهم وقذف في قلوبهم الرعب فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضاً لم تطأوها وكان الله على كل شيء قديراً) . المراد بأهل الكتاب هنا بنو قريظة خاصة . وضمير « هم » في قوله تعالى « ظاهروهم » يعود الى الأحزاب، وصياصيمهم حصون بني قريظة . أما قوله تعالى : « وأرضاً لم تطأوها » فهو بشارة بالفتوح الإسلامية .

فلما فيما تقدم : ان بني قريظة ، وهم قبيلة من اليهود ، كانوا يسكنون النبي (ص) بالمدينة أو بضواحيها ، وانه كان بينه وبينهم عهد أن لا يعينوا عليه عدواً ، ولما حاصرت الأحزاب المدينة تقضوا العهد وأعلنوا الحرب ، كما هو شأن اليهود قديماً وحديثاً .. وهاتان الآيتان اللتان نحن بصددهما تشران الى ما حدث لبني قريظة بعد نقضهم العهد وهزيمة الأحزاب ، وخلاصته :

لما كفى الله المؤمنين قتال الأحزاب نادى رسول الله بالخروج الى بني قريظة ، ولما وصل اليهم جيش المسلمين أغلقوا عليهم الحصن، فعرض النبي (ص) عليهم الاسلام على أن يكون لهم ما للمسلمين ، وعليهم ما عليهم ، وإلا حاصروهم حتى يستسلموا أو يحاربوا ، فأشار عليهم رئيسهم كعب بن أسد أن يسلموا ويؤمنوا بمحمد (ص) ، وقال : فوالله لقد تبين لكم أنه نبي مرسل وانه الذي تعبدونه في التوراة ، فأبوا وقالوا : لا نفارق ديننا .

سورة الأحزاب

وامتد الحصار خساً وعشرين ليلة حتى أوشكوا على الهلاك من الجهد والخوف ، وعندئذ طلبوا من النبي (ص) باختيارهم وملء إرادتهم أن يتزلوا على حكم سعد ابن معاذ ، وهو رئيس الأوس ، وكان بنو قريظة حلفاء لهم ، فاستجاب النبي لطلبهم ، واستدعى سعداً ، وقال له : ان هؤلاء قد نزلوا على حكمك مختارين ، فاحكم بما شئت . قال سعد : وحكمي نافذ عليهم ؟ قال النبي (ص) : نعم . فحكم سعد أن تقتل رجالهم المقاتلون ، وان تقسم أموالهم ، وتسبي ذراريهم ونسأؤهم ، وان تكون ديارهم للمهاجرين دون الانصار ، لأن للانصار دياراً ، ولا ديار للمهاجرين .

فأمر النبي (ص) بقتل الرجال الذين كانوا يحملون السلاح ، ومن حث بني قريظة على نقض العهد ودبر المعركة ضد المسلمين كحي بن أخطب زعيم بني النضير ، ثم قُسمت الأموال ، وسُبيت الذراري والنساء كما حكم سعد الذي اختاره بنو قريظة حكماً . والى هذا يشير قوله تعالى : « فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً » . وقدمنا ان سهماً من أسهم الأحزاب أصاب أكحل سعد ، وانه طلب من الله ان لا يميته حتى يقر عينيه من بني قريظة .. وبعد أن نُفذ فيهم حكمه انفجر الجرح وانتقل إلى رحمة الله ورضوانه ، وهو قرير العين بالشهادة واستجابة الدعاء .

هل ظلم محمد (ص) بني قريظة :

ونسأل : كيف أقر النبي (ص) حكم سعد ، وفيه ما فيه من العنف والقسوة حتى اتخذ منه أعداء الاسلام وسيلة للظلم والتشهير ؟

الجواب : ان محمداً لم يظلم بني قريظة ، وانما أنفسهم كانوا يظلمون لأنهم اختاروا لما هذا المصير بملء إرادتهم ، ويشهد لذلك :

أولاً : انهم عاهدوا النبي ونكثوا العهد في أخرج الأوقات ، كما هو دأب اليهود منذ القديم قال تعالى : « أو كلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم - أي الرؤساء - ١٠٠ البقرة » .

ثانياً : ان النبي (ص) عرض عليهم أن يدهم وشأنهم شريطة أن يقولوا :

لا إله إلا الله محمد رسول الله ، ونصحهم رئيسهم كعب بن أسد أن يستجيروا وينطقوا بكلمة الشهادة فرفضوا .

ثالثاً : ان بني قريظة أبوا النزول على حكم رسول الله (ص) ، وقبلوا حكم سعد من تلقاء أنفسهم .

رابعاً : ان سعداً حكم بشريعتهم التي يدينون بها ، ويحكمون على الناس بموجبها . قال العقاد : « انما دامهم سعد بنص التوراة الذي يؤمنون به كما جاء في التثنية : « حين تقرب من مدينة لكي تحاربها استدعها إلى الصلح ، فإن أجابتك إلى الصلح ، وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويستعبد لك . وان لم تسالك بل علمت معك حرباً فحاصرها ، وإذا دفعها الرب إهلك إلى يدك ، فاضرب جميع ذكورها بحد السيف ، وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة كل غنيمة تغنمها لنفسك وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك إهلك .. اصحاح ١٠ إلى ١٥ تثنية » . (كتاب العبريات الاسلامية ص ٢١٩ طبعة دار الفتوح بالقاهرة) .

وهذا النص موجود في التوراة اصحاح ٢٠ من التثنية ، لا اصحاح ١٠ إلى ١٥ كما جاء في العبريات الاسلامية ، وهو يدل بوضوح على أكثر مما حكم به سعد ابن معاذ على بني قريظة ، لأنه يقول صراحة : ان استجابت المدينة إلى الصلح فجميع أهلها عبيد مسخرون ، وان أبى وجب ذبح جميع الذكور بحد السيف المقاتلين منهم وغير المقاتلين ، ونهب الأموال وسبي النساء والأطفال .

وهناك نص آخر في التوراة لم يذكره العقاد ، وهو أعظم جوراً من النص الذي ذكره ، لأنه يأمر بقتل جميع السكان ، ولا يستثنى النساء والأطفال ، ثم احراق المدينة بجميع ما فيها بحيث لا يمكن بناؤها وتجديدها إلى الأبد .. فقد جاء في الاصحاح الثالث عشر من التثنية ما نصه بالحرف الواحد : « فضرِباً تضرب سكان تلك المدينة بحد السيف ، وتحرقها بكل ما فيها مع بهائمها بحد السيف ، وتجمع كل أمتعتها إلى وسط ساحتها ، وتحرق بالنار المدينة ، وكل أمتعتها كاملة للرب إهلك ، فتكون تلاً إلى الأبد لا تُبنى بعد » .

فهو بعد هذا يقال : ان محمداً (ص) ظلم يهود بني قريظة ، وان سعداً جار في حكمه عليهم ؟.. فن القضاء العدل أن تلزم كل انسان بما ألزم به نفسه ،

سورة الأحزاب

ونحكم عليه بما يدين ويعتقد ، واليهود يعتقدون ديناً، ويطبقون عملاً ذبح الذكور ، ونهب الأموال ، وسبي النساء والأطفال ، وهدم البيوت وإحراق القرى والمدن من كل شعب من الشعوب دون أن يعلن عليهم حرباً أو ينكث لهم عهداً أو يسيء اليهم بحرف تماماً كما تفعل الآن اسرائيل مع شعب فلسطين .. فهل يعد ظالماً من يحكم عليهم بتوراتهم ، ويعاملهم بما عاملوا به الناس ؟ مع العلم بأن النبي (ص) قتل المقاتلين منهم بعد أن نكثوا عهده وأعلنوا عليه الحرب ، وهم يقتلون ويحرقون لا شيء إلا لأن القتل والحرق والفساد دين لهم وطبيعة .. ولو حكم عليهم بالقتل والنهب والسبي دون أن ينكثوا العهد ويعلنوا الحرب لكان الحكم حقاً وعدلاً ، لأنه حكم بما يدينون ويفعلون .. واتفقت جميع الشرائع السماوية والوضعية على ان من دان بدين لزمته أحكامه ، وهنا يكمن السر في قول الرسول الأعظم (ص) لسعد : « حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة » . جمع ربيع وهو اسم السماء .

يا أيها النبي قل لأزواجك الآية ٢٨ - ٣٠ :

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً* وَإِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْراً عَظِيماً* يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيَّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا*

اللغة :

أُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً* أطلقكُنَّ طلاقاً بلا ضرر وخصومة . والمراد

بالفاحشة هنا المعصية . وضعف الشيء مثله في المقدار ، أو مثله وزيادة غير محصورة .

المعنى :

شكا أزواج النبي (ص) له من قلة النفقة والزينة ، وطلب ان يوسع عليهن مما أفاء الله عليه من الأنفال والغنائم ، فتزل قوله تعالى : (يا أيها النبي قل لأزواجك ان كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعنن وأسرحكن سراحاً جميلاً) وان كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيماً) . أمر الله نبيه الكريم أن يقول لمن : اخترن واحداً من اثنتين : إما الطلاق مع المتعة ان أردتن ما تريده النساء من الدنيا ، والمتعة هي عبارة عن منحة يقدمها المطلق لمطلقته ، ويراعى فيها حال الرجل يسراً وعسراً . انظر ج ١ ص ٣٦٦ . وإما الحياة مع رسول الله (ص) على ان تصبرن على مكابدة الفقر والعوز في الدنيا ، وجزاؤكن عند الله في الآخرة الأجر العظيم . فاختارت نساء النبي (ص) الله والرسول والدار الآخرة على الدنيا وزينتها ، وتسمى هذه الآية آية التخيير .

النبي وكثرة الأزواج :

وآية التخيير دليل قاطع على تكذيب ما زعمه المقولون من ان النبي (ص) استكثر من النساء لأهواء نفسية، لأن الحريص على الاستمتاع بالمرأة - كما قال مصطفى صادق الرافعي - لا يخبرها بين الحياة معه على ان تكابد الفقر والعوز الى آخر يوم ، وبين الابتعاد عنه ان أرادت الحياة وزينتها ، بل يخاطب عاطفتها ويقرب لها كل بعيد يُشبع رغبتها من الزينة والمظاهر .. وفي الأمثال : فرشة العرس عالية . وقال العقاد في كتاب العبقريات الاسلامية : « لو كانت لذات الحس هي التي سيطرت على زواج النبي بعد وفاة خديجة لكان الأحصى بإرضاء هذه الملذات ان يجمع اليه تسعاً من الفتيات اللاتي اشتهرن بفتنة الجمال في مكة والمدينة والجزيرة

سورة الأحزاب

العربية ، فيسرعن اليه راضيات فخورات ، وأولياء أمورهن أرضى منهن وأفخر بهذه المصاهرة التي لا تملوها مصاهرة .

ثم ذكر العقاد زوجات النبي (ص) واحدة فواحدة ، وبيّن السبب الموجب لزواجه بها ، وقال : « الا ان المشهرين المتقولين نسا كل حقيقة من حقائق هذه الحياة الزوجية ، ونسوا أن محمداً اتم بالطهر والعفة في شبابه ، وانه بقي إلى نحو الخامسة والعشرين لم يتعصف في طلب الحلال ، وهو ميسر له تسره لكل فتى وسيم حبيب ، ونسوا أنه لما تزوج في تلك السن كان زواجه بسيدة في نحو الأربعين ، وانه اختار احساباً في حاجة الى التآلف أو الرعاية ، ولم يختار جمالاً مطلوباً للمتاع ، ونسوا ان الرجل السدي وصفوه بلذات الحس لم يكن يشبع في بعض أيامه من خبز الشعير ، نسوا كل هذا ، وهو ثابت في التاريخ ، نسوه لأنهم أرادوا أن يعيبوا ويقولوا وينحرفوا عن الحقيقة .

(يا نساء النبي من بات منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين وكان ذلك على الله يسيراً) . المراد بالفاحشة هنا المعصية من أي نوع تكون ، ومبينة واضحة .. ولنساء النبي منزلة كريمة عند الله والناس لصلتهن بالرسول الأعظم (ص) ، فن أقدمت منهن على المعصية فقد خاطرت بمكانتها ، واستحقت من العذاب مثلي ما تستحقه غيرها، لأن الله سبحانه يحاسب الناس على قدر منازلهم، كما يحاسبهم على قدر عقولهم ، وقد عاتب الأنبياء بما لا يعاتب به أحداً غيرهم .

الجزء الثاني والعشرون

طهارة أهل البيت الآية ٣١ - ٣٤ :

وَمَنْ يَفْنَىٰ مِنْكُمْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلَ صَالِحًا تُوْفِّيَهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ
وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا * يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ
اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا
مَعْرُوفًا * وَقُرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ
الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ
الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا * وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ
مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا *

اللغة :

القنوت الطاعة . وفي قلبه مرض أي ريبة . وقولاً معروفاً بعيداً عن الريبة .
وقرن من الاستقرار . والتبرج اظهار الزينة . والمراد بالرجس هنا الذنب والمعصية .

الإعراب :

مرتين نائب مناب المفعول المطلق لأنه بمعنى مثلين . وقال كأحد ولم يقل
كواحدة لأن (أحد) هنا بمعنى غير، أي لستن كفرتكن من النساء . والمصدر من .
ليذهب متعلق بيريده . وأهل البيت منادى أي يا أهل البيت .

المعنى :

(ومن يفنى منكم لله ورسوله وتعمل صالحاً توفىها أجرها مرتين وأعتدنا لها

سورة الأحزاب

رزقاً كريماً) . كما ان العذاب بضاعف لمن تتجرأ على معاصي الله من نساء النبي فإن الثواب بضاعف لمن تحافه وتقبه (يا نساء النبي لستن كأحد من النساء ان اتقيتن) . يقول سبحانه لنساء النبي : أنئن فوق النساء كرامة وشرفاً يرسل الله ان اتقيتن معصية الله في القول والفعل ، وإلا انقطعت كل صلة بينكن وبين الرسول .. وقال الحافظ محمد بن أحمد الكلبي في التسهيل : « حصل لمن التفضيل بالقوى على النساء إلا فاطمة بنت محمد (ص) ومريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم » .

(فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض وقلن قولاً معروفاً وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى) . كان عصر النبي (ص) خير العصور، ومع هذا حذر سبحانه نساء النبي من لين الكلام مع الرجال ، والخروج من البيوت حاسرات متبرجات ، كيلا يثرن الطمع في القلوب الفاسقة الفاجرة .. هذا ، وهن من العفة والصون فوق كل ريبة وشبهة ، فكيف بعصرنا الذي قفزت فيه الانثى من البيت الى المسابح والمسارح ، وكشفت عن أنوثتها بأسلوب جنسي محموم ؟ (وأقرن الصلاة) لأنها تنهى عن التبرج والتخنث وغيرها من المحرمات (وآتين الزكاة) فهي تظهر الأموال كما تظهر الصلاة النفوس (وأطعن الله ورسوله) في كل شيء ، لا في خصوص الصلاة والزكاة ، ولا في ترك التبرج والخضوع بالقول فحسب .

أهل البيت :

(انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً) . المراد بالرجس هنا الذنوب . وقد استدلت الشيعة بهذه الآية على عصمة أهل البيت ، وقالوا : انما أداة حصر تدل على ثبوت الطهارة من الذنوب لأهل البيت دون غيرهم ، ولا معنى للعصمة إلا الطهارة من الذنوب .

وفي صحيح مسلم القسم الثاني من الجزء الثاني ص ١١٦ طبعة ١٣٤٨ هـ ما نصه بالحرف : « قالت عائشة خرج النبي (ص) غداً وعليه مرط مرحل - برد من

برود اليمن - من شعر أسود ، فجاء الحسن بن علي فأدخله ثم جاء الحسين فدخل معه ثم جاءت فاطمة فأدخلها ثم جاء علي فأدخله ثم قال : وإنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً . ومثله سنداً ودلالة ما رواه الترمذي في صحيحه والإمام أحمد في مسنده وغيرهما من أئمة الحديث من أهل السنة .

وفي تفسير الطبري عن أبي سعيد الخدري الصحابي الجليل وأم سلمة زوجة الرسول (ص) : « قالت : لما نزلت آية وإنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت دعا رسول الله (ص) علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً ، ووضع عليهم كساء وقال : اللهم هؤلاء أهل بيتي اللهم أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً . قالت أم سلمة : أأست' منهم ؟ قال : أنت إلى خير . » ومثله في تفسير البحر المحيط للأندلسي والتسهيل للحافظ والدر المنثور للسيوطي وغيرها من التفاسير .

وفي ج ١ ص ٨٨ نقلنا ما قاله محيي الدين بن عربي حول هذه الآية في الجزء الأول والثاني من الفتوحات المكية ، وننقل الآن ما قاله عن أهل البيت في الجزء الرابع ص ١٣٩ طبعة دار الكتب العربية الكبرى بمصر ، قال : « ان النبي (ص) وأهل بيته على السواء في مودتنا فيهم ، فنكره أهل بيته فقد كرهه النبي (ص) ، فإنه واحد من أهل بيته ، فنحنهم فقد خان رسول الله (ص) . »

(واذكرون ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة ان الله كان لطيفاً خبيراً) . المراد بالحكمة هنا السنة النبوية لاقرانها بكتاب الله وآياته ، والمعنى أشكرن بإنساء النبي لإنعام الله عليكن حيث جعلكن في بيوت تسمعن فيها تلاوة كتاب الله وسنة نبيه ، وهي نور للعقول ، وريح للقلوب .

وتسأل : ان سياق الآيات يدل على ان المراد بآية التطهير نساء النبي (ص) ، فكيف أخرجهن عنها من نقلت عنهم من المفسرين والمحدثين ؟

الجواب أولاً : ان صاحب تفسير المنار نقل عن أستاذه الشيخ محمد عبده في ج ٢ ص ٤٥١ طبعة ثانية : « ان من عادة القرآن أن ينتقل بالإنسان من شأن إلى شأن آخر ، ثم يعود الى مباحث المقصد الواحد المرة بعد المرة . » وقال الإمام جعفر الصادق (ع) : ان الآية من القرآن يكون أولها في شيء ، وآخرها في شيء آخر .. وعلى هذا فلا يصح الاعتماد على دلالة السياق لأي الذكر الحكيم كقاعدة كلية .

سورة الأحزاب

ثانياً : لو سلمنا - جدلاً - بصحة الاعتماد على دلالة السياق للآيات فإن قوله تعالى : « ليزهد عنكم .. ويظهركم » بضمير المذكر دون ضمير المؤنث مونس صريح على اخراجهم من الآية . وليس من شك ان دلالة النص مقدمة على دلالة السياق لأنها أقوى وأظهر .

ثالثاً : ان المفسرين والمحدثين الذين ذكرناهم قد اعتمدوا في اخراجهم على الحديث الصحيح عن الرسول الأعظم (ص) ، وقد اتفقت كلمة المسلمين على ان السنة النبوية تفسر ويبان لكتاب الله .

والحافظون لحدود الله والحافظات الآية ٣٥ :

إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ
وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ
وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّامِينَ وَالصَّامِيَّاتِ وَالْحَافِظِينَ وَالْحَافِظَاتِ
وَالذَّاكِرِينَ وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا *

المعنى :

الاسلام اقرار لله بالوحدانية ، ولمحمد بالرسالة ، والايمان اقرار باللسان وعقد في الجنان وعمل بالأركان ، وتدل الآية ١٤ من سورة الحجرات على الفرق بين الاسلام والايمان : « قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الايمان في قلوبكم » . والمراد بالقنوت هنا القيام بالطاعة والدوام عليها ، وبالصدق الاخلاص ، وبالصبر تحمّل الصعاب والشدائد من أجل الحق ونصرته ،

وبالحشوع التواضع ، وبالتصدق الاتفاق في سبيل الله ، والصيام معلوم ، وكذلك حفظ الفرج عن الحرام ، أما ذكر الله كثيراً فهو كتابة عن المواظبة على الصلوات الخمس .. ومن جمع هذه الصفات فله عند الله مقام كريم ، وأجر عظيم ذكراً كان أم أنثى . أنظر ج ١ ص ٣٤٣ و ج ٢ ص ٤٤٦ فقرة « بين الرجل والمرأة » .

قصة زينب بنت جحش الآية ٢٦ - ٤٠ :

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا * وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا * مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا * الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا * مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا *

اللغة :

قال أبو حيان الأندلسي : الخيرة مصدر من تخير على غير قياس كالطيرة من تطير . والوטר الحاجة . والمراد بالخرج هنا البأس . وقدراً مقدوراً أي قضاء مقضياً .

الإعراب :

قال سبحانه : « لهم الخيرة من أمرهم » ولم يقل لها لأن كلاً من مؤمن ومؤمنة وقع نكرة في سياق النفي ، وهي تفيد العموم . والمصدر من أن تخشاه مجرور بباء محذوفة أي أحق بالخشية . وسنة منصوب على المصدرية أي سن الله سنة . والذين يلقون صفة للذين خلوا ، والمراد بهم الأنبياء السابقون ، وجملة وكان أمر الله معترضة . وحسبياً تمييز . ورسول الله خبر كان محذوفة أي ولكن كان محمد رسول الله .

هل انتهى النبي زينب بنت جحش ؟

كثر الكلام حول هذه الآيات من أنصار الاسلام وأعدائه .. طعن هؤلاء بعفة الرسول ونزاهته ، وقالوا : انتهى زينب بنت جحش الأسدية ابنة عمته أمة ، ومال إليها ، وهي زوجة مولاه زيد بن حارثة ، وأخفى ذلك خوفاً من الناس لا خوفاً من الله ، وتشبهاً بقوله تعالى : « وتحفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه » . ورد عليهم أنصار الاسلام بالحق والمنطق السليم ، وإن كان البعض منهم سلك في التأويل مسلكاً يضعه موضع التهمة بالدفاع عن دينه وعقيدته .. ونحن كأبي مسلم يؤمن بعصمة نبيه ، ويذب عنها بدافع من دينه وعقيدته .. ولكن مع ذلك سنقف من هذه الآيات ونفسرها موقفاً محايداً ، فلترم فيه بظاهر اللفظ ، لا نؤول ولا نخرج عن دلالة الآيات ، وندع الحكم للقارئ المنصف .. وقبل أن نشرع بالتفسير نعهد بما يلي :

كان زيد بن حارثة عبداً مملوكاً لرسول الله (ص) .. وفي ذات يوم جاء أبوه

إلى الرسول ، وطلب أن يعتق ابنه أو يبيعه له بأي ثمن شاء ، فأعتقه نبي الرحمة لوجه الله وخيّرته بين البقاء معه والذهاب مع أبيه ، فآثر زيد النبي على أبيه ، وعندئذ قال أبوه حارثة: يا معشر قريش اشهدوا انه ليس ابني . فقال النبي (ص): اشهدوا انه ابني .. فظن الناس ان النبي قد تبني زيداً ، ودعوه بعد ذلك بزيد ابن محمد .

وكان العرب قبل الاسلام يحجرون أحكام الابن الحقيقي على الابن الدعي حتى في استحقاق الارث ، وحرمة النسب .. ومن المتفق عليه عند العقلاء الاخبار منهم والأشرار ان للعادات الموروثة عن الآباء والأجداد هي بمنزلة القانون والسديانة لا يجوز لأحد أن يخالفها كائناً من كان .

وشاءت حكمته تعالى أن يلغي هذه العادة ، وينهى عنها بالفعل لا بالقول ، وذلك بأن يتزوج زيد بن حارثة الذي كان بالأمس عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء ، أن يتزوج من امرأة لها شأنها نسباً وجمالاً ، ولا يطمع في أمثالها إلا السادة الأشراف ، وهي زينب بنت جحش ابنة أئمة بنت عبد المطلب جد الرسول الأعظم (ص) ، وأن يقضي منها زيد حاجته ، ثم يطلقها ، وبعد انقضاء عدتها يتزوجها رسول الله (ص) ، لأن ذلك أقوى وأبلغ في النهي عن هذه العادة من جهة ، وكيلاً بأنف الأشراف من الزواج بمطلقات الموالى والمستضعفين من جهة ثانية ، ومع هذا وذاك أن لا تأنف كريمة النسب أو وليها من الزواج بمن هو دونها حسباً ونسباً .. قضى الله بذلك وقدره كما نص عليه سبحانه بقوله : « وكان أمر الله مفعولاً » .. وكان أمر الله قدراً مقدوراً » . وأوحى سبحانه الى نبيه الكريم بهذا القضاء والقدر ، وأمره أن يزوج زيداً من زينب ، وما كان لنبي إذا قضى الله أمراً أن تكون له الخيرة من أمره .

فتقدم النبي الى زينب ، وخطبها لمولاه زيد ، وأخفى في نفسه ما أوحى الله به اليه من أنه قد قضى وقدر أن يتزوجها هو بعد زيد ، أخفى النبي هذا الوحي لأنه ثقیل على الناس لبعده عن طباعهم وتقاليدهم ، والى هذا الاخفاء أشار سبحانه بقوله : « وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه » .. خطب النبي (ص) ابنة عمته لمولاه زيد ، فأبى أخوها عبداً أن يتزوج أخته من

سورة الأحزاب

غير كفؤ ، وشاركته هي هذا الإباء ، فنزل قوله تعالى : « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم » . فخصمت زينب وأخوها لقضاء الله ورسوله ، وتم الزواج .

وبعد حين من الدهر فترت العلاقة بين الزوجين ، فذهب زيد الى رسول الله يريد طلاق زينب ، فنهاه وأمره بالصبر ، ولكن أمر الله كان مفعولاً ، فتم الطلاق ، وبعد العدة تزوجها الرسول ، وتحطم نظام التبني وزالت آثاره .. ومن غير الرسول الأعظم يتحدثى المجتمع في عاداته وتقاليده التي نشأ عليها وورثها أباً عن جد .. ! اذن ، مسألة زواج النبي (ص) من زينب ليست مسألة شهوة وغرام وانما هي مسألة أمر الله وقضائه وقدره بنص الآيات الواضحات التي حاول المفترون تحريفها وتأويلها على أهوائهم .. وهذا هو النص ينطق بصراحة : « وكان أمر الله مفعولاً » . « وكان أمر الله قدراً مقدوراً » . « وتحضي في نفسك ما الله مبديه » . والمراد بالأمر المفعول والمقدور وبالذي يعلنه الله ويبديه شيء واحد ، وهو زواج النبي من زينب الذي أعلنه سبحانه وأبداه صراحة بقوله : «زوجناكها» . ولو كان النبي قد أضمر شهوتها في نفسه كما يقول المفترون لأظهر الله ذلك وأبداه لقوله : « ما الله مبديه » ولا شيء في الآيات يشير من قريب أو بعيد الى الشهوة التي ابتدئها المتقولون .. هذا ، الى ان زينب كانت في قبضة النبي (ص) وأطوع اليه من بنانه ، ولو كانت المسألة مسألة شهوة وغرام لما تزوجها من مولاه زيد ليقضي منها وطره ، ثم يتزوجها من بعده .. حاشا سيد الكونين من الشهوات والأهواء ، وتعالى عنها علواً كبيراً .

وبعد ، فإن هذه الآيات قد تواردت بأجمعها على موضوع واحد ، فهي متشابكة متأسكة ، ولا يمكن بحال تجزئتها والأخذ ببعضها دون بعض ، فلما أن تؤخذ جملة ، وإما أن تترك جملة ، ومن أخذ بقوله تعالى : « وتحضي الناس والله أحق أن تحشاه » ككلام مستقل ، وتجاهل قوله : « وكان أمر الله قدراً مقدوراً » وقوله : « ما الله مبديه » فهو من الذين زاغ بهم الباطل عن جادة الحق عناداً له ولأهله .. وقد وضع بهذا التمهيد معنى الآيات ، وعُرف المقصود منها ، لذلك نمر بها مرأً سريعاً نشير فيه إلى تطبيق الآيات على مراحل القصة من الزواج الأول إلى الزواج الثاني .

المعنى :

(وما كان للمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم) . نزلت هذه الآية حين خطب النبي زينب بنت جحش لمولاه زيد ابن حارثة ، وأنفت من الاقتران به هي وأخوها عبدالله لأن زيدا ليس لها بكفؤ ، والمعنى ان هذا الزواج بأمر الله ورسوله ، ولا ارادة لأحد من المؤمنين مع الله والرسول ، ومن أبى فهو من الضالين المهالكين .. وعندئذ نزلت زينب وأخوها على حكم الله والرسول ، وتم الزواج .

(وإذا تقول للنبي أنعم الله عليه وأنعمت عليه) وهو زيد بن حارثة ، أنعم الله عليه بالاسلام وصحبة الرسول ، وأنعم الرسول عليه بالعتق (أمسك عليك زوجك واتق الله) . بعد حين من الزواج فترت العلاقة الزوجية بين زينب وزيد ، وقال للنبي (ص) : أريد طلاقها . فأوصاه بامساكها وبتقوى الله في جميع أحواله .. ولكن النبي (ص) كان على يقين بأن زيدا سيطلق زينب ، وانه سيتزوجها من بعده ، إلا انه لم يبد ذلك خوفاً من لوم اللاتمين ، فستره بقوله لزيد : أمسك عليك زوجك ، وعلى هذا عاتبه الله بقوله :

(وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه) . المراد بـ (ما الله مبديه) زواج النبي من زينب بعد طلاقها من زيد ، وقد أبداه الله في الحال وفي نفس الآية ، أبداه وأظهره بقوله : (فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها) . هذا ما أخفاه محمد وأبداه الله فأين هي الشهوة التي أخفاها محمد في نفسه ؟ ولماذا سكنت الله بعد أن قال : « ما الله مبديه » ؟ .. أخفى النبي (ص) علمه بأن زيدا سيطلق زينب ، وانها ستكون حليلة له بعد الطلاق ، وعلى هذا الاخفاء عاتبه الله وقال له تلويحاً لا تصريحاً : من كان له مقامك عند الله فلا يهتم بلوم اللاتمين وأقوال المتقولين .

(فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً وكان أمر الله مفعولاً) . تزوج زيد من زينب وقضى منها حاجته ، ثم طلقها وبعد العدة تزوجها الرسول (ص) . وكان

سورة الأحزاب

زواج النبي منها بياناً من الله للمؤمنين وللناس أجمعين لرفع الإثم عنهم إذا تزوجوا حلالاً أدعائهم الذين قضوا حاجتهم منهم (ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له) . لقد أمر سبحانه نبيه الكريم أن يتزوج حليمة ابنة الدعي ليظل بذلك عادة الجاهلية ، فاستجاب النبي لأمر الله ، وما على النبي ولا على غيره من غضاضة في زواج حليمة ابن النبي وإن عابه الناس ما دام الله قد أحل ذلك .

(سنة الله في الذين خلوا من قبل وكان أمر الله قدرأ مقدوراً الذين يلبغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله وكفى بالله حسيباً) . المراد بالذين خلوا وبالذين يلبغون رسالات الله - الأنبياء السابقون ، والمعنى ما من نبي من الأنبياء إلا وقد أرسله الله داعياً الى الحق وناهياً عن الباطل، ومنه العادات والتقاليد التي ما أنزل الله بها من سلطان ، وقد بلغ الرسول رسالات ربه بأمانة وإخلاص، وما هادن ولا داهن ، ولم يخش إلا الله ، وتحمل من أجل ذلك الكثير من العناء والبلاء ، ولك يا محمد فيمن مضى من اخوانك الأنبياء أسوة وعزاء . وعلى الله وحده حساب المكذبين والمعاندين .

(ما كان محمد أباً أحد من رجالكم) بالنسب والولادة كي نحرم مطلقة زيد ابن حارثة عليه .. وبالنسبة : ولد لرسول الله (ص) أربعة ذكور ثلاثة من خديجة ، وهم القاسم والطيب والطاهر ، وقيل : ولدان لأن الطاهر هو الطيب . وواحد من مارية القبطية وهو إبراهيم ، وماتوا جميعاً في سن الطفولة ، أما الحسن والحسين فهما ولدا ابنته فاطمة من علي (ع) ، ولكن الرسول قد اعتبرهما ولدين له حيث قال : ابناي هذان إمامان قاما أو قعدا ، وقال أيضاً : كل بني بنتي ينتسبون إلى أبيهم إلا أولاد فاطمة فلاني أنا أبوهم . انظر ج ٣ ص ٢١٩ .

(ولكن رسول الله) والرسول غير الأب ، وإن كان أشد حرصاً على المؤمنين وأكثر رحمة بهم من آباؤهم وأمهاتهم (وخاتم النبيين) فلا نبي بعد محمد (ص)، ولا شريعة بعد شريعة الاسلام (وكان الله بكل شيء عليماً) ومنه علمه تعالى حيث يجعل رسالته ، وحيث يختمها بمحمد (ص) .

لماذا خُتمت النبوة بمحمد ؟

اتفق المسلمون قولاً واحداً على أنه لا وحي إلى أحد بعد محمد (ص)، ومن أنكر ذلك فما هو بمسلم، ومن ادعى النبوة بعد محمد وجب قتله، ومن طلب الدليل على نبوة هذا الدعي محتملاً الصدق في قوله فهو كافر، وفي تفسير اسماعيل حقي «روح البيان»: «لو جاء بعد رسول الله (ص) نبي لجاء علي بن أبي طالب لأنه كان منه بمنزلة هرون من موسى».

وتسأل: لماذا خُتمت النبوة بمحمد ؟

الجواب: ان الغاية الأولى والأخيرة من بعثة النبي هي أن يبلغ قوله تعالى إلى عباده، وما من شيء يريد الله سبحانه أن يبلغه إلى عباده إلا وهو موجود في القرآن الكريم، قال تعالى: «ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء» - ٨٩ النحل. وقال: «ما فرطنا في الكتاب من شيء» - ٣٨ الانعام. أي من شيء يتصل بوظيفة الأنبياء واختصاصهم في هداية الخلق وارشادهم الى مصالحهم التي تضمن لهم سعادة الدارين.

ولا وسيلة لإثبات هذه الحقيقة إلا بالتجربة التي لا تقبل الشك والجدال، ونعني بها أن يدرس أهل الاختصاص القرآن دراسة علمية شاملة من ألفه إلى يائه، ثم يقارنوا بينه وبين غيره من كتب الأديان.. ونحن على يقين بأنهم ينتهون من ذلك إلى أمرين: الأول أن القرآن ببلاغته وعقيدته وشريعته يفوق جميع كتب الأديان. الثاني أنهم يجدون في القرآن جميع الأصول والمبادئ التي تتجارب مع حاجات الناس ومصالحهم وتقدمهم إلى قيام الساعة. فما من نهضة علمية أو ثورة تحريرية إلا ويدعو إليها القرآن ويباركها، وما من تشريع يحتاج إليه الناس في دور من أدوار التاريخ إلا ويستطيع أهل العلم والاجتهاد أن يستخرجوه من أحد أصول القرآن ومبادئه، وقد أذن الله ورسوله لمن له الأهلية والكفاءة، أن يُفَرِّعَ على أصول القرآن، ويستخرج منها الأحكام التي فيها خير وصلاح للناس بجهة من الجهات، ومعنى هذا أن حكم المجتهد العادل هو حكم القرآن والرسول، ولذا جاء في بعض الروايات أن الراد على حكمه كالراد على الله. ومعنى هذا أيضاً أن النبي موجود

سورة الأحزاب

بوجود القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.. وقد أجاد ابن عربي في قوله : « من حفظ القرآن فقد أدرج النبوة بين جنبيه » . طبعاً على شرط التدبر والإيمان الخالص .

وبعد ، فإن محمداً بشر يوحى اليه كنوح وإبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم من الأنبياء ، ولكن الله سبحانه قد خص محمداً بما لم يخص به أحداً من الأنبياء ، مع العلم بأنه تعالى قد منح كل نبي جميع الفضائل ، لأن النبوة أم الفضائل كلها .. ولكن للفضل مراتب ، فهناك فاضل وأفضل ، وكامل وأكمل تماماً مثل عالم وأعلم ، وكريم وأكرم : « ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض - ٥٥ الإسراء » . وقد خص الله محمداً (ص) بأسمى المراتب وأكمل صفات الكمال بحيث لا شيء فوقها إلا الله وصفاته الله .. ومن ذلك إكمال الوحي الذي أنزل اليه ، إكماله من جميع الجهات ، والدليل هذا القرآن الذي فيه تبيان كل شيء مما يدخل في وظيفة رسل الله ، فأين هي كتب الأنبياء ؟ فليات الجاحدون بواحد منها فيه تبيان كل شيء ، أو يجزأ على القول : إنه ما فرط فيه من شيء .. وإلى هذا أشار خاتم النبيين وسيد المرسلين حيث قال : « ان مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بنياناً فأحسنه وجملّه إلا موضع لبنة ، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة ؟ فأنا اللبنة ، وأنا خاتم النبيين » .

ونختم الجواب بما قلناه في كتاب « إمامة علي والعقل » : « وإذا قال قائل : لماذا كان محمد (ص) خاتم الأنبياء ؟ أجيبناه بأن محمداً ودين محمد قد استوفيا جميع صفات الكمال ، وبلغا الغاية منها والنهاية ، تماماً كما بلغت الشمس الحد الأعلى من النور ، فلا كوكب ولا كهرباء يمتلئ الكون بنورها بعد كوكب الشمس .. كذلك لا نبي يأتي بمجديد لخبر الانسانية بعد محمد (ص) » . ويتصل بهذا الموضوع ما كتبناه بعنوان « الدين والدعوة إلى الحياة » في ج ٣ ص ٤٦٥ وعند تفسير الآية ٩ من سورة الإسراء ج ٥ ص ٢٣ والآية ٣٠ من سورة الروم .

هو الذي يصلي عليكم الآية ٤١ - ٤٩ :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً
وَأَصِيلًا * هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى
النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا * تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ
أَجْرًا كَرِيمًا * يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَدَاعِيًا
إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا * وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّهُمْ مِّنَ اللَّهِ فَضْلًا
كَبِيرًا * وَلَا تَطِيعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ
وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ
طَلَقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَنْ يَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَةٍ تَعْتَدُونَهَا
فَتَمْتَعُوهُنَّ وَسَرَّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا *

اللمعة :

الصلاة من الله المغفرة والرحمة ، والمراد بالنكاح هنا عقد الزواج ، وبالمس
الدخول ، وبالتمتع العطية .

الإعراب :

وملائكته عطف على الضمير المستتر في يصلي . وشاهداً حال . ومن عدة
(من) زائدة إعراباً وعدة مبتدأ مؤخر ، ولكم خبر مقدم . وجملة تعتدونها
صفة لعدة .

المعنى :

(يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً وسبحوه بكرة وأصيلاً) . هذا أمر بالمواظبة على الصلوات الخمس ، وذكر الله أحسن الذكر في سائر الأحوال (هو الذي يصلي عليكم وملائكته) . الصلاة من الله على المؤمن معناها المغفرة والرحمة ، ومن غيره معناها الدعاء بالمغفرة والرحمة ، وعلى هذا فلكل انسان أن يصلي ويسلم على كل من آمن وعمل صالحاً . وتجدد الاشارة إلى ان السنة إذا ذكروا صحابياً جليلاً أو إماماً عظيماً من أئمة المسلمين قالوا - في الغالب - : رضي الله عنه ، أما الشيعة فيقولون : عليه السلام ، ومصدر القولين واحد ، وهو القرآن، قال تعالى : « رضي الله عنهم ورضوا عنه - ١٢٠ المائدة » . وقال : « سلام على آل يس - ١٣٠ الصافات » . وقال أيضاً : « هو الذي يصلي عليكم وملائكته » . وفي تفسير روح البيان « قال بنو اسرائيل لموسى : أبصلي ربنا ؟ فكبر فلك عليه » . وليس هذا يبعد على اسرائيل .. وبالمخصوص إذا أمرت بالصلاة .

(ليخرجكم من الظلمات إلى النور) . المراد بالظلمات هنا ظلمات الجحيم ، وبالنور نور النعيم أي ان الله وملائكته يصلون على المؤمنين ليعبدوا عن عذاب السعير ، ويدخلوا في روح وريحان . وقبل : المراد بالظلمات ظلمات الكفر ، وبالنور نور الايمان . ولا يتفق هذا مع قوله تعالى : (وكان بالمؤمنين رحيماً) وأيضاً لا يصلي الله وملائكته على الكافرين ليخرجهم إلى الايمان .

(تحيتهم يوم يلقونه سلام وأعد لهم أجراً كريماً) . تقدم في الآية ١٠ من سورة يونس ج ٤ ص ١٣٧ والآية ٢٣ من سورة ابراهيم .

(يا أيها النبي انا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله باذنه) . أرسل الله محمداً (ص) داعياً إلى الحق ، وزوده بالحجج الكافية الوافية مبشراً من أطاع بالجنة ، ومنذراً من عصي بعذاب اليم .. وسيشهد غداً على هذا بأنه أعرض وتولى، ولذلك بأنه سمع وأطاع . وفي نهج البلاغة : أرسله داعياً إلى الحق وشاهداً على الخلق ، فبلغ رسالات ربه غير وان ولا مقصر، وجاهد في الله أعداءه غير

واهن ولا معذّر - أي لم يدع لأحد عنراً - امام من اتقى ، وبصر من اهتدى (وسراجاً منيراً) يهتدي به التائبون الى شاطئ السلام والأمان .
(ولا تطع الكافرين والمنافقين) تقدم بالحرف في أول هذه السورة مع التفسير والسؤال عن وجه النهي وجوابه (ودع أذاهم) . النبي (ص) لم يؤذهم ، ولكن المشركين هم الذين آذوه حتى قال : ما أؤذي نبي بمثل ما أؤذيت . وعليه يكون المعنى أعرض عنهم ، ولا تهتم بجهلهم وسفههم (وتوكل على الله وكفى بالله وكيلًا) . في نهج البلاغة : من توكل على الله كفاه ، ومن سأله أعطاه ، ومن أفرضه قضاه ، ومن شكره جزاه .

(يا أيها الذين آمنوا اذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن فما لكم عليهن من عدة تعتدونها فتموهن وسرحوهن سراحاً جميلاً) . المتعة بضم الميم وكسرهما اسم للتمتع في اللغة ، وفي الشرع هي عبارة عن منحة يقدمها المطلق لطلفته بحسب حاله يسراً وعسراً .. ولا عدة للمطلقة قبل الدخول ، وأيضاً لا تجب لها المتعة على المطلق ان استحقت عليه نصف المهر ، وإلا وجبت المتعة . انظر ج ١ ص ٣٦٦ .

يا ايها النبي انا احللنا لك ازواجك الآتية ٥٠ - ٥٢ :

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْنَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالَكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِن وَهَبْتَ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً * تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ

وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمَنْ ابْتَغَيْتَ يَمُنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ
ذَلِكَ أَذْنَىٰ أَنْ تَقْرَءَ أَعْيُنُهُمْ وَلَا يَحْزَنَ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ
يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا * لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ
وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بَيْنَ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ
يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا *

اللغة :

أجورهن مهورهن . وما ملكت يمينك سهمك من الغنائم . وترجي تبعد وتعزل .
وتؤوي تضم .

الإعراب :

وامرأة عطف على أزواجك أي وأحللنا لك امرأة . وخالصة حال من الضمير
المستتر بوهبت . ولكيلا متعلق بخالصة . والمصدر من ان تقر مجرور بلى محذوفه
والمصدر المجرور متعلق بأدنى . وكلهن تأكيد لتون يرضين .

المعنى :

ذكر سبحانه في هذه الآيات أنواع النساء التي تحل للنبي (ص) ، وترك له
الخيار في أن يهجر من يشاء منهن ، ويعاشر من يشاء ، ثم حرم عليه أن يزيد
على اللاتي عنده أو يبدل امرأة مكان امرأة ، وكان في عصمته حينذاك تسع ،
والتفصيل فيما يلي :

١ - (يا أيها النبي انا أحللتنا لك أزواجك اللاتي آتيت أجورهن) . المراد بالأجور هنا المهور ، والإيتاء يكون بأداء المهر ، ويكون بالالتزام به في الذمة ، وتوميء الآية إلى أن للنبي أن يتزوج بأي عدد شاء ، وهذا من خصائصه .
وتسأل : ان عقد الزواج يصح حتى ولو لم يذكر فيه المهر ، فلماذا قيد سبحانه التحليل بالمهر ؟

الجواب : ان القيد هنا هو الالتزام بأداء ما تستحقه الزوجة من المهر ، لا بذكر المهر في متن العقد ، والتي لم يُسم لها مهر في العقد تستحق مهر أمثالها ان دخل بها الزوج .. وكان مهر نساء النبي (ص) خمسمئة درهم ، وقُدّر بـ ٢٥ ليرة ذهبية .

٢ - (وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك) . من الفياء السبايا اللاتي كان يغنمها المسلمون بالحرب مع المشركين ، وتسمى السراي ، وقد أباحها الله للنبي الكريم ولأتمته بغير عدد .

٣ - (وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتي هاجرن معك) . وتسأل : ان بنات الأعمام والعات والأخوال والخالات يدخلن في النوع الأول من النساء ، فما هو الغرض من ذكرهن بالخصوص ؟

الجواب : غير بعيد أن يكون ذكرهن بالخصوص للتنبيه الى ان الأليق بمقام الرسول أن يتزوج من القرشيات اللاتي هاجرن من دار الكفر الى دار الاسلام ، أما المؤمنات منهن غير المهاجرات فالأولى ترك الزواج بهن .

سؤال ثان : ذكر أهل السيرة ان للنبي (ص) عشرة أعمام ، وهم : العباس وحزرة وعبدالله وأبو طالب والزبير والحارث وحجلا والمقوم وضرار وأبو لب ، وست عمات ، ومن صفية وأم حكيم البيضاء وعاتكة وأميمة وأروى وبرة (السيرة النبوية لابن هشام) . وقالوا : ان النبي (ص) لم يكن له خال ولا خالسة لأن أمه آمنة بنت وهب (ع) لا أخ لها ولا أخت . (تفسير روح البيان) . اذن ، ما هو الوجه لقوله تعالى : « وبنات خالك وبنات خالاتك » ؟

الجواب : المراد بأخوال النبي (ص) وخالاته عشيرة أمه بنو زهرة ، وكانوا يقولون : نحن أخوال النبي .

٤ - (وامرأة مؤمنة ان وهبت نفسها للنبي ان أراد النبي أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين) . من خصائص النبي (ص) ان يتزوج امرأة - ان شاء - وهبت له نفسها بلا مهر شريطة أن تكون مؤمنة .. أجل ، يجوز لغيره أن يتزوج بمهر ، ثم تهب الزوجة مهرها كما يهب أي انسان لمن يشاء ما يشاء من المال .
(قد علمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم وما ملكت أيمانهم لكيلا يكون عليك حرج وكان الله غفوراً رحيماً) . حدد سبحانه للمؤمنين عدد الأزواج الأحرار ، واعتبر شروطاً خاصة في نكاح الجوارى ، وحرّم عليهم من وهبت لهم نفسها بلا مهر ، وأطلق ذلك للرسول لكيلا يكون عليه حرج فيما أراد من النساء ، وللدلالة أيضاً على عظيم منزلته ومكافأته له على جهوده، والله سبحانه أعلم بما يصلح الناس ، وغفور للمؤمنين ، ورحيم بهم .

(ترجي من تشاء منهم وتؤوي إليك من تشاء) . في الآية السابقة أطلق سبحانه لنبيه الكريم الحرية في عدد الزوجات ، وفي هذه الآية جعل له الخيار في هجر من يشاء ومعاشرة من أراد منهم (ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك) . وله أيضاً أن يعود إلى معاشرة من هجرها ، ويهجر من عاشرها ، وبتعبير بعض المتفاسحين له أن يقلب المقدم مؤخراً ، والمؤخر مقدماً .

(ذلك أدنى ان تقر أعينهن ولا يحزنن ويرضين بما آتيتن كلهن) . ذلك إشارة الى تفويض الأمر الى مشيئة النبي (ص) ، والمعنى أنهن متى علمن ان الأمر اليك لا اليهن في التسوية بينهن رضيت كل واحدة بما تعطيهن من المعاشرة قليلاً كان أو كثيراً لعلمها بأن ذلك تفضل منك ، وليس بواجب عليك .. ومع هذا فقد كان النبي يساوي بين أزواجه (والله يعلم ما في قلوبكم) من الميل الى بعض الزوجات دون بعض ، والله سبحانه لا يؤاخذ على ما في القلوب من حب أو بغض ، وانما يؤاخذ على العمل الذي لا يرتضيه ، وهذا المعنى هو المراد بقوله : (وكان الله عليمًا حكيمًا) .

(لا يحل لك النساء من بعد ، ولا ان تبديل بين من أزواج ولو أعجبك حسنهن) . ذكر المفسرون لهذه الآية ثلاثة معانٍ أقربها الى دلالة الظاهر ان الله سبحانه بعد أن أباح للنبي أنواع النساء التي أشار إليها في الآية السابقة أوجب عليه

الجزء الثاني والعشرون

في هذه الآية الاكتفاء بمن في عصمته فعلاً ، وكنّ تسعاً ، وحرّم عليه أن يطلق واحدة منهن ويتزوج مكانها أخرى حتى ولو أعجبته ، وقوله تعالى : «ولو أعجبك حسنهن » يدل على ان للرجل أن ينظر الى من يريد زواجها ، وقد أفنى بذلك الفقهاء استناداً الى هذه الآية وانى أحاديث عن الرسول الأعظم (ص) . (الا ما ملكت يمينك) مما أفاء الله عليك من المسيبات (وكان الله على كل شيء رقيباً) حتى على السرائر والضمائر : « وهو معكم أينما كنتم - الحديد » .

فاذا طعمتم فانتشروا الآية ٥٣ - ٥٥ :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرٍ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تُنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا * إِنْ تُبْذُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفَوْهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا * لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءَ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءَ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا *

غير ناظرين أي غير منتظرين . وإنه بالفصر ، ويجوز فيه المد ، نقول : إنه وإنؤه ، والمراد به هنا الطعام الذي يوضع في الإناء بعد نضجه . وطعمتم أكلتم . فانتشروا انصرفوا . ولا مستأنسين لحديث أي لا تمكثوا بعد الطعام للسر والحديث والمراد بالمتاع هنا ما في البيت من أثاث وأدوات .

الإعراب :

المصدر من أن يؤذن لكم في موضع الحال أي إلا مأذوناً لكم . وإلى طعام متعلق بيؤذن . وغير ناظرين حال من فاعل تدخلوا . ولا مستأنسين عطف على غير ناظرين أي غير ناظرين ولا مستأنسين . ان ذلكم كان يؤذي النبي « ذلكم » إشارة الى المكوث . وذلكم أظهر ، إشارة إلى سؤال المتاع من وراء حجاب . وان ذلكم كان عند الله عظيماً ، « ذلكم » إشارة الى نكاح أزواج النبي من بعده .

المعنى :

(يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم الى طعام غير ناظرين إناه ولكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث) . أي لا تمكثوا بعد الطعام إطلاقاً ، لا للاستئناس بالحديث ولا لغیره ، وإنما ذكر سبحانه الاستئناس بالحديث لأن المكوث في الغالب يكون لهذه الغاية .. ويومئء ظاهر الآية إلى ان بعض الصحابة كان يدخل بيوت النبي (ص) من غير اذن جرياً على عادة الجاهلية ، وأنه كان رأى طعاماً يوقد عليه في بيت النبي ينتظره للأكل ، وأنه كان يجلس بعد الطعام للحديث والسر .. وليس من شك ان هذا النوع من التطفل وسوء الأدب يؤذي كل انسان نبياً كان أو غير نسبي ، ومن أجل هذا أدب النبي الصحابة وغيرهم بأن لا يدخلوا أي بيت من البيوت إلا بعد الإذن من أهله - وتقدمت الإشارة الى ذلك في الآية ٢٨ من سورة النور -

وأن لا يقصدوه من أجل الطعام إلا بعد الدعوة على أن يأتوه بعد إعداد الطعام ، ولا يتخلفوا بعد الانتهاء منه .. ولا يختص ذلك ببيت النبي وحده ، وإنما ذكره سبحانه لأنه السبب الموجب لتزول الآية ، وقلنا أكثر من مرة : ان سبب التزول لا يخص عموم الآية .

(ان ذلكم كان يؤذي النبي فيستحيي منكم والله لا يستحيي من الحق) . المراد بالحق الذي استحيى منه النبي (ص) حقه الشخصي ، وهو إخراج الثقلاء والمطفلين من بيته ، سكت النبي عنه حياء منهم ، فنبه سبحانه الى ان بقاءهم بعد الطعام يؤذي النبي ، وكذلك دخولهم على بيته من غير اذن ، وفي الحديث : الحياء شعبة من الإيمان ، ومن لا حياء له لا إيمان له . وفي حديث آخر : لم يبق من أمثال الأنبياء إلا قول الناس: إذا لم تستح فاصنع ما شئت . وقد جاء في وصف النبي : انه كان أشد حياء من العنراء في خدرها ، وفي نهج البلاغة : لا إيمان كالحياء والصبر ، وكان العرب يمدحون العظيم بالحياء ، قال الفرزدق في مدح الإمام زين العابدين (ع) :

يُغضي حياء ويغضي من مهابته فلا يكلم إلا حين ينسم

ومن الطريف ما جاء في محاضرات الأدباء للأصفهاني : ان طفلياً عوتب على تطفله ، فقال : لقد تطفل بنو اسرائيل على الله ، ألا تطفل نحن على الناس ؟ .

(وإذا سألتموهن متاعاً فاسألهن من وراء حجاب ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن) . ضمير هـ من يعود لأزواج النبي (ص) ، أما ذكر المتاع فهو من باب المثال ، لا من باب التخصيص به وفقى الحكم عن غيره ، ويدل على ذلك قوله تعالى : « ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن » حيث يشعر بأن الاختلاط وإزالة الحجاب بين النساء والرجال يؤدي الى الفساد والفتنة ، ومعنى هذا ان الاختلاط محرم ، أو ان الأولى تركه - على الأقل - وههنا يتبين معنا ان الاختلاط سبب لاثارة الغريزة الجنسية ، وليس سبباً لتهديبها وكبح جماحها كما يدعي من يقول : قال الله وأقول ! « ومن أصدق من الله حديثاً » .

(وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً)

سورة الأحزاب

ان ذلك كان عند الله عظيماً (. هذا الحكم من خصائص الرسول الأعظم (ص) وحده لأن أزواجه بمنزلة الأمهات للمؤمنين . وفي تفسير الرازي ، وروح البيان لاسماعيل حقي : « ان هذه الآية نزلت حين قال طلحة بن عبيد الله التيمي : لئن مات محمد (ص) لأتزوجن عائشة » .. ويؤيد ذلك قوله تعالى : (ان تبدوا شيئاً أو تخفوه فإن الله كان بكل شيء عليماً) . فإنه تهديد ووعيد لمن أعلن أو أضمر الزواج بنساء النبي (ص) من بعده .

(لا جناح عليهن في آبائهن ولا أبنائهن ولا اخوانهن ولا أبناء اخوانهن ولا أبناء أخواتهن ولا نساتهن ولا ما ملكت أيمانهن واعتقن الله ان الله كان على كل شيء شهيداً) . بعد أن أمر سبحانه الرجال أن يخاطبوا النساء من وراء حجاب حين يسألوهن متاعاً استثنى الآباء والأبناء والاختوة وأبناءهم وأبناء الاخوات والعبيد والنساء لأن المرأة لا يجب عليها أن تحتجب عن مثلها ، وقال سبحانه : (نساتهن) لأن غير المؤمنات يصفن المؤمنات لرجالهن ، وتقدم نظير ذلك في الآية ٣١ من سورة النور ج ٥ ص ٤١٧ .

صلوا عليه وسلموا تسليماً الآية ٥٦ - ٥٨ :

إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا * إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا * وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغْيٍ مَّا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا *

المعنى :

(ان الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا

تسليماً) . صلاة الله على النبي معناها الرضا والرحمة والثناء عليه بكل خير، والصلاة عليه من الملائكة معناها التزكية ، ومن المؤمنين الدعاء بعلو المنزلة . فقد سئل الإمام الرضا (ع) عن معنى صلاة الله والملائكة والمؤمنين على النبي ؟ فقال : الصلاة من الله الرحمة ، ومن الملائكة التزكية، ومن المؤمنين الدعاء .. ولا تنحصر الصلاة على النبي بالله والملائكة والمؤمنين برسالة محمد (ص) ، فكل انسان يعمل بشيء من سنته أو يدرسها أو يستدل بها أو يدونها ، أو يذكر فضيلة من فضائله فقد صلى عليه مؤمناً كان أم غير مؤمن ، أراد ذلك أم لم يرد .

وقال الإمام جعفر الصادق (ع) : ان صلاة الرجل على محمد مثل قوله : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر . يريد الإمام ان ثواب الصلاة على محمد تماماً كثواب النسيح والتحميد والتهليل والتكبير . وعن الرسول الأعظم (ص) انه قال : البخيل حقاً من ذكرت عنده فلم يصل عليّ . اللهم صل على محمد وآل محمد .

كيف نصلي عليك يا رسول الله ؟

في صحيح البخاري ج ٨ باب « الصلاة على محمد » ، وتفسير الطبري والرازي والمراغي وغيرهم من المفسرين ، وفي كتب المحدثين أيضاً : قيل : يا رسول الله كيف نصلي عليك ؟ قال : قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على ابراهيم وعلى آل ابراهيم إنك حميد مجيد ، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على ابراهيم وعلى آل ابراهيم انك حميد مجيد .

وفي تفسير « روح البيان » لاسماعيل حقي : « ينبغي أن يقول المصلي : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد بإعادة كلمة « على » فإن أهل السنة التزموا ادخال « على » على الآل ردأ على الشيعة فإنهم منعوا ذكر « على » بين النبي وآله . ونحن لا نجد أي فرق بين قول من قال : اللهم صل على محمد وآل محمد ، وقول من قال : وعلى آل محمد ، أما حديث : « من فصل بيني وبين آلي لم تنله شفاعتي » فالله أعلم بصحته . وقال الإمام الشافعي :

سورة الأحزاب

يا أهل بيت رسول الله حاكم فرض من الله في القرآن أنزله
كفاكم من عظيم القدر انكم من لا يصلّي عليكم لا صلاة له

(ان الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة وأعد لهم عذاباً مهيناً) . المراد بإيذاء الله تعالى غضبه وتقمته ، والسبب الموجب لغضبه الجحود ونسبة الشريك أو الولد اليه أو معصية حكم من أحكامه ، وإيذاء الرسول يكون بإنكار رسالته أو إهمال سنته ، أما اللعنة من الله فهي الطرد والابعاد من رحمته ، ومن الناس الشتم والدعاء بالسوء ، وفي نهج البلاغة لعن الله الآمرين بالمعروف التاركين له ، والناهين عن المنكر العاملين به .

(والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتاناً وإعماً مبيناً) . بغير ما اكتسبوا أي بغير جناية يستحقون بها الإيذاء ، ويكون الإيذاء بالغيبة والكيد والافتراء وما اليه ، وفي الحديث : « المسلم من سلم الناس من يده ولسانه .. عز المؤمن بكف الأذى عن الناس .. وأذل الناس من أهان الناس » . وقال الإمام علي (ع) : أسوأ الناس حالاً من لم يثق بأحد لسوء ظنه ، ولم يثق به أحد لسوء فعله .

وجوب الحجاب الآية ٥٩ - ٦٢ :

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلاَ يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً * لِّئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لاَ يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلاَّ قَلِيلاً * مَلْعُونِينَ

أَيْنَمَا تُقِفُوا أَخِذُوا وَقْتَكُمْ بِقَلِيلٍ * سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ
وَلَنْ يَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا *

اللغة :

جلايب جمع جلباب ، وفي معناه أقوال ، منها انه رداء يغطي المرأة من رأسها الى قدميها ، ومنها انه الخمار الذي يغطي رأسها ووجهها ، وعلى هذا صاحب مجمع البيان . ويدنين يسدلن . والمرجعون هم الذين يلفقون الأكاذيب ، وينشرون الأباطيل ، ويعرفون اليوم بالذين يشرون الحرب النفسية . والاعراء بالشيء التحريض عليه ، والمراد هنا بنفريتك بهم تأمرك بقتلهم . وثقفوا وجلوا . وخلوا مضوا .

الإعراب :

جملة يدنين مفعول قل . وذلك أدنى مبتدأ وخبر ، والمصدر من ان يعرفن مجرور بمن محذوف . ولنفريتك اللام واقعة في جواب قسم محذوف . ثم لا يجاورونك عطف على لنفريتك . إلا قليلاً صفة لمحذوف أي الا زمناً قليلاً . وملعونين حال من فاعل يجاورونك ، أو منصوب على الذم والشتم أي اشم وأذم . وأينما في محل نصب بثقفوا ، وهي تجزم فعلين الأول ثقفوا والثاني أخذوا . وسنة الله منصوبة على المصدر أي سن الله ذلك سنة في الأمم الماضية .

المعنى :

مرّ معنا آيتان تدلان على وجوب الحجاب على النساء : الأولى قوله تعالى : ولا يبدنين زينتهن إلا لبعولتهن الآية ٣١ من سورة النور ج ٥ ص ٤١٥ . الثانية قوله تعالى : وإذا سألتهم متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب الآية ٥٣ من سورة

سورة الأحزاب

الأحزاب ، وأوضح من هاتين الآيتين قوله تعالى : (يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن) فإن قوله تعالى : « يدنين عليهن من جلابيبهن » عام يشمل السر والحجاب لجميع أجزاء البدن بما فيه الرأس والوجه ، ويؤيد هذا الشمول قوله سبحانه : « ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين » . فقد كانت المسلمات في أول الاسلام يخرجن من بيوتهن سافرات متبدلات على عادة الجاهلية ، فطلب سبحانه من نبيه الكريم في هذه الآية أن يأمرهن بالسر والحجاب ، والأمر يدل على الوجوب فيكون الحجاب واجباً .. أجل ، لقد خرج من هذا العموم الوجه والكفان لقوله تعالى : « ولا يبدن زينتهن إلا ما ظهر » .

(ذلك أدنى أن يعرفن) بالعفة والصون ، فإن الحجاب يحجز بين المرأة المتحجبة وبين طمع أهل الفسق والريب (فلا يؤذين) بالمعاكسات والنظرات الفاسقة (وكان الله غفوراً رحيماً) يغفر عما سلف ، ويرحم من تاب وأناب .

(لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلاً) . المنافقون هم الذين أضمرُوا الكفر وأظهروا الإيمان ، والمرجفون قوم من المنافقين كانوا ينشرون الدعايات المضللة ضد النبي (ص) والصحابة ، ويشككون ضعف الإيمان الذين عبر عنهم سبحانه بقوله : « والذين في قلوبهم مرض » . والآية تهديد ووعيد بالقتل والنفي لأهل النفاق والإرجاف ومن يستمع إليهم إذا لم يكفوا عما هم عليه من الإضلال والافساد .

الحرب النفسية :

وفي عصرنا يسمى الارجاف بالحرب النفسية ، وقد تفتنت فيها قوى الشر ، وبلغت الغاية من بث الأكاذيب والأباطيل بكل وسيلة ، بالصحف والاذاعة والتلفزيون وأفلام السينما والخطب والمنشورات والمدارس والجامعات والكتب والقصص وغيرها ، وكررت هذه الأجهزة الأكلوبة الواحدة على مسامع الناس في كل يوم مرات ومرات حتى لا نجد الحقيقة مكاناً لها عند الطيبين والمخلصين إلا إذا كانوا على وعي تام وعلم مسبق بدعايات الاستعمار والصهيونية وأساليبها المضللة .

قرأت في جريدة « أخبار اليوم » المصرية عدد ١٣ - ١٢ - ٦٩ : « ان للدعاية الاسرائيلية ٨٩٠ صحيفة في العالم لنشر الأخبار الكاذبة، بالإضافة الى سيطرة الصهيونية على كثير من أجهزة الاعلام بطريقة غير مباشرة كالتلفزيون والراديو والاعلانات .. الخ ». ولا أدري : هل يدخل في هذا الاحصاء الصحف البيروتية التي لها صلة وثيقة بالاستعمار والصهيونية أم لا ؟ ومهما يكن فقد بدأت اسرائيل - والله الحمد - تحس بعنف الضربات القاسية من الأيدي العربية .. وانها لكفيلة بالقضاء على الدعايات التي تلفقها أمريكا ورببتها اسرائيل ، ويذيعها العملاء بعد أن يقبضوا الثمن .

(ملعونين أبنا ثقفوا أخذوا وقتلوا تفتيلاً) . ملعونون على كل لسان لأن دينهم الدرهم والدينار ، وعلمهم الغش والكذب والخداع .. ولا دواء لهم إلا القتل أبنا كانوا لأنهم كالعضو الفاسد يفسد الجسم بكامله اذا لم يقطع منه (سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً) . المراد بسنة الله هنا حكم الله سبحانه في الضال المضل ، وهو القتل الذي شرعه ، جلت حكمته، منذ الأزل ، وسيبقى هذا الحكم الى الأبد من غير تبديل وتعديل .

يسألك الناس عن الساعة الآية ٦٣ - ٦٩ :

يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُذِيرُكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا * إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا * خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا * يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ * وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا * رَبَّنَا آتِنَا مِنْ الْعَذَابِ وَالْعَنُومُ لَعْنًا كَبِيرًا * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّاهُ اللَّهُ نِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا *

سورة الأحزاب

اللغة :

الساعة يوم القيامة . وما يدريك أي شيء جعلك دارياً وعالمًا . وضعفين مثلين .

الإعراب :

وما يدريك (ما) استفهام في موضع رفع بالابتداء ، ومعناها النفي ، وجملة يدريك خبر وفاعل الفعل محذوف أي وما يدريك بها أحد . وقريباً صفة لمحذوف أي زماناً قريباً . وخالدين حال من الكافرين . ويوم متعلق بلا يجدون . يا ليتنا (يا) لمجرد التنبيه وقيل : المنادى محذوف أي يا هؤلاء . والسبيل مفعول ثانٍ لأضلونا المكان همزة التعدية ، ويجوز أن يكون السبيل منصوباً بترع الخافض أي عن السبيل .

المعنى :

(يسألك الناس عن الساعة قل إنما علمها عند الله وما يدريك لعل الساعة تكون قريباً) . تقدم مثله في الآية ١٨٧ من سورة الأعراف ج ٣ ص ٤٣١ . (ان الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيراً خالدين فيها أبداً لا يجدون ولياً ولا نصيراً يوم تقلّب وجوههم في النار يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسول) . يساق الكافرون والعصاة غداً الى عذاب الحريق ، ولا ناصر لهم ولا عاذر ، فيعضون بد الندامة على ما فرطوا من معصية الله والرسول .. ولكن « ندم البغاة ولات ساعة مندم » . وتقدم مثله في الآية ٢٧ من سورة الفرقان ج ٥ ص ٤٦٤ . (وقالوا ربنا انا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيل ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعناً كبيراً) . المراد بالسادة والكبراء زعماء الدين والدنيا ، وباللعن الخزي .. وقد أحال الضمفاء الذنب على القادة من الطرفين ، وطلبوا من الله ان يضاعف لهم العذاب .. ومن دقق التاريخ رأى ان الأمة الجاهلة يقودها - في الغالب - الطغاة والعتاة ، أما أهل الوعي والمعرفة فإنهم لا يأتمنون على مصالحهم إلا الأمناء المخلصين . وتقدم مثله في الآية ٣٨ من سورة الأعراف ج ٣ ص ٣٢٦ .

(يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيهاً) . الذين آذوا موسى (ع) هم بنو اسرائيل ، ما في ذلك ريب ، حيث وصفوه بما ينتزه عنه الأنبياء .. وتشير الآية إلى أن بعض الصحابة قد آذى الرسول الأعظم (ص) ونسبه الى ما هو بريء منه، فنهى سبحانه المسلمين عن ذلك . وفي بعض الروايات : ان رسول الله (ص) قسم ذات يوم قسماً ، فقال له رجل من الأنصار : ان هذه القسمة ما أريد بها وجه الله ، فاحمر وجهه ثم قال : رحمة الله على موسى ، فقد أودى بأكثر من هذا فصبر .

انا عرضنا الأمانة الآية ٧٠ - ٧٣ :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً * إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً * لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً *

اللغة :

القول السديد هو قول الحق والصدق . وتقول عرضت الشيء له أي أظهرته له ، وعرضته عليه أريته إياه . وعرض الأمانة على السموات والأرض والجبال كناية عن عظيم شأنها .

الإعراب :

يصلح مضارع مجزوم بحجوب قولوا . واشفقن منها على حذف مضاف أي من حملها . واللام في ليعذب لام العاقبة مثل: لدوا للموت، لأن الانسان لم يحمل الأمانة كي يعذب ، بل كان نتيجة الحمل المعصية التي هي سبب العذاب .

المعنى :

(يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم) . القول السديد أن تقول الحق والصدق ، ولا تكتم منه شيئاً ولو كان على نفسك ، والمراد به هنا ما ينفع الناس بقرينة قوله تعالى : « يصلح لكم أعمالكم » حيث جعل سبحانه القول السديد سبباً لصلاح الأعمال ، ومثال ذلك أن ترشد ضالاً إلى طريق الخير والأمان ، أو تنصر مظلوماً بكلمة العدل ، أو تقول كلاماً يصلح به بين اثنين ، وما إلى ذلك من القول الذي ينفع الناس بجهة من الجهات (ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً) . يفوز في الدنيا بالنجاح وحسن السيرة ، وفي الآخرة بمرضاة الله وثوابه .

(إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها واشفقن منها وحملها الانسان) . اختلف المفسرون في معنى الأمانة ، فمن قائل : أنها التكليف والطاعة ، وقائل : أنها كلمة « لا إله إلا الله » ، وقال ثالث : هي أعضاء الانسان كسمعه وبصره ويده ورجله ، وإن عليه أن يستعملها فيما خلقت من أجله ، وذهب رابع إلى أنها الأمانة في الأموال .. والذي نراه نحن أنها التضحية بالمصلحة الفردية لصالح الجماعة ، لا لشيء إلا لوجه الله والانسانية ، لأن هذه التضحية قد بلغت من الثقل والضخامة مبلغاً لو عرضت على أقوى مخلوق كالسموات والأرض والجبال لأشفق منها على فرض أنه يحسن ويشعر .

فالفرض من ذكر السموات والأرض والجبال هو الإشارة إلى عظمة هذه التضحية وتبعتها ، وإن الانسان هو المخلوق الوحيد من بين الكائنات الذي يستطيع أن يجاهد نفسه الأمارة وشهواتها ، ويقاوم أهواءها ونزعاتها ، أما قوله تعالى : (إنه كان

الجزء الثاني العشرون

ظلوماً جهولاً) فعناه ان الانسان يظلم نفسه وغيره إذا خان هذه الأمانة ، ويجهل العواقب السيئة التي تترتب على خيائته .

(ليعذب المنافقين والمنافقات) الذين يتظاهرون بأداء الأمانة ، وهم خائنون (والمشركين والمشركات) يعذبهم الله لأن جريمة الشرك لا يكفرها شيء حتى البذل والتضحية (ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات) إذا تلافوا ما بدر منهم من تقصير (وكان الله غفوراً رحيماً) أي يغفر للتائبين ، ويرحم المستضعفين .
وصل اللهم على محمد وآله صلاة تشفع لنا يوم الفاقة البك .

سُورَةُ سَبَا

مكة ، وآياتها ٥٤ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي له ما في السموات الآية ١ - ٦ :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي
الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ * يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ
مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ * وَقَالَ
الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا
يَعُزُّبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ
ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ * لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ * وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا
مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزِ أَلِيمٍ * وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا
الْعِلْمَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ
الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ *

اللفة :

الولوج الدخول . والعروج الصعود . ولا يعزب عنه لا يغيب عنه . ومعاجزين من عاجزه أي سابقه ليظهر عجزه . والمراد بالرجز هنا أسوأ العذاب، ومن بيانية .

الإعراب :

الحمد لله مبتدأ وخبر . والذي عطف بيان من لفظ الجلالة . وعالم الغيب صفة لربي . ولا أصغر ولا أكبر عطف على مثقال ذرة . والمصدر من ليجزي متعلق بلا يعزب عنه . والذين سعوا مبتدأ أول وأولئك مبتدأ ثانٍ ولهم وعذاب خبر والمبتدأ الثاني وخبره خبر المبتدأ الأول . ومعاجزين حال من فاعل سعوا . والذي أنزل اليك مفعول أول لبرى الذين اوتوا العلم ، والحق مفعول ثانٍ ، وهو ضمير الفصل، ويهدي عطف على الحق لأن الفعل هنا بمعنى الاسم أي والهدى إلى صراط العزيز الحميد .

المعنى :

(الحمد لله الذي له ما في السموات وما في الأرض وله الحمد في الآخرة وهو الحكيم الخبير) . الله سبحانه هو المستحق للحمد في الدارين ، ومالك الكون ومدبره بما فيه على مقتضى علمه وحكمته . وفي نهج البلاغة : نحمده على عظيم احسانه ، وفير برهانه ، ونوامي فضله وامتنانه ، حمداً يكون لحقه قضاء، ولشكره أداء ، وإلى ثوابه مقرباً ، ولحسن مزيده موجباً .

(يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو الرحيم الغفور) . تكرر هذا المعنى في العديد من الآيات ، منها الآية ٥٩ من سورة الأنعام ج ٣ ص ٢٠٠ والآية ٦١ من سورة يونس ج ٤ ص ١٧٤ ، وملخصه ان الله بكل شيء عليم .

(وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربي لتأتينكم) . تقدم مثله في

سورة سبأ

الآية ٥٣ من سورة يونس ج ٤ ص ١٦٨ (عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين) . الكتاب المبين كتابة عن الحفظ ، والمعنى ان علم الساعة عند الله لا يجلّيها لوقتها إلا هو . أنظر تفسير الآية ١٨٧ من سورة الأعراف ج ٣ ص ٤٣١ .

(ليجزي للذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة ورزق كريم والذين سعوا في آياتنا معاجزين أولئك لهم عذاب من رجز أليم) . هذا بيان للحكمة من البعث ، وهي أن يجزي الله الذين أحسنوا بالحق ، والذين أساءوا بما كانوا يعملون . أنظر ج ٤ ص ١٣٢ فقرة « الحساب والجزاء حتم » .

(ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل اليك من ربك هو الحق ويهدي الى صراط العزيز الحميد) . المراد بالذين أوتوا العلم كل عالم منصف في كل زمان ومكان ، والمراد بالذي أنزل اليك القرآن ، والمعنى ان أي عالم يدرس القرآن دراسة صحيحة لا بد أن ينتهي الى انه حق من عند الله ، لأنه يهدي للتي هي أقوم في عقيدته وشريعته وجميع تعاليمه .

الكافرون باليوم الآخر الآية ٧ - ٩ :

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنْبِئُكُمْ إِذَا مُزِقْتُمْ كُلٌّ مِّنْكُمْ إِنِّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ * أَفَتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ * أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ نَاشِئًا مُّخْسِفٌ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطُ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ *

اللغة :

التمزيق التقطيع والتفريق ، يقال : مزقهم الله كل ممزق أي فرقهم وشتهم ، والمراد بمزقهم في الآية بكيّهم في القبور . والمراد بالخلق الجديد البعث . والجينة الجنون . وكسفاً جمع كسفة وهي القطعة . ومنيب راجع .

الإعراب :

إذا تتعلق بفعل محذوف أي إذا مُزِقَهم بعثهم ، ولا يجوز أن تتعلق بينبشكم لأن النبا كان قبل التمزيق لا بعده ولا حينه . وكل ممزق مفعول مطلق . وجملة أنكم لفي خلق جديد مفعول بينبشكم . وافتري على الله أصلها أفتري فلما دخلت همزة الاستفهام على همزة الوصل أسقطناها .

المعنى :

(وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبشكم إذا مزقتم كل ممزق انكم لفي خلق جديد أفتري على الله كذباً أم به جنة) . هكنا قال المشركون : محمد كاذب أو مجنون - نعوذ بالله - ولماذا نطقوا بكلمة الكفر ؟ .. لأن النبي قال : ان الانسان بعد الموت يبعث حياً .. ولا دليل على انكارهم هذا إلا التعجب والاستغراب تماماً كقولهم : « أجعل الآلهة إلهاً واحداً ان هذا لشيء عجاب » . وهو ، كما ترى ، مستمد من ذأنهم وتصورهم ، ومعنى هذا أنهم ينفون الواقع بالفكرة والتصور ، مع العلم ان الفكرة لا تكون صادقة إلا إذا كانت انعكاساً عن الواقع ومن صلبه ، وان على من يعتنق نظرية ما أن يبرهن على صدقها بوجود الواقع المعبر عنها ، وليس له أن ينفي الواقع بفكرة مسبقة لا تقوم على أساس .. والى هذا يشير الإمام علي (ع) بقوله : « يعرف الرجال بالحق ، ولا يعرف الحق بالرجال » . (بل الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب والضلال البعيد) . هم في الجهل والضلال لأنهم قاسوا الحق والواقع بأفكارهم وأوهامهم ، والعكس

سورة سبأ

هو الصحيح أي كان عليهم أن يقيسوا أفكارهم بالحق والواقع .

(أفلم يروا الى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض) . يقول سبحانه للمكذبين : وأي عجب من بعثكم بعد الموت : « أوليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم » ألا يدل هذا الخلق على وحدانيته وكمال قدرته ، ومنها الاعادة الى الحياة بعد الموت ؟ وتكلمنا عن ذلك مراراً . أنظر ج ١ ص ٧٧ و ج ٢ ص ٣٩٦ و ج ٤ ص ١٣٢ .

(إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفاً من السماء ان في ذلك لآية لكل عبد منيب) . ذلك اشارة الى خلق السموات والأرض ، فإنه يدل على عظمة الله وقدرته على إحياء العظام وهي رميم عند من يرجع الى عقله وضميره ، أما قوله تعالى : « إن نشأ نخسف بهم الأرض » فهو تهديد ووعد لمن جحد وكفر بالآخرة أن تبتلعها الأرض ، أو ترميه السماء بقطع من نار فتحرقه .

داود وسليمان الآية ١٠ - ١٤ :

وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ *
أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ
بَصِيرٌ * وَلَسْلِمَانِ الرِّيحِ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ
الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ
عَن أَمْرِنَا نُنْزِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ * يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَّحَارِبَ
وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا
وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ * فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى

مَوْنِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنَّ أَنْ لَوْ
كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ *

اللفظ :

الأوب الرجوع ، والتأوب الرجوع بالتسبيح ، والمراد بأوبي هنا سبّحي .
وسابغات وسوانج جمع سابغ ، وهو التام من اللباس ، والمراد بسابغات هنا دروع
تامات كاملات . وقدر عدل . والسرر التتابع ، وسرد الحديد نظمه . وغدوها
سيرها بالغداة ، ورواحها سيرها بالعشي . والقطر بكسر القاف النحاس أو الحديد
أو الرصاص . ومن يزغ من يعدل . ومخارب جمع محراب ، وهو المعبد . وتماثيل
جمع تمثال ، وهو صورة الشيء . والجفان جمع جفنة ، وهي القصعة . والجوابي
جمع جابية ، وهي الخوض الكبير . وقذور جمع قدير . وراسيات ثابتات .
والمنسأة العصا الكبيرة .

الإعراب :

يا جبال أوبي أي قلنا يا جبال أوبي . والطير بالنصب لأنه معطوف على
محل الجبال . والمصدر من أن اعمل مفعول من أجله لأننا أي أننا له الحديد لأجل
عمل الدروع ، وقيل : ان مفسرة بمعنى أي . والريح مفعول لفعل محذوف أي
وسخرنا لسليان الريح . وغدوها شهر مبتدا وخبر ، والجملة حال من الريح .
ومن الجن من يعمل « من » مفعول لفعل محذوف أي وسخرنا له من الجن من
يعمل . وآل داود أي يا آل داود ، ومفعول اعملوا محذوف ، وشكراً مفعول
من أجله أي اعملوا الخيرات شكراً لله . وقليل خبر مقدم والشكور مبتدا مؤخر .
وان لو كانوا « ان » مخففة من الثقيلة ، واسمها محذوف ، أي أنهم ، والمصدر
المنسبك بدل اشتمال من الجن أي ظهرت الجن جهلهم والمعنى ظهر جهل الجن .

(ولقد آتينا داود منا فضلاً يا جبال أوّسبي معه والطير وألنا له الحديد) .
قال سبحانه في الآية ١٥ من سورة النمل : « ولقد آتينا داود وسليمان علماً » .
وفي الآية ١٦٢ من سورة النساء : « وآتينا داود زبوراً » . وفي الآية التي نحن بصددھا ذكر سبحانه انه اسبغ على داود نعمة الصوت الرخيم الذي تكاد تتجاوب الجبال والطير مع صفائه . وفي الآية ٧٨ من سورة الأنبياء قلنا يجوز ان يكون تسبيح الجبال والطير على نحو الحقيقة مع داود لأن الله على كل شيء قدير ، وقال قائل : المراد بتسبيح الجبال والطير معه انها كانت توحى اليه بالتسبيح ، فإذا رآها قال مردداً : سبحان من خلق وصور .. وايضاً أنعم الله على داود بأن جعل الحديد طوع ارادته يعمل منه ما يشاء دون ان يحميه بالنار ، او يضربه بالمطرقة .. ومن الجائز ان الله سبحانه أھمه الأسباب والوسائل التي تجعل الحديد ليناً .

(أن اعمل سابغات وقدر في السرد) . يقول تعالى لداود : اعمل من الحديد دروعاً ، وأحكم صنعها بحيث تقي المقاتل السيف والسهم والسنان ، ولا تمنعه من الحركة كما يريد (واعملوا صالحاً اني بما تعملون بصير) . الخطاب لداود وآله ، يأمرهم الله فيه بصالح الأعمال ، ويعدّهم عليها بالأجر والثواب . وتقدم نظير هاتين الآيتين في سورة الأنبياء الآية ٧٩ و ٨٠ ج ٥ ص ٢٩٢ .

(وسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر) . يدل ظاهر الآية على ان الريح كانت تحمل سليمان بأمر الله الى ما يشاء ، وانها كانت تقطع بالغداة مسيرة شهر كامل على الجمال أو الأقدام ، وكذلك بالساء (وأسلنا له عين القطر) . القطر النحاس او الحديد ، والاسالة الاذابة ، والمعنى انه تعالى أذاب الصلب لسليمان تماماً كما ألأنه لأبيه داود .. ويجوز ان الله أرشده الى سبب الاسالة والاذابة .

(ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات) . تقدم مع التفسير في الآية ٨٢ من سورة الأنبياء ج ٥ ص ٢٩٣

الجزء الثاني والعشرون

(اعملوا آل داود شكراً وقليل من عبادي الشكور) . ذكر ابن عريبي هذه الآية الكريمة في الجزء الرابع من الفتوحات ، وقال : الشكر ان ترى النعمة من الله ، لا من سواه ، فقد أوحى سبحانه الى موسى : اشكرني حق الشكر . فقال موسى : ومن يقدر على ذلك يا رب ؟ فقال له : إذا رأيت النعمة مني فقد شكرتني .

(فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته فلما خرو تبينت الجن ان لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين) . ضمير عليه يعود الى سليمان ، ودابة الأرض هي الأرضة التي تأكل الخشب ، والمنسأة العصا ، والمعنى ان سليمان وافاه الأجل ، وهو منكىء على عصاه ، وانه بقي بعد الموت كذلك الى ما شاء الله ، وان الانس والجن كانوا ينظرون اليه ، وبحسبونه حياً ، الى ان دبت الأرضة في عصاه ، وأكلت جوفها ، فانكسرت وسقط سليمان ، وعلم الجميع بموته ، وظهر للانس ان الجن لا يعلمون الغيب ، لأنهم لو علموه ما لبثوا في أسر سليمان وخدمته ، وهو ميت .

واذا كان بعض ما في هذه الآيات ممتنع الوقوع عادة فإنه جائز في نظر العقل ، ومن أجل هذا نصده ونسلم به كمؤمنين بمبدأ الوحي من الله الى نبيه الكريم . انظر ج ٢ ص ٦١ فقرة ٥ الممتنع عقلاً والممتنع عادة .

نقد الفكر الديني :

ولمناسبة ما جاء في هذه الآيات من ذكر الجن وخوارق العادات نشير الى كتاب صدر في هذه الأيام ، اسمه « نقد الفكر الديني » - نحن الآن في تشرين الثاني سنة ١٩٦٩ - وقد كثر الكلام حوله وحول صاحبه . ومن قرأ الكتاب يحكم - من النظرة الأولى - على مؤلفه بأنه يقف موقف الشك والريب من جميع الأديان ، وقد اعترف المؤلف بذلك صراحة في الصفحة ٢٩ و ٧٧ وغيرها .

ولكن من يستقرئ الكتاب ويأخذ بالظاهر دون الباطن يرى ان الباحث الأول على هذا الشك والريب أمور :

سورة سبأ

الأول: محاولة بعض المؤمنين ان يلائم بين نصوص القرآن الكريم ومستكشفات العلم الحديث ، وغلوهم في التأويل الى أبعد مما يحتمله اللفظ ، وأورد المؤلف على ذلك العديد من الشواهد ، منها ما نقله عن البعض في صفحة ٣٧ : من ان اكتشاف نواميس الضوء يدل دلالة قاطعة على وجود الملائكة والجن .. وعلق المؤلف على هذا بقوله : لا أدري ما هي طبيعة العلاقة بين نظرية الضوء من ناحية ، ووجود الجن والملائكة من ناحية أخرى .

الأمر الثاني : الطقوس والشعائر الجامدة التي لا تناسب حضارة القرن العشرين على حد تعبيره .

الأمر الثالث : مساندة بعض رجال الدين للاقطاع والاستعمار باسم الاسلام والمسيحية .. والكتاب متخّم بالشواهد على ذلك ، منها قوله في صفحة ٢٣ : « كان الدين في اوروبا حليف التنظيم الاقطاعي ولا يزال على هذه الحال في معظم البلاد المتخلفة، وخاصة في الوطن العربي .. فقد اصبح الدين الايديولوجية الرسمية للقوى الرجعية المتخلفة في الوطن العربي وخارجه .. والمربطة صراحة ومباشرة بالاستعمار الجديد الذي تقوده اميركا » .

وقد أفاض المؤلف في نقد كتاب « المسيحية والاسلام في لبنان » وهو مجموعة محاضرات الندوة اللبنانية لسنة ١٩٦٥ ، ألفها أربعة من رجال الدين: سني وشيعي واثنان من المسيحيين ، وأربعة علمانيون ، ولكنهم تكلموا باسم الدين ، وعاهدوا الله جميعاً على السعي الدائب لازالة الحواجز المغتصبة بين الاسلام والمسيحية .

وقال المؤلف فيما قال رداً على هؤلاء المحاضرين المتعاهدين في صفحة ٦٤ : ان الهدف الأول لهذه المحاضرات والمعادنة هو حرص المسيحيين على النظام القائم بلبنان باعتبارهم المنتفعين منه اكثر من المسلمين الذين ينتمون بغزارة الى الفئة الفقيرة الكادحة ، وتجاوب مع المسيحيين فئة من المسلمين ، وروجت باسم الدين للنظام القائم بلبنان بكل مضامينه الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، فعلت ذلك لا لشيء إلا لأن هذا النظام يدر عليها وعلى المسيحيين الأرباح والمنافع .. وحتى تحوّل الأنظار عن ويلات النظام القائم ومسيئاته - حملت هذه الفئة المسلمة مع المسيحيين شعارات التفاهم والاخوة والمحبة ومصلحة لبنان العليا .

أما الدليل القاطع على ان هذا هو هدف المحاضرين المتعاهدين في الندوة اللبنانية سنة ١٩٦٥ فيقدمه المؤلف في صفحة ٦٠ بقوله : ان الاسلام لا يعترف بالانجيل ولا بالتثليث ، ولا بالخطيئة والفداء ، ولا بصلب السيد المسيح ودفنه وخروجه من القبر ، وما إلى ذلك مما يؤمن به المسيحيون ، كما انهم ينكرون القرآن ونبوّة محمد (ص) .. فبأي شيء يزيل المحاضرون المتعاهدون هذه الحواجز ؟. فالأصلح والأنسب - ما زال الكلام للمؤلف - ان يتم التفاهم والحوار بين اللبنانيين على صعيد وطني ، وأساس المصلحة المشتركة ، أما الدين فليترك لاختيار الفرد وفقاً لمزاجه وقناعته .

ومن أقوال المؤلف هذه وغيرها كثير في كتاب « نقد الفكر الديني » يتبين معنا ان السر لبقده فيما يظهر يكمن - كما أشرنا - في تعسف الذين حاولوا التوفيق بين النصوص الدينية والعلم الحديث ، وفي الطقوس الجامدة ، وانحراف الذين وهبوا أنفسهم للاقطاع والاستعمار ، وبرروا الظلم والاستغلال باسم الدين .. ولو ان جميع رجال الدين أخلصوا له ، وفهموه فهماً صحيحاً ، وبينوه للناس كما نزل على عيسى ومحمد ، ولم يشترخوا به ثمناً قليلاً - لما وجد ناقد أو مأجور منفذاً للطعن والريب بالاسلام ولا بالمسيحية .. ولكن مما يدمي القلب أسفاً ان قوماً انتحلوا اسم الدين زوراً وتطفلاً ، وآخرين وقفوا أنفسهم لتخريبه وتشويه حقائقه بعد ان قبضوا الثمن من أعداء الله والانسانية .. فكانت ردة الفعل من مؤلف « نقد الفكر الديني » وغيره وقيل : ان هذا المؤلف أيضاً مأجور .

ولكن أي ذنب للدين اذا استغله الانتهازيون ، واتسم به المتطفلون ؟. وكان الأولى بالمؤلف أن ينظر الى الدين كقوة تتجه بالانسان الى حياة أفضل ، وانه متره عن كل ما يبابه العقل ، ويتصادم مع حقيقة من حقائق الحياة ، ولو شاء هذا لوجد الكثير من الشواهد في كتاب الله وسنة نبيه ، وتاريخ الاسلام والمسلمين ، وقد اعترف بهذه الحقيقة العشرات من علماء الشرق والغرب غير المسلمين .

أنظر ج ١ ص ٣٨ فقرة « القرآن والعلم الحديث » و ج ٣ ص ٤٦٥ فقرة « الدين والدعوة إلى الحياة » و ج ٥ ص ٢٣ فقرة « الاسلام دين القطرة » .

لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُّوا مِنْ
 رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ * فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا
 عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْنِ ذَوَاتِي أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثَلٍ
 وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ * ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا
 الْكَفُورَ * وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرى ظَاهِرَةً
 وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ * فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ
 بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ
 إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ * وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ
 ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ
 إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُوْثِقُ بِالْآخِرَةِ يَمُنُّ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ
 شَيْءٍ حَفِيفٌ *

اللغة :

سبأ قبيلة من العرب سميت باسم الأب الذي تناسلت منه . والعرم بكسر الراء
 قيل : هو السد بمسك الماء فيرتفع ويسقي الزرع . الأكل الثمر المأكول . والخمط
 شجر الأراك . والأثل الطرفاء .

الإعراب :

آية اسم كان ، ولسبأ خبرها وفي مسكنهم متعلق بما تعلق به لسبأ . وجنتان بدل من آية . وعن يمين وشمال صفة لجنتين . وكلوا أي يقال لهم كلوا . وبلدة طيبة خبر مبتدأ محذوف أي هذه بلدة طيبة . وجنتين مفعول ثانٍ لبدلتناهم . وذواتي صفة لجنتين . وخط بدل من أكل . وأثل عطف على أكل . وذلك قائم مقام المفعول المطلق لجزيئناهم أي ذلك الجزء جزيئناهم . وسيروا أي يقال لهم : سيروا . وكل ممزق مفعول مطلق . وظنه مفعول صدق . ومن سلطان « من » زائدة إعراباً وسلطان اسم كان ، وله عليهم خبرها .

ملخص القصة :

جاء في تاريخ المسعودي ما يتلخص بأن أول ملوك اليمن هو سبأ بن يشجب ابن يعرب بن قحطان ، وكان اسمه عبد شمس ، وسمي سبأ لسيه البياض ، وكانت أرض سبأ أخصب أرض اليمن وأثراها واغدها ، وقبل ذلك كان يركبها السيل ويهلك الزرع ويهدم البناء ، فجمع ملك القوم أهل العلم في ذلك الزمان ، وشاورهم في أمر السيل ، فأجمع رأيهم على أن يقيموا سدّاً بين جبلين ، واتخذ الملك بقولهم ، وجعلوا للسد أبواباً تفتح وتغلق ليتحكموا بالماء وفق حاجتهم ، وقد عرف هذا السد باسم مدينة مأرب القريبة من السد ، ثم عمل الماء بالسد ، وأضعفه مرّ السنين عليه ، فخرّب وتدافع الماء منه وأغرق الديار والجنان ، فهاجر السكان وتفرقوا في العديد من أنحاء الأرض ، ومن هنا قيل في الأمثال : تفرقوا أيدي سبأ .

وفي تفسير الطبري وجمع البيان : أن سائلاً سأل رسول الله (ص) عن سبأ؟ فقال : كان رجلاً من العرب ، له عشرة أولاد : فتيمن منهم ستة ، وتشامم أربعة ، فأما الذين تيمنوا فكثرت وحبر والازد والأشعريون ومذحج وانمار الذين منهم خثعم وبجيلة ، وأما الذين تشامموا فعاملت وجذام ولحم وغسان .

وفي تفسير المراغي : كسان الباحثون في العصر الحديث يشكون في أمر هذا السد حتى تمكن المستشرق الفرنسي « ارنو » من الوصول إلى مأرب سنة ١٨٤٣

سورة سبأ

وشاهد آثاره ، ورسم له صوراً نشرها في المجلة الفرنسية سنة ١٨٧٤ ، ثم زار
مأرب بعده « هاليفي » و « غلازر » ووافقاه فيها قال ووصف .

المعنى :

(لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم
واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور) . آية أي دلالة وعلامة على نعم الله الوافرة
في تلك الأرض . وجنتان عن يمين وشمال كناية عن الخصب والازدهار في كل
جزء من أجزاء البلاد ، وإن المار بأرض سبأ كان انشئ انجه يرى الخيرات عن
يمينه وشماله .. وقد أمر سبحانه قوم سبأ أهل تلك الأرض الطيبة ، أمرهم بلسان
أنبيائه ورسله أن يتنعموا في خيراته ويشكروه ويوحده (فأعرضوا فأرسلنا عليهم
سيل العرم وبدلناهم بمجنثيم جنتين ذواتي أكل خبط وأثل وشيء من سدر قليل) .
استعانوا بنعمة الله على معصيته ، واستغنوا بفضله عن عبادته ، فحضرهم وأنزهم
على لسان رسله ، فلم ينتفعوا بالندر ، ويتعظوا بالعبر ، فأرسل عليهم سيلاً
عظيماً خرب السد وأهلك الزرع والضرع ، وأبدلهم الله بالحدائق الغناء والبساتين
الفياض أشجاراً لا تسمن ولا تنفي من جوع كالطرقاء والسدر وما إليه مما ينبت
في الصحراء ، ولا يستيفه إلا حيوان جائع أو إنسان أضناه الفقر والعوز .

(ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازي إلا الكفور) . جزاهم بالفقر ، وهو
أفضع الجزاء .. وفي رواية : الفقر الموت الأحمر . وفي ثانية : كاد الفقر يكون
كفراً . وفي ثالثة : الفقر سواد الوجه في الدارين . وقال الإمام علي (ع) لولده
محمد بن الحنفية : ان الفقر منقصة للدين - أي يحمل الإنسان على معصية الله -
مدهشة للعقل ، داعية للمقت .

(وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير
سيروا فيها ليالي وأياماً آمنين) . ضمير بينهم يعود الى قوم سبأ ، والمراد بالقرى
قرى الشام - كما قال المفسرون - وبارك الله فيها بالماء والأشجار ، والخصب
والثمار ، وظاهرة أي ان القرى كانت قريبة يظهر بعضها لبعض ، وقدرنا في السير

قسمنا مراحل السفر بين القرية والقرية بحيث يصبح المسافر في واحدة منها، ويمسي في أخرى .. والآية تصف قوم سبأ قبل خراب السد ، ومعناها ان من نعم الله وفضله عليهم ان أحدهم كان اذا قصد سفرأ يسافر وهو في أمن وأمان من كل شيء ، لا يخشى أحداً على نفسه وماله ، ولا يحمل زاداً ، ولا يخاف جوعاً ولا عطشاً .

ولكن غلبت عليهم شقوتهم ، وبطروا النعمة ، وملوا العافية (فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا) اجعل بيننا وبين القرى فلولاً ومفاوز لركب الرواحل ونحمل الزاد في الأسفار ، تماماً كما فعل بنو اسرائيل حيث ملوا نعمة المن والسلوى ، وقالوا لموسى : « فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها قال أنستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير - ٦١ البقرة » . (وظلموا أنفسهم) بالطغيان وكفران النعم (فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق ان في ذلك لآيات لكل صبار شكور) . شتتهم سبحانه ووزعهم في أقطار الأرض حتى صاروا أجدوداً للأجيال ، وعبرة لمن صبر على الضراء ، وشكر عند السراء .

(ولقد صدق عليهم ابليس ظنه فاتبعوه إلا فريقاً من المؤمنين وما كان له عليهم من سلطان) . أغراهم الشيطان بمعصية الله ، فسمع له وأطاع من كفر وبغى ، وعصاه من آمن واتقى . وتشير هذه الآية الى قول ابليس في الآية ٣٩ من سورة الحجر : « ولأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين قال هذا صراط عليّ مستقيم ان عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين » ج ٤ ص ٤٧٨ .

(الا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها في شك) . ان الله سبحانه أعلم بعباده من أنفسهم ، ولكنه يبتليهم بالسراء والضراء ، وبالشهوات والأهواء لتظهر الى عالم الوجود والعيان مقاصدهم وأفعالهم التي يستحقون عليها الثواب والعقاب . وتكرر هذا المعنى مرات ومرات ، منها في الآية ١٤٠ من سورة آل عمران ج ٢ ص ١٦٤ (وربك على كل شيء حفيظ) . لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء . وفي الحديث : اتق الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك .

قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي
السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ
ظَهِيرٍ * وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ
قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ * قُلِ
مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى
أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * قُلِ لَا تَسْأَلُونَ عَمَّا أُجْرَمْنَا وَلَا نَسْأَلُ عَمَّا
تَعْمَلُونَ * قُلِ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ
الْعَلِيمُ * قُلِ أَرُونِي الَّذِينَ أَنْفَعْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ
الْحَكِيمُ * وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ
النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ *
قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ *

اللغة :

المراد بالشرك هنا النصيب . وظهير معين . وفزع عن قلوبهم بتشديد الزاي
ذهب الفزع عن قلوبهم . وأجرمنا أذنبنا . ويفتح بحكم . والفتاح الحاكم .

الإعراب :

زعمتم تتعدى الى مفعولين . وهما هنا ضميران محذوفان أي زعمتموهم آلهة من

الجزء الثاني والعشرون

دون الله . ومن شرك « من » زائدة لإعراباً وشرك مبتدأ والخبر « لهم فيها » ومثله من ظهير . وإلا لمن أذن له استثناء مفرغ أي لا تنفع الشفاعة عنده لأحد إلا لمن أذن له . الله مبتدأ والخبر محذوف أي قل الله يرزقكم . أو إياكم معطوف على اسم ان. وأروني تتعدى الى ثلاثة لمكان همزة التعدية، وياء المتكلم المفعول الأول والذين الثاني، وشركاء الثالث . وكافة حال من كاف أرسلناك ، وفي البحر المحيط ان كافة بمعنى عامة لا تكون إلا حالاً ولا يتصرف فيها بغير ذلك ، والتاء في كافة للمبالغة مثل تاء علامة أي ما أرسلناك إلا حال كونك عاماً لجميع الناس في التبليغ . وللناس متعلق بكافة . وبشيراً حال بعد حال .

المعنى :

(قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله) . عبد المشركون الملائكة والأصنام ، فنهاهم النبي (ص) فلم ينتهوا ، فقال لهم بأمر من الله : أين الدليل على الوهية من جعلتموهم شركاء لله ؟ ادعوهم للنفع أو الضر ، ثم انظروا : هل يسمعون ويستجيبون ؟ والغرض من هذا الطلب هو إقامة الحجة عليهم بالتحدي والتعجيز ، ومثله قوله تعالى : « قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلاً » - ٥٦ الاسراء ، ج ٥ ص ٥٥ .

(لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض وما لهم فيها من شرك وما له منهم من ظهير) . ضمير لا يملكون ولهم ومنهم يعود الى الشركاء المزعومين وضمير له اليه تعالى ، وضمير فيها الى السموات والأرض ، ومثقال ذرة كناية عن أحقر الأشياء وأدناها ، والشرك النصيب ، والظهير المعين ، والمعنى لا شريك لله ولا معين ، ولا أحد يملك معه شيئاً (ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له) . هذا رد على قول المشركين : « ما نعبدكم إلا ليقربونا الى الله زلفى ٣ - الزمر » . انظر ج ١ ص ٩٧ فقرة : « الشفاعة » .

(حتى إذا فُزع - أي ذهب الفزع - عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلي الكبير) . اختلف المفسرون في ضمير قلوبهم الى من يعود؟

سورة سبأ

ومن هو السائل والمسؤول؟ والأرجح ان الضمير يعود بقربة السياق الى من في السموات والأرض وان هذا الفرع يحصل للجميع عند قيام الساعة إلا من شاء الله، كما جاء في الآية ٨٧ من سورة النمل : « ويوم ينفخ في الصور ففرع من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله كل أتوه داخرين » . وقلنا أكثر من مرة : ان آيات القرآن يفسر بعضها بعضاً ، وعليه يكون المعنى انه عند قيام الساعة ينقسم أهل السماء والأرض فريقين : فريق يأخذ الفرع الأكبر ، وفريق من فرع يومئذ آمنون ، والى هؤلاء أشار سبحانه بقوله : « الا من شاء الله » فإذا هدا روع الفريق الأول قليلاً سأل الفريق الثاني : ماذا قال ربكم ؟ أي ما هو مصيرنا ومآلنا ؟ فيجيب الفريق المسؤول : ان الله قال الحق وهو العلي الكبير . وهذا الجواب على اجماله يومئ الى أنه لا شريك ولا معين لله ولا شفاعة عنده إلا بإذنه .

(قل من يرزقكم من السموات والأرض) . الخطاب في قل لرسول الله (ص) وفي يرزقكم للمشركين ، أما رزق السماء فهو المطر والفضياء ، ورزق الأرض النبات والزروع (قل الله) لا الأصنام ولا الملائكة ولا عيسى وعزير، ولما كان هذا هو الجواب الوحيد أمر سبحانه نبيه الكريم أن يجيب به عن المسؤولين .

(وانا أو اياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين) . النبي على يقين انه على هدى ، وان المشركين على ضلال ، ولكن لما أبوا الاذعان للهدى والحق خاطبهم بهذا الأسلوب الحكيم ، وقال لهم : ان أحدنا محق والآخر مبطل ، فارجعوا الى عقولكم واسألوها : أينما على صواب ؟ وهذا من اسلوب نبي الهدى والرحمة ، بالاضافة الى ان المحق يثق من نفسه حتى ولو خالفه أهل الأرض أجمعون .

(قل لا تسألون عما أجرمتا ولا نسأل عما تعملون) . هذا مثل قوله تعالى : « وان كذبوك فقل لي عملي ولكم علمكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون - ٤١ يونس » ج ٤ ص ١٦٢ . (قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق وهو الفتاح العليم) . لليوم الآخر أسماء ، منها يوم الجمع ، قال تعالى : « يوم يحكمكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن - ٩ التغابن » والفتح الحكم والفصل، والمعنى ان الله سبحانه سيجمعنا واياكم لنقاش الحساب والجزاء والأعمال ، وعندئذ

ينكشف الغطاء وتعلمون أي الحزبين أهدى سبيلاً ؟

(قل أروني الذين ألحقتم به شركاء) . ضمير به يعود اليه تعالى ، وفي الكلام حذف أي أروني الدليل على ان الأصنام شركاء الله في خلقه ، أو يقرّبونكم اليه زلفى (كلا) لا شريك ولا معين لله ولا شفاعة لديه إلا بإذنه (بل هو الله العزيز الحكيم) لا عز ولا قوة إلا لله وبالله ، أما دلائل حكمته وعظمته فإنها تتجلى في خلق الكون وعجائبه .

(وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون) . ان الله سبحانه أرسل محمداً (ص) لجميع الناس في كل زمان ومكان . انظر تفسير الآية ٩٢ من سورة الأنعام ج ٣ ص ٢٢٥ والآية ٤٠ من سورة الأحزاب . فقرة « لماذا خُتِمت النبوة بمحمد ؟ » (ويقولون متى هذا الوعد ان كنتم صادقين) . تقدم بنصه الحرفي في الآية ٤٨ من سورة يونس ج ٤ ص ١٦٦ (قل لكم ميعاد يوم لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون) . لأنه تعالى قد وعد بالبعث والحساب والجزاء ، وهو منجزٌ وعده لا محالة ، ولكن في الوقت الذي حدده ، جلت حكمته ، لا يتقدم عليه ، ولا يتأخر عنه ، فلا يغرنكم أيها المشركون ما أنتم فيه ، فإنما هو الى حين طال أم قصر ، ثم الى الله مرجعكم جميعاً فينبشكم بما كنتم تعملون .

لن يؤمنوا بالقرآن الآية ٣١ - ٣٣ :

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَا تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنفَحْنُ صَدْدَكُمْ عَنْ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ * وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا

سورة سبا

بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا
وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ
كَفَرُوا هَلْ يُخْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ*

اللغة :

رجع في صوته رده ، والرجيع من الكلام المردود الى صاحبه ، والمراد
يرجع بعضهم الى بعض القول ان كلاً من الفريقين يحيل الخطأ على الآخر .

الإعراب :

مفعول ترى محذوف وكذلك جواب لو أي ولو ترى الظالمين آنذاك لرأيت عجباً .
ومكر فاعل لفعل محذوف أي صدنا عن الحق مكرهم بنا في الليل والنهار . وأضاف
المكر إلى الليل والنهار على سبيل المجاز . وإذ تأمرونا « إذ » في محل نصب
بمكر . والمصدر من أن نكفر مجرور بباء محذوفة أي تأمرونا بالكفر بالله .

المعنى :

(وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذي بين يديه) من التوراة
والإنجيل . والذين قالوا هذا هم مشركو العرب بدليل الآية ٣٠ من سورة الفرقان :
« وقال الرسول يا رب ان قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً » . هجروا القرآن
وكفروا به لأنه ساوى بين الأبيض والأسود ، وقال لهم : « لا يسخر قوم من
قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن
ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب - ١١ الحجرات » . وكفروا بنبوة
محمد (ص) لأنه أراد أن يخرجهم من الجهل والتخلف الى العلم والحضارة .. قال

الجزء الثاني والعشرون

المستشرق المعاصر « جاك ريزلر » صاحب كتاب « يقظة الاسلام » ، وكتاب « الحضارة العربية » الذي طبع في فرنسا سنة ١٩٦٢ ، قال :

« بظهور الدين الاسلامي بدأت أولى مراحل الحضارة العربية ، ويُعزى نجاح قيام هذه الحضارة وانتشارها إلى عدة أسباب : أهمها ارتفاع الروح المعنوية لدى المسلمين بفضل الدين الجديد ، الأمر الذي أكسبهم جرأة جعلتهم يستهينون بالموت في سبيل الله » .

(ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول) .
بعد أن يش الرسول الأعظم (ص) من إيمان المشركين قال له المولى ، جلّت عظمته ، مسلماً : سوف ترى غداً حال هؤلاء المكذبين وما هم فيه من الخزي والهوان حين يقفون للحساب بين يدي الله كيف يتلاوم التابع والمتبوع ، ويخطئ كل منها الآخر (يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنكم لكننا مؤمنين) .
المستضعفون هم الاتباع ، والمستكبرون هم القادة (قال الذين استكبروا للذين استضعفوا انحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بسل كنتم مجرمين) . تماماً :
« كمثل الشيطان إذ قال للانسان اكفر فلما كفر قال اني بريء منك اني أخاف الله رب العالمين - ١٦ - الحشر » . وغير بعيد أن يكون هذا الشيطان في الآيه الكريمة كناية عن القادة الضالين المضلين .

(وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمرونا ان نكفر بالله ونجعل له أنداداً) . لما يش التابعون والمتبوعون من النجاة تلاوموا وتبادلوا التهم ، وأحال كل فريق الذنب على صاحبه ، تماماً كاللصوص يتفقون حين اقتراف الجريمة حتى إذا أخذوا بها لعن بعضهم بعضاً .. وقد كانت الغلبة في النهاية للمستضعفين حيث جابهوا المستكبرين بما كانوا يمحرون بهم ليلاً ونهاراً ، ويغرونهم بالكفر والشرك بشئ الأساليب ، وان كان هذا لا يعفيهم من العذاب ، ولا يخففه عنهم ما داموا عقلاء مختارين : « قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون - ٣٨ الأعراف » ج ٣ ص ٣٢٦ .

(وأسروا الندامة) وهم التابعون والمتبوعون (لما رأوا العذاب) وكسل من

سورة سبا

قَصَّرَ وَفَرَطَ فَصَبِرَهُ الْعَذَابَ وَالنَّدَامَةَ وَالْكَآبَةَ (وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا) مِنَ الْقَادَةِ وَأَتْبَاعِهِمْ (هَلْ يَجْزُونَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) كَلَّا، فَإِنَّ الْمَرْءَ يَجْزِي بِمَا أَسْلَفَ ، وَمُقَدِّمٌ عَلَى مَا قَدَّمَ « وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ » .

المترفون الآية ٣٤ - ٤٢ :

وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ * وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ * قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرَّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضَّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ * وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُخَضَّرُونَ * قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ * وَيَوْمَ يَخْشَرُكُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهُولَاءُ إِنِّي كُنْتُ كَانُوا يَعْبُدُونَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيِّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهمْ مِنْ مُؤْمِنُونَ * فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ *

اللغة :

الترفون هم الذين يتنعمون في الملذات كما يشاؤون . ويقدر يُضيق . وزلفى قربي . ومعاجزين جمع معاجز أي سابقه ليظهر عجزه .

الإعراب :

كافرون اسم اتنا ، وبما أرسلتم متعلق بكافرين ، وبه متعلق بأرسلتم . وأموالاً وأولاداً تمييز . ومعذبين الباء زائدة إعراباً ، ومعذبين خبر نحن . وزلفى مفعول مطلق لتقرّبكم . إلا من آمن وعمل صالحاً على الاستثناء المنقطع أي لكن من آمن وعمل صالحاً فإيمانه وعمله الصالح يقربانه من الله زلفى . فأولئك مبتدأ أول وجزاء مبتدأ ثان والضعف مجرور بالإضافة من إضافة المصدر الى مفعوله أي فأولئك نضعف لهم الجزاء ، ولهم خبر الثاني ، والجملة من الثاني وخبره خبر الأول ، وهؤلاء مبتدأ وإياكم مفعول يعبدون وجملة يعبدون خبر كان وجملة كان واسمها وخبرها خبر هؤلاء .

المعنى :

(وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها اتنا بما أرسلتم به كافرون وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذبين) . هذا هو تفكير المترفين ، وهذه هي لغتهم .. المال هو الأول والأخير ، هو السيد وهم العبيد ، ومن أجله يحملون لواء الشر والاعتداء على الناس ، ويتحكمون بالأسواق والأقوات ، ويشيرون الحروب الحامية والباردة ، ويسيطرون بكل أسلوب على مختلف مستويات الحياة ، ويربطون كل شيء بمكاسبهم وأرباحهم ، فالعلم ليس بشيء إلا إذا زاد من ثرواتهم ، والدين أداة هدم وتخريب إلا إذا كان حارساً لهم ولصالحهم ، والسلم هو ان يسلبوا وينهبوا ولا يزجرهم زاجر أو يسألهم سائل .. انظر تفسير الآية ١٦ من سورة الإسراء ج ٥ ص ٣٠ فقرة « المترفون » والآية ٩٠ من نفس السورة والمجلد ص ٨٥ .

(قل ان ربي ييسط الرزق لمن يشاء ويقدر ولكن أكثر الناس لا يعلمون) .
تقدم في الآية ٢٦ من سورة الرعد ج ٤ ص ٤٠١ فقرة : « الانسان والرزق »
(وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقرّبكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحاً
فأولئك لهم جزء الضعف بما عملوا وهم في الغرفات آمنون) . ان الله سبحانه
لا يقيس الخير والفضيلة بالأموال والأولاد ، ولا بالمناصب والأنساب ، بل بالإيمان
والعمل الصالح ، فبها يكون العبد مرضياً عند الله راضياً بثوابه وفضله . قال
الإمام علي (ع) : ليس الخير أن يكثر مالك وولدك ، ولكن الخير أن يكثر
علمك ويعظم حلمك ، وان تباهي الناس بعبادة ربك ، فإن أحسنت حمدت الله ،
وان أسأت استغفرت الله ، ولا خير في الدنيا إلا لرجلين : رجل أذنب ذنباً
فهو يتداركها بالتوبة ، ورجل يسارع في الخيرات .

(والذين يسعون في آياتنا معاجزين أولئك في العذاب محضرون) . تقدم مثله
في سورة الحج الآية ٥١ ج ٥ ص ٣٣٨ (قل ان ربي ييسط الرزق لمن يشاء
من عباده ويقدر له) . وتساءل : لماذا كرر سبحانه هذه الآية مع العلم بأنه لا فاصل
بينها وبين الأولى سوى آيتين ؟

وأجاب المفسرون بأن الآية الأولى تختص بالكافرين ، والثانية بالمؤمنين ، قال
الرازي : « والدليل على ذلك انه تعالى ذكر في الآية الثانية « من عباده » دون
الأولى ، والعبد المضاف اليه تعالى يراد به المؤمن » وغير بعيد أن يكون التكرار
للوعظ والتمهيد للحض على الانفاق الذي أشار اليه سبحانه بقوله : (وما أنفقتم
من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين) . وعن الرسول الأعظم (ص) انه قال :
ينادي مناد كل ليلة : اللهم هب لكل منفق خلفاً ، وينادي مناد آخر : اللهم
هب لكل ممسك تلفاً . وفي نهج البلاغة : استنزّلوا الرزق بالصدقة .

(ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة أهؤلاء آياكم كانوا يعبدون) . القصد
من توجيه هذا السؤال للملائكة هو تقريع المشركين وتوبيخهم ، وتدل الآية ان
بعض العرب كانوا يعبدون الملائكة ، وفي الآية ٤٠ من سورة الإسراء ايماء إلى
ذلك : « أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثاً » ومن نسب الولد اليه
تعالى فقد جعل له شبيهاً وفي العز شريكاً (قالوا سبحانه أنت ولينا من دونهم)

أي أنت سيدنا وهم أعداء لنا ، ونحن نبرأ منهم اليك (بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون) . قال جماعة من المفسرين : المراد بالجن هنا الشياطين ، وانهم زينوا للمشركين عبادة الملائكة وغيرهم من دون الله . وقال آخرون : ان عبادة الجن كانت معروفة عند العرب ، وعليه تكون الآية على ظاهرها ، ولا داعي للتأويل .. وسواء أكان الجن هم المعبودين عند العرب ، أم كان المعبود غيرهم بتزيين الشياطين فإن القصد الأول من الآية نفي الشريك لله ، والشفيع لديه إلا بإذنه ، وانه لا ملجأ منه إلا اليه .

ومن أجل هذا عقب سبحانه بقوله : (فالיום لا يملك بعضهم لبعض نفعا ولا ضرا) . فلا الملائكة ولا الانس والجن يملكون لأنفسهم شيئا عند نقاش الحساب فكيف يملكونه لغيرهم ؟ له وحده الملك والحمد ، وهو على كل شيء قدير (ونقول للذين ظلموا ذوقوا عذاب النار التي كنتم بها تكذبون) . قالوا: لا جنة ولا نثار ، ولا تؤمن حتى نراها جهرة ، فأحرقهم الله بعذابها استجابة لطلبهم .. وذكرني هذه الآية بمن يقول : لا علم ولا معرفة إلا عن طريق المشاهدة والتجربة حتى في غير المنظور والمحسوس .

انما أعظمكم بوحدة الآية ٤٣ - ٥٠ :

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا يَنبَغُوا قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَنْ مَا كَانُوا يَعْبُدُ آبَاءَكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِنْكَارٌ مِّمَّا مَفْتَرَىٰ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ * وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَّغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ * قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَتَىٰ

وَفَرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُمْ
 بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ * قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ
 أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ * قُلْ إِنْ رَبِّي يَهْدِ
 لِيَ الْخَيْرَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ * قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِيهِ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ *
 قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي
 إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ *

اللغة :

النكير الانكار ، والمراد به هنا الهلاك . مثني وفرادى أي اثنين اثنين وواحداً
 واحداً . والجِنَّة الجنون . والقذف الرمي والمراد به هنا الوحي إلى النبي (ص) .
 بدأ الشيء فعله ابتداء ، وأعاده كرره ، والمراد هنا ان الباطل لا أثر له على
 الاطلاق .

الإعراب :

كيف خبر كان ونكير اسمها وأصلها نكيري . والمصدر من أن تقوموا بدل
 من واحدة . ومثني وفرادى حال من فاعل تقوموا . بين يدي ظرف منصوب
 بنذير . ما سألتكم « ما » اسم موصول مبتدأ ، وجملة فهو لكم خبر والعائد على
 الموصول محذوف أي ما سألتكموه . وعلام الغيوب خبر مبتدأ محذوف أي هو .
 فبما يوحى متعلق بمحذوف خبر لمبتدأ محذوف أي فاهتدائي كائن بالوحي إليّ .

المعنى :

(وإذا تلى عليهم آياتنا بينات قالوا ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما

كان يعبد آباؤكم وقالوا ما هذا إلا افك مفترى وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم ان هذا إلا سحر مبين . ضمير عليهم وقالوا يعود الى مشركي العرب ، ومرادهم بالرجل محمد (ص) وقد وصفوه بالافتراء والسحر والجنون لأنه دعاهم الى نبذ الوثنية وتقاليدهم الجاهلية والكف عن المحارم والفواحش وارقة الدماء والتحكم بالضعفاء ، وإلى العمل بالعلم والعدل .. هذا هو ذنب الرسول الأعظم عندهم ، وهو - كما ترى - ذنب العالم المخلص عند الجاهل الخائن ، والطبيب الناصح عند العليل الذي يرى نفسه سليماً معافى .. وصدق من قال : يفعل الجاهل بنفسه ما لا يفعله العدو بعده .

(وما آتيناكم من كتب يدرسونها وما أرسلنا اليهم قبلك من نذير) . أشركوا بالله ، وكل شيء يدل على انه واحد ، وقلدوا الآباء والأجداد ، ولا حجة لهم من وحي منزل أو نبي مرسل أو إثارة من علم . أنظر تفسير الآية ٣ من سورة الحج ج ٥ ص ٣٠٨ فقرة ١ جدال الجهل والضلال ، (وكذب الذين من قبلهم وما بلغوا معشار ما آتيناكم فكذبوا رسلي فكيف كان نكير) . لقد أشرك قبلكم كثير من الأمم ، وكذبوا الرسل كما كذبت رسلهم ، وكانوا أكثر منكم قوة وحضارة ، ومع ذلك أخذهم الله بظلمهم وتمردهم .. ألا تعتبرون بهم ، وتخافون أن يصيبكم ما أصابهم ؟ ونقدم مثله في الآية ٦٩ و ٧٠ من سورة التوبة ج ٤ ص ٦٧ . (قل انما أعظمكم بواحداً أن تقوموا لله مثنى وفرداً ثم تفكروا ما بصاحبكم من جنة ان هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد) . أعظمكم أدعوك ، وواحدة خصلة واحدة ، ان تقوموا لله أن تنجدوا للحق بعيدين عن التقاليد والأهواء ، ومثني ان يراجع أحدكم الآخر وتدارسوا دعوتي ورسالي . وفرداً ان يرجع كل منكم الى عقله وضميره وينعم الفكر فيما جشتم به .. والمعنى قل يا محمد للذين كذبوك : أنا لا أطلب منكم إلا شيئاً واحداً ، هو العدل والانصاف ، هو ان تفكروا مجتمعين ومنفردين في دعوتي وبوعي وإخلاص ، ثم تنظروا : هل أنا مفتر أو ساحر أو مجنون كما تزعمون ، أم أنا بشير ونذير ، وناصح بصير ؟ .. وقد دعا النبي الكريم أهل الكتاب الى مثل هذه الدعوة : قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم الا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً - ٦٤ آل عمران ولا شيء أصدق في الدلالة على صدق رسول الله (ص) في كل ما جاء به من

دعوة خصومه الى منهج الحق والعدل .

رُوي عن ابن عباس ان النبي (ص) صعد الصفا ذات يوم ، وقال : يا صباحاه - كلمة يقولها المستغيث عند حدوث أمر عظيم - فاجتمعت قريش ، فقال : أرأيتم لو أخبرتكم ان العدو يصبحكم أو يمسبكم ، اما كنتم تصدقوني ؟ قالوا : بلى . قال : اني نذير لكم بين يدي عذاب شديد . فأجابه أبو لهب بكلمة الكفر .. ولكن ما مضت الأيام حتى استسلموا أذلاء صاغرين .

(قل ما سألتكم من أجر - فهو لكم ان أجري إلا على الله وهو على كل شيء شهيد) . المراد ب (فهو لكم) نفى سؤال الأجر من الأساس مثل : هـ فما سألتكم من أجر ان أجري إلا على الله - ٧٢ يونس هـ ج ٤ ص ١٨٠ (قل ان ربي يقذف بالحق علام الغيوب) أي يوحى بالحق الى أنبيائه ، وهو أعلم به ، وبأهلية من أوحى اليه للرسالة العظمى .

(قل جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد) . المراد بالحق هنا رسالة محمد (ص) وبالباطل الشرك ، وما يبدىء ويعيد كناية عن إزهاق الباطل وانتهاء أمره وعدم ظهور أثره في الجزيرة العربية اطلاقاً بعد الرسالة المحمدية (قل ان ضللت فأنما أضل على نفسي) وضرر ضلالي عليّ وحدي ، ولا شيء عليكم منسـه (وان اهتديت فبما يوحي إليّ ربي) واليه وحده الفضل في هدايتي ولا أملك منها ولا من غيرها إلا ما ملكني (انه سميع قريب) ان قلم سمع ، وان أضمرتم أو فعلتم علم لأنه أقرب اليكم من حبل الوريد .

وانتي لهم التناوش الآية ٥١ - ٥٢ :

وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأَخَذُوا مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ * وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاقُشُ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ * وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ * وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ *

اللغة :

إذ فرعوا إذ خافوا . فلا فوت فلا مهرب . ويقذفون يرحمون . والتناوش التناول . والمراد بالأشياء هنا الأمثال والأشباه .

الإعراب :

جواب نو محذوف أي لرأيت عجباً . وفوت اسم لا وخبرها محذوف أي لهم . والتناوش مبتدأ ، وانتي لهم أي من أين لهم وهو متعلق بمحذوف خبراً للتناوش .

المعنى :

(ولو ترى إذ فرعوا فلا فوت وأخلوا من مكان قريب) . الخطاب لرسول الله (ص) وأخلوا من مكان قريب كناية عن أنهم في تناول قدرة الله تعالى ، والمعنى لو رأيت غداً يا محمد ما يصيب المكذبين بنبتك من الذعر والعذاب الذي لا مفر لهم منه لرأيت عجباً . والمفروض من هذا الخطاب تهديد المشركين والتخفيف عن سيد المرسلين .

(وقالوا آمنا به وانتي لهم التناوش من مكان بعيد) . ضمير به يعود الى رسول الله (ص) لأن ذكره قد مر في الآية السابقة ٤٦ : « ما بصاحبكم من جنة » والتناوش التناول ، والمعنى ان المكذبين بمحمد يقولون حين يرون العذاب: آمنا به ، ولكن من أين يتناولون هذا الايمان ، أو يجديهم نقعاً ، وهو أبعد ما يكون عنهم لأن يوم القيامة هو يوم حساب وجزاء ، لا يوم ايمان وعمل . قال الإمام علي (ع) : اليوم عمل ولا حساب ، وغداً حساب ولا عمل .. عباد الله زنوا أنفسكم قبل أن توزنوا ، وحاسبوها قبل أن تحاسبوا .

(وقد كفروا به من قبل) فوات الفرصة ، وحيث ينفعهم الايمان (ويقذفون بالغيب من مكان بعيد) . يقذفون بالغيب أي يتكلمون من غير علم ، ومن مكان بعيد كناية عن بعد أقوالهم وإيمانهم عن الحق والواقع ، والمعنى أنهم كانوا يقولون: محمد مفترٍ وساحرٍ ومجنون ، ولا جنة ولا نار جهلاً ومن غير دليل .

سورة سبأ

(وحيل بينهم وبين ما يشتهون) . اشتهاوا النجاة والافلات من عذاب جهنم ، فُلجأوا إلى الإيمان والتوبة ، ولكن بعد فوات الأوان ، فازدادوا حمرة وُلماً (كما فُعل بأشباعهم من قبل) . فلقد كان لهم أشباه ونظائر من الأمم البائدة ، أعرضوا عن ربهم في الحياة الدنيا ، وفرعوا اليه في الآخرة ، فقال لهم : « انحلأوا فيها ولا تكلمون » - ١٠٨ المؤمنون ، (أنهم كانوا في شك مريب) من البعث والنشور ، وشك مريب مثل عجب عجيب ، وظل ظليل ، لأن الشك والريب بمعنى واحد .

سُورَةُ فَاطِرٍ

مكية ، وآياتها ٤٥ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله فاطر السموات والأرض الآية ١ - ٣ :

الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي
أُجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ
شَيْءٍ قَدِيرٌ * مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ
فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا
نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ
لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ قَاتِنِي تُوفِّكُونُ *

اللغة :

فاطر السموات والأرض خالقهما على غير مثال سابق . ومثنى وثلاث ورباع
معدولة عن اثنين اثنين وثلاثة ثلاثة وأربعة أربعة ، ولم يسمع فيها زاد عن هذه
الأعداد مثل خمس . والمراد بما يفتح هنا ما يعطي . وتوفكون تصرفون عن
الحق إلى الضلال .

الإعراب :

فاطر السموات صفة لله . وجاعل صفة ثانية ، وقيل : انه يعمل عمل الفعل لأنه مضاف فأشبه المقرون باللام ، وعليه يكون مضافاً الى المفعول الأول وهو الملائكة ، ورسلاً مفعول ثان . وأولي أجنحة بدل من رسل ، ومثنى وما بعدها صفات للملائكة . وما يفتح واء شرطية في محل نصب يفتح . فأنتى تؤفكون أي فلى أين ، والمجرور متعلق بتؤفكون .

المعنى :

(الحمد لله فاطر السموات والأرض جاعل الملائكة رسلاً أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد في الخلق ما يشاء ان الله على كل شيء قدير). حمد الله نفسه ليعلمنا كيف نحمده ونشكره .. وتدل الآية على ان من الملائكة من له جناحان ، ومنهم له ثلاثة ، ومنهم له أربعة ، وانه تعالى يزيد لآخرين في الأجنحة ما يشاء .. وهذا وما اليه يتفق مع قدرة الله وعظمته ، والعقل لا يأباه ، هذا ما نعلمه ، وما عداه نتركه إلى علم الله سبحانه لأننا غير مسؤولين عنه ، ولا تمت إلى حياتنا بسبب ، ولا دليل عليه من آية أو رواية متواترة. وأخشى أن يقول أنصار تأويل النصوص الدينية بالعلم الحديث ، أن يقولوا : ان مثنى إشارة الى الطائفة ذات المحركين ، وثلاث الى المحركات الثلاثة ، ورباعاً الى ذات الأربعة ، أما قوله تعالى:يزيد في الخلق ما يشاء فهو إشارة الى طائرات المستقبل ذات المحركات العديدة .

(ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم) . الفتح العطاء ، والإمساك المنع ، والارسال الاطلاق بعد المنع . وليس المراد بالرحمة هنا مجرد المال كما قال بعض المفسرين ، ولا هو مع الصحة والجاء والعلم كما قال آخرون .. كلا ، فإن المال قد يؤدي الى الطغيان والاستغلال ، فقد رأينا الكثير من أصحاب الملايين حولوا الشعوب الضعيفة الى شركات مساهمة يملكون أسهمها ، ويتحكمون بأهلها ويحولونهم الى عبيد مستخدمين أو لاجئين مشردين .. وقد تؤدي الصحة بصاحبها الى المغامرة والأخطار ، أما

الجاه فهو - في الأعم الأغلب - أداة للبغي والعدوان. ورب علم الجهل خير منه كالعلم الذي أنتج القنبلة الذرية ، وما إليها من الأسلحة الجهنمية .. كلا ، ليس المراد برحمته تعالى في هذه الآية المال وحده ولا الصحة وحدها ، ولا مجرد الجاه والعلم ، وإنما المراد بها لطف الله وهدايته الى الخير ، ووقايته من الشر .

قال الإمام علي (ع) : « عند تنامي الشدة تكون الفرجة ، وعند تضيق حلق البلاء يكون الرخاء » وقد شاهدنا أيسر المشاكل تزداد تعقيداً كلما اجتهد أصحابها في حلها ، ورأينا أعسرها تحل بسهولة ويسر أو تلقائياً ، ولا سر لذلك إلا إرادة الله ورحمته ، وصدق من قال : « ينال الإنسان على الشوك مع رحمة الله فإذا هو مهاد ، وينام على الحرير بدون هذه الرحمة فإذا هو شوك القتاد » .

(يا أيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض لا إله إلا هو فأنى تؤفكون) . هذا التذكير بنعمة الله وبأنه وحده الخالق الرازق إنما هو تأكيد للآية السابقة : « ما يفتح الله للناس من الخير » وفي نهج البلاغة : « فكم خصكم الله بنعمته ، وتداركم برحمته ، أعورتم له - أي ظهرت له عوراتكم - فسركم ، وتعرضتم لأخذه - أي هلكه - فأمهلكم .. فاستتموا نعم الله عليكم بالصبر على طاعته ، والمجانبة لمعصيته ، فإن غداً من اليوم قريب » .

فقد كتبت رسل من قبلك الآية ٤ - ٨ :

وَأِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ*
يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ
بِاللَّهِ الْغُرُورُ* إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ
لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ* الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ

آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ * أَقَمَّنَ زَيْنَ لَهُ سُوءَ
عَمَلِهِ فَرَأَاهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبُ
نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ *

الإعراب :

أَقَمَّنَ زَيْنَ لَهُ « من » مبتدأ والخبر محذوف أي كمن لم يزين له . وحسرات
مفعول من أجله للذهب، وعليهم متعلق بتذهب لا بحسرات لأنها مصدر ، والمصدر
لا يقدم معموله عليه . هكذا قال النحاة .

المعنى :

(وان يكذبوك فقد كذبت رسل من قبلك وإلى الله ترجع الأمور) فيثيب
المؤمن الصابر في جهاده ، ويعاقب من كذب الحق على تكذيبه، والغرض التخفيف
عن الرسول الأعظم (ص) ، وتهديد خصومه وأعدائه . وتقدم مثله في الآية ١٨٤
من سورة آل عمران ج ٢ ص ٢٢٢ والآية ٤٢ من سورة الحج ج ٥ ص ٣٣٥ .

(يا أيها الناس ان وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يفرنكم بالله
الفرور) . المراد بوعده الله هنا الحساب والجزاء بعد الموت ، ومغريات الدنيا المال
والجاه والنساء والبنون ، والفرور الشيطان . وتقدم مثله في الآية ٣٣ من سورة
لقمان (ان الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً انما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب
السعير) . أعلن الشيطان صراحة عداوته لبني آدم بقوله : « لا زين لهم في الأرض ولا غوينهم
أجمعين - ٣٩ الحجر » . وحزبه هم أتباعه الذين يستمعون إلى وسوسته واغرائه .
وقد حذرنا سبحانه من طاعته لأنه يدعو إلى الفساد والهلاك ، والله يدعو إلى
الخير والرحمة .

الجزء الثاني والعشرون

(الذين كفروا لهم عذاب شديد والذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر كبير) . لكل امرئ عاقبة حلوة أو مُرّة ، فعاقبة من كفر وأفسد جهنم وساءت مصيراً ، وعاقبة من آمن وأصلح جنة قائمة ، وراحة دائمة .

زُين له سوء عمله :

(أفن زُين له سوء عمله فراه حسناً) . لا أحد من الناس يعيش بلا فلسفة ومثل أعلى له ، حتى الذين يرفضون الفلسفات والمثل العليا فقد جعلوا هذا الرفض فلسفة لهم ومثلاً أعلى .. ومن هنا قبل : من نفى الفلسفة فقد تفلسف .. أجل ، لكل انسان فلسفة ، والفرق ان بعض الناس يبني فلسفته وأحكامه على التجربة والتحليل ، ومنهم من يبينها على العقل أو على الدين ، ومنهم من يحكم على الأشياء من خلال ذاته وميوله الخاصة معرضاً عن كل ما عداها لا يبحث ولا يفكر ولا يحلل ، لأنه لا يؤمن بعلم ولا عقل ولا دين ، لا بشيء إلا بما يراه ويهواه .. انه ينظر الى نفسه على انها المقياس الوحيد للحق والخير والصواب ، وانها في عصمة من النقص والخطأ .. والكلام عن هذا لا يدخل في أي بحث من البحوث إلا كشاهد على السفاهة والغرور القاتل ، وقد أشار سبحانه إليه في العديد من الآيات منها هذه الآية ، ومنها : « قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون انهم يحسنون صنعاً - ١٠٣ الكهف ج ٥ ص ١٦٣ ومنها : « وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا انما نحن مصلحون ألا انهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون - ١٢ البقرة » .

(فان الله يفضل من يشاء ويهدي من يشاء) . هذا تعليل لقوله تعالى : « أفن زُين له سوء عمله فراه حسناً » أي ان الله قد كتب عليه الضلال وسوء المصير لأنه سلك الطريق المؤدية الى ذلك تماماً كما كتب الموت على من شرب السم ، والفرق على من رمى نفسه في البحر ، وهو جاهل بفن السباحة . وتقدم مثله في الآية ٢٧ من سورة الرعد والآية ٤ من سورة ابراهيم والآية ٩٣ من سورة النحل .

(فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ان الله عليم بما يصنعون) . لا تأسف ولا تحزن يا محمد على الذين لم يستجيبوا لدعوتك ما داموا قد سلكوا طريق الضلال

والهلاك بسوء اختيارهم ، وقد أحصى الله عليهم كل صغيرة وكبيرة ، وسوف يعاملهم بما يستحقون . وتقدم مثله في الآية ٦ من سورة الكهف ج ٥ ص ١٠٢ .

والعمل الصالح يرفعه الآية ٩ - ١١ :

وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فُسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ
الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ الثُّمُورُ * مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ
جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ
السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يُبْورُ * وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ
مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا
تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمِّرُ مِنْ مَعْمَرٍ وَلَا يَنْقُصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ
إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ *

اللغة :

يبور من البوار وهو الهلاك . وأزواجاً أصنافاً بيضاً وسوداً وذكروراً وإناثاً .
والمعمر من طال عمره .

الإعراب :

جميعاً حال من للغة . ومكر مبتدأ وهو ضمير فصل ، وجملة يبور خبر .
ومن معمر ه من ، زائدة إعراباً ومعمر نائب فاعل ليعمّر . ونائب فاعل لا
يُنقص محذوف أي لا ينقص شيء من عمره . وفي كتاب متعلق بمحذوف خبراً
لمبتدأ محذوف أي الا هو كائن في كتاب .

المعنى :

(والله الذي أرسل الرياح فتثير سحاباً فسقناه إلى بلد ميت فأحييناه به الأرض بعد موتها كذلك النشور) . تقدم نظيره في الآية ٥٧ من سورة الأعراف ج ٣ ص ٣٤٢ .

(من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً) . العزة لله ولدين الله بالذات ، وبهما يكون الانسان عزيزاً ، ومن اعتر بغير الله ذل ، قال ابن عربي في الفتوحات : « عزة الحق لذاته إذ لا إله إلا هو ، وعزة رسوله بالله ، وعزة المؤمنين بالله وبرسوله .. فطرة هؤلاء بإعزاز الله ، فثبت للفرع ما ثبت للأصل » . وما ذل المسلمون في هذا العصر إلا لأنهم اعترفوا بغير الاسلام ، وقد كانوا من قبل أقل من اليوم عدداً ، ولكن كانوا كثيرين بالاسلام عزيزين بالاجتماع ووحدة الكلمة ضد عدو الله وعدوهم .

(اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه) . صعود الكلام ورفع العمل اليه تعالى كناية عن قبولها والاثابة عليها ، والكلام الطيب ما نفع ، ومثله العمل الصالح ، ونومى الآية الى ان سبب العزة والرفعة عند الله تعالى هو ما ينفع الناس من الأقوال والأفعال (والذين يَمْكُرُونَ السيئات لهم عذاب شديد ومكر أولئك هو يبور) . يَمْكُرُونَ السيئات أي يدبرون الأذى والاساءة الى المؤمنين والطيبين، ولكن هذا المكر والخداع الى بوار وهباء ، وفي معنى ذلك قوله تعالى : « ولا يحق المكر السيئ إلا بأهله - ٤٣ فاطر » .

(والله خلقكم من تراب ثم من نطفة) . تقدم في الآية ٥ من سورة الحج ج ٥ ص ٣١٠ (ثم جعلكم أزواجاً) أصنافاً أسود وأبيض وذكرأ وأنثى (وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه) لأنه بكل شيء محيط (وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب ان ذلك على الله يسير) . المعمر طويصل العمر . ولا ينقص من عمره كناية عن قصر العمر ، وفي كتاب أي في علم الله ، والمعنى الأعمار بيده تعالى . وفي نهج البلاغة : « لا تتألون من الدنيا نعمة إلا بفراق أخرى ، ولا يعمر معمر منكم يوماً من عمره إلا بهدم آخر من أجله » . انظر ج ٢ ص ١٧١ فقرة : « الأجل محتوم » .

وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ
وَمِنْ كُلِّ تَاكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى
الْفُلُكَ فِيهِ مَوَآخِرَ لِيَتَبَتَّغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * يُوَلِّجُ
الْلَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي
لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا
يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ * إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا
اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ
خَبِيرٍ * يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ *
إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ * وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ *
وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ خِلْفِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ
شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا
الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ *

اللغة :

عذب حلو لذيد . والسائغ سهل المرور في الحلق . وملح أجاج شديد الملوحة .
ومواخر جمع ماخرة ، يقال : نحررت السفينة إذا جرت . وقطمير قشر رقيق على
نوى التمر كاللغافة لها . والوزر الذنب . والمثقلة النفس التي أثقلتها الذنوب .

الإعراب :

شرا به فاعل سائع . وجملة تلبسونها صفة حلية . والمصدر من لتبتغوا متعلق بمواخر . ذلكم مبتدأ والله خبر أول وربكم خبر ثان ، وله الملك مبتدأ وخبر والجملة خبر ثالث . ومن دونه متعلق بمحذوف حالاً من مفعول تدعون المحذوف أي والذين تدعونهم كائنين من دونه . وكل من وازرة وأخرى ومثقلة صفة لنفس محذوفة أي ولا تزر نفس وازرة وزر نفس أخرى . ولو كان ذا قربى « لو » للوصل واسم كان محذوف أي ولو كان المدعو ذا قربى .

المعنى :

(وما يستوي البحران هذا عذب فرات سائع شرا به وهذا ملح اجاج) . هذه الآية من الآيات الكونية ، وهي تشير إلى تنوع الماء عذوبة وملوحة ، وهذا التنوع وان استند مباشرة إلى أسبابه الطبيعية فلإنها تنتهي إلى خالق الطبيعة ومبدعها . وتقدم مثله في الآية ٥٣ من سورة الفرقان ج ٥ ص ٤٧٦ (ومن كل) واحد من البحرين (تأكلون لحماً طرياً) كالسمك (وتستخرجون حلية تلبسونها وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون) . تقدم بالنص الحرفي في الآية ١٣ من سورة النحل ج ٤ ص ٥٠٢ .

(يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل) . تتحرك الأفلاك ويدور بعضها حول بعض ، فتتعدد الفصول ، ويأخذ الليل من النهار في فصل ، والنهار من الليل في فصل آخر ، وهذا التنظيم الدقيق المطرد في كل عام مدى الملايين من القرون - يدل دلالة قاطعة على وجود المدبر الحكيم لهذا الكون ، تماماً كما تدل الآلة التي تؤدي الغرض المطلوب منها - على صانعها ومنظمها ، والصدفة باطلة بحكم التكرار . وتقدم مثله في الآية ٢٧ من سورة آل عمران ج ٢ ص ٣٧ (وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى) . تقدم بنصه الحرفي في الآية ٢ من سورة الرعد ج ٤ ص ٣٧٣ .

(ذلكم الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطير) .

سورة فاطر

القمطير كناية عن أحقر الأشياء وأنفها ، والمعنى ان ما ترونه من مظاهر الكون وعجائبه فهو من صنع الله الذي لا إله سواه ، أما الذين تعبدون وترجون فإنهم لا يملكون مع الله شيئاً (ان تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم) ان كانوا بلا احساس وشعور كالأحجار والأشجار والكواكب (ولو سمعوا) ان كانوا من الإنس أو الجن أو الملائكة (ما استجابوا لكم) لأنهم لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرراً ، فكيف يملكون ذلك لغيرهم (ويوم القيامة يكفرون بشرككم) . يبرأون منكم ويوبخونكم على الشرك والضلال (ولا ينبئك مثل خبير) بمصير هؤلاء المكذبين بنبوتك يا محمد وغيرهم من العصاة والطغاة .

(يا أيها الناس أنتم الفقراء الى الله والله هو الغني الحميد) . ان افتقار المخلوق الى خالقه لا ينقطع أبداً تماماً كافتقار المعلول الى علته ، والمسبب الى سببه ، قال ابن عربي في الفتوحات : للانسان وجهان : وجه مفتقر الى الله ، ووجه غني عن العالم ، فهو فقير ذليل أبداً بالنسبة اليه تعالى ، وغني عزيز بالنسبة الى من استغنى عنه .

(ان يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز) . ذلك اشارة الى إلقاء العاصين ، وإيجاد المطيعين مكانهم ، ولو أراد ذلك سبحانه لكان ما أراد ، لأنه على كل شيء قدير . وتقدم في الآية ١٩ من سورة ابراهيم بالنص الحرفي ج ٤ ص ٤٣٦ ، وبالمعنى في الآية ١٣٢ من سورة النساء ج ٢ ص ٤٥٦ والآية ١٣٣ من سورة الانعام ج ٣ ص ٢٦٦ .

(ولا تزر وازرة وزر أخرى) كل مذهب يُحاسب ويعاقب على ذنبه فقط ، والعكس في التوراة سفر العدد اصحاح ٢٤ : « الرب طويل الروح .. ولكنه لا يرى بل يجعل ذنب الآباء على الأبناء » . وتقدمت الآية بنصها الحرفي في سورة الانعام الآية ١٦٤ ج ٣ ص ٢٩٣ (وان تدع مثقلة اتي حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى) . مثقلة أي نفس تحمل حملاً ثقيلاً من الأوزار ، والمعنى لا يجدي في ذلك اليوم تضرع وخضوع ولا طلب العون والغوث من قريب وحبيب لأن لكل انسان من نفسه شاغلاً عن غيره : « يوم يفر المرء من أخيه وأبيه وصاحبه وبنيه لكل امرئ امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه - ٣٧ عبس » .

(انما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة) . انما يستجيب لدعوتك يا محمد الذين يخافون الله ، ويرجون ثوابه ، أما الذين لا يؤمنون به ولا باليوم الآخر فلا يجدي معهم نصيح ولا انذار (ومن تركني فلنما يتركى لنفسه) . هذا مثل قوله تعالى : « من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد » فصلت ٤٦ . وفي نهج البلاغة : حاسب نفسك لنفسك ، فإن غيرها من الأنفس لها حاسب غيرك (والى الله المصير) فيثيب من آمن وأصلح ، ويعاقب من أفسد وأساء .

وما يستوي الأعمى والبصير الآية ١٩ - ٢٨ :

وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ* وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ* وَلَا الظُّلُّ وَلَا
الْحُرُورُ* وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ
وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ* إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ* إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ
بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ* وَإِنْ
يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ
وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ* ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ*
أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا
وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ* وَمِنَ
النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ
الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ*

اللغة :

استوى هذا وذاك أي هما سواء أو على سوية . والظّل الفيء والظلال ما أظلك . والحرور الريح الحارة والحرور من داخلته حرارة الغيظ ونحوه . والجدد يضم الجيم جمع جدة بالضم أيضاً ، وهي الطريق والجادة من الألوان المختلفة . وغرايب جمع غريب الشديد السواد ، وفي البحر المحيط يقال : اسود حلكوك واسود غريب .

الإعراب :

ان نافية ، ومن زائدة اعراباً ، وأمة مبتدأ ، وجملة خلا خبر . ومختلفاً صفة لثمرات وألوانها فاعل مختلف . ومن الجبال جدد مبتدأ وخبر ، وببيض وحرر صفة لجدد . ومختلف ألوانها صفة لحرر . وببيض موصوفة بمختلف محذوف ، وهو من باب حذف الأول لدلالة الثاني عليه ، والمعنى ان الجدد البيض تختلف في البياض شدة وضعفاً ، والجدد الحمر تختلف في الحمرة كذلك . ومن الناس وما بعده متعلق بمحذوف خبراً لمبتدأ محذوف ، ومختلف ألوانه صفة للمبتدأ المحذوف أي جنس مختلف ألوانه . وكذلك الكاف بمعنى مثل صفة لمفعول مطلق محذوف أي اختلافاً مثل ذلك .

المعنى :

(وما يستوي الأعشى والبصير ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور وما يستوي الأحياء ولا الأموات) . المراد بالأعشى من انحرف عن طريق الحق والهداية ، وضده البصير ، والظلمات كناية عن الجهل والضلال والنور كناية عن العلم والهدى ، والظل يرمي إلى النعيم والحرور إلى الجحيم ، أما الأحياء فهم أصحاب القلوب الحية الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، وضدهم الأموات ، والمعنى ليس سواء عند الله وفي الواقع من آمن وأصلح ومن كفر وأفسد ، بل ان الفرق بينها تماماً كالفرق بين العمى والبصر ، والنور والظلام ، والجحيم والنعيم ، والموت والحياة .

(ان الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من في القبور ان أنت إلا نذير .)
 ان كلامه تعالى يؤثر ويعمل عمله في نفوس الذين يطلبون الحق لوجه الحق ،
 ويستمعون اليه رغبة في العمل به ، أما الذين لا يحركهم شيء إلا المصالح الخاصة
 ولا يعملون إلا بوحى منها فإنهم لا يستمعون إلى كلامه تعالى ، ولا هو ، جلت
 حكمته ، يلجنهم إلى الهداية وإلا بطل الثواب والعقاب . وتقدم مثله في الآية ٤٢
 من سورة يونس ج ٤ ص ١٦٢ والآية ٨٠ من سورة النمل .
 (انا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً) . أرسل الله محمداً (ص) بالحجج الكافية
 الوافية داعياً إلى الحق ، وشاهداً على الخلق ، فبلغ رسالات ربه على أكمل وجه ،
 وكان رحمة للعالمين بعامه ، وللعرب بخاصة حيث نقلهم من الجاهلية الجهلاء الى
 نور الاسلام وكرامته . وتقدم بنصبه الحرفي الآية ١١٩ من سورة البقرة ج ١ ص ١٩٠ .

لكل أمة رسول :

في القرآن الكريم آيات تدل صراحة على ان الله سبحانه أرسل لكل أمة رسولا ،
 منها هذه الآية : « وان من أمة إلا خلا فيها نذير » ومنها : « فكيف اذا
 جئنا من كل أمة بشهيد - ٤١ النساء » ج ٢ ص ٣٢٧ ، ومنها : « ولقد
 بعثنا في كل أمة رسولا » - ٣٦ النحل » ج ٤ ص ٥١٢ ، ومنها : « ولكل أمة
 رسول - ٤٧ يونس » ج ٤ ص ١٦٥ . بالإضافة الى قوله تعالى : « فوريك
 لنسألتهم أجمعين عما كانوا يعملون - ٩٢ الحجر » ، وقوله : « يحسب الانسان
 أن يترك سدى - ٣٦ القيامة » ونحو ذلك .

وغير بعيد أن يكون المراد بالرسول والنذير والشهيد كل ما تقوم به الحجة ،
 وتُقطع به المنة من نبي مرسل أو كتاب منزل أو مرشد مصلح أو حكم من
 أحكام العقل البدئية التي لا ينبغي ان يختلف فيها اثنان من ذوي العقول السليمة
 وفطرة الله التي فطر عليها الناس ، كتبج الظلم والخيانة ، وحسن العدل والأمانة ، وما
 إلى ذلك . ولا نعرف أمة من الأمم عاشت فوضى وبلا نظام ، تدع كل واحد
 من أفرادها وما يشاء لا تحاسبه على قول أو فعل .

وتسأل : ألا يتنافى قوله تعالى : « وان من أمة الا خلا فيها نذير » مع

قوله : « وما أرسلنا اليهم قبلك من نذير - ٤٤ سبأ » حيث أثبت في الآية الأولى النذير لكل قوم ، ونفاه في الثانية عن قوم محمد (ص) قبل بعثته ؟

الجواب : النذير في الآية الأولى يشمل كل نذير نبياً كان أم غير نبي ، أما النذير في الآية الثانية فالمراد به النبي بالخصوص ، وعليه فلا تضاد بين الآيتين لأن المعنى ان قوم محمد (ص) لم يأتهم نبي مرسل قبل البعثة ، ولكن أتاهاهم نذير من العقل والفطرة ، وهو كاف واف لالقاء الحجة عليهم بخاصة في عبادتهم الأحجار ومن أجل هذا كان الرسول الأعظم (ص) يجادلهم فيها بمنطق العقل ويقول لهم : « أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضرراً ولا نفعاً - ٧٦ المائدة » .

(وان يكذبوك فقد كذب الذين من قبلهم جاءهم رسلم بالبينات وبالزبر وبالكتاب المنير) . الزبر الكتب ، والمراد بها هنا الحكيم والمواعظ ، والكتاب المنير التوراة التي نزلت على موسى ، والانجيل الذي نزل على عيسى ، وغيرهما من الكتب المنزلة قبل بعثة خاتم الأنبياء والمرسلين . وتقدم في الآية ١٨٤ من سورة آل عمران ج ٢ ص ٢٢٢ (ثم أخذت الذين كفروا فكيف كان نكير) . المراد بالنكير العذاب أي ان الله سبحانه أنكر عليهم بالفعل لا بالقول . وتقدم في الآية ٤٤ من سورة الحج ج ٥ ص ٣٣٧ والآية ٤٥ من سورة سبأ .

(ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها) وطعمها وروائحها ، وليس من شك ان هذا الاختلاف يستند مباشرة إلى أسبابه الطبيعية ، ولكن هذه الأسباب تنتهي الى خالق الطبيعة . وتقدم مثله في الآية ٤ من سورة الرعد ج ٤ ص ٣٧٥ و ٢٧٦ فقرة « السيد الأفغاني والدهريون » .

(ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود) . يقول ، عز من قائل : انه جعل في الجبال طرفاً ، بعضها طرق بيض ، وبعضها طرق حمر ، وبعضها طرق سود ، وكل صنف من هذه الطرق الثلاث يختلف في لونه شدة وضعفاً ، والعبرة في هذا الاختلاف هي الدلالة على قدرة الله وارادته تعالى تماماً كدلالة اختلاف الثمار (ومن الناس والدواب والانعام مختلف ألوانه كذلك) . وعطف الانعام على الدواب من باب عطف الخاص على العام لأن المراد بالدواب الحيوانات التي تدب على الأرض ، ومنها الانعام التي تطلق على الابل والبقر والغنم

والماعز ، والمعنى ان اختلاف ألوان الناس واختلاف ألوان الدواب يدلان على قدرة الله تماماً كما دل اختلاف الثمرات والطرق .

(انما يحشى الله من عباده العلماء) . المراد بالعلماء هنا الذين آمنوا بالله عن علم لا عن تقليد ، وعرفوا عظمته بالأدلة والبراهين ، وما من شك ان العالم بقدرة من لا يقهره شيء ولا يفوته شيء - لا ينفك أبداً عن الخوف منه ، ومن ثم كان العلماء بالله أشد الناس خوفاً من غضب الله وسطوته ، وأكثرهم رجاء لفضله وعفوه .. ونحن من الذين يؤمنون بأنه لا إيمان حقاً بلا تقوى ، ولا تقوى بلا وعي ، ومن أجل ذلك قال الرسول الأعظم (ص) : « فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على النجوم » واشتهر عنه (ص) : نوم العالم خير من عبادة الجاهل (ان الله عزيز غفور) . عزيز في انتقامه ممن طغى وبغى ، غفور لمن تاب وأتاب .

ظالم لنفسه ومقتصد وسابق بالخيرات الآية ٢٩ - ٣٥ :

إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّنُ تَبُورَ * لِيُؤْفِقَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ * وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ * ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ * جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ * وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ

شَكَورُ* الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا
يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ*

اللغة :

العدن الإقامة . والحزن بفتح حين من الأرض ضد السهل ، ومن النفس ضد
الفرح . ودار المقامة دار الخلود ، وهي الجنة . والنصب تعب الجسم . واللغوب
تعب النفس الناشئ عن تعب الجسم .

الإعراب :

سراً قائم مقام المفعول المطلق أي اتفاقاً سراً مثل قت طويلاً أي قياماً طويلاً .
وجملة يرجون خبر إن . والمصدر من ليوفينهم متعلق بيرجون أي يهدفون من
أعمالهم الصالحة إلى أجر الله وفضله . هو ضمير الفصل لا محل له من الإعراب
والحق خبر الذي ، ومصدقاً حال . جنات عدن خبر مبتدأ محذوف أي ثوابهم
جنات عدن . وجملة بدخلونها حال ، ومثلها جملة يحلّون ، ومن أساور متعلق
بيحلون . ولؤلؤاً عطف على محل أساور لأن كل مجرور لفظاً هو منصوب محلاً
أو مفعول لفعل محذوف أي ويحلون فيها لؤلؤاً . ودار الإقامة مفعول ثانٍ لأحلنا
و « نا » مفعول أول . وجملة لا يمسنا حال من « نا » .

المعنى :

(ان الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية
يرجون تجارة لن تبور) . المراد بكتاب الله القرآن الكريم ، وبالتلاوة التدبر
والعمل ، لأن قوله تعالى : « ان الذين يتلون كتاب الله الخ » بعد قوله :

« انما يخشى الله من عباده العلماء » يومية الى ان المراد من « يتلون » ما قلناه ، وفي نهج البلاغة : ليس في ذلك الزمان سلعة أبور من الكتاب اذا تسلي حق تلاوته ، ولا انفق منه - أي اروج - اذا حرف عن موضعه .. فقد دل السياق على ان المراد بحق التلاوة العمل . ومعنى الآية ان الذين يتدبرون القرآن ويعملون بأحكامه قاصدين وجه الله فقد ربح تجارتهم ، وكانوا هم الفائزين . وفي نهج البلاغة : باع المؤمنون قليلاً من الدنيا لا يبقى بكثير من الآخرة لا يفتى (ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله انه غفور شكور) . آمنوا وعملوا وأخلصوا طلباً لمرضاة الله ومثوبته ، وعفوه ورحمته فقالوا ما يبتغون . وتقدم مثله في الآية ٢٧٤ من سورة البقرة ج ١ ص ٤٢٨ والآية ٢٢ من سورة الرعد ج ٤ ص ٣٩٨ . (والذي أوحينا اليك من الكتاب هو الحق) . المراد بالكتاب القرآن ، وهو يحمل معه الأدلة والبراهين على صدقه وحقيقته ، وهي أحكامه وتعاليمه التي تعطي الأولوية للإيمان بعدل الله ووحدانيته ، وبكرامة الانسان وحرية (مصداقاً لما بين يديه) من الكتب والشرائع التي تقوم على هذا الأساس ، أساس الإيمان بالله وبالانسان (ان الله بعباده لخبير بصير) بما يصلحهم وما يفسدهم ، فينهاهم عن هذا ، ويأمرهم بذلك . ولكن المسلمين تركوا ما امر به القرآن ، وفعلوا ما نهى عنه ، وصدق عليهم قول الرسول الأعظم : يأتي على أمتي زمان ينهون فيه عن المعروف ، ويأمرون بالمنكر .. فلا بدع اذا تسلط عليهم شرار خلق الله . (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا) . المراد بالكتاب القرآن ، ما في ذلك ريب ، واختلف المفسرون في المراد بالمصطفين ، فذهب أكثرهم أو الكثير منهم الى انهم أمة محمد (ص) . والذي نراه نحن انهم محمد (ص) وأهل بيته وصحابته وعلماء أئمة الذين ساروا بسيرته ، وعملوا بسنته لأن كلمة اصطفينا معناها اخترنا ، والله سبحانه لا يختار إلا المتقين الأبرار ، وقد استعمل القرآن الكريم كلمة الاصطفاء بهذا المعنى في العديد من الآيات ، منها : « ان الله اصطفى آدم ونوحاً وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين - ٣٣ آل عمران » . ومنها : « ولقد اصطفينا في الدنيا وانه في الآخرة لمن الصالحين - ١٣٠ البقرة » . أما ضمير « منهم » في قوله تعالى : (فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله) أما هذا الضمير فإنه يعود الى «عبادنا» لأنهم أقرب من «الذين اصطفينا» .

والظالم لنفسه من رجحت سيئاته على حسناته، والسابق بالخيرات من رجحت حسناته على سيئاته ، وبالأولى من لا سيئات له ، والمقتصد بينهما أي الذي استوت حسناته وسيئاته .

(ذلك هو الفضل الكبير جنات عدن يدخلونها يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً ولباسهم فيها حرير) . ذلك اشارة الى الميراث والاصطفاء ، وجنات عدن الخ . بيان وتفسير لفضل الله الكبير الذي جعله جزاء للذين اصطفى ، والذهب واللؤلؤ والحرير تعبير ثان عن قوله تعالى : « وفيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين - ٧١ الزخرف » وفي الحديث ان اعرابياً قال : يا رسول الله هل في الجنة سماع أي غناء ؟ قال : نعم يا أعرابي .

(وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن ان ربنا لغفور شكور الذي أحلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب) . حمدوا الله وشكروه على الخلاص من الخوف والاضطراب ، والنجاة من الجحيم والعذاب ، والتحرر من الأتخاب والأرزاء ، وعلى الخلود في النعم والهناء .

لا يقضى عليهم الآية ٣٦ - ٣٩ :

وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ * وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ * إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا

يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرَهُمْ إِلَّا خَسَارًا★

اللمعة :

يصطرخون يصيحون مستغيثين . نعركم نهلکم . وخلائف جمع خليفة وهو الذي يخلف من قبله .

الاعراب :

فيموتوا منصوب بأن مضرة لأن الفعل وقع جواباً للنفي ، والمصدر المنسبك فاعل لفعل محذوف أي فيحصل لهم الموت . وصالحاً صفة لمفعول محذوف أي عملاً صالحاً . وما يتذكر « ما » مصدرية ظرفية أي ألم نعركم أمداً كافياً للتذكر . ومقتاً وخساراً تمييز .

المعنى :

(والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها) . ذكر سبحانه صوراً لعذاب العصاة الطغاة ، منها هذه الصورة ، وهي أليم العذاب وشلتته ، ودوامه واستمراره ، فلا موت ينتهي به العذاب ، ولا سبب يوجب التخفيف (كذلك نجزي كل كفور) جزاءً وفاً لجرمه وجريته وتقدم مثله في الآية ٥٦ ج ٢ ص ٣٥٣ (وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا منها نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل) . صاحوا واستغاثوا ولا مغيث ، وتضرعوا وتابوا ولكن بعد فوات الأوان . وتقدم مثله في الآية ١٠٠ من سورة المؤمنون ج ٥ ص ٣٨٨ والآية ١٠٧ ص ٣٩٠ من نفس السورة والمجلد . وقال سبحانه في الآية

٢٨ من سورة الأنعام : « ولو رُدُّوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون » ج ٣ ص ١٧٩ .

(أو لم نعمركم ما يتذكر فيه مَنْ تذكَّر وجاءكم النذير) . طلبوا من الله ان يعيدهم الى الدنيا ثانية ليستدركوا ما فات من الايمان وصالح الأعمال ، فأجابهم سبحانه : لقد كنتم في الدنيا من قبل ، ومكنتم فيها أمداً غير قصير ، وجاءكم البشير والنذير ، ودلّتم الى سبيل الرشd والهداية ، فأبَيْتم إلا البغي والضلال (فذوقوا) العذاب الآن بما كنتم تكفرون (فما للظالمين من نصير) لأنهم هم الذين ظلموا أنفسهم بسوء اختيارهم ، لأن الله أعذر اليهم بالجهج والبيئات .

(ان الله عالم غيب السموات والأرض انه عليم بذات الصدور) . يعلم السرائر والضمائر ، وما يغيب في الأرض والسماء عن الأبصار والبصائر ، ولا يخفى عليه من شيء كان ويكون (هو الذي جعلكم خلائف في الأرض فمن كفر فعليه كفره ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتاً ولا يزيد الكافرين كفرهم إلا خساراً) . خلق سبحانه الأرض في تكوينها وامكانياتها معاشاً وحياة للناس ، يرثونها جيلاً بعد جيل ، ومنحهم العقل والقدرة على التحكم بها وتغييراتها كما يشاؤون ، وأمرهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ، وحدد لهم حدوداً ، ونهاهم أن يعتدوها .. فمن سمع واتفق فله أجر كريم ، ومن أعرض ونأى فله عذاب الجحيم يتضاعف ويزداد كلما ازدادوا عتواً وطغياناً : « إنما نملئ لهم ليزدادوا إثماً - ١٧٨ آل عمران » ج ٢ ص ٢١٠ .

يُحْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْآيَةُ ٤٠ - ٤٣ :

قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَ كُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْهُ بَلْ إِنَّ يَعْدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا * إِنَّ اللَّهَ يُنْصِتُ

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكْتَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ
بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا * وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ
نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ
إِلَّا نِفُورًا * أَسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ
السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّةَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ
تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا *

الله :

أرأيتم أخبروني . جهد إيمانهم بالغوا فيها واجتهدوا .

الإعراب :

شركاءكم مفعول أول لأرأيتم . والذين بدل من شركائكم . وأروني تأكيد
لأرأيتم لأن كلاً منها بمعنى أخبروني . ومضمون الاستفهام من « ماذا خلقوا »
مفعول ثان . وبمضهم بدل بعض من الظالمين . والمصدر من ان تزولا مفعول
من أجله ليمسك . وجهد مفعول مطلق لأقسموا لأنه مضاف إلى الإيمان . واستكباراً
مفعول من أجله ، ومكر السيء معطوف عليه .

المعنى :

احتج سبحانه في الآية الأولى على المشركين بأمور ثلاثة :

١ - (قل أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الأرض).

أخبروني أيها المشركون : ما الذي دعاكم ان تجعلوا لله أنداداً وأصداداً ؟ فهل من شيء في الأرض يدل صنعه على تعدد الصانع والأنداد ؟.. كلا ، فإن جميع الكائنات ينطق وجودها بوحداية الله ، ويشهد إحكامها بعظمته وحكمته .

٢ - (أم لهم شرك في السموات) . المراد بالشرك هنا النصيب ، والمعنى أم لمعبود المشركين أثر في السماء يدل على انهم شركاء لله في خلقه ؟

٣ - (أم آتيناهم كتاباً فهم على بينة منه) . ضمير « هم » يعود الى المشركين لا الى الشركاء ، وضمير « منه » يعود الى الكتاب ، والمعنى أم جعلتم شركاء لله في العبادة وغيرها اعتماداً على كتاب منزل أو نبي مرسل ؟ وبالأجبال لا عذر للمشركين من العقل أو النقل فيما يشركون ، بل هم في سكرتهم يعمهون .

(بل ان يعد الظالمون بعضهم بعضاً إلا غروراً) . المراد بالغرور هنا الباطل ، وقد كان رؤساء الشرك والضلال يقولون للضعفاء والأتباع : ان الأصنام يشفعون لكم غداً .. وليس من شك ان هذا الوعد والقول كذب وافتراء ، واغراء بالباطل (ان الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكها من أحد من بعده انه كان حليماً غفوراً) . أمسك سبحانه الكواكب بنظام الجاذبية ، تماماً كما أمسك الفطر في السماء بمخاحيه ، وأسند تعالى الإمساك اليه لأنه خالق الكون ومسبب الأسباب . وتقدم مثله في الآية ٦٥ من سورة الحج ج ٥ ص ٣٤٦ .

(وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير لبيكونن أهدي من احدى الأمم) . ضمير أقسموا يعود إلى مشركي قريش ، واحدى الأمم أي أمة من الأمم ، وفي البحر المحيط يقال : إحدى الأمم ، تفضيلاً لها على غيرها أي لا نظير لها .. وقد كانت قريش تنكر على اليهود انحرافهم عن دينهم وقتلهم أنبياءهم ، وتحلف الأيمان المغلفة لئن جاءها رسول من الله لتكونن أطوع اليه من بنائه (فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفوراً استكباراً في الأرض ومكر السيئ) . وأخيراً جاءهم رسول من عند الله بالهدى والبيئات .. ولكنهم كذبوه ونفروا منه وتعالوا عليه وعلى دعوته ، ومكروا به وبأتباعه ، وصدوا الناس عن الإيمان بنيوته .. ولكن في النهاية نصره الله عليهم واستسلموا لأمره أذلاء صاغرين .

(ولا يحق المكر السيئ إلا بأهله) . المكر السيئ أن تضمر الشر لأخيك ،

وتدبره له في الخفاء ليقع فيه من حيث لا يشعر .. وإذا جهل المسكين ما اضرمت ودبرت فإن الله به عليم ، وهو مجازيك عليه لا محالة جزاء الكاذب المخادع ، ويعود عليك وبال كيدك ومكرك (فهل ينظرون إلا سنة الأولين فلن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلاً) . سنة الأولين أي سنة الله في الأولين ، وهي هلاك من كذب أنبياء الله ورسله ، والمعنى ألا يعلم الذين كذبوا رسولنا محمداً ان الله قد أهلك قوم نوح وعاد وثمود وأمثالهم ممن كذبوا الرسل ، وان هذه هي عادته في كل مكذب بأنبياء الله ورسله ، وانها لا تتبدل ولا تتحول ؟ أفالا يعتبرون بالغير ، ويتعظون بالعبر ؟

ما ترك على ظهرها من دابة الآية ٤٤ - ٤٥ :

أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ
وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ
وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيماً قَدِيرًا * وَلَوْ يُوَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا
كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى
فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا *

اللغة :

المراد بالدابة هنا كل ما دب ويدب على الأرض حتى بني آدم .

الإعراب :

قوة تمييز . واللام في ليعجزه لمجرد تأكيد النفي . ومن زائدة إعراباً وشيء فاعل يعجزه . والضمير في ظهرها يعود الى الأرض التي دل عليها سياق الكلام . ومن زائدة ودابة مفعول ترك .

المعنى :

(أولم يسبّروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم وكانوا أشد منهم قوة) . هذه الآية ترتبط بالتي قبلها ، فتلك تقول : ان سنّة الله فيمن مضى من مكذبي الرسل هي الإهلاك والاستئصال ، وتقول هذه لمن كذب عمداً (ص) : تلك آثار المكذبين قبلكم وديارهم ظاهرة للعيان ، وما هي منكم ببعيد ، فاضربوا في الأرض قليلاً وشاهدوها لعلكم تذكرون وتتعتون . وتقدم في الآية ٤٦ من سورة الحج ج ٥ ص ٣٣٧ .

(وما كان الله ليعجزه من شيء في السموات ولا في الأرض انه كان عليمًا قديرًا) لا يفوته المقيم ، ولا يعجزه الهارب ، فكل شيء خاضع لقدرته ، وخاضع لعظمته . وفي بعض التفاسير : ان جميع المخاوفات خصماء المذنبين حتى الدواب والوحوش والنر والطيور ، لأن الله يتزل العذاب عليهم ، واذا نزل العذاب عم كما قال تعالى : « واتقوا فتنة لا تصيب الذين ظلموا منكم خاصة - ٢٥ الأنفال » ج ٣ ص ٤٦٨ .

(ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيرًا) . وأدل شيء على عقوق الانسان لخالفه انه يأكل رزقه ، ويعيد غيره .. وهذا وحده كافٍ وافٍ للعقاب والمؤاخذه ، ولكن لكل شيء عند الله مدة وأجلًا مسمى .

سُورَةُ الْكَافِرَاتِ

مكية إلا آية واحدة ، وعدد الآيات ٨٣ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

انك لمن المرسلين الآية ١ - ١٢ :

يَسْ * وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ * إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ *
تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ * لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ *
لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ
أَغْلَالًا فَهُمْ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ * وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا
وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ * وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ
أَمْ لَمْ تُنذِرْتَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ
بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ * إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ
مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ *

اللغة :

المقمح الذي يغض بصره بعد أن يرفع رأسه ، يقال : قح البعير رأسه إذا
رفعه بعد شرب الماء . فأغشيناهم جعلنا على أبصارهم غشاوة .

الإعراب :

على صراط متعلق بالمرسلين . تنزيل نصب على المصدرية . والمصدر لتنفيذ متعلق بتنزيل . وما نافية وجملة ما انذر صفة لقوم . وسواء مبتدأ وجملة أنذرهم خبر ، والمهزة هنا للتسوية لا للاستفهام .

المعنى :

(يس) أكثر المفسرين على ان هذه الكلمة مثل (آم) وتقدم الكلام عنها في أول سورة البقرة ، أما قوله تعالى : « سلام على آل يس إنا كذلك نجزي المحسنين انه من عبادنا المؤمنين » فإن المراد بيس هنا الياس (والقرآن الحكيم انك لمن المرسلين على صراط مستقيم) . أقسم سبحانه بالقرآن الحكيم ان محمداً (ص) على الدين القيم ، وقسمُ الله بالقرآن مع وصفه بالحكمة يومئذ إلى شرف القرآن وعظمته ، وانه من أقوى الأدلة على صدق محمد (ص) في دعوته ، أما وصفه سبحانه لنفسه بالعزة والرحمة في قوله : (تنزيل العزيز الرحيم) فهو اشارة إلى ان الله يأخذ العصاة المتمردين أخذ عزيز مقتدر ، ويرحم المؤمنين والمنيبين ، قال الإمام علي (ع) : لا يشغله غضب عن رحمة ، ولا تُلهيه رحمة عن عقاب .

الموسيقى الباطنية في القرآن :

في سنة ١٩٥٩ ألفت الأديب المصري المعروف مصطفى محمود كتاب « الله والانسان » ، وأنكر فيه وجود الخالق ، وألفتُ في الرد عليه كتاب « الله والعقل » ، ثم تتبعته في مقالاته ومؤلفاته .. فقرأتُ له في مجلة « روز اليوسف » تاريخ ١٠ - ٤ - ١٩٦٧ مقالا أقر فيه بالبعث والحياة بعد الموت ، وأشرت الى ذلك في بعض حواشي المجلد الأول من هذا التفسير ص ٧٧ .

ومصطفى محمود أديب بطبعه ، غني بذكائه الفطري الذي يكشف الدقيق الغامض من أسرار اللغة ، وغير شاهد على هذه الحقيقة ما كتبه عن القرآن الكريم بمجلة

« صباح الخير » تاريخ ١-١-١٩٧٠ بعنوان « المعمار القرآني » نقتطف منه ما يلي:

« اني أحار في وصف الشعور الذي تلقيت به أول عبارة من القرآن .. فكانت كلماته تسعى الى نفسي وكأنها مخلوق حي مستقل له حياته الخاصة .. وقد اكتشفت دون أن أدري حكاية الموسيقى الداخلية الباطنية في العبارة القرآنية ، وهذا سر من أعمن الأسرار في التركيب القرآني.. انه ليس بالشعر ولا بالنثر ولا بالكلام المسجوع، وإنما هو بيان خاص من الألفاظ صيغت بطريقة تكشف عن الموسيقى الباطنية فيها.. ان الموسيقى المألوفة تأتي من الخارج ، ونصل الى الاذن من خارج العبارة ، وليس من داخلها ، بل من البحر والوزن والقافية ، أما موسيقى القرآن فتخلو من القافية والوزن والتشطر ومع ذلك فهي تقطر من كل حرف .. من أين ؟ وكيف ؟ هذا سر من أسرار القرآن لا يشاركه فيه أي تركيب أدبي .. انه محر لا ندري كيف يتم.. انه نسج وحده بين كل ما كتب باللغة العربية سابقاً ولاحقاً. وتقليده محال . »

أجل ، ان تقليده محال .. وهنا يكمن سر الاعجاز .. وبعد أن قدم الكاتب العديد من الشواهد على هذه الحقيقة من كلمات الله وآياته قال :

« وليست الموسيقى الباطنية هي كل ما انفردت به العبارة القرآنية ، بسل ان مع هذه الموسيقى صفة أخرى تشعرك بأنها من صنع الخالق لا من صنع المخلوق.. اسمع القرآن بصف العلاقة الجنسية بين رجل وامرأة بكلمة رقيقة مهذبة لا نجد لها مثيلاً ولا بديلاً في أية لغة : «فلما تغشاهما حملت حملاً خفيفاً - ١٨٩ الأعراف». هذه الكلمة تغشاهما .. تغشاهما .. يمتزج الذكر والأنثى كما يمتزج ظلان ، وكما تلوب الألوان بعضها في بعض .. هذا اللفظ العجيب يعبر به القرآن عن التداخل الكامل بين اثنين هو ذروة في التعبير .. لقد انفرد القرآن بخاصة عجيبة تحدث الخشوع في النفس ، وتؤثر في الوجدان والقلب بمجرد أن تلامس كلماته الاذن ، وقبل أن يبدأ العقل في العمل ، فإذا بدأ يحلل ويتأمل اكتشف أشياء جديدة تزيد خشوعاً ، ولكنها مرحلة ثانية قد تحدث وقد لا تحدث ، قد تكشف الآية عن سرها وقد لا تكشف ، قد تؤتي البصيرة وقد لا تؤتي ، ولكن الخشوع ثابت ومستقر . »

وهذه أيضاً إحدى ظواهر الإعجاز في القرآن .. وختم الكاتب صاحب كتاب «الله والانسان» مقاله الطويل بقوله : «ان القرآن لفظاً ومعنى من الله الذي أحاط بكل شيء علماً» .

(لتنلر قومأ مسأ أنلر آبآؤهم فهم غافلون) . بعد أن ذكر سبحانه ان محمداً (ص) هو رسول الله حقاً ، وان القرآن تنزيل من العزيز الرحيم - بين مهمة القرآن وانه يهتف بالزواجر عن محارم الله في اسماع العرب الغافلين عن الله والحق دون ان ينلرهم منلر قبل رسول الله (ص) . وعند تفسير قوله تعالى : « وان من أمة إلا خلا فيها نذير - ٢٤ فاطر » قلنا : ان المراد بالنذير في هذه الآية كل ما تقوم به الحججة من العقل والنقل ، وان المراد بالنذير في الآية النبي نحن بصدها هو النبي بالخصوص .

(لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون). المراد بالقول هنا الوعيد بالعذاب ، وضير أكثرهم يعود الى الآباء في قوله تعالى : « ما أنلر آبآؤهم » أي آباء العرب الذين كانوا في عهد رسول الله (ص) حيث مات أكثرهم على الشرك ، والقليل القليل منهم كانوا على دين التوحيد . أنظر تفسير الآية ١٠٧ من سورة الإسراء ، فقرة « الحنفاء » ج ٥ ص ٩٦ .

(إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً فهي الى الأذقان فهم مقمحون) . الأغلال جمع غل وهو الطوق من الحديد ، والأذقان جمع ذقن وهو مجتمع اللحيين .. وإذا شدت الأيدي بالأغلال الى الأعناق ارتفع الرأس الى فوق ، واستحال على المغلول ان يلتفت يمنة ويسرة أو ينظر الى الأمام فهو أبداً ينظر الى السماء ، وهذا هو المقمح (وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون) . يجعلهم الله يوم القيامة بين سدين من نار : واحد من أمامهم وآخر من خلفهم لا يجدون متقدماً عنها ولا متأخراً ولا يبصرون سماء ولا غيرها لأن السدين قد أعيا أبصارهم .. وغير بعيد أن يكون هذا كناية عن ألم العذاب وشدته ، ومها يكن فإن هذا العذاب وما اليه لا يختص بالمشركين ، بل يعم كل مجرم وظالم ، قال الإمام علي (ع) : « أما أهل معصيته فأنزلهم شر دار ، وغل الأيدي الى الأذقان ، وقرن النواصي بالأقدام ، وألبسهم سراويل القطران ، ومقطعات

النيران ، وبابٌ قد أُطبق على أعله في نار لما كلب ولجب ه . وتقدم مثله في الآية ٥ من سورة الرعد و ٣٣ من سورة سبأ .

(وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون) . سيان عندهم يا محمد وعظمت أم لم تعظ فإنهم لا يتحركون إلا بوحى من أهوائهم ومصالحهم . وتقدم مثله في الآية ٧ من سورة البقرة (انما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب فبشره بمغفرة وأجر كريم) . انما يستمع اليك ويقبل منك من طلب الحق لوجه الحق ، ويمضي عليه مهما تكن النتائج . وتقدم مثله في الآية ١٨ من سورة فاطر . (إنا نحن نحيي الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم وكل شيء أحصيناه في إمام مبين) . الإمام المبين كناية عن علمه تعالى ، والمعنى ان الله يبعث الناس غداً من قبورهم ، وقد أحصى عليهم ما فعلوا من خير وشر ، وما تركوا من آثار نافعة أو ضارة ، وانه يجزي كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون .

رسولان عزهما الله بثالث الآية ١٣ - ٢٧ :

وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ* إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْنِهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ* قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِن أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ* قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُم لَمُرْسَلُونَ* وَمَا عَلَيْنَا الْإِبْلَاجَ الْمُبِينُ* قَالُوا إِنَّا نَطَّيَّرُكُمْ بِكُمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ* قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَإِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ* وَجَاءَ مِنَ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ* اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلْكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُّهْتَدُونَ*

وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً
إِنْ يُرِيدَنَّ الرِّحْمَانُ بِضُرٍّ لَا تَغْنِي عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلَا يُنْقِذُونِ *
إِنِّي إِذَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْتَمِعُونِ * قِيلَ ادْخُلِ
الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ *

اللغة :

عز عليّ اشتد عليّ ، وعزني في الخطاب غلبني في حجاجه ، وعزني بكذا
قوّاني به ، وهذا المعنى هو المسراد بقوله : فعزنا بثالث . ونطيرنا تشاءمنا ،
وطائرکم شؤمکم . وأقصى أبعد .

الإعراب :

اضرب بمعنى اجعل ، وأصحاب القرية مفعول أول ، ومثلاً مفعول ثان .
وإذ الثانية بدل من إذ الأولى . ومفعول عزنا محذوف أي فعزناهما . وجواب
أئن ذكرتم محذوف أي أئن ذكرتم تطيرتم . ولا ينقذون الأصل ينقذوني .
فاسمعون النون للوقاية والأصل فاسمعوا قولي ثم حذف المضاف وهو القول للتخفيف
فصار الفعل فاسمعوني ثم حذفت الياء للوقف . يا ليت يا ، للتنبيه .

المعنى :

(واضرب لهم مثلاً أصحاب القرية) . الخطاب في اضرب لمحمد (ص)
وضمير ه لهم ، لمشركي العرب ، أما القرية فقال أكثر المفسرين : أنها مدينة
انطاكية، ولكن الله سبحانه لم يحدد لأن القصد من ضرب المثل الاتعاظ والاعتبار ..

وهذا لا يتصل بامم القرية وموضعها .. ويغلب على الظن ان المفسرين اعتمدوا على كتب النصارى حيث جاء في الاصحاح الحادي عشر من أعمال الرسل : ان برنابا وشاول ذهبا الى انطاكية وعلما جمعا غفيرا . والرسل هم التلاميذ الاثنا عشر الذين اختارهم السيد المسيح (ع) ليعاينوا حوادث حياته على الأرض ويرووه بعد قيامه من القبر ، ويخبروا العالم بذلك . (انجيل متى وأعمال الرسل) . أما برنابا فهو قبرصي اعتنق المسيحية في زمن الرسل ، وأصبح داعية اليها . (قاموس الكتاب المقدس) .

(إذ جاءها المرسلون إذ أرسلنا اليهم اثنين فكذبوهما فعزنا بثالث) . في كثير من التفسيرات ان هؤلاء الرسل كانوا من حواريسي عيسى (ع) وتلاميذه ، وانه هو الذي أرسل الى القرية اثنين ، ثم شد ازرها بثالث .. ولكن كلمة المرسلين مع استنادها اليه تعالى في قوله : « أرسلنا .. فعزنا » تدل على انهم أرسلوا بأمر الله مباشرة لا بأمر عيسى (ع) .. ومهما يكن فإن العبرة بالمسميات لا بالأسماء .. هذا ، الى اننا غير مسؤولين عنها أمام الله ، ولا صلة لها بحياتنا من قريب أو بعيد . والمعنى واضح ، وهو ان الله سبحانه أرسل لأهل تلك القرية ثلاثة يدعونهم الى الحق . (فقالوا انا اليكم مرسلون قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شيء ان أنتم الا تكذبون) . أبداً ماركة مسجلة : كلما جاء أمة رسولها قالوا ما أنت إلا بشر مثلنا وما كان لك علينا من فضل حتى يبتارك من دوننا ، وما نحن لك بمؤمنين .. انظر الآية ١٠ من سورة ابراهيم والآية ٩٤ من سورة الإسراء والآية ٢٤ من سورة المؤمنون والآية ٣ من سورة الأنبياء والآية ١٥٤ من سورة الشعراء (قالوا ربنا يعلم انا اليكم مرسلون وما علينا إلا البلاغ المبين) . بعد أن أقام الرسل الحجة البالغة على صدقهم قالوا للمكذبين : لقد أرسلنا الله اليكم ، وزودنا بما رأيتم من البينات ، وأدينا رسالته على وجهها ، وما علينا من حسابكم من شيء وما حسابنا عليكم وانما ذلك على الله وحده ، وكفى به عليماً وحسيباً .

(قالوا انا نظيرنا بكم لئن لم تنتهوا لرجنكم ولیمسنكم منا عذاب أليم قالوا طائركم معكم أنز ذكرتم بل أنتم قوم مسرفون) . طائركم معكم أي لا واقع للطيرة ، وإنما هي من وحي أوهامكم ، وفي الحديث المشهور : لا عدوى ولا طيرة ولا هامة . والهامة نوع من البوم يألف القبور والخرائب . وقال الإمام الصادق (ع) : الطيرة

على ما تجعلها أنت ، فإن هونتها هونت ، وان شددتها تشددت ، وان لم تجعلها شيئاً لم تكن شيئاً . أي ان الطيرة لا شيء في ذاتها ، ولا أثر لها على الانسان إطلاقاً ، وإنما تؤثر على نفسه وأعصابه لأنه قد توهم انها تبصر وتؤثر تماماً كالطفل نحال الشبح وحشاً يفرسه .

والمعنى ان المكذبين قالوا للرسل : لقد تشاءنا من دعوتكم ، ونحن نخاف ان تعود علينا بتفريق الكلمة ، وانقسامنا الى فئتين معكم وعليكم ، فسكوتكم خير لنا ولكم وإلا أسكتناكم بالرجم وشدة العذاب ، فقال لهم الرسل : لا مصدر لهذا الخوف والتشاؤم إلا أنفسكم التي توسوس اليكم بأن دعوتنا شؤم وشر والشر بأنفسكم وفيما أنتم عليه من الشرك والجهل والفساد .

(وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى) لم يشر سبحانه الى اسم الرجل ومع هذا قال المفسرون أو أكثرهم : اسمه حبيب النجار ، وان بيته كان في أطراف المدينة ، وانه كان قد آمن بالله ، ولما سمع ان قومه يهيمون بقتل الرسل أسرع الى مناصرتهم والدفاع عنهم بلسانه .. ولا أدري من أين جاء المفسرون بهذا الاسم؟ وقد بحث عنه في فهرست الكتاب المقدس وقاموسه أيضاً ، فلم أعر على اسم حبيب . ونقله الطبري عن ابن عباس وكعب الأحبار ، وأياً كان فلا علاقة لنا باسم الرجل ، ولا يعنينا منه إلا بقدر ما تدل عليه الآيات ، وقد وصفته بالايان والصلاح لأنه (قال يا قوم اتبعوا المرسلين اتبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون) . نصح لقومه أن يقبلوا دعوة الرسل ، ولا ينكصوا عنها لأنها خيرهم وصلاحهم ، والداعون للحق لا يطلبون أجراً ولا شكوراً ، ولا علواً ولا فساداً في الأرض . (ومالي لا أعبد الذي فطرني واليه ترجعون) . هذه حكاية لقول المؤمن الناصح ، ومعناه أي مانع يمنعني عن عبادة الذي أوجدني من العدم ، ثم يبعثنا جميعاً بعد الموت للحساب والجزاء ؟ وفي هذا تعريض بقومه لتركهم عبادة الواحد الأحد ، وهو يمضي في هذا التقرع ويقول : (ألتخذ من دونه آلهة ان يردن الرحمن بضر لا تغنر عني شفاعتهم شيئاً ولا يفتقدون اني اذا لقي ضلال مبين) . كيف أعبد أصناماً لا تضر ولا تنفع ، ولا تنفذ ولا تشفع .. لقد ضللت اذن ، وما أنا من المهتدين .. كلا (اني آمنت بربكم فاسمعون) . لا يجابه بهذه الكلمة قوى الشر والفساد إلا من لا يبالي بالموت في سبيل الحق ونصرته .. وفي بعض

الروايات : انه لما جابه قومه بهذه الحقيقة قتلوه رمياً بالحجارة وما وجد من يدافع عنه .. وليس هذا يبعد عن سيرة الطغاة وأهل الفساد ، والذي يؤيد صدق هذه الرواية قول المشركين للرسول : لئن لم تنتهوا لرجمنكم وليمسنكم منا عذاب أليم . وفي تفسير الزمخشري والتعلبي : ان سباني الأمم ثلاثة لم يكفروا قط طرفة عين : علي بن أبي طالب ، وصاحب يس ، ومؤمن آل فرعون .

(قيل ادخل الجنة) باع نفسه لله ، فكانت الجنة هي الثمن ، وكفى بالجنة ثواباً ونوالاً (قال يا ليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين) . لم يقل هذا تشقياً من قومه برغم انهم كذبوه وآذوه .. حاشا الاصفياء الأخيار .. بل قاله حباً بالخير وتحسراً على ما فاتهم منه متمنياً لو علموا انه كان لهم من الناصحين ، وان تطيرهم به وبالمرسلين كان وهماً وجهلاً .

الجزء الثالث والعشرون

يا حسرة على العباد الآية ٢٨ - ٣٩ :

وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ *
 إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ * يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ
 مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ * أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا
 قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ * وَإِنْ كُلُّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا
 مُحْضَرُونَ * وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا
 فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ * وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَحِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجْرَتْنَا فِيهَا
 مِنَ الْعُيُونِ * لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ *
 سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا نِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا
 لَا يَعْلَمُونَ *

اللغة :

القرون جمع قرن ، وهو القوم المقترنون في زمن واحد . والأزواج الأصناف .

الإعراب :

اسم كانت محذوف أي ان كانت الصيحة أو العقوبة إلا صيحة واحدة .
 وحسرة نادى أي احضري يا حسرة فهذا وقتك ونُصبت لأن على العباد يتعلق
 بها . وكم خبرية ومحلها النصب بأهلكنا . والمصدر من أنهم اليهم لا يرجعون مفعول
 لفعل محذوف أي قضينا أنهم لا يرجعون ، وقيل : ان هذا المصدر بدل من

أهلكنا ، ويلاحظ بأن البدل على نية التكرار ، ولا يقال: كم كونهم لا يرجعون. وان نافية وكل مبتدأ ولما بمعنى الا ، وقال صاحب البحر المحيط : ان «لما» لا تستعمل في الاستثناء إلا في المسموع فقط ، فلا يقال قام القوم لما زيداً . والأرض مبتدأ والميتة صفة لها ، وآيه خبر أي والأرض الميتة آية لهم . وما عملته «ما» عطف على ثمره أي ويأكلون من الذي عملته أيديهم .

المعنى :

(وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء وما كنا منزلين ان كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم خامدون) . ضمير قومه يعود إلى المؤمن الذي قال : اتبعوا المرسلين الخ . والمراد بجند السماء الملائكة ، والصيحة هي صيحة العذاب ، وخامدون ميتون . والمعنى ان اهلك المكذبين علينا سهل يسر ، فإذا أردناه فلا نرسل عليهم ملائكة العذاب، بل ما هي إلا صيحة يسمعونها من السماء حتى تصبح بيوتهم قبوراً لأجسامهم .

(يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون) . هذا بيان وتفسير للسبب الموجب للحسرة ، وهو اصرار المشركين على تكذيب الرسل، واتخاذهم سخرياً وهزواً .. وتساءل : من هو المتحسر، مع العلم بأن الله سبحانه لا يتحسر على أحد ؟

الجواب : لا متحسر في الدنيا على الاطلاق ، لأن الحسرة هنا كناية عن سوء مصيرهم وعاقبتهم الوخيمة التي يتحسرون معها حين يرون عذاب جهنم ، ويندمون على اضاعه الفرصة في الحياة الدنيا .

(أولم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون) . يتحسرون ويندمون في الآخرة لأنهم لم يتعظوا في الدنيا بالأمم الماضية الذين أهلكهم الله لما كذبوا الرسل (انهم اليهم لا يرجعون) . قال أكثر المفسرين القدامى والجلدد، ومنهم المراغي وصاحب الظلال ، قالوا في معنى هذه الجملة الكريمة : ألم ير المكذبون ان الأمم الذين أهلكناهم لا يعودون إلى الدنيا ثانية .. وفي هذا التفسير نظر، لأن عدم عودة الأموات إلى الدنيا حجة للمكذبين بالبعث ، وليس حجة عليهم .. والمعنى الصحيح

— كما نظن — ألم ير المكذبون ان الله قد أهلك الماضين بقضيتهم وقضيتهم ، ولم يبق منهم أحد يرجع الى المكذابين اللاحقين ينبتهم بخبر المكذبين السابقين ، وانما دل على اهلاكهم المعالم والآثار : « فذلك بيوتهم خاوية بما ظلموا ان في ذلك لآية لقوم يعلمون — ٥٢ النمل ، فهذه الجملة أشبه بقوله تعالى : « فلا يستطيعون توصية ولا الى أهلهم يرجعون — ٥٠ يس . » (وان كل لما جميع لدينا محضرون) . كل الناس موقوفون غداً بين يدي الله لنقاش الحساب وجزاء الأعمال . كان على ربك حتماً مقضياً .

(وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون) . تقدم مثله في الآية ٩٩ من سورة الأنعام ج ٣ ص ٢٣٤ والآية ٤ من سورة الرعد ج ٤ ص ٣٧٦ والآية ٥ من سورة الحج ج ٥ ص ٣١١ .

(لياكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون) نعم الله التي لا تعد ولا تحصى . وقوله : « ما عملته أيديهم » فيه إيماء الى أن النعمة حقاً هو المال الحلال المكتسب من كد اليمين وعرق الجبين ، أما المال الحرام فهو نار وجحيم : « إنما يأكلون في بطونهم نارا — ١٠ النساء » : « ما يأكلون في بطونهم إلا النار ١٧٤ البقرة » .

(سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم وما لا يعلمون) . تنزه عن الشريك ، وتعالى علواً كبيراً الذي خلق الأنواع والأصناف في الحيوانات والطيور ، وفي النباتات والانسان ، وفيها لا نعلم من أقطار السماء ونجوم الأرض ، وكل صنف من هذه الأصناف يختلف لوناً وحجماً ، وفي بعضها طعم كالنبات ، وفي آخر أخلاق كالانسان . ويقول أهل الاختصاص : ان المادة الجامدة مؤلفة من شيئين أيضاً : سالب وموجب ، ولولاهما لما وجد كائن .. ولا مصدر لذلك إلا العليم الحكيم ، أما الصدقة فلا يلجأ اليها إلا قاصر أو مكابر .

وفي كل شيء له آية الآية ٣٧ — ٤٤ :

وَأَيَّةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَاِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ * وَالشَّمْسُ تَجْرِي

لُمُسْتَقَرًّا لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى
عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ * لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا
الَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ * وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ
فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ * وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ * وَإِنْ نَشَأْ
نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ * إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا
إِلَىٰ حِينٍ *

اللغة :

نسلخ منه النهار أي نزيل النهار ونضع الليل مكانه . ومظلّمون داخلون في
الظلام . والعرجون على وزن فُعْلُول من الانعراج أي الاعوجاج ، وهو غصن
النخلة شبه به القمر إذا انتهى في نقصانه . فلا صريخ فلا مغيث .

الإعراب :

الليل مبتدأ مؤخر وآية خبر مقدم . ذلك تقدير العزيز كلام مستأنف مبتدأ
وخبر . والقمر على حذف مضاف والعامل به فعل محذوف أيضاً دل عليه الموجود
أي وقدرنا دوران القمر قدرناه . ومنازل منصوب على الظرفية أي في منازل مثل
دخلت الدار أي في الدار خلافاً لصاحب مجمع البيان . وكل مبتدأ وفي فلك متعلق
بيسبحون والجملة خبر ، والجمع باعتبار المنازل ، وتسدل يسبحون على ان واو
الجمع تطلق بعض الأحيان على غير العقلاء ، وقال قائل : ان الشمس والقمر من
العقلاء . والمصدر من انّا حملنا مبتدأ مؤخر ، وآية لهم خبر مقدم أي حملنا
ذريتهم في الفلك آية لهم . ورحمة مفعول من أجله ومتاعاً عطفاً على رحمة .

المعنى :

ذكر سبحانه هنا آيات كونية تدل على قدرته وعظمته ، وهي :

١ - (وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون) . يتعاقب الليل والنهار نتيجة لكروية الأرض ودورانها حول نفسها تماماً كدوران الرحى ، وجانب الأرض الذي يحاذي الشمس حين الدوران يصير نهاراً ، وغير المحاذي يصير ليلاً ، فإذا تجاوز عن الشمس ما كان محاذياً لها بسبب الدوران وحلّ محله الجانب الآخر الذي كان ليلاً ، إذا كان كذلك ينعكس الأمر ، فيصير ما كان ليلاً نهاراً ، وما كان نهاراً يصير ليلاً ، وهكذا دواليك ، وقد عبّر سبحانه عن هذا بالانسلاخ ، وأسند إليه لأنه خالق الكون وسبب الأسباب ، وتقدم مثله في الآية ٢٧ من سورة آل عمران ج ٢ ص ٣٧ والآية ١٢ من سورة الإسراء ج ٥ ص ٢٦ .

٢ - (والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم) . اختلف المفسرون في المراد من مستقرها على أقوال أنهاها الرازي الى أربعة ، وكلها بعيدة عن الافهام ، والصواب ان مستقرها كناية عن سيرها بنظام محكم ودقيق ، ويومئ الى هذا قوله تعالى : ذلك تقدير العزيز العليم . ونقل مؤلف كتاب القرآن والعلم الحديث عن كبار علماء الفلك المعاصرين : « ان الشمس تجري بسرعة ١٢ ميلاً في الثانية غير دورانها حول نفسها ، وأنها تختلف عن حال دوران الأرض » . وتقدم ما يتصل بذلك في الآية ٢ من سورة الرعد ج ٤ ص ٣٧٣ .

(والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم) . وهذه المنازل لا تُبدل بغيرها ، ولا تتحول من مكانها ، ولا القمر يفضل عنها . وقال الفلكيون : إنها ٢٨ يتزل كل ليلة في واحد منها ، ويستتر في ليلتين إذا كان الشهر ٣٠ يوماً ، وفي ليلة واحدة إذا كان ٢٩ ، وعندئذ يصير كفضن النخلة في الدقة والانحناء ، وهذا هو المراد بالعرجون . وتقدم ما يتعلق بذلك في الآية ٣٦ من سورة التوبة ج ٤ ص ٢٩ فقرة « الأشهر القمرية هي الأشهر الطبيعية » .

(لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون) . لكل كوكب فلكه الخاص بدور فيه بنظام ، ويجري في منازل مقدرة إلى أن يطويها الله طي السجل للكتاب . وفي نهج البلاغة : « وجعل شمسها - أي

شمس الكواكب - آية مبصرة لنهارها ، وقرها آية محو من ليلها - أي ان ضوء القمر يطغى على ضوء بقية الكواكب - فأجراها ، وقدر سيرهما في مدارج درجها ليميز بين الليل والنهار بهما ، وليعلم عدد السنين والحساب بمقاديرها .. ومما قرأته في هذا الباب حديث قدسي ذكره صاحب الأسفار في المجلد الثالث ، ومعناه ان الله سبحانه قال : لو وضعت الشمس في جانب خاص من الكون لرفع الغني بناءه وحجب نور الشمس عن الفقير ، ولكن وضعنها في أفق تدور فيه وتسير حتى يجد الفقير نصيبه من ضوءها تماماً كما يجد الغني .

٣ - (وآية لهم اننا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون) . ضمير لهم وذريتهم يعود إلى أبناء آدم .. يذكرهم الله سبحانه بأنعمه العظام عليهم ، ومنها حملهم في السفن مملوءة بهم وبمتاعهم تنقلهم من بلد الى بلد . وتقدم مثله في الآية ٣٢ من سورة ابراهيم ج ٤ ص ٤٤٨ والآية ٦٦ من سورة الإسراء ج ٥ ص ٦٥ .

٤ - (وخلقنا لهم من مثله ما يركبون) . ضمير مثله يعود إلى الفلك ، وقال المفسرون القدامى : المراد بمثله الإبل والطيور والبغال والحمير . قالوا هذا حيث لا طائفة ولا سيارة ولا مركبة فضاء (وان نشأ نفرقهم) ولو كانوا في المدرعات وحاملات الطائرات . والغرض هو أن يذكرهم سبحانه بنعمة النجاة من الغرق ، وانه لولا رحمة وعنايته لكانوا من المالكين (فلا صريح لهم ولا هم يتقنون) من الفرق مها استغاثوا واستجاروا (إلا رحمة منا ومناعاً الى حين) إلا أن يتداركهم الله برحمته من أهوال البحر ، ويؤخرهم الى أجل مسمى وفقاً لعلمه وحكمته .

اتقوا ما بين ايديكم الآية ٤٥ - ٥٤ :

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْفَعِمُ مَنْ

لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطَعْتَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ * فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ * وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ * قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ * إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ * فَالْيَوْمَ لَا تُظَلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ *

الإعراب :

جواب وإذا قيل لهم اتقوا محذوف أي أعرضوا بدلالة قوله : معرضين في الآية التالية . وويلنا منادى أي يا ويلنا احضر هذا أوانك . هذا ما وعدنا الرحمن مبتدأ وخبر والكلام مستأنف .

المعنى :

(وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم لعلكم ترحمون) . ضمير وهم يعود الى مشركي العرب . والمراد بما بين أيديهم معاصي الله ومحارمه ، وبما خلفهم العقاب عليها . وفي نهج البلاغة : « ان الساعة تحذوكم من خلفكم » . والمعنى ان رسول الله نهاهم عن المعاصي ، وألذرهم بنقمة الله وعذابه ان عصوا، وبشرهم برحمته وثوابه ان أطاعوا ، ولكنهم انقلبوا على أعقابهم مدبرين . (وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين) . كلما جاءهم الرسول بمعجزة

ظاهرة أو بيّنة واضحة كذبوا بها تمرداً وعناداً . وتقدم مثله في الآية ٥ من سورة الشعراء ج ٥ ص ٤٨٨ .

(وإذا قيل لهم انفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لو بشاء الله أطعمه ان أنتم إلا في ضلال مبين) للمترفين مبدأ واحد ودين واحد ، وهو الحرص على ثرائهم ومصالحهم ، فإذا تكلموا أو فعلوا فبوحى منه يقولون ويفعلون ، وإذا نظروا فن خلاله ينظرون ، وإذا قيل لهم : لا تفسدوا في الأرض قالوا : إنما نحن مصلحون ، وإذا قيل لهم : آمنوا كما آمن الناس . قالوا : أنؤمن كما آمن السفهاء ؟ وإذا قيل لهم : اسجدوا للرحمن قالوا : وما الرحمن ؟ بل نسجد للدرهم والدينار . وإذا أمرهم أمر أن ينفقوا على المحاييسج قالوا : قضى الله عليهم بالفقر ، وقدر لنا الغنى .. وجعلوا أو تجاهلوا ان الفقر من صنع الأرض لا من صنع السماء ، من فساد الأرضاع وجور أنظمة السلب والنهب واستغلال الضعفاء .

(ويقولون متى هذا الوعد ان كنتم صادقين) . وإذا حذرهم الله والرسول من سوء العاقبة وبش المصير . قالوا ساخرين : ومتى هذا المصير ؟ وتقدم مثله في العديد من الآيات (ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون) أي يتنازعون في شؤون دنياهم ، ومثله : ٥ فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون - ٩٥ الأعراف .

(فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون) . اذا جاءت صيحة العذاب فلا يمهّل أحد منهم لبوصي أهله بما اهمه ، وان كان غائباً عنهم لا يملك الرجوع اليهم (ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث الى ربهم ينسلون) . تقدم مثله في الآية ١٠٠ من سورة الكهف ج ٥ ص ١٦٢ .

(قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا) . تعجبوا من إحيائهم بعد الموت ، وكانوا من قبل يسخرون ممن يعدهم به ، ويأمرهم بالاستعداد له ، وبعد أن شاهدوه قالوا : (هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون) بأن الساعة آتية لا ريب فيها وان الله يبعث من في القبور (ان كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون) . فالخلق والموت والبعث لديه تعالى سواء .. كسل واحد منها

يكون بكلمة واحدة : « ما خلقتكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة - ٢٨ لقمان » .
وتقدم مثله في الآية ٣٢ من هذه السورة (فالיום لا تظلم نفس شيئاً ولا تجزون
إلا ما كنتم تعملون) . وفي معناه : « اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم
اليوم ان الله سريع الحساب - ١٧ غافر » .

أصحاب الجنة وأصحاب النار الآية ٥٥ - ٦٨ :

إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَاكِهُونَ * هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ
عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَكِئُونَ * هُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدْعُونَ * سَلَامٌ قَوْلًا
مِّن رَّبِّ رَحِيمٍ * وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ * أَلَمْ أَعْهَدَ إِلَيْكُمْ
يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ * وَأَنْ اعْبُدُونِي
هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ * وَلَقَدْ أَضَلُّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا
تَفْقَهُونَ * هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ * أَصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ
تَكْفُرُونَ * الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ
بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ
فَأَنَّى يُبْصِرُونَ * وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَاتَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا
مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ * وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ *

اللَّهُ :

فاكهون مرحون من الفكاهة لا من الفكاهة . وظلال جمع ظل وهو النقيض .

والأرائك جمع أريكة وهي السرير . وما يدعون ما يطلبون . وامتازوا انفردوا وابتعدوا عن أهل الخير والصلاح . جبلاً كثيراً خلقاً كثيراً . اصلوها قاصوا حرها والزمو العذاب بها . والطمس المحو والمراد به هنا العمى أي لأعميناهم . فاستبقوا من الاستباق أي بادروا وانطلقوا . ونكس الشيء هو جعل أسفله أعلاه .

الإعراب :

في شغل خبر ان وفاكهون خبر ثان . وهم مبتدأ وأزواجهم عطف عليه ، وفي ظلال خبر ، ومتكثون خبر ثان وعلى الأرائك متعلق به . وسلام بدل من ما يدعون . وقولاً منصوب على المصدرية . أن لا تعبداً وأن مفسرة للعهد . وان اعبدوني عطف على أن لا تعبداً الشيطان .

المعنى :

(ان أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون هم وأزواجهم في ظلال على الأرائك متكثون لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون) . ان أغلى أمنية للإنسان الصحة والأمان وراحة البال من المشاغل والمتاعب، وان يتوفر له ما لذ وطاب من مأكول ومشرب ومسكن وملبس ومتعة بالنساء والأشجار والأنهار ، وكل ذلك وما إليه متوفر لأهل الجنة ، وفوق كل شيء (سلام قولاً من رب رحيم) وسلام الله أمان ورحمة ، ورضوانه منتهى السعادة والنعمة .. ومن هنا قال الإمام علي (ع) : كل نعيم دون الجنة محقور ، وكل بلاء دون النار عافية .

(وامتازوا اليوم أيها المجرمون) . كان المجرمون في الحياة الدنيا يتظاهرون بالصلاح ويلبسون مسوح الرهبان ، ويختلطون مع أهل التقى والخير .. ويغفون حالهم على الكثير من الناس ، أما في يوم الفصل والجزاء فيباعد الله بينهم وبين الصالحين ، ويقول لهم : ادخلوا النار مع الداخلين ، يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والاقدام - ٤١ الرحمن - .

(ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان انه لكم عدو مبين وان
اعبدوني هذا صراط مستقيم) . حذّر سبحانه العباد من الشيطان ووسوسته ، ونهاهم
عن طاعته ، وأرشدهم إلى طريق الخير والهداية ، فأطاع الكثير منهم الشيطان
وعصوا الرحمن ، وإلى هذا أشار بقوله :

(ولقد أضل منكم جبلاً كثيراً أفلم تكونوا تعقلون) . الجبل الخلق ، وكل
من سلك مسلك المالكين بعد أن حذّر وأنذر فهو في عى عن نور العقل وهدايته ،
ولا جزاء لمثله إلا العذاب الذي أشار إليه سبحانه بقوله : (هذه جهنم التي كنتم
توعدون) بها على ألسنة الرسل ، وتسخر من منها وهنهم (اصلوها اليوم بما كنتم
تكفرون) . وهذا مصير كل من ضيع وفرط .

(اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون) .
كل جارحة للعصاة الطغاة ينطقها الله غداً لتشهد على صاحبها بما اجترح من السيئات ،
فاليد تشهد عليه بما ضرب وسرق وكتب وأشار ، والرجل بما سعى ، والعين بما
نظر .. وهكذا .

وتسأل : كيف تجمع بين قوله تعالى هنا : « اليوم نختم على أفواههم » وقوله
في الآية ٢٤ من سورة النور : « يوم تشهد عليهم ألسنتهم » فقد أثبت لهم النطق
هنا ونفاه هناك ؟

الجواب : ان للعباد غداً مواقف لا موقفاً واحداً ، يؤذن لهم بالكلام في بعضها
دون بعض ، قال تعالى : يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه - ١٠٥ هود .
(ولو نشاء لطمسنا على أعينهم فاستبقوا الصراط فأنى يصرون ولو نشاء
لمسخناهم على مكانتهم فما استطاعوا مضياً ولا يرجعون) . لو أراد سبحانه أن
يعاقب المجرمين في الدنيا لأعمى أبصارهم فلا يهتدون إلى شيء ، ولمسخهم تماثيل
جامدة لا حراك فيها ولا حياة (ومن نعمره ننكسه في الخلق أفلا يعقلون) .
نكس الشيء هو جعل أسفله أعلاه ، وكلما تقدم الانسان في السن تقهقر إلى
الوراء ، فيخرف بعد الادراك ، ويضعف بعد القوة .. والغرض من هذا البيان
هو الإشارة إلى أن الله سبحانه قد أمد الانسان بحياة كافية وافية لأن يهتدي فيها
ويعمل صالحاً ، وانه لو مُعمر أكثر من المعتاد لأقصده العجز والمرض ، وكان

طول العمر عليه شراً ووبالاً : « أوكم نعيمكم ما يذكركم فيه من تذكرة وجاءكم النذير فلو قوا فما للظالمين من نصير - ٣٧ فاطر . »

وما علمناه الشعر الآية ٦٩ - ٧٠ :

وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ*
لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ*

حاول أعداء الله والحق تكذيب محمد (ص) بشئ الوسائل ، من ذلك قولهم : انه مجنون . فقال قائل منهم ، وهو الوليد بن المغيرة الذي عاش ومات على الكفر ، قال : « كلا ، ان لقوله - يريد القرآن - للحلاوة ، وان عليه لطلاوة ، وان أعلاه لمشر ، وان أسفله لمغنى ، وانه يعلو ولا يُعلَى عليه . فعدلوا عن رمي رسول الله بالجنون الى القول : « هذا ساحر كذاب - ٤ ص . ولما استبان انهم هم الكاذبون قالوا : كاهن يخطيء ويصيب أو شاعر حلو الكلام خصب القرية والخيال .

وتجدر الإشارة الى ان اتهامهم الرسول الأعظم (ص) بالشعر يدل على ان الشعر عند العرب لا يحده الوزن والقافية ، بل هو أوسع وأشمل .. انه التعبير الفني وجعله موزوناً كان أم غير موزون ، وكذلك هو عند الفلاسفة القدماء ، قال صاحب تفسير روح البيان : « الشعر عند الحكماء القدماء ليس على وزن وقافية ، ولا هما ركن من أركانه عندهم » .. وشاعت هذه الفكرة اليوم في الدراسات الأدبية والنقدية ، وآمن بها كثير من أساتذة الأدب الحديث .

وقد رد سبحانه اتهام نبيه الكريم بالشعر والكهانة في العديد من الآيات، منها : « انه لقول رسول كريم وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكرون - ٤٠ الحاقة . » ومنها : « فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا

مجنون أم يقولون شاعر - ٢٩ الطور . ومنها ما حكاها سبحانه عن المشركين :
« أثنا لتاركو آلمتنا لشاعر مجنون - ٣٦ الصافات » . ومنها : « بل هو شاعر
- ٥ الأنبياء » .

ومنها الآية التي نحن بصدها (وما علمناه الشعر وما ينبغي له ان هو إلا
ذكر وقرآن كريم لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين) . المراد بالحي
هنا من أحيا عقله بالتدبر والتأمل ، وتفتح قلبه للحق والخير ، وبالقول كلمة
العذاب تماماً كقوله تعالى : « ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين - ٧١
الزمر » .. قال المشركون : القرآن الذي جاء به محمد (ص) ما هو إلا شعر
يعبر عن تفكيره وخياله ، وليس بوحي من عند الله .. فردّ عليهم سبحانه بأن
الشعر يرتكز على عاطفة الشاعر وميوله وأهوائه ، يناصر من يحب وان كان مبطلاً ،
ويقاوم من يكره وان كان محقاً ، والقرآن هو القول الجسد والفصل ، وما هو
بالهوى والهزل ، هو كتاب عقيدة وشرعة ، وأخلاق وعظات ، وفيه علم وفكر ،
وأين الشعر من ذلك ؟ .

ولو كان القرآن من صنع محمد (ص) لبث فيه آلامه وأحزانه وحياته وأزماته ،
تماماً كما هو شأن الشعراء .. مع العلم بأن القرآن في معزل عن مشاكل محمد (ص)
ومشاغله .

بقي أن نشير الى ان النبي (ص) كان يقدر الشعر ويحترمه كفن له أثر إيجابي
في التعبير عن رغبات الجاهل وأمانيتها .. وقد اشتهر انه قال : « ان من البيان
لسحراً ، وان من الشعر لحكمة » . وكان يدعو بالتوفيق والتسديد للشعراء الذين
ناصروا الحق وأهله .. وخلع برده على كعب بن زهير تكريماً له حين مدحه
بقصيدته الشائعة الدائمة المعروفة بقصيدة البردة ، ومطلعها :

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول متيم اثرها لم يفد مكبول

ومنها :

ان الرسول لنور يستضاء به وصارم من سيوف الله مسلول

أنظر تفسير الآية ٤ من السورة التي نحن بصدها ، فقرة « الموسيقى الباطنية
في القرآن » ، وتفسير الآية ٢٢٤ من سورة الشعراء ج ٥ ص ٥٢٤ .

أيدى الله هي سنن الكون والطبيعة الآية ٧١ - ٧٦ :

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ *
وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ * وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ
وَمَشَارِبٌ أَفْلَا يَشْكُرُونَ * وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ *
لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ * فَلَا يَخْزِيكَ قَوْلُهُمْ
إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ *

اللغة :

ركوبهم بفتح الراء ، والمراد به هنا المركوب مثل حلوب أي المحلوب .

المعنى :

(أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاماً فهم لها مالكون وذللتناها لهم
فمنها ركوبهم ومنها يأكلون ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون) . المراد
بالأنعام الإبل والبقر والغنم ، وهي نعمة من الله على عباده يأكلون من لحومها ،
ويشربون من ألبانها، ويتخذون من جلودها وأصوافها وأوبارها بيوتاً وأثاثاً ولباساً ،
ونحملهم وأنقلهم إلى بلد ما كانوا بالغيه إلا بشق الأنفس .. وكرر سبحانه ذلك
في العديد من الآيات ، منها الآية ١٤٢ من سورة الانعام ج ٣ ص ٢٧٣ والآية
٧ من سورة النحل ج ٤ ص ٤٩٨ . والغرض من ذلك هو الحث على شكر الله
وطاعته ، وقد أشار سبحانه الى ذلك بقوله : « أفلا يشكرون » . وفي نهج
البلاغة : لو لم يتوعد الله على معصيته لكان يجب أن لا يعصى شكراً لنعمه .
والمراد بقوله تعالى : « مما عملت أيدينا » الأسباب الطبيعية لأن الله ليس بجم

حتى يكون له ايدٍ حقيقه ، قال ابن عربي في الفتوحات : ان اهل الله يقسمون المخلوقات الى نوعين : نوع يوجد سببانه بكلمة « كن » . ويعبرون عن هذا بعالم الأمر ، لأن قوله « كن » أمر ، ونوع يوجد بأيدي الأسباب ، ويعبرون عنه بعالم الخلق . وتقدم الكلام عن ذلك مفصلاً في المجلد الأول من هذا التفسير ص ٣٩٢ فقرة « الله وسنن الطبيعة » .

(واتخذوا من دون الله آلهة لعلهم ينصرون لا يستطيعون نصرهم وهم لهم جند محضرون) . غريب ، ولا شك ، أن يعبد العاقل أحجاراً لا تنفع ولكن الأغرب أن يحرسها ويقوم على حمايتها من السرقة أو التحطيم ، وفي الوقت نفسه يرجو أن تنصره في الشدائد ، وتقرّبه من الله زلفى (لا يستطيعون نصرهم) أي ان الأصنام أعجز وأحقّر من أن تنصر نفسها فكيف تنصر غيرها ؟ (وهم لهم جند محضرون) . ضمير « هم » للمشرّكين ، وضمير « لهم » للأصنام ، ومحضرون حاضرون أو قائمون ، والمعنى ان الأصنام لا تجدي المشرّكين نفعاً ، ومسح ذلك يتجنّدون ويتطوعون للذب عنها كل حين .. وهنا مكان الغرابة .

وفوق هذا كله قال عبدة الأصنام عن النبي (ص) : مجنون .. ولماذا ؟ لأنه لا يعبد الأحجار ، وهم العقلاء لأنهم يعبدون ما ينحتون (فلا يحزنك قولهم) يا محمد : إنك مجنون أو شاعر أو كاهن (انا نعلم ما يسرون وما يعلنون) . أضمرُوا الحقد والضغينة على النبي (ص) ، وأعلنوا الطعن به وبدعوته .. وليس من شك ان الله بذلك عليم وقدير على حسابهم وعذابهم .. اذن، لماذا الحزن والألم؟

قال من يحبي العظام الآية ٧٧ - ٨٣ :

أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ * وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ * الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقَدُونَ * أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِنْهُمْ نَبْلًا وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ*
 إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ* فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ
 مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ*

اللغة :

ملكوت مبالغة في ملك الله وسلطانه .

الإعراب :

أول مرة نصب على الظرفية ، والعامل فيه أنشأها . وجعل لكم بدل من الذي
 أنشأها . وبلى حرف جواب ، ونختص بالإيجاب ، سواء أكان قبلها مثبتاً أو منقياً
 أي أنها تؤكد الاثبات ، وتبطل النفي .

المعنى :

(أولم ير الانسان انا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين) . كان الانسان
 بالأمس نطفة ، حتى اذا صار بقدرة الله مخلوقاً سوياً ذا فهم وبيان نسي أصله ،
 وخاصم ربه بالعصيان وتحذلق في الكلام (وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من
 يحيي العظام وهي رميم) . الضمير المستتر في ضرب يعود إلى من أنكر البعث ،
 وقد ضرب هذا المنكر مثلاً على امتناع البعث قائلاً : كيف تجتمع وتتألف من
 جديد أجزاء العظام وتذب فيها الحياة بعد أن تبلى وتصير تراباً مبدداً هنا وهناك؟
 فردّ سبحانه على صاحب المثل : أتعجب من قدرة الله ، وتنكر البعث وتضرب
 الأمثال، ثم تنسى نفسك ، وان الله قد خلقك من تراب ثم من نطفة ؟ لقد أوجدك
 ولم تكن شيئاً مذكوراً ، فكذلك بعيدك بعد أن تصبح عظامك رميمًا .
 (قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم) . قل يا محمد للمجاهد

المعاند : أي عجب من إحياء العظام وهي رميم ؟ ان الذي جعل للنطفة سمعاً وبصرأ ، وفهماً وبياناً هو الذي يعيد العظام إلى سبرتها الأولى ... وتقدم مثله في العديد من الآيات ، منها الآية ٤٩ من سورة الإسراء ج ٥ ص ٥٢ .

(الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون) . هذا المثال تنضح منه فكرة البعث ، وبيان ذلك ان المنكرين استبعدوا إحياء الموتى لا شيء إلا ظناً منهم ان الأشياء لا يمكن أن تتحول إلى أضدادها . فأجابهم سبحانه بأن هذا الظن وهم وخيال ، لأن هذا التحول واقع بالفعل ، ومحسوس ترونه أنتم صباحاً ومساء ، ولكن لا تتبهون اليه .. فالشجر الأخضر الریان يتحول إلى نار محرقة ، والأرض الهامدة تحيا وتهتز بأنواع النبات والأشجار إذا نزل عليها الماء .. فكيف تتكرون إحياء العظام البالية، وتقررون بإحياء الأرض الهامدة وتحول الأشجار إلى نار مع ان الجميع من باب واحد، وهو انقلاب الشيء من حقيقة إلى ضدها؟ .

(أوليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم) . من أوجد الكون من لا شيء يهون عليه أن يوجد مثله ساعة يشاء . وتقدم نظيره في الآية ٩٩ من سورة الإسراء ج ٥ ص ٨٩ (انما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون) . بدأ الخلق بكلمة «كن» ويعيدها . وتقدم في الآية ٤٠ من سورة النحل ج ٤ ص ٥١٥ (فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء واليه ترجعون) . تنزه ربنا عن الشريك ، وهو وحده المبدئ والمعيد.

سُورَةُ الصَّافَّاتِ

مكية وآياتها ١٨٢ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

والصفات صفاً الآية ١ - ١٠ :

وَالصَّافَّاتِ صَفًّا * فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا * فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا * إِنَّ إِلَهُكُمْ
لَوَاحِدٌ * رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ * إِنَّا
زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بَرِيقَ الْكَوَاكِبِ * وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ *
لَا يَسْمَعُونَ إِلَى آلَمًا الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ * دُحُورًا وَلَهُمْ
عَذَابٌ وَاصِبٌ * إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ *

اللغة :

الصفات فالزاجرات فالتاليات هي من صفات الملائكة، ويأتي التفصيل . والسماء
الدنيا هي أدنى السموات وأقربها إلينا . ومارد عات متبرد ومريد بفتح الميم مبالغة
في المارد . والدحور الطرد . واسب أي دائم . وثاقب مضى .

الإعراب :

والصفات الواو للقسم . وصفاً مفعول مطلق ومثله زجراً، أما ذكرأ ففعل به .

ورب السموات بدل من واحد . والدنيا صفة للسماء . وحفظاً مفعول مطلق لفعل محذوف أي وحفظناها حفظاً . ودحوراً مصدر في موضع الحال أي مدحورين وصاحب الحال الواو في يقدفون . ومن خطف « من » في محل رفع بدلاً من واو لا يسمعون أو في محل نصب على الاستثناء .

المعنى :

(والصفات صفاً فالزاجرات زجراً فالتاليات ذكراً) . اختلف المفسرون في معنى الصفات والزاجرات والتاليات . فمنهم من قال : أنها الملائكة . ومنهم من قال : الصفات هي جماعة المؤمنين تصطف في الصلاة وفي الجهاد ، والزاجرات زواجر القرآن وآياته ، والتاليات قراء القرآن يتلون في الصلاة وغيرها .

وغير بعيد أن يكون المراد بالأنواع الثلاثة الذين ذكرهم الإمام علي (ع) في الخطبة الأولى من نهج البلاغة . قال في وصف الملائكة : فمنهم سجد لا يركعون ، وراكعون لا ينتصبون ، وصافون لا يتزابلون أي ثابتون في أماكنهم . فجاء أن يكون قوله : « وصافون لا يتزابلون » إشارة إلى « الصفات صفاً » . ثم قال : ومنهم أمناء وحيه وألسنة إلى رسله . أي يتزلون بالوحي على أنبيائه كجبريل (ع) ، ويجوز أن يكون قوله هذا إشارة إلى التاليات ذكرأ لأنهم يتلون كتاب الله حين يلقونهم إلى الأنبياء . ثم قال : ومنهم الحفظة لعباده . وقال الشيخ محمد عبده في بيان هؤلاء : « كأنهم قوى مودعة في أبدان البشر ونفوسهم يحفظ الله الموصولين بها من المهالك والمعاطب ، ولولا ذلك لكان العطب ألصق بالإنسان من السلامة » . ويريد الشيخ عبده بهذا التصوير أن يقرب للافهام كيفية حفظ الملائكة للعباد كما يشعر بذلك قوله « وكأنهم » وعليه يجوز أن يكون قول الإمام : « ومنهم الحفظة لعباده » إشارة إلى الزاجرات زجراً إذا قلنا : إن الزجر معناه دفع الأذى عن العباد .

(ان إلهكم لواحد رب السموات والأرض وما بينهما ورب المشارق) . المراد بالمشارق مشارق الشمس بالنظر إلى أنها تشرق كل يوم من مشرق ، وتغرب في مغرب .. وقد أقسم سبحانه أنه واحد لا شريك له في الخلق وتدبيره .

الله والقسم بخلقهم :

وتسأل : لماذا أقسم الله بالملائكة ؟

وأجاب المفسرون بأن الله أقسم بالملائكة للتنبيه الى عظيم منزلتهم وعلو شأنهم.. وهذا هو جوابهم - كمبدأ - عن كل ما أقسم به سبحانه : سواء أكان زماناً أم مكاناً أم أي كائن من الكائنات العلوية والسفلية . أما صاحب الظلال فقد ربط بين هذا القسم وبين قول أهل الجاهلية ، ان الملائكة بنات الله كما جاء في الآية ٤٠ من سورة الإسراء : «أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة اناثاً انكم لتقولون قولاً عظيماً » قال صاحب الظلال : ان الغرض من القسم بالملائكة هو الرد على من آمن بهذه الخرافة ، ونطق بهذا القول العظيم .

والذي نراه ان الله يقسم بالأشياء مهما كانت لغرض واحد، وهو ان كل شيء في الوجود يدل بطبعه على ان الله واحد لا شريك له .. وليس من شك ان الملائكة الصافات منهم وغير الصافات قد عبدوا الله وأطاعوه عن علم ويقين به وبوحدانيته، وعليه يكون علمهم هذا دليلاً قاطعاً على انه تعالى واحد لا شريك له في الخلق والملك والتدبير ، تماماً كعلم العلماء بحقيقة موضوعية اكتشفوها ولمسوها في مختبراتهم ومعاملهم .

(انا زيننا السماء الدنيا بزينه الكواكب) . المراد بالسماء العلو والفضاء، وبالدنيا دنيانا نحن بني آدم ، وليس الكون بأسره ، والمراد بالكواكب ما كان منها في أقرب سماء لنا ، والمعنى ان الله سبحانه جعل الكواكب في سمائنا زينة وجمالاً بأشكالها وأنوارها ، بالإضافة الى منافعها وفوائدها : « وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر - ٩٧ الأنعام » : « هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب - ٥ يونس » .

(وحفظاً من كل شيطان مارد لا يسمعون إلى الملأ الأعلى ويقذفون من كل جانب دحوراً ولهم عذاب واصب إلا من خطف الخطفة فاتبعه شهاب ثاقب) . مفردات هذه الآيات واضحة ، وقد بينا البعض منها في فقرة « اللغة » ما عدا حقيقة الشيطان المارد ، وحقيقة الملأ الأعلى ، والله ورسوله قد سكتا ولم يبيننا لنا

ما المراد من الشيطان المارد والملائ الأعلی .. ونحن لا نفسر من غیر علم ، ولذا نقول : ان هذه الآيات من التشابهات عندنا ، وقد تكون من الواضحات عند غیرنا .

وغير بعيد أن يكون السبب الموجب لل سكوت هو ان معرفة هذا الشيطان وهذا الملائ لا تتصل بحیثنا، أو ان افهامنا تعجز عن ادراك حقیقتها .. والعالم مها اجتهد ودقق فإنه لسن يحيط بكل شيء ، بل لا يستطيع أن يعرف حقيقة أي شيء من جميع جهاته وكما هو فی واقعه ، أما معرفتنا بمفردات الآيات كالمشابهات الثاقب والعذاب الواصب والقذف والخطف والدحور فلا نجد فی تفسير المراد من الآيات مجموعها ما دمنا نجعل حقيقة الشيطان المارد والملائ الأعلی .

وقال بعض المفسرين : المراد بالشيطان المارد شيطان الجن ، وقال آخر : بل الانسان الذي لا يفكر فی عظمة الكواكب ودلالاتها علی وجود الله . وقال صوفي : المراد بالشيطان التصورات الوهمية والقوى التخيلية .. وكل ذلك رجم بالغیب .. والصمت خبر من القول بالجهل : « وما أوتيت من العلم إلا قليلا » .

بل عجبت ويسخرون الآية ١١ - ٢٦ :

فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ *
بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ * وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ * وَإِذَا رَأَوْا آيَةً
يَسْتَسْخِرُونَ * وَقَالُوا إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ * أَنْتَ إِتْنَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا
وَعِظَامًا أَتِنَا لَمَبْعُوثُونَ * أَوْ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ * قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ *
فَاتِمْنَا فِي زَجْرَةٍ وَاحِدَةٍ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ * وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ
الدِّينِ * هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ * أَحْشَرُوا الَّذِينَ
ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ * مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى

صِرَاطِ الْجَحِيمِ * وَقَفُّوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ * مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ * بَلْ هُمْ
الْيَوْمَ مُتَنَسِّلُونَ *

اللفظة :

فاستفتهم فاسألهم . واللازب اللازم . وداخرون صاغرون . والمراد بزجرة واحدة
صبيحة واحدة . ويوم الدين يوم الجزاء ، ويوم الفصل بين الخلائق وتمييز المحق
من المبطل .

الإعراب :

وأزواجهم مفعول معه لأحشروا . وما لكم مبتدأ وخبر ، وجملة لا تناصرون
حال أي ما شأنكم غير متناصرين ؟

المعنى :

(فاستفتهم أهم أشد خلقاً أم من خلقنا انا خلقناهم من طين لازب) . اسأل
يا محمد الذين أنكروا البعث : أخلق السموات والأرض من لا شيء أصعب أم
إعادة الانسان بعد موته إلى الحياة ، وقد خلقه الله من طين رخو لزج يلزم ما
يجاوره ويلتصق به ؟ ان الذي قدر على إيجاد الكون من لا شيء يهون عليه أن
يعيد أجزاء الانسان ، ويجمعها بعد تفرقها . وفي الآية ٥٧ من سورة غافر :
« نخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .
وتسأل : قال تعالى في سورة الكهف الآية ٢٢ : « ولا تستفت فيهم منهم أحداً »
وقال هنا : « فاستفتهم » فما هو وجه التوفيق بين الآيتين ؟

الجواب : ان موضوع آية الكهف خاص بأهل الكهف وحدهم ، حيث نهى

سبحانه نبيه الكريم أن يسأل أحداً عنهم بعد أن أخبره الله عن أحوالهم ، أما السؤال هنا فإنه موجه الى المشركين فقط . والقصد منه توبيخهم والقاء الحجة عليهم .

(بل عجبتَ ويسخرون) . انك تعجب يا محمد من المشركين حيث جعلوا لله شركاء مع ان دلائل التوحيد بينة واضحة .. وهم أيضاً يعجبون منك بل ويسخرون لأن دلائل الشرك هي البينة الواضحة في مفهومهم .. لا دلائل التوحيد. ويدل على ان هذا المعنى هو المراد - ما حكاه سبحانه عن المشركين في الآية ٥ من سورة ص : « أجعل الآلهة إلهاً واحداً ان هذا لشيء عجاب » . واذا قال قائل مع المعري :

كل يعزز دينه ياليت شعري ما الصحيح

قلنا في جوابه : هناك مبادئ واضحة وحقائق لا يختلف عليها اثنان حيث يشترك في معرفتها الجاهل والعالم، مثل العلم خبر من الجهل، والغنى خبر من الفقر، وما الى ذلك ، فإذا تنازع اثنان في مسألة نظرية ، فن انتهى قوله الى المبادئ الواضحة فهو الحق والا فهو مبطل .

(واذا ذكروا لا يذكرون واذا رأوا آية يستسخرون) . لأن من استسلم لأهوائه وتقاليده آبائه عني عن الحق « ومن زاغ ساءت عنده الحسنة، وحسنت عنده السيئة، وسكر سكر الضلالة » كما قال الإمام علي (ع) . (وقالوا ان هذا الا سحر مبين) . تكرر منهم هذا القول في العديد من الآيات ، منها الآية ٧ من سورة الأنعام ج ٣ ص ١٦٣ (أنذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أننا لبعوثون أو آباءنا الأولون) . المعنى واضح وتكرر مرات . أنظر الآية ٥ من سورة الرعد و ٤٩ و ٩٨ من سورة الإسراء و ٨٢ من سورة المؤمنون و ٦٨ من سورة النمل .

(قل نعم وأنتم داخلون فلأنما هي زجرة واحدة فإذا هم ينظرون) . قل يا محمد لنكري البعث جواباً عن سؤالهم : أننا لمبعوثون ؟ قل لهم : أجل ، انكم تبعثون من قبوركم بكلمة واحدة من الله ، وتحشرون اليه أذلاء صاغرين ، وترون بالعين العذاب الذي كنتم به تكذبون .

(وقالوا يا ويلنا هذا يوم الدين - أي الجزء - هذا يوم الفصل - أي بين الحق والباطل -

الذي كنتم به تكذبون .) إذا جاءهم الحق ، وسنحت الفرصة للعمل قالوا : هذا كذب وسحر لا يصدق به إلا جاهل مخدوع . وإذا فات أوان العمل وجاء وقت الجزاء وذاقوا وبال أمرهم قالوا : يا ويلنا قد كنا في غفلة من هذا بل كنا ظالمين .. وتكرر هذه الصورة في كل حين .. يسعى الجاهل فيما يضره ، فينهاه العاقل الناصح ، ويحذره من العواقب ، ولكنه يسخر ويركب رأسه حتى إذا وقعت الواقعة ، وجاءه البلاء الذي لا مفر له منه ، وأدرك أنه أخيب الناس سعيًا عض يد الندامة وقال : يا ليتني لم أك شيئاً .

(احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله) . المراد بالأزواج هنا الأشكال والأشباه ، وتوهم الآبة الى تصنيف المجرمين ، وإن المشرك يحشر مع المشركين في مكان واحد من جهنم ومعهم الأصنام التي كانوا يعبدون ، وكذلك السارق مع السارقين ، وهكذا كل شكل الى شكله قرين تماماً كما كانوا في الحياة الدنيا (فاهدوهم إلى صراط الجحيم) . بعد أن يتم حساب المجرمين يقال للملائكة : عجلوا بهم إلى سواء الجحيم .

(وقفوهم انهم مسؤولون) . قبل أن تذهب للملائكة بالمجرمين الى جهنم يحسبون الى السؤال عما كانوا يعملون . وفي بعض الروايات : يُسأل المراء يومذاك عن عمره فيم أبلاه ، وعن ماله ثم كسبه وفيه أنفق ، وعن علمه ماذا عمل به ، أما التوفيق بين هذه الآية وبين قوله تعالى : « فيومئذ لا يسأل عن ذنبه انس ولا جان - ٣٩ الرحمن » أما هذا التوفيق فقد أشرنا إليه أكثر من مرة ، ويتلخص بأن لليوم الآخر مواقف يسأل المراء في بعضها دون بعض . انظر تفسير الآية ٦٥ من سورة يس .

(ما لكم لا تنصرون) ؟ الخطاب للمجرمين ، والمعنى يقال لهم غداً : لماذا لا تدفع بعضكم العذاب عن بعض في هذا اليوم ، وقد كنتم في الحياة الدنيا متكافلين متضامين ضد الحق وأهله . والغرض من هذا السؤال التصريح والتوبيخ (بل هم اليوم مستسلمون) . انقادوا لأمر الله لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً .

وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون* ٢٧ - ٣٧ :

وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ* قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنْ
الْيَمِينِ* قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ* وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ
سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ* فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ*
فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ* فَأِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ* إِنَّا
كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ* إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ
يَسْتَكْبِرُونَ* وَيَقُولُونَ أَأَنْتَا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ* بَلْ جَاءَ
بِالْحَقِّ وَصَدَقَ الْمُرْسَلِينَ*

اللغة :

يطلق اليمين على معان ، منها اليد ، ومنها الجهة التي هي ضد اليسار ، ومنها
البركة والقوة ، والمراد بها هنا الاغواء مجازاً بدليل جواب المتبوعين للتابعين :
« فأغويناكم انا كنا غاوين » .

الإعراب :

جملة إِنَّا لَذَائِقُونَ مفعول القول . ومفعول ذائقون محذوف أي العذاب .

المعنى :

(وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون قالوا انكم كنتم تأتوننا عن اليمين). يتساءل

سورة الصافات

المجرمون ويثلامون حين يرون العذاب ، ويلقي الضعفاء التبعة والمسؤولية على الرؤساء ، ويقولون لهم فيما يقولون: لولا اغراؤكم وخداعكم لكننا مؤمنين .. وعبروا عن هذا الخداع باليمين لأن العرب تتفاهل بما يأتي من جهة اليمين ، فقولهم : تأتوننا عن اليمين أشبه بقول القاتل : أنا من ميولي ورغباني . وتقدم مثله في الآية ٣٨ من سورة الأعراف ج ٣ ص ٣٢٦ .

(قالوا بل لم تكونوا مؤمنين وما كان لنا عليكم من سلطان بل كنتم قوماً طاغين فحق علينا قول ربنا انا لذائقون فأغويناكم انا كنا غاوين) . هذا قول الرؤساء أجابوا به الضعفاء ، ومحصله: ما كنا نملك إلا الدعوة وتزيينها، وقد دعوناكم الى الكفر فاستجبتم ، ودعاكم الرسول الى الايمان ففترتم ، والسر هو خيبتكم وطمعناكم وإلا فأني سلطان لنا عليكم لو آمنتم بالله ورسوله كما آمن غيركم ؟ وقد كان من نتيجة كفرنا واغوائنا لكم ، واستجابتكم لنا ان حقت علينا وعليكم كلمة العذاب ، كما ترون .. وليس بعد العذاب الذي نقاسيه من مستعيب . وتقدم مثله في الآية ٢٥ من سورة العنكبوت و ٦٧ من سورة الأحزاب .

(فلأنهم يومئذ في العذاب مشركون) . هذا من كلام الله سبحانه ، ومعناه ان العذاب يقع على جميع المجرمين في ذلك اليوم الذي تساءلوا فيه وتلاوموا (انا كذلك نفعل بالمجرمين) . عقاب صارم ، وعذاب دائم من غير فرق بين التابع والمتبوع .

(انهم كانوا اذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون) . تعالوا وتعاضموا عن قبول الحق وكلمته، فأصابهم ما أصاب المستكبرين قبلهم من بأس الله وعذابه (ويقولون ائنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون) . قال المفسرون : خلط المشركون في كلامهم ، وارتبكوا في غيهم حيث وصفوا الرسول الأعظم (ص) بالشاعر والمجنون معاً مع ان الشاعر ينتقي المعاني بفكر وروية ، ويؤلف بينها بدقة وإحكام ، ويعبر عنها ببراعة واتقان ، وأين المجنون من هذا ؟

(بل جاء بالحق وصدق المرسلين) . كلا ، ما هو بشاعر ولا مجنون، وإنما هو رسول كريم ، جاء بالحق من عند الله ، وصدق من تقدمه من الرسل، وما بين يديه من الكتب .. وبعد ، فإن المجنون خير وأفضل ممن وصف محمداً (ص)

بالجنون ، وهو الذي اصطفاه الله واختاره لرسالته ، وجعله سيد المرسلين وخاتم النبيين . انظر تفسير الآية : « وما علمناه الشعر وما ينبغي له - ٦٩ يس » .

على سرر متقابلين الآية ٣٨ - ٤٩ :

إِنَّكُمْ لَذَائِقُو الْعَذَابِ الْأَلِيمِ * وَمَا تُحْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * إِلَّا
عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ * أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ * فَوَاكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ *
فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ * عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ * يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ
مَعِينٍ * بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ * لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ *
وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطُّرْفِ عِينٌ * كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ *

اللغة :

معين ماء غزير . لذة لذيدة . غول صداع . ولا هم عنها ينزفون لا يفنى
شرابهم . قاصرات الطرف يحسن نظراتهن على أزواجهن . وعين جمع عيناء وهي
واسعة العينين . مكنون مستور .

الإعراب :

إلا ما كنتم تعملون والا أداة حصر . والا عباد الله المخلصين استثناء منقطع
من ذائقو العذاب ، وما بين المستثنى والمستثنى منه اعتراض . فواكه بدل من
رزق . على سرر متعلق بمتقابلين ومتقابلين حال من « مكرمون » . وببيضاء صفة
للكأس . وعندهم خبر لمبتدأ مخنوف أي حور . وقاصرات الطرف صفة للحور ،
وعين صفة ثانية . ومكنون صفة للبيض .

المعنى :

(انكم لذائقو العذاب الأليم واما نجزون إلا ما كنتم تعملون) . بعد ان قال سبحانه : ان المجرمين في العذاب مشتركون قال لهم : ان عذابكم هو جزاء لما كسبت أيديكم ، ولا تظلمون قليلاً .

(الا عباد الله المخلصين أولئك لهم رزق معلوم) . هذا على عادة القرآن ، يذكر المجرمين وعقابهم ، ويعقب بذكر الطيبين وثوابهم ، وهو بالاجال رزق معلوم عند الله وعندهم ، وهو بالتفصيل (فواكه) مما يشتهون (وهم مكرمون) لأن الفواكه والطعام والشراب مع الاهانة سموم وهموم ، وفي الأمثال اللبنانية : « استقبلني ولا تطعمني » . (في جنات النعيم) تجري من تحتها الأنهار (على سرر متقابلين) ينظر بعضهم الى بعض بغبطة وسرور (يطاف عليهم بكأس من معين) يحمل الولدان اليهم أنواعاً من الشراب الذي لا ينضب له معين (بيضاء لذة للشاربين) مشرقة اللون طيبة الطعم (لا فيها غول) لا صداع من شربها ولا أوجاع (ولا هم عنها ينزفون) أي لا يفنى شربها ، يقال : نزف ماء البئر اذا استخرجه بكامله . ونزف الرجل اذا ذهب عقله ، ومن ثم قال بعض المفسرين : المراد ان عقولهم لا تنهب من شربها (وعندهم قاصرات الطرف عين) . فواكه وتكرّم وسرر وخلم وشراب، وفوق ذلك حور عفيفات جميلات واسعات العيون (كأنهن بيض مكنون) هذا كناية عن صيانتهم وبُعدهن عن لمس الأيدي ونظرات الأعين .

المرأة والفتيان :

بالأمس القريب جاءني كتاب من إحدى الطالبات الكويتيات ، تقول فيه : جرى حديث بينها وبين أترابها في حقوق المرأة، فقالت هي : الاسلام لا يفرق بين الرجال والنساء .. فاعترضن عليها بأن القرآن نصّ صراحة على ان الله غداً يكافئ الرجال الطيبين بالحوور العين ، وسكت عن مكافأة النساء الطيبات بالشبان والفتيان الفوارس الأشاوس .. ولو كانت الحقوق سواء لوجب أن يكون الجزاء من نوع واحد ..

وتقول الآتسة : انها عجزت عن الجواب . ورغبت إليّ ان أكتب به اليها ، لتضع الفتيات المعترضات .

وبدلنا هذا الحوار البريء على ان المرأة تماماً كالرجل في غرائزه وميوله ، وان الرجل على شرطها هي وشروطها أفضل جزاء لها وثواب - طبعاً والرجل كذلك - وأيضاً يدل هذا الحوار على أن غير المرأة من الرجل تماماً كغيره الضرائر والنظائر . وقلت في جوابي لها : ان القرآن الكريم نص صراحة على المساواة بين الذكر والأنثى كمبدأ عام ، وذلك حيث يقول : « اني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى - ١٩٥ آل عمران » : « ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون شيئاً » - ١٢٤ النساء .. وليس من شك أن من دخل الجنة وجد فيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين ذكراً كان أو أنثى كما في الآية ٧١ من الزخرف .. هذا ، الى أن القرآن الكريم ذكر الولدان المخلدن كما ذكر الحور العين ، وإذا وصف الحور بالببيض المكنون فقد وصف الولدان باللؤلؤ المنشور كما في الآية ١٩ من سورة الدهر .

وغير بعيد أن يكون السكوت عن مكافأة النساء بالفتيان والشبان جارياً على المألوف بين الناس ، حيث يقولون للشاب لم لا تتزوج ؟ ومتى تتزوج ؟ ولا يقولون ذلك للفتيات والآتسات حيث يغلب عليهن الحياء ، وقديماً قيل : أشد حياء من فتاة .. وأيضاً قيل : ان ملذات الجنة كلها روحية ، لا شائبة فيها لمادة أو جنس ، وان ذكر الحور والفاكهة والكأس هو مجرد رمز وشارة بلذة الجسم الى لذة الروح ، وان السرر كناية عن الدرجات والمراتب .

لمثل هذا فليعمل العاملون الآية ٥٠ - ٦٨ :

فَاقْبَلْ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ* قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ* يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ* أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ* قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطْلِعُونَ* فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ*

قَالَ تَاللّٰهِ اِنْ كِدْتَ لَتَرْدِيْنَ * وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّيْ لَكُنْتُ مِنَ الْمُخْضِرِيْنَ *
 اَفَمَا نَحْنُ بِمَبْتٰتِيْنَ * اِلَّا مَوْتَتْنَا الْاَوَّلٰى وَمَا نَحْنُ بِمُعْذِرِيْنَ * اِنْ هٰذَا هُوَ
 الْفَوْزُ الْعَظِيْمُ * لِيُثْلِ هٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُوْنَ * اٰذٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا اَمْ
 شَجَرَةُ الزَّقُوْمِ * اِنَّا جَعَلْنٰهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِيْنَ * اِنَّمَا شَجَرَةُ تَخْرُجُ فِي
 اَصْلِ الْجَحِيْمِ * طَلْعَهَا كَاِنَّهُ رُوْسُ الشَّيَاطِيْنَ * فَاِنَّهُمْ لَا يَكِلُوْنَ مِنْهَا
 فَمَالِثُوْنَ مِنْهَا الْبَطُوْنَ * ثُمَّ اِنْ لَهُمْ عَلَيْنَا لَشُوْبًا مِنْ حِيْمٍ * ثُمَّ اِنْ
 مَرَجَعَهُمْ لِآلِ الْجَحِيْمِ *

اللغة :

قرين صاحب . ومدنيون محاسبون ومجزيون . ومطلعون مشرفون . وسواء الجحيم
 وسطها . وتردين تهلكني . ومحضرين من الاحضار ، واحضره جعله حاضراً ،
 وقالوا : لا نستعمل احضر الا في الشر . والنزل ما يهبط للنازل . والزقوم شجرة
 تخرج في الجحيم كما قال سبحانه ، وقيل : ان العرب تعرف لها نظيراً في الدنيا
 وانها مرّة وتوجد في تهامة . والطلع اول ما يخرج من النخلة في اكمامه . ورووس
 الشياطين كناية عن قبح المنظر . والشوب خلط الشيء بغيره . والجحيم الحار .

الإعراب :

ان كدت « ان » مخففة من الثقيلة واسمها محذوف أي انك . ولتردين اللام
 هي الفارقة بين المخففة والنافية ، وتردين أصلها ترديني . ونعمة ربي مبتدأ والخبر
 محذوف أي كائنه . ونزلاً تمييز .

المعنى :

(فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون) . ما زال الكلام عن أحوال الجنة . قال سبحانه في الآيات السابقة : ان أهل الجنة يتمتعون بأنواع اللذات . وقال في هذه الآية : أنهم يتكلمون مسرورين عما كان يجري معهم في الحياة الدنيا ، من ذلك (قال قائل منهم اني كان لي قرين يقول أئنك لمن المصدقين أنذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمدينون) . يتحدث هذا المؤمن الى اخوانه وجيرانه عن جليس له كان يسخر من الذين آمنوا بيوم الدين ، ويقول فيما يقول : أبعد الفناء نبعث أحياء ؟ حديث خرافة يا أم عمرو .. وهذا ما يلوكه كل ملحد .. والسر ان الايمان بالبعث فرع عن الايمان بالوحي من الله الى من اصطفى من عبادہ، والملحد لا يؤمن بهذا الوحي فكيف يؤمن بالبعث بعد الموت ؟ وفي جملة واحدة ان البعث غيب ، والغيب أسطورة عند الملحدین .

(قال هل أنتم مطلعون) . الخطاب من المؤمن لزملائه في الجنة يدعوهم أن يشرفوا على جهنم ليروا عاقبة ذاك السائر المكابر (فاطلع فرآه في سواء الجحيم) . قال لهم هذا ، وأشرف هو على جهنم فرأى قرينه في قلبها (قال - له موبخاً - تالله ان كدت لتردين) أي تهلكني وتوقعني في الشك بوسوستك وشكوكك (ولولا نعمة ربي لكنت من المحضرين) معك في سواء الجحيم .

ثم يلتفت المؤمن الى اخوانه ويقول لهم : (أفأنا نحن بميتين إلا موتتنا الأولى وما نحن بمعذبين ان هذا هو الفوز العظيم) يتحدث فرحاً بما أصاب ، ويقول : تجاوزنا الامتحان بنجاح، والله الحمد .. فلا موت ولا أتعاب بعد اليوم .. لا شيء إلا نعمة الله ورضوانه ، وفي هذا المعنى قوله : لا ينزفون فيها الموت إلا الموتة الأولى ووقاهم عذاب الجحيم فضلاً من ربك ذلك هو الفوز العظيم - ٥٧ اللخان .

(لمثل هذا فليعمل العاملون) ويتنافس المتنافسون .. أضاف سبحانه الأعمال والأفعال الى العباد ، وأوجب عليهم عمل ما فيه خيرهم وصلاحهم ، ونهاهم عما يعود عليهم بالشر والفساد ، وترك لهم الخيار فعلاً وتركاً فيما عدا ذلك ، ووعد

سورة الصافات

من أطاع بالجنة ، ومن عصى بعذاب الحريق ، وليس من شك ان العاقل يرحم نفسه ويختار لها الأفضل ، وفي نهج البلاغة : ليس لأنفسكم ثمن إلا الجنة ، فلا تبيعوها إلا بها .

(أذلك خير نزلاً أم شجرة الزقوم انا جعلناها فتنه للظالمين) . ذلك إشارة إلى النعيم ، وهو أجر من أصلح وأحسن عملاً . ونزلاً ما يُعد للنازل . والفتنة هنا معناها العذاب كما هي في الآية ١٣ من سورة الذاريات : « يوم هم على النار يفتنون » أي يُعذبون ، أما شجرة الزقوم فقد بينها سبحانه بقوله : (أنها شجرة تخرج في أصل الجحيم طلعها كأنه رؤوس الشياطين فإنهم لآكلون منها فالثون منها البطون) . الزقوم من قول العرب : تزقم الطعام إذا تناوله على كره . وفي تفسير الطبري : ان أبا جهل لما نزلت هذه الآية قال ساخراً : انا آتيكم بالزقوم ، ثم أتى يزيد وتمر ، وقال : دونكم تزقوا ، هذا هو الزقوم الذي يخوفكم به محمد . ورؤوس الشياطين كناية عن قبح الشجرة ومنظرها المخيف .. ومن قال : ان شجرة الزقوم ترمز الى سوء العذاب فلا اعتراض لنا عليه .

(ثم ان لهم عليها لشوباً من حيم) . الشوب الخلط ، والحميم الحار ، والمعنى انهم يأكلون الزقوم ، ويشربون من ماء الصديد ، وهو القيح المخلوط بالدم : « من ورائه جهنم ويسقى من ماء صديد - ١٦ ابراهيم » ج ٤ ص ٤٣٣ (ثم ان مرجعهم إلى الجحيم) . والمراد بمرجعهم سكنهم الأخير ومقرهم الدائم ، والمعنى طعامهم الزقوم ، وشرايبهم الحميم ، وسكنهم الجحيم ، أما لباسهم فقد أشارت إليه الآية ٥٠ من سورة ابراهيم : « سراويلهم من قطران » .

ضل قبلهم أكثر الأولين الآية ٦٩ - ٨٢ :

إِنَّهُمْ أَلَفُوا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ * فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ * وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ * وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ * فَاَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ * إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ * وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ

فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ * وَنَجِّنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ * وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ
هُمُ الْبَاقِينَ * وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ * سَلَامٌ عَلَى نُوْحٍ فِي الْعَالَمِينَ *
إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا
الْآخِرِينَ *

اللغة :

يهرعون يسرعون . وتركنا عليه أبقينا عليه ذكراً جميلاً .

الإعراب :

فلنعم المجيبون اللام في جواب قسم محذوف وجملة نعم خبر مبتدأ محذوف أي
نحن . وأهله مفعول معه . وهم الباقيين وهم ضمير فصل لا محل له من الإعراب .

المعنى :

(انهم ألقوا آباءهم ضالين فهم على آثارهم يهرعون) . الضمير الغائب يعود
إلى مشركي العرب الذين ساروا على طريقة الآباء من غير بحث وتدبر ، وتوهم
الآية إلى ان الضال ومن ضل به سواء في المصيبة واستحقاق العقاب ، أما من قلد
أهل الهداية والصلاح فهو في أمن وأمان من عذاب الله ، ويدل على ذلك قوله
تعالى : « قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً
ولا يهتدون - ١٧٠ البقرة » . ومعنى هذا ان آباءهم لو كانوا مهتدين لحاز
اتباعهم . أنظر ج ١ ص ٢٥٩ فقرة « التقليد وأصول العقائد » .

(ولقد ضل قبلهم أكثر الأولين ولقد أرسلنا فيهم منذرين) . ان كذبك
يا محمد مشركو العرب ، وضلوا عن الحق فقد ضل قبلهم أكثر الأمم ، مع ان

الله بعث اليهم رسلاً مبشرين ومنذرين ، واتخذ عليهم الحجة وبيّن لهم محابه ومكارهه من الأعمال ، فاتبعوا هذه ، واجتنبوا تلك ، فحققت عليهم كلمة العذاب (فانظر كيف كان عاقبة المندّرّين) من الخزي والدمار (إلا عباد الله المخلصين) فقد أنجاهم سبحانه من عذابه ، وكافأهم بأجره وثوابه .

(ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون) . يشير سبحانه الى ما جاء في الآية ٢٦ من سورة نوح : « وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً » . (ونجيناه وأهله من الكرب العظيم) . استنصر نوح بالله على طغاة قومه ، فأغرقهم الله ولم يبق منهم دياراً استجابة لدعاء نبيه نوح ، ونجاه ومن آمن معه من أذى الكفرة الفجرة ومن كل كرب وسوء .

سام ويافث وحام :

(وجعلنا ذريته هم الباقين) بعد الطوفان دون النساس أجمعين . وفي تفسير الطبري : « ذرية نوح هم الباقون في الأرض بعد مهلك قومه ، والناس كلهم من بعده الى اليوم إنما هم من ذرية نوح ، فالعجم والعرب أولاد سام بن نوح ، والترك والصقالبة أولاد يافث ، والسودان أولاد حام ، وبذلك جاءت الآثار وقالت العلماء . وقد توفي الطبري سنة ٣١٠ هـ أي قبل أكثر من ألف سنة ، ولسبقه وتقدمه بلبونه بشيخ المفسرين .

وفي « قاموس الكتاب المقدس » : « سام اسم عبراني ومعناه « اسم » وهو أكبر أولاد نوح ، ومن نسله العرب والآراميون والآشوريون واليهود ، ولذلك تدعى اللغات التي يتكلمون بها السامية نسبة اليه ، مثل اللغة العربية واللغة العبرانية .. ويافث اسم سامي ربما كان معناه جمال .. ومن ذريته الذين سكنوا الجبال الغربية من النجاد جنوبي بحو قزوين والبحر الأسود حتى شواطئ وجزائر البحر المتوسط من أصل هندي أوروبي - ويدخل في هؤلاء الترك والصقالبة الذين أشار اليهم الطبري - وحام اسم عبري ، ومعناه حام أي ساخن ، وهو أصغر أبناء نوح . (وتركنا عليه في الآخرين) . أبقينا له الذكر الجميل مدى الحياة (سلام

على نوح في العالمين) . هو في أمن وأمان من الله أن يذكره ذاكر بسوء ، وقد كان الأنبياء يسألون الله سبحانه أن يجعل لهم ذكراً حسناً عند الناس من بعدهم : قال ابراهيم (ع) : « واجعل لي لسان صدق في الآخرين - ٨٤ الشعراء » . (انا كذلك نجزي المحسنين) . أي بحسن الله إليهم لأنه لا يضع عمل عامل من ذكر أو أنثى (انه من عبادنا المؤمنين) لأنه أحسن في أعماله وجاهد في الله حق جهاده ، وهذه هي سمات المؤمن ودلائله (ثم أغرقنا الآخرين) في الدنيا ، ولهم في الآخرة عذاب أليم جزاء بما كانوا يعملون .

وان من شيعته لابراهيم الآية ٨٣ - ٩٩ :

وَأَنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ * إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ
وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ * أَتُنْفِكَ آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ * فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ
الْعَالَمِينَ * فَتَنَظَّرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ * فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ * فَتَوَلَّوْا عَنْهُ
مُذْبِرِينَ * فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ * مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ *
فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ * فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُونَ * قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا
تَنْحِتُونَ * وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ * قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْفُوهُ
فِي الْجَحِيمِ * فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ * وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ
إِلَى رَبِّي سَيِّدِينَ *

اللغة :

شيعته الرجل الجماعة السائرون على دينه وطريقه ، ثم صارت هذه الكلمة بمفردها

سورة الصافات

اسماً لشيعه الإمام (ع) ومن قام مقامه من أبنائه . أُنْكَأ أي زوراً وباطلاً . وراغ مال واحد من جهة الى جهة . ويزفون يسرعون .

الإعراب :

إذ جاء « إذ » في محل نصب بفعل محذوف أي اذكر حين جاء . وإذ قال « اذ » هذه بدل من اذ الأولى . أُنْكَأ مفعول به لتريدون . وآله بدل من الافك . فما ظنكم مبتدأ وخبر . ومدبرين حال . وما لكم مبتدأ وخبر . وضرباً منصوب على المصدرية أي يضرب ضرباً .

المعنى :

ذكر سبحانه مفسون هذه الآيات فيما تقدم ، ولذا تفسرها تفسيراً سريعاً مع الإشارة الى رقم الآية والسورة السابقة .

(وان من شيعته لابراهيم) . ضمير شيعته يعود الى نوح ، والمعنى ان ابراهيم (ع) سار على نهج نوح عقيدةً وعملاً ، وفي بعض التفسير القديمة : انه كان بين نوح وابراهيم ٢٦٤٠ سنة ، وصاحب هذا القول لم يستند الى مصدر موثوق .

(إذ جاء ربه بقلب سليم) . وصاحب هذا القلب هو الذي أخلص الله وحده في جميع أقواله وأفعاله . وفي الحديث : لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه . وفي نهج البلاغة : طوبى لقلب سليم أطاع من يهديه ، وتجنب من يرديه (إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون أُنْكَأ آلهة دون الله تريدون) . أنكر ابراهيم عبادة الأصنام على قومه ، وجابههم بكلمة الحق قائلاً : أتطلبون الزور والباطل بالرجوع الى غير الله ، والتقرب اليه بعبادة سواه ؟ وتقدم مثله في الآية ٧٤ من سورة الأنعام ج ٣ ص ٢١٢ .

(فما ظنكم برب العالمين) ؟ أنظنون به ، وهو خالق الكون ، انه حجر أو كوكب ؟ ألا يردعكم عن هذا الجهل يقظة من عقل ، أو لمحة من فهم . وفي

ج ٤ ص ٣٩١ فقرة : « عقول الناس لا تغنيهم عن دين الله » بيتنا لماذا عبد المشركون أحجاراً تبول عليها الكلاب والثعالب (فظفر نظرة في النجوم) يوهم قومه أنه يبحث عن خالق الكون لأنهم كانوا يعبدون آلهة كثيرة وبنوع خاص « نانار » إله القمر وزوجته « نينجال » (قاموس الكتاب المقدس) . وفي معنى هذه الآية ما جاء في الآية ٧٦ من سورة الانعام .

(فقال اني سقيم) . للمفسرين في معنى سقيم أقوال ، أرجحها ان المراد به هنا الشاك ، وعليه يكون المعنى ان ابراهيم قال لقومه : انا الآن في حيرة أبحث وأدقق لأهتدي الى معرفة الخالق ، وقد نظرت في الأصنام فأيقنت انها ليست بآلهة ، ثم نظرت في النجوم فلم أهتد الى شيء بل بقيت على شكّي وحيرتي . والسياق يعين لإرادة هذا المعنى أو يرجحه - على الأقل - لأنه ربط بين قوله : اني سقيم وبين نظرته في النجوم .. وليس في قوله : اني شاك أي كذب .. كلا ، لأنه من باب المباشرة مع الخصم ليأخذ به الحجة ، ويقطع عليه كل معذرة .

(فتولوا عنه مدبرين) . تركوه وشأنه وذهبوا الى شأنهم (فراغ الى آلهتهم) . أسرع الى الأصنام مغتنماً فرصة غيابهم عنها ، وكانوا قد وضعوا بين يديها طعاماً لتباركه (فقال - للأصنام - ألا تأكلون ما لكم لا تنطقون) ؟ ومعلوم انه قال هذا ازدراء بها ، واحتجاجاً على من يعبدونها ويتبرك بها (فراغ عليهم ضرباً باليمين) . مال على الأصنام يحطمها بيمينه حتى جعلها قطعاً قطعاً الا كبيراً لهم لعلمهم اليه يرجعون (فأقبلوا اليه يزفون) . أسرع القوم الى ابراهيم وقالوا له : أنت فعلت هذا يا ابراهيم (قال أتعيبدون ما نتحتون) ؟ ويلكم لا تفزعوا على الله كذباً .. ان الإله خالق غير مخلوق ، ورازق غير مرزوق ، وقد صنعتم هذه الأصنام بأيديكم وتقدمون لها الأطعمة وتحرسونها من الاعتداء ، فكيف تكون آلهة ؟ (والله خلقكم وما تعملون) هو خالق كل شيء واليه المصير .

(قالوا ابنوا له بنياناً فألقوه في البحر) . عجزوا عن مقابلة الحجة بالحجة فلجأوا الى القوة كما هو شأن الطغاة ، يضرمون النار ، ويلقون فيها دعاة الحق والخير كما كانت الحال في القديم ، ولما تقدم العلم المدمر ألقوا النار على الشعوب المستضعفة بنسائهم وأطفالها (فأرادوا به كيداً فجعلناهم الأسفلين) حيث جعل

سبحانه النار على ابراهيم برداً وسلاماً (وقال اني ذاهب الى ربي سيهدين) .
بعد أن أنجاه الله من كيد قومه هاجر من بلده اور الكلدانيين - بابل - الى بلاد
الشام . وفي قاموس الكتاب المقدس : « اكتشفت آثار ونقوش ترجع الى حوالى
ألفي سنة قبل الميلاد ، وقد وُجد عليها اسم ابراهيم بهذه الصيغ : ابرامو . ابرام .
ابراما ، وأظهرت الكشف التاريخية الحديثة الحالة التي كانت عليها مدينة اور التي
هاجر منها ابراهيم كما كانت حينذاك » . وتقدم مضمون هذه الآيات بنحو من
التفصيل في سورة الأنبياء الآية ٥١ - ٧٠ ج ٥ ص ٢٨٣ - ٢٨٨ .

أرى في المنام اني أدبكت الآية ١٠٠ - ١١٣ :

رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ * فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ * فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ
السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى
قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ * فَلَمَّا
أَسَامَا وَتَلَّهِ لِلْجَبِينِ * وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا
كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ * وَقَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ
عَظِيمٍ * وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ * سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ * كَذَلِكَ
نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ * وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنْ
الصَّالِحِينَ * وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ مُخْتَرٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ
مُبِينٌ *

اللغة :

أسلماً استسلماً لأمر الله . وتله صرعه وألقى به على الأرض . والجبين عن يمين الجبهة وشمالها ، والجبهة مكان السجود أي ان ابراهيم ألقى ولده على شقه . والذبح بكسر الذال المهياً للذبح .

الإعراب :

وناديتاه الواو زائدة عند الكوفيين وناديتاه جواب لما ، وعند غيرهم جواب لما محذوف أي فازا وظفرا . وان يا ابراهيم «ان» مفسرة . ونياً حال من اسحق.

المعنى :

(رب هب لي من الصالحين) . بلغ ابراهيم (ع) من الكبر عتياً ، ولم يرزق ولداً ، فسأل ربه أن يهبه ذرية مؤمنة وخلفاً صالحاً (فبشرناه بسلام حلیم) . وهو اسماعيل ، ما في ذلك ريب ، بشهادة القرآن الكريم ، وبأني البيان مفصلاً بعد تفسير الآيات التي نحن بصدددها .

(فلما بلغ معه السعي قال يا بني أني أرى في المنام اني أذبحك فانظر ماذا ترى) . الضمير المستتر في بلغ يعود الى الغلام المذكور في الآية السابقة ، ونعني به اسماعيل ، وضمير معه يعود الى ابراهيم . وقد رأى في منامه أنه يذبح أو يقدم على ذبح ولده ، ففهم من هذه الرؤيا ان الله قد أمره بذبحه .. وفهم الأنبياء يقين ، ومن أجل هذا عزم من غير تردد على أن يحقق رؤياه بالفعل ، وأخبر ولده بعزمه وطلب منه أن يبدي رأيه في ذلك بعد النظر والتأمل .

(قال يا أبت افعل ما تؤمر) . أجابه على الفور لا رأي لي ولا أمر مع أمر الله وأمرك .. يا أبت اذبحني فلا قيمة للحياة في جنب مرضاة الله ومرضاتك .. افصل يا أبت رأسي عن جسدي وأنت عندي البر الرحيم ما دمت تبغي وجه الله وتستجيب لدعواه .. ثم أخذ اسماعيل يخفف عن أبيه ويهون عليه أمر الذبح ويقول : (ستجندني ان شاء الله من الصابرين) . ألقى الذبح رابط الجأش قوي اليقين .

(فلما أسلما وتله للجبين وناديناه ان يا ابراهيم قد صدقت الرؤيا انا كذلك نجزي المحسنين) . لما مدّ اسماعيل عنقه للذبح وهوى عليه ابراهيم بسكينه مفوضاً كل منها أمره لمن له الأمر - جاء النداء من الأمر الأعلى : هذا تأويل رؤياك .. انه العزم والاقدام منك على الذبح اخلاصاً لله ، والانقياد من اسماعيل لأمر الله طيب النفس ، أما الذبح بالذات فما هو بمقصود .

وتسأل : إذا كان الذبح غير مقصود فما هو الغرض من الأمر به ؟

الجواب: يرى البعض ان الغرض من ذلك ان يُظهر الله سبحانه للملأ والأجيال عظمة كل من ابراهيم واسماعيل في تضحيته واخلاصه لله ، فيكون موضع التقديس والتقدير الى يوم يعثون . وقال آخر : الغرض ان تبدل سارة غيرها من هاجر ام اسماعيل، وتكف قسوتها عن ابراهيم .. ونضيف نحن الى هذين القولين ان الله سبحانه أراد أيضاً أن يضرب ذلك مثلاً للمؤمن الحق وانه الذي يطيع الله في كل شيء حتى في ذبح ولده وفلذة كبده ، ويؤمى الى هذا قوله تعالى : (ان هذا هو البلاء المبين) أي ان هذا العزم على التضحية بالنفس والأهل امتثالاً لأمر الله هو وحده المحك للمؤمن حقاً وواقعاً ، والحد الفاصل بينه وبين من يُخيل اليه انه من المؤمنين وما هو من الايمان في شيء .

(وفديناه بذبح عظيم) . المراد بالذبح المذبوح . وقيل كان كبشاً ، وقال آخر : بل كان وعلاً .. وأياً كان الفداء فتحن غير مسؤولين عن معرفة نوعه، ولا تتصل هذه المعرفة بحياتنا من قريب أو بعيد. وطريف قول من قال انه كان كبشاً أملح ، ورعى في الجنة أربعين عاماً، وان ابراهيم (ع) أعطى طحاله واثنيه لإبليس .. وإذا رعى في الجنة أربعين عاماً فكم يكون وزنه يا ترى ؟

(وتركنا عليه في الآخرين سلام على ابراهيم كذلك نجزي المحسنين انسه من عبادنا المؤمنين) . تقدم هذا النص في الآية ٧٨ وما بعدها من هذه السورة نفسها .

(وبشرناه بإسحق نبياً من الصالحين وباركنا عليه وعلى إسحق) . هذه البشارة من الله لابراهيم بولد ثانٍ انما هي جزاء على صبره وإقامته على ذبح ولده طاعة لله . وفي قاموس الكتاب المقدس : ان سارة ولدت لإسحق ولها من العمر ٩٠ سنة ، ولابراهيم مئة سنة ، وان معنى إسحق في العبرية يضحك . أما هاجر فقد ولدت

اسماعيل ولابراهيم من العمر ست^١ وثمانون سنة (ومن ذريتها محسن وظالم لنفسه مين) . والمحسن من هذه النرية هو الذي اتبع ملة أبيه ابراهيم حنيفاً ، والظالم من حاد عنها .

هل الذبيح اسماعيل أو اسحق ؟

ذهب البعض الى ان الذبيح - أي الذي أمر ابراهيم بذبحه - هو اسحق وليس اسماعيل .. ولا مصدر لهذا القول إلا اسرائيليات كعب الأجبار وحسد اليهود لأبناء اسماعيل ، وليس هذا بكثير على بني اسرائيل ، أما الأدلة على ان الذبيح هو اسماعيل فهي :

أولاً : قوله تعالى : « فبشرناه بغلام حليم فلما بلغ معه السعي قال يا بني اني ارى في المنام اني اذبحك » فإنه يدل بصراحة على ان المشر به والساعي والذبيح صفات لموصوف واحد ، وهو الولد البكر لابراهيم ، وبكر ابراهيم هو اسماعيل باتفاق المسلمين والنصارى واليهود ، فلقد جاء في التوراة الاصحاح ١٦ الآية ١٥ من سفر التكوين ما نصه بالحرف : « وكان ابرام ابن ست وثمانين سنة لما ولدت هاجر اسماعيل لابرام » أي ابراهيم ، واذا عطفنا على هذا ما جاء في التوراة من السفر المذكور الاصحاح ١٧ الآية ١٧ وما بعدها : ان الله لما بشر ابراهيم باسحق من سارة سقط على وجهه وقال في قلبه : هل يولد لي وأنا ابن مئة سنة وسارة بنت تسعين ؟ إذا جمعنا بين الآيتين تكون حصيلتهما ان اسماعيل هو الولد البكر ، وانه يكبر اسحق بأربعة عشر عاماً ، وبينما ان البكر هو الذبيح ، فالذبيح - اذن - اسماعيل لا اسحق .

ثانياً : قوله تعالى : « وبشرناه بإسحق نبياً من الصالحين » حيث جاءت هذه البشارة لابراهيم بإسحق جزاء له على طاعته لله في ذبح ولده البكر ، كما قلنا ، فلا بد - وهذه هي الحال - أن يكون زمن إسحق متأخراً عن زمن الذبيح ، تماماً كما يتأخر الثواب على العمل عن نفس العمل .

ثالثاً : قوله تعالى في الآية ٧١ من سورة هود : « فبشرناها بإسحق ومن

وراء إسحق يعقوب ، فإن الله بشر سارة بإسحق وبولده يعقوب في آن واحد ، فكيف يأمر بذبح إسحق بعد أن بشر به وبنسله ؟ وماذا تقول سارة عندما تسمع الأمر بذبح وليدها بعد أن سمعت البشارة به وبولده ؟ .
 رابعاً : لو كان الذبيح إسحق لوجب أن يكون النحر والسعي ورمي الجار في أرض الشام حيث كانت سارة وولدها إسحق ، وليس بمكة حيث كانت هاجر وولدها اسماعيل .

موسى والياس الآية ١١٤ - ١٣٢ :

وَلَقَدْ مَتَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ* وَتَجْنَّاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ*
 وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ* وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ* وَهَدَيْنَاهُمَا
 الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ* وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ* سَلَامٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ
 وَهَارُونَ* إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ* إِنَّمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ*
 وَإِنَّا لَنِيَاسَ لِمَنْ الْمُرْسَلِينَ* إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَأَلَا تَتَّقُونَ* أَتَدْعُونَ بَعْلًا
 وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ* اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ* فَكَذَّبُوهُ
 فَأَنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ* إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ* وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ*
 سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ* إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ* إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا
 الْمُؤْمِنِينَ*

اللغة :

المستبين الواضح . وبعل اسم صنم .

الإعراب :

الله وربكم يدل من أحسن الخالقين .

المعنى :

(ولقد مننا على موسى وهرون) . من سبحانه على موسى وهرون بالنبوة وخلود الذكر والنصر على الأعداء ، ولا تكون النبوة بالكسب والعمل ، وإنما هي اختيار من الله تعالى : « الله أعلم حيث يجعل رسالته » - ١٢٤ الأنعام . ومن أجل هذا لا يتعلق بها التكليف ، فلا يقال : كن نبياً كما يقال : كن تقياً (ونجيناها وقومها من الكرب العظيم) . من طبيعة اليهود أن يتقبلوا كل شيء من أجل المال وجمعه حتى الذل والعار .. هذا ما نطق به تاريخهم ، فلقد استعبدهم فرعون ولم يحرکوا ساكناً حتى جعل الله لهم على يد موسى من الكرب والبلاء فرجاً ومخرجاً .

(ونصرناهم فكانوا هم الغالبين) . أغرق سبحانه فرعون وجنوده ، فتهرر بنو اسرائيل من المدلة والعبودية (وآتيناهما الكتاب المستبين) . أنزل سبحانه على موسى وهرون التوراة : وفيها أحكام الله الواضحات (وهديناهما الصراط المستقيم) طريق الحق والعدل (وتركنا عليهما في الآخرين) ذكرأ حسناً ، وثناءً جميلاً (سلام على موسى وهرون) أمن وأمان من الله عليها ولها ذنباً وآخرة (اننا كذلك نجزي المحسنين انهما من عبادنا المؤمنين) . وفي معناه: هل جزاء الاحسان إلا الاحسان . وتقدم الكلام عن موسى وهرون وبني اسرائيل في عشرات الآيات . (وان الياس لمن المرسلين) . قال المفسرون : الياس هو واحد من أنبياء بني اسرائيل ، وان نسبه ينتهي الى هرون . وفي أكثر من تفسير : أن الياس هذا هو النبي إدريس الذي جاء ذكره في الآية ٥٦ من سورة مريم والآية ٨٥ من سورة الأنبياء ، وفي قاموس الكتاب المقدس : ان إيليا اسم عبري ، ومعناه إلهي يهوه والصيغة اليونانية لهذا الاسم هي الياس ، وتستعمل أحياناً في العربية . (إذ قال لقومه الا تتقون) ؟ ارشدهم الى التوحيد ، وحلّهم من الشرك

تماماً كما فعل غيره من الأنبياء (اتدعون بعلاً وتذرون أحسن الخالقين الله ربكم ورب آبائكم الأولين) . ويعمل الذي يدعونه من دون الله اسم صنم كما دل سياق الآية . وفي قاموس الكتاب المقدس : « ان بعل بَرِيث اسم كنعاني ومعناه رب العهد » .. عكف قوم الياس على عبادة بعل كما عكف من كان قبلهم على عبادة الأصنام فدعاهم الى التوحيد كما فعل نوح وابراهيم وموسى وغيرهم من الأنبياء (فكذبوه فلأنهم لمحضرون) أعرضوا عن دعوته ، فيحضرهم الله يوم القيامة للحساب والعذاب .

(الا عباد الله المخلصين) وهم الذين استجابوا لدعوة الياس ، فلأنهم بمنجاة من العذاب ولهم أجر كريم (وتركنا عليه في الآخرين) ذكرنا طيباً (سلام على إل ياسين) . قال جماعة من المفسرين : ان أبا الياس اسمه يس ، فعليه يكون المراد بأل ياسين الياس بالذات لأن الابن من آل الأب، ومهما يكن فإن المقصود هنا بأل ياسين هو الياس بقرينة السياق ، فلقد ذكر سبحانه في الآيات السابقة نوحاً وقال : سلام على نوح ، ثم ذكر ابراهيم وأتبعه بقوله : سلام على ابراهيم ، ثم موسى وهرون وقال : سلام على موسى وهرون ، ثم ذكر الياس وانه من المرسلين ، وقال : سلام على إل ياسين ، فتبين انه هو المقصود من آل يس .

لوط ويونس الآية ١٣٩ - ١٤٨ :

وإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ* إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ* إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ* ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ* وَإِنَّا لَمَكْتُومُونَ عَلَيْهِمْ مُصْجِحِينَ* وَبِالْأَيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ* وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ* إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ* فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ* فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ* فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ* لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ*

فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ * وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ *
وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِثَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ * فَآمَنُوا فَتَعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ *

اللغة :

الغابرين أي الباقيين مع الذين كفروا ، وأيضاً تأتي كلمة غبر بمعنى ذهب .
ومصبحين داخلين في الصباح . وابق فراً . وساهم أفرع من القرعة . والمدحضين
المغلوبين . ولميم فعل ما يستحق عليه اللوم والعتاب . والعراء المكان الخالي .

الإعراب :

مصبحين حال من واو تمرون ، وبالليل متعلق بمحذوف معطوفاً على مصبحين
أي ودخلين بالليل . والمصدر من إنه كان مبتدأ وخبره محذوف أي لولا تسييحه
ثابت . أو يزيدون « أو » هنا بمعنى بل ، ويجوز أن تكون للإبهام على المخاطب .

المعنى :

(وان لو طأ لمن المرسلين إذ نجيناه وأهله أجمعين إلا عجوزاً في الغابرين ثم
دمرنا الآخرين) . تقدم في الآية ٨٠ - ٨٤ من سورة الاعراف ج ٣ ص ٣٥٣ -
٣٥٤ وفي سورة هود الآية ٧٧ - ٨٣ ج ٤ ص ٢٥٣ - ٢٥٦ وفي سورة
العنكبوت الآية ٢٨ - ٣٥ . وفي التوراة الاصحاح ١٩ من سفر التكوين الآية
٣٠ - ٣٨ : انه كان للوط بنتان ، فأسقنا أباهما خيراً فواقعهما ، وأولد كلا
منها ذكراً .

(وانكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون) . كان العرب يسافرون
من الحجاز الى الشام للتجارة وغيرها ، ويمرون في طريقهم صباحاً ومساءً وذهاباً

سورة الصفات

وإياباً على أرض قوم لوط ، ويرون آثار الهلاك والدمار ، فحذر سبحانه مشركي العرب الذين كذبوا محمداً (ص) قائلاً لهم : ألا تعتبرون بما قد رأيتم من ديار قوم لوط كيف أصبحت خالية خاوية ؟ ألا تخافون أن يصيبكم ما أصابهم ؟

(وان يونس لمن المرسلين) . يونس هذا هو ذو النون الذي جاء ذكره في الآية ٨٧ من سورة الأنبياء : « وذا النون اذ ذهب مغاضباً » وأيضاً هو صاحب الخوت الذي أشارت إليه الآية ٤٨ من سورة القلم : « ولا تكن كصاحب الخوت اذ نادى وهو مكظوم » . وقال بعض المفسرين : ان يونس من أهل نينوى بكسر النون . وفي قاموس الكتاب المقدس : « ان نينوى كانت عاصمة الأشوريين ، وأنها ازدهرت ازدهاراً عظيماً في بعض القرون للميلاد ، وأنها كانت على الضفة الشرقية من نهر دجلة ، وأن أهلها كانوا يعبدون الإله عشتار أو عشتروت التي اشتركت في عبادتها معظم شعوب العالم القديم » .

(اذ أبقى الى الفلك المشحون فساهم فكان من المدحضين) . دعا يونس قومه الى عبادة الله ، فلم يستجيبوا لدعوته ، فضاق صدره بهم ، وهاجر مغاضباً لهم حتى إذا انتهى الى ساحل البحر وجد سفينة مشحونة بالناس والأحمال ، فسأل أهلها أن يصحبوه ففعلوا ، ولما توسط البحر أشرفت السفينة على الفرق ، وكان لا بد من إلقاء واحد من ركابها في البحر لتنجو من الفرق ، فافترعوا فخرجت القرعة على يونس ، فألقى نفسه في البحر (فالتقمه الخوت وهو مليم) لأنه لم يصبر على أذى قومه كما صبر غيره من الأنبياء .

(فلولا أنه كان من المسبحين آلَّبَتْ في بطنه الى يوم يبعثون) . وبين سبحانه نوع تسيحه في الآية ٨٧ من سورة الأنبياء : « فتادى في الظلمات - أي في بطن الخوت - أن لا إله إلا أنت سبحانه اني كنت من الظالمين » فاستجاب الله لندائه ، ونجّاه من سجنه السيار في بطون البحار ، ولولا لجوؤه الى الله مخلصاً لكان سجنه مؤبداً الى قيام الساعة .

(فنبذناه بالعراء وهو سقيم وأنبثنا عليه شجرة من يقطين) . قالوا : خرج من بطن الخوت كالفرخ الممتط في فلاة لا أنيس فيها ولا حبيس ، فأنبث الله عليه شجرة من يقطين يستظل بها (وأرسلناه الى مئة ألف أو يزيدون فآمنوا

ففتحناهم الى حين) . أرسله سبحانه الى هذا العدد ، فأعرضوا في البداية ، ولما تركهم مغاضباً خافوا من نعمة الله وعذابه ، فأمنوا بالله وطلبوا منه العفو والرحمة ، فعفا وأنجاهم من الهلاك الى أن وافاهم الأجل ، وعاد اليهم يونس ففرحوا بقدومه وفرح بإيمانهم . أنظر ج ٤ ص ١٩٣ فقرة « القصة » و ج ٥ ص ٢٦٩ .

الربك البنات ولهم البنون الآية ١٤٩ - ١٦٠ :

فَاسْتَفْتِهِمُ الرِّبَّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ * أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ * أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إَفْكِهِنَّ لَيَقُولُونَ * وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ * أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ * فَأَتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسَبًا * وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ * سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ * إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ *

الإعراب :

أصطفى أصلها إصطفى الهمة الأولى استغهام والثانية وصل ، ثم حذفت هذه لمكان تلك . وكيف في محل نصب بتحكمون . عباد الله المخلصين استثناء ممن فاعل جعلوا .

المعنى :

(فاستفتهم الربك البنات ولهم البنون أم خلقنا الملائكة إناثاً وهم شاهدون) .

الخطاب في استفتهم لرسول الله (ص)، وضمير الغائب لمشركي العرب .. والقرآن حجة تاريخية عليهم لا تقبل الشك والجدل ، وقد سجل على بعض القبائل منهم انهم كانوا يقولون : اتخذ الله من الملائكة إناثاً له ، ثم رد سبحانه قولهم بأنه رجم بالغيب وعمى عن الحق لأنهم لا يعرفون عن الملائكة شيئاً . وفي معنى ذلك الآية ١٩ من سورة الزخرف : « وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً أشهدوا خلقهم » والآية ٤٠ من سورة الاسراء ج ٥ ص ٤٦ .

(الا انهم من إفكهم ليقولون ولد الله وإنهم لكاذبون) . يأتي الإفك بمعنى الصرف ، ومنه الآية ٢٢ من سورة الأحقاف : « قالوا أجبنا لتأفكنا عن آلهتنا » أي لتصرفنا عنها، وهذا المعنى هو المراد من الإفك هنا أي انهم من أجل انصرفهم عن التوحيد الى الشرك قالوا : ان لله ولداً .. وليس من شك انهم كاذبون في هذا القول (أصطفى البنات على البنين) أختار سبحانه الأدنى ، ويخصم بالأعلى - كما تزعمون - « ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم - ٥٧ النحل ج ٤ ص ٥٢٣ .

(مالكم كيف تحكمون) على ما غاب عن عيونكم وعقولكم ؟ (أفلا تذكرون) وترتدعون عن الشرك وقول الزور ، وقد ذكركم الله وحذركم بلسان نبيه وأمين وحيه (أم لكم سلطان مبين فأتوا بكتابكم ان كنتم صادقين) . أروني حجة من عقل أو نقل ان الله اتخذ من الملائكة إناثاً .

(وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً) . اختلف المفسرون في معنى هذه الآية ، والذي نفهمه من ظاهرها ان المشركين نسبوا لله تعالى نسلاً من الجن كما نسبوا اليه ذلك من الملائكة . وفي بعض التفسيرات نقلاً عن مجاهد ومقاتل : ان كنانة وخزاعة قالوا : خطب الله الى سادات الجن ، فزوجوه من سراق بناتهم ، وان الملائكة بناته من الجنيات .

(ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون) كيف يكون نسب بينه وبين الجن ، وهم يعلمون ان الله خلقهم وانه يبعثهم ويسألهم عما كانوا يعملون (سبحانه الله عما يصفون) وتعالى عما يقول المشبهون والجاحدون علواً كبيراً (الا عباد الله المخلصين) فإنهم ينزهونه عن الشريك والولد ، ويخلصون له في الأقوال والأفعال وهو سبحانه يشيهم على إيمانهم واخلاصهم بأحسن ما كانوا يعملون .

فإنكم وما تعبدون الآية ١٦١ - ١٧٠ :

فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ * مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ * إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ
الْجَحِيمِ * وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ * وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ * وَإِنَّا
لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ * وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُوا * لَوْ أَنْ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنْ
الْأَوَّلِينَ * لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ * فَكْفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ *

اللغة :

فاتنين بمضلين ومفسدين .. وصال الجحيم معذب فيها ، وحذفت الياء من
صالي للتخفيف والكسرة دليل عليها ، ومثله « وله الجوار المنشآتُ في البحر »
أي الجواري . والمراد بالذكر هنا الكتاب .

الإعراب :

وما تعبدون « ما » اسم موصول ومحلها النصب عطفاً على اسم ان . ما أنتم
« ما » نافية وأنتم مبتدأ وفاتنون خبر والباء زائدة إعراباً وضمير عليه يعود الى ما
تعبدون وعلى بمعنى باء السببية أي ما أنتم بسببه فاتنون ، ومثله حقيق عليّ ان لا
أقول إلا الحق أي حقيق وجدير بي . ومن هو صال « من » مفعول فاتنين
وهو مبتدأ وصال خبر وحذفت ياؤه تخفيفاً كما أشرنا في فقرة « اللغة » . ومنا
متعلق بمحذوف صفة لموصوف محذوف أي ما أحد كائن وأحد مبتدأ وخبره له
مقام معلوم . وان كانوا «ان» مخففة من الثقيلة واسمها محذوف أي انهم، واللام في
ليقولون اللام الفارقة .

المعنى :

(فإنكم وما تعبدون ما أنتم عليه بفاتنين الا من هو صال الجحيم) . الخطاب في انكم للمشركين ، والمعنى لا يستجيب لتضليلكم وعبادة أصنامكم أيها المشركون الا من تنكب عن طريق الحق والهداية التي تؤدي به الى مرضاة الله وثوابه ، وسلك طريق الضلالة والغواية التي ينتهي معها الى غضب الله وعذابه .

(وما منا إلا له مقام معلوم) . هذا من كلام الملائكة يردون به على المشركين الذين قالوا : ان الله اتخذ مما يخلق بنات واصطفاهم بالبنين ، ومحصل الرد أنا جميعاً عباد الرحمن نقده ونسبح بحمده ، ولكل واحد منا وظيفته في العبادة لا يتعدها (أنا لنحن الصافون وأنا لنحن المسيحون) . منا الذين يقفون صفوفاً للعبادة ، ومنا الذين لا يسأمون من الذكر والتسبيح ، وفي الحديث : فمنهم راع لا يقيم صلبه ، ومنهم ساجد لا يرفع رأسه .

(وان كانوا ليقولون لو ان عندنا ذكراً من الأولين لكتنا عباد الله المخلصين) . واو الجماعة في كانوا ويقولون تعود لمشركي العرب الذين جعلوا لله بنات من الملائكة وبينه وبين الجنة نسباً ، والمعنى ان المشركين قالوا قبل أن يأتيهم محمد (ص) بالقرآن : لو جاءهم كتاب من عند الله بالحق لآمنوا به وعبدوا الله مخلصين له الدين ، فلما جاءهم ما كانوا يتمنون ازدادوا عنواً ونفوراً ، وإلى هذا أشار سبحانه بقوله : (فكفروا به) أما قوله : (فسوف يعلمون) فهو تهديد ووعد .

وان جندنا لهم الغالبون الآية ١٧١ - ١٨٢ :

وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْغَالِبِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ * وَإِنْ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ * فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ * وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ * أَفَعِدَّاءُنَا يَسْتَعْجِلُونَ * فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ

الْمُنْذِرِينَ * وَتَوَلَّى عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ * وَأَبْصَرَ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ *
سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ * وَالْحَمْدُ
لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ *

المعنى :

(ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين انهم هم المنصورون وان جندنا لهم الغالبون) في الدنيا بالحجة والدليل ، قال الإمام علي (ع) : ما ظفر من ظفر الإثم به ، والغالب بالشر مغلوب ، أما في الآخرة فلا حول للمبطلين ولا قوة . وقال الرازي : « قد تكون النصر والغلبة بقوة الحجة ، وقد تكون بالدولة والاستيلاء ، وقد تكون بالدوام والثبات على الحق ، فالؤمن وان صار مغلوباً في بعض الأحيان بسبب ضعف أحوال الدنيا فهو الغالب ، ولا يلزم على هذه الآية ان يقال : قد قُتِل بعض الأنبياء ، وهُزِم كثير من المؤمنين . وقوله : قد تكون النصر بالثبات ينطبق على صمود العرب - اليوم - ورفضهم الاستسلام وعزمهم على المقاومة مهما كانت أحوال الدنيا ، على الرغم من انتصار الاستعمار والصهيونية عليهم عسكرياً . وتقدم الكلام عن دفاعه تعالى عن الذين آمنوا عند تفسير الآية ٣٨ من سورة الحج ج ٥ ص ٣٣١ .

(فتولَّى عنهم حتى حين وأبصرهم فسوف يبصرون) . الخطاب لمحمد (ص) يأمره الله سبحانه أن يسدع المشركين وشأنهم ، ثم ينتظر قليلاً ، وسيرى انهم يستسلمون لأمره أذلاء صاغرين .. وهنا ما حدث بالفعل على الرغم من حشد الجيوش وتكتل الأحزاب ضده (أبعذابنا يستعجلون) . هذا جواب عن قول المشركين : فأتنا بما تعدنا ، ومعنى الجواب كيف تستعجلون عذاب الله مع العلم انه إذا نزل بكم لا تستطيعون له صرفاً ، ولا منه مفرأ (فإذا نزل بساحتهم فساء صباح المنذرين) . المراد بساحتهم ديارهم ، وبالصباح يوم العذاب ، والمعنى ان يوم ينتقم الله منهم بعد أن أنذرهم هو شر يوم عليهم وأسوأه .

سورة الصافات

(ويؤولّ عنهم حتى حين وأبصر فسوف يبصرون) . كرر هذا سبحانه تأكيداً لإنجاز وعده وأنه كائن لا محالة (سبحانه ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين) . ختم سبحانه هذه السورة بترتيبه عما لا يليق بعظمته لأنه حكى فيها أقوال المشركين ، ووصف نفسه بالعزة لأنه على كل شيء قدير ، وحدها لأنه المنعم المتفضل ، وسلم على المرسلين لأنهم أدّوا الأمانة بإخلاص ، وتحملوا في سبيلها الكثير .. وبعد ، فلا عزة ولا حمد لمخلوق إلا لمن اعترى بالله وأطاع الله .

سُورَةُ صَّ

ومى ٨٨ آية مكية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ١ - ١١ :

صّ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ * بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ * كَمْ
 أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوا وَلَاتْ حِسْنَ مَنَاصِرَ * وَعَجِبُوا
 أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ * أَجَعَلَ
 الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ * وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ
 امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ * مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي
 آلَمِ الْآخِرَةِ إِنَّ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ * أَأَنْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ
 هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ * أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ
 رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ * أَمْ هُمْ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا
 بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ * جُنْدُ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ
 الْأَحْزَابِ *

اللغة :

في عزة وشقاق أي في استكبار عن قبول الحق وعداء له ولأهله . ولات حين ليس الحين . ومناص مفر . وعجاب أمر مفرط في العجب . والملأ جاعة الأشراف . والأسباب الطرق والوسائل التي يمكن التوصل بها الى الغاية .

الإعراب :

والقرآن قسم وجوابه محذوف أي انه الحق أو لقد جاء الحق . وكـم في محل نصب بأهلكنا . ولات حين مناص « لا » نافية تعمل عمل ليس والتاء زائدة مثلها في ربت وثمت ، واسم لا محذوف وحين مناص خبرها أي لات الحين حين مناص ، ولا تدخل لات إلا على زمان . والمصدر من أن جاءهم مجرور بمن محذوفة أي عجبوا من مجيئهم منذر . ان امشوا « ان » مفسرة لقول محذوف ، والمعنى وانطلق الملأ منهم بقول هو امشوا . ولما أداة جزم . وعذاب أي عذابي . وجند مبتدأ وخبره مهزوم . وهنالك ظرف مكان يشار به للبعد والعامل به مهزوم .

المعنى :

(ص) تقدم الكلام عن مثله في أول سورة البقرة (والقرآن ذي الذكر بل الذين كفروا في عزة وشقاق) . كذبت قريش بالقرآن الذي فيه خيرهم وعزهم ، فأقسم سبحانه بالقرآن نفسه انه الحق من عند الله ، وانه لا سبب لهذا التكذيب إلا تعاظم المكذبين واستنكافهم عن الحق وعداؤهم لمحمد (ص) .. وقسمه تعالى بالقرآن يومئذ الى انه الدال ببلاغته على اعجازه ، وبتعاليمه على صدقه ، ثم حذر سبحانه قريشاً وذكرهم بهلاك الأولين لما كذبوا الرسل ، وذلك حيث يقول : (كم أهلكنا من قبلهم من قرن فنادوا ولات حين مناص) . استنكف الأولون عن الحق وخاصموا أهله تماماً كما استنكفتم وخاصمتم يا عنة قريش : ولما جاءهم العذاب

تراجعوا وخضعوا ، ولكن بعد فوات الأوان ، فخير لكم أن تؤمنوا الآن وقبل أن تضع عليكم الفرصة فتستغيثوا وتندموا حيث لا يجدي صياح ولا ندم .

تقليد الموحد وتقليد المشرك :

(وعجبوا ان جاءهم منذر منهم) . محمد (ص) من قريش ، ما في ذلك ريب ، ولكنه ليس من عتاتهم وطفاتهم ، فكيف يعده هؤلاء منهم ؟ ولو انه استعبد الناس ، وكان له كثر أو جنة من نخيل أو بيت من زخرف لكان منهم في الصميم ، وان لم يكن قرشياً . أنظر ج ٥ ص ٨٣ فقرة « التفكير من خلال المال وحب الذات » وفقرة « منطلق أرباب المال بنك وعقار » ص ٤٥٣ .

(وقال الكافرون هذا ساحر كذاب) . ولماذا هو ساحر كذاب ؟ وهذا هو الجواب (اجعل الآلهة إلهاً واحداً ان هذا لشيء عجاب) . ليس العجب العجيب عند هؤلاء واقعاً وحقيقة أن ينكر محمد (ص) الشرك وتعدد الآلهة ، وان خيّل ذلك اليهم ، وشعروا به من أنفسهم .. كلا ، انما العجب العجيب هو خروج محمد (ص) على تقاليدهم الموروثة وأوضاعهم المألوفة أباً عن جد .. انهم في الواقع يدافعون عن تقاليد الآباء والأجداد كدين ومبدأ ، وليس عن الأصنام من حيث هي ، انهم يدافعون عن الأصنام لأنها من تركة الأولين وميراثهم : « انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مقتدون - ٢٣ الزخرف ».

وينطبق هذا على ايمان الجاهلاء من الموحدين تماماً كما ينطبق على ايمان المشركين لأن مصدر الايمانين واحد، وهو التقليد .. والفرق ان تقليد الموحد صحيح ومقبول لأن له أساساً من الواقع تماماً كقولي : ان صاحب نظرية الجاذبية اسمه نيوتن ، وصاحب نظرية النسبية اسمه اينشتين ، أما تقليد المشرك فضلال ، وصاحبه مسؤول ومعاقب إلا إذا كان قاصراً كالبهايم لأن الشرك بافقه لا أساس له من الواقع. وبكلمة ان الفكرة تكون صادقة إذا كانت من صلب الواقع سواء أكانت عن علم أم عن تقليد . انظر ج ١ ص ٢٥٩ فقرة « التقليد وأصول العقائد » .

(وانطلق الملأ منهم ان امشوا واصبروا على آلتكم ان هذا لشيء يراد ما

سمعنا بهذا في الملة الآخرة ان هذا إلا اختلاق) . المراد بالملأ هنا عتاة قريش . واصبروا على آلهتكم أي اثبتوا على عبادتها . وهذا شيء يراد إشارة الى الثبات على عبادة الأصنام . والملة الآخرة هي عقيدة التثليث في المسيحية ، ووصفها المشركون بالآخرة لأنها آخر ديانة ظهرت في عهدهم . وفي تفسير الطبري وغيره ان مشيخة قريش قالوا لأبسي طالب : ليكف ابن أخيك عن آلهتنا ، وندعه وإلهه الذي يعبد . ولما ذكر أبو طالب ذلك للرسول الأعظم (ص) قال : اريدكم على كلمة واحدة يقولونها ، فتدين لهم العرب والعجم . فقالوا : نعطيكمها وعشرأ فما هي ؟ قال : « لا إله إلا الله » . فانصرفوا ، وهم يقولون : اجعل الآلة إلهاً واحداً الخ . وهذه الرواية تتفق مع ظاهر الآية ، ويساعد عليها واقع المشركين ومكانة شيخ الأبطح .

(أنزل عليه الذكر من بيننا) ؟ أختار الله محمداً لرسالته ، ولا جأه له ولا مال ؟ (بل هم في شك من ذكرى) . ضمير «هم» يعود لبعض المشركين لأن منهم من أنكر نبوة محمد (ص) حسداً، ومنهم من أنكرها حرصاً على مصالحه (بل لما ينوفوا عذاب) . فإذا ذاقوه زال عنهم الشك والريب : « وأسروا الندامة لما رأوا العذاب — ٥٤ يونس » .

(أم عندهم خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب) . المراد بخزائن الرحمة هنا النبوة فقط ، أو هي وغيرها من نعم الله وإحسانه ، والمعنى لماذا أنكر المشركون واستكبروا رحمة الله لمحمد في اختياره رسولاً للعالمين ؟ ألأنهم يملكون هذا الاختيار من دون الله (أم لهم ملك السموات والأرض وما بينهما) . ان مالك الكون هو الذي يملك النبوة ويهبها ويعز بها من يشاء ، والمشركون لا يملكون مع الله شيئاً كي يمنحوا النبوة لرجل من القريتين عظيم .. أجل هناك شيء واحد يستطيعون به أن يملكوا السموات والأرض ، وهو (فليرتقوا في الأسباب) . المراد بالأسباب الطرق والوسائل ، والمعنى ان النبوة يتحكم بها من يملك للكون بما فيه ، فإذا أراد عتاة قريش أن يختاروا للنبوة واحداً منهم فعليهم قبل كل شيء أن يملكوا الأسباب والوسائل التي تصل بهم الى هذا الملك ان كانت متوافرة لديهم .. وفي هذا من التعجيز ما هو في غنى عن البيان (جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب) . ان

الذين حاربوك وعارضوك يا محمد ليسوا بشيء ، فهم مغلوبون مهزومون أمام دعوتك على الرغم من كثرة جنودهم وتكتل أحزابهم .

اصبر على ما يقولون الآية ١٢ - ٢٠ :

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ * وَمَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ * إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذَّبَ الرَّسْلَ فَحَقَّ عِقَابِ * وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ * وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطْنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ * إصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ * إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَمِيِّ وَالْإِشْرَاقِ * وَالطَّيْرَ تَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ * وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخِطَابِ *

اللغة :

أصحاب الأيكة قوم شعيب ، والأيكة الشجر المنتف . والمراد بالفواق هنا الزمان اليسر ، قال أبو حيان الأندلسي في البحر المحيط : الفواق بضم الفاء وفتحها الزمان الذي بين حلقتي الحالب ورضعتي الراضع . والقط التنصيب المفروض من قط الشيء إذا قطعه وأفرزه عن غيره ، وعليه يكون معنى عجل لنا قطننا عجل لنا نصيبنا من العذاب . وذا الأيد ذا القوة . وأواب تواب . والاشراق الصباح . وعشورة مجموعة . وشددنا قوتنا .

الإعراب :

أولئك مبتدأ والأحزاب عطف بيان، وإن نافية وكل مبتدأ ثانٍ وكذب خبر ،
والجملة خبر المبتدأ الأول والعائد مخوف أي منهم . وعقاب أي عقابي . وداود
بدل من عبدنا . وذا الأيد صفة . والطير عطف على الجبال . ومخشورة حال
من الطير .

المعنى :

(كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وفرعون ذو الأوتاد وثمود وقوم لوط وأصحاب
الايكة) . كذبت هذه الأمم الرسل ، فأهلك الله بعضهم بالطوفان كقوم نوح ،
والبعض الآخر بالغرق في البحر كفرعون . وذو الأوتاد كناية عن استقامة ملكه
كما تستقيم الخيمة إذا شدت أطرافها بالأوتاد الثابتة في الأرض : فأما ثمود فأهلكوا
بالطاغية وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية - ٦ الحاقة . أما قوم لوط فجعل
أعلى ديارهم أسفلها . انظر تفسير الآية ٨٢ من سورة هود ج ٤ ص ٢٥٥ .
وأخذ الله أصحاب الايكة - قوم شعيب - بعذاب أليم . انظر تفسير الآية ٧٨
من سورة الحجر ج ٤ ص ٤٨٧ والآية ١٧٦ من الشعراء ج ٥ ص ٥١٥ .

(أولئك الأحزاب ان كل إلا كذب الرسل فحق عقاب) . أخذ سبحانه
أحزاب الشيطان بذنوبهم وقطع دابرهم جزاء بما يكسبون من الشرك وتكذيب أنبياء
الله ورسله ، ألا يخشى الذين كذبوا محمداً (ص) أن يصيبهم مثل ما أصاب
أولئك الأحزاب ؟ (وما ينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة ما لها من فواق) .
هؤلاء إشارة الى الذين كذبوا محمداً (ص) والمعنى ماذا ينتظرون من الله بعد ان
كذبوك يا محمد؟ وهو القادر بكلية واحدة أن يبعث عليهم عذاب النكال والاستئصال
في أمد لا يستطيعون معه توصية ولا الى أهلهم يرجعون .

(وقالوا ربنا عجل لنا قسطا قبل يوم الحساب) هددهم سبحانه على لسان
نبيه الكريم بعذاب جهنم ، فقالوا ساخرين : إذا كان هذا واقعاً فلماذا التأخير الى
يوم القيامة ؟ فليكن في الدنيا لا في الآخرة (اصبر على ما يقولون) يا محمد:

انك ساحر كذاب وما الى ذلك من الافتراءات، فان عاقبة أمرهم الخسران والاستسلام .
وقد صبر النبي (ص) على أذى المشركين ١٣ سنة في مكة ، وعلى مكر المنافقين
بضع سنوات في المدينة ، صبر هذا الأمد الطويل ، وهو واثق بالمستقبل ، وان
أدبر الحاضر .. ولم نمض الأيام حتى نصر الله محمداً ، وأظهر الاسلام على الدين
كله ولو كره المشركون .

(واذكر عبدنا داود) هذا الاسم عبري ، ومعناه محبوب ، وداود هو ثاني
ملوك بني اسرائيل ، والأول اسمه طالوت : « ان الله قد بعث لكم طالوت ملكاً
- ٢٤٧ البقرة ج ١ ص ٣٧٧ . والثروة تعبر عن طالوت هذا بشاول ، فقد جاء
في « قاموس الكتاب المقدس » : ان شاول أول ملوك اسرائيل ، وان داود
حارب في جيشه .

وقال الرازي : ان الله وصف داود بأوصاف كثيرة .. ثم شرحها في أربع
صفحات بالقطع الكبير ، نلخصها بالأسطر التالية :

١ - قال الله لمحمد (ص) : (اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود) .
وهذا اكرام لداود .

٢ - (ذا الايد) أي ذا القوة على طاعة الله .

٣ - (انه أوّاب) أي يرجع في أموره كلها الى الله .

٤ - (انا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والاشراق والطير محشورة كل
له أوّاب) . ومثله قوله تعالى في الآية ١٠ من سورة سبأ : « يا جبال أوبي
معه والطير » والآية ٧٩ من سورة الأنبياء : « وسخرنا مع داود الجبال يسبحن
والطير » انظر ج ٥ ص ٢٩٢ .

٥ - (وشددنا ملكه) أي قويناه .

٦ - (وآتيناه الحكمة) وهي وضع الأشياء في مجلها ، وتعبير الرازي « هي
العلم والعمل به ، وانما سمي هذا بالحكمة لأن اشتقاق الحكمة من إحكام الأمور
وتقويتها » .

٧ - (وفصل الخطاب) قال الرازي : فصل الخطاب هو القدرة على ضبط

المعنى والتعبير عنه إلى أقصى الغايات . وهذا أشمل مما نفهمه نحن من ان فصل الخطاب هو العلم بالقضاء والفصل في الخصومات على أساس العدل .
هذه الأوصاف الكاملة الفاضلة نعت القرآن الكريم داود ، أما التوراة فقد وصفته بأفحش النعوت كالظلم والفسق والغدر واغتصاب النساء من الأزواج حتى قال المسهمون في وضع قاموس الكتاب المقدس صفحة ٣٦٥ طبعة ١٥ آذار سنة ١٩٦٧ ما نصه بالحرف الواحد : « ارتكب داود في بعض الأحيان خطايا ينسب لها الجبن خجلاً » .

٩٩ نعيمة ونعيمة واحدة الآية ٢١ - ٢٥ :

وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصِمَانِ يَهَيِّئْ بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَأَحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ * إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْمَةً وَلِيَ نَعْمَةً وَاحِدَةً فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ * قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعِيمِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ * فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَؤْلَفًا وَحُسْنَ مَّآبٍ *

اللغة

الخصم هو المدعي على غيره حقاً من الحقوق ، ويستعمل في الواحد والاثنين

والجماعة والمذكر والمؤنث على السواء . والمحراب عند المسلمين المصلى ومكانه في جهة القبلة . والشطط تجاوز الحد . وسواء الصراط وسط الطريق والمراد به هنا طريق الحق والنعمة أنثى الضأن . واكفلنيها اعطينيها واجعلي كافلها . وعزني بفتح العين غلبي ، وفي الخطاب أي في مخاطبة الكلام . والحائط جمع خليط وهو الشريك الذي يمتزج ماله ويختلط بمال شريكه . وفتناه ابتليناه . والزلفى الثوب من الله . والمآب المرجع .

الإعراب :

إذ دخلوا بدل من إذ تسوروا . خصمان خبر مبتدأ محذوف أي نحن خصمان . لقد ظلمك اللام في جواب قسم محذوف . الا الذين استثناء من بعضهم . وقليل خبر مقدم و « ما » زائدة وهم مبتدأ . وراكعاً حال . وأنما فتناه الأصل أننا فتناه و « ما » كافة . وذلك مفعول غفرنا .

التفسير والأمريليات :

نسب جماعة من المفسرين إلى داود - وهم يشرعون هذه الآيات - أشياء لا تليق بأهل المروءة والحياء فضلاً عن الأنبياء المعصومين ، وذكروا قصة طويلة جاءت في سفر صموئيل الثاني الأصحاح ١١ و ١٢ من العهد القديم المحرف بحكم القرآن ، وشهادة التاريخ ، ونصوص العهد نفسه التي ترفضها الفطرة ، ولا يقبلها عقل عاقل .. وتتلخص تلك القصة أو الفرية بأن داود عشق زوجة رجل من خدمه وجنوده ، يدعى « اوريا » ، فاحتال داود لقتله بالسيف ، واستأثر بزوجه ، وقالت التوراة : ان الله غضب لذلك غضباً شديداً ، وهدد داود على هذا الفعل الشنيع والجريمة الكروا ، وقال له فيما قال : « قتلت اوريا بالسيف ، وأخذت امرأته .. والآن لا يفارق السيف بيتك إلى الأبد لأنك احتقرتني .. هاأنذا أقم عليك الشر من بيتك ، وأخذت نساءك أمام عينيك واعطيتهم لقريب من أقربائك ، فيضطجع مع نساءك في عين هذه الشمس لأنك أنت فعلت بالسر ، وأنا أفعل هذا

الأمر - أبي الزنا - قدام جميع اسرائيل وقدام الشمس . وفي الاصحاح الأول من سفر الملوك الأول : ان زوجة «اورياه» اسمها «بشيع» ، وانها هي أم سليمان ابن داود .

داود يزني سرّاً .. فيعاقبه الله ويؤدبه على فعلته النكراء ، لا باقامة الحد ، ولا باللوم والتأنيب .. بل بهتك نسائه وحرائره وتجريدن والفجور بين علناً وفي وضوح النهار وعلى رؤوس الأشهاد .

هذه هي الاسفار «المقلمة» تصف خالق الكون بأوصاف أوحش الوحوش ، وأخبت اللثام والطعام .. تعالى الله علواً كبيراً عما يقول الظالمون . هذا مثال واحد من عشرات الأمثلة .. اقرأ مصارعة الله ليعقوب وعجز كل منهما أن يغلب صاحبه حتى اضطر يعقوب أن يضرب «حَقّاً» فخذ الله . . وقرأ أيضاً الاصحاح السابع من سفر التثنية من التوراة الذي جاء فيه : ان الرب التصق باليهود وأباح لهم أن يأكلوا جميع الشعوب من غير شفقة .

وعلى هذه الاسرائيليات اعتمد جماعة من أهل التأويل وفسروا بها آي الذكر البشير النذير ، ومنها الآيات التي نحن بصدددها .. فعلى القارئ أن يواجه أقوالهم وتفسيرهم باليقظة والحذر .

المعنى :

(وهل أنك نأ الخضم اذ تسوروا المحراب اذ دخلوا على داود ففرع منهم؟)
يقص سبحانه على نبيه الكريم حادثة وقعت لداود ، وهي انه كان في ذات يوم منقطعاً الى ربه في مصلاه فإذا بآتين^١ أمامه وجهاً لوجه ، فراعته هذه المفاجأة في غير أوانها .. وفوق ذلك دخولهما من أعلى الحائط ، لا من المدخل المعتاد .
وتجدر الإشارة إلى أن دخولهما كذلك على داود لا دلالة فيه من قريب أو بعيد على أنها من الملائكة كما استنتج بعض المفسرين .. فإن الانسان قد يدخل البيوت

١ ذهب البعض الى ان اقل الجمع اثنان مستهلاً بقوله تعالى : « تسوروا » ودخلوا . وقالوا .
ومنهم « مع انها اثنان بديل » قالوا لا تخف خصان » .

من غير أبوابها لسبب من الأسباب ، وليس في الآيات أي ذكر للملائكة . والمفهوم من كلمة الخصمين اثنان من الناس ، فتأويلها بملكين لا مبرر له .

(قالوا لا نخف خصمان بغي بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا الى سواء الصراط) . حين رأيا ما حل به من الخوف أسرعوا الى طمأنته وقالوا : جئنا للتقاضي عندك ، فاحكم بالعدل وارشدنا الى الحق ولا تنحرف عنه ، ثم قال أحدهما : (ان هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة فقال اكفلينها وعزني في الخطاب) اكفلينها أعطينها ، وعزني في الخطاب غلبني في القول ، والنعجة اثني الضأن ، ولا داعي للتأويل ، فظاهر الآية ان حادثة من هذا النوع وقعت في عهد داود ، ولها أمثال في كل زمان ومكان بخاصة في زماننا ، فيجب الأخذ بالظاهر والعمل به .

(قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك الى نعاجه) . قال هذا داود قبل أن يطلب من المدعي البينة ، ويستجوب المدعي عليه (وان كثيراً من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعض) . قال المفسرون : المراد بالخلطاء الشركاء ، ولكن لا شراكة بين المتخاصمين ، واليابق يومئذ الى أن المراد بهم الأقوياء ولو من باب المجاز (إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم) . القوة للحق إذا كانت في يد الأخيار أما إذا ملكها الأشرار فهي على الحق من غير شك ، وأهل الخير قلة في عددهم ، ولكنهم أقوياء في أخلاقهم وصفاتهم .

(وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعاً وأتاب) . بعد ان حكم داود لأحد الخصمين تنبه الى أنه حكم له قبل أن يلبى الخصم الآخر بحجته ، فندم وطلب من الله العفو والمغفرة (فغفرنا له ذلك وان له عندنا لزلفى وحسن مآب) . غفر الله لداود لأنه من السابقين الأولين الى طاعة الله ومرضاه .

وفي كتاب « عبود الأخبار » للشيخ الصدوق : ان سائلاً سأل الإمام الرضا (ع) عن قصة داود مع أوريا وزوجته ؟ فنفى الإمام ما ينسبه الناس الى داود . فقال السائل : ما كانت خطيئته يا ابن رسول الله ؟ فأجاب بجواب طويل جاء فيه : عجل داود على المدعي عليه ، فقال : « لقد ظلمك بسؤال نعجتك الى نعاجه » ولم يسأل المدعي البينة ، ولم يقبل على المدعي عليه ، فيقول له : ما تقول ،

فكان هذا خطبة رسم الحكم ، لا ما ذهب اليه الناس ، ألا تسمع الله عز وجل يقول : « يا داود انا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى » .

وتسأل : كيف حكم داود للسدي من غير بينة مع ان الأنبياء معصومون عن الخطأ والخطيئة ؟ .

الجواب : ليس معنى العصمة ان للمعصوم طبيعة غير طبيعة الناس بخصائصها وغرائزها .. كلا ، ان هو إلا بشر . وانما معنى العصمة ان الله سبحانه يطفئ بالمعصوم ، ولا يتخلى عنه اطلاقاً . فإذا حاول - مثلاً - أن يخدعه انسان بحسن مظهره أرشده الله إلى حقيقته قبل أن يقع في الشباك، وهذا ما حدث بالفعل لداود.. خدعه صاحب النعجة الواحدة بأسلوبه الذي يشير الاشفاق والرحمة فحكم له ، ولكن الله ألهمه الحقيقة قبل تنفيذ الحكم فاستدرك وأتاب .

وقريب من هذا ما حدث لرسول الله(ص) مع سارق ادعى براءته. وكاد الرسول الأعظم ينخدع لولا أن ثبتته الله بقوله : « انا أنزلنا اليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيماً - أي لا تخاصم عن الخائنين ... واستغفر الله ان الله كان غفوراً رحيماً . ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم - ١٠٦ النساء » ج ٢ ص ٤٢٩ . وقال تعالى مخاطباً نبيه الكريم محمداً (ص) : « ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن اليهم شيئاً قليلاً » - ٧٤ الإسراء » . وفي الحديث الشريف : « إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ ، وأنتم تخصمون إليّ ولعل بعضكم ألحن بحجته من بعض فأقضي له على نحو ما أسمع ، فمن قضيت له شيئاً من حق أخيه فإنما أفضي له قطعة من نار » . وهذا الحديث لا ينطبق تماماً على ما نحن فيه ، ولكن يمكن الاستئناس به . أما توبة الأنبياء واستغفارهم من الذنوب فهي ضرب من العبادة والتواضع لله سبحانه . وقد أشرنا إلى ذلك أكثر من مرة .

جعلناك خليفة في الأرض الآية ٢٦ - ٢٩ :

يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ * وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ * أَمْ تَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ * كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ *

الإعراب :

فيضلك منصوب بأن مضمرة على جواب النهي ، والمصدر المنسبك مبتدأ وخبره محذوف، أي فإضلالك كائن . وباطلاً صفة لمفعول مطلق محذوف أي خلقاً باطلاً وكتاب أي هذا كتاب . وليدبروا أصلها ليتدبروا مثل ليتذكر ثم ادغمت التاء بالذال .

المعنى :

(يا داود انا جعلناك خليفة في الأرض) . كل انسان وجد أو يوجد فهو خليفة الله في أرضه بمعنى انه مسؤول أمام الله عن العمل في هذه الحياة لخير الدنيا والآخرة . هذا معنى خلافة الانسان في الأرض أياً كان ، والفرق بين الأفراد إنما هو في نوع العمل المسؤول عنه ، حيث يطلب من كل حسب طاقته ومهنته ،

وبما ان وظيفة الأنبياء هي التبشير والتحذير كيلا يكون للناس على الله الحجة -
وجب عليهم الحكم بين الناس بالحق ، وعلى غيرهم السمع والطاعة .

(فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى) لأن منصب النبوة يستدعي ذلك بطبعه ، وبكلام آخر ان الله سبحانه يختار لوحيه من يؤمن بالحق ويعمل به ، ويستحيل في حقه الخطأ والخطيئة (فيضلك عن سبيل الله ان السذيين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب) . أشقى الناس من خالف مولاة واتبع هواه .. وفي الحديث : « ان أخوف ما أخافه عليكم الهوى وطول الأمل ، أما الهوى فإنه يصد عن الحق ، وأما طول الأمل فينبئ الآخرة » . ومن نسي هذا اليوم فهو من المعذنين بناره وجحيمه .

(وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً) . ولو كان في خلق الكون شائبة للعبث والباطل لما ثبت واستمر على نظامه المحكم ملايين السنين . وتقدم مثله في الآية ١٩١ من سورة آل عمران ج ٢ ص ٢٣١ (ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار) . ويومئذ هذا الى أنه لا فرق بين من أنكر وجود الله من الأساس ، ومن اعترف به وأنكر الحكمة في خلقه .. لأن دلائلها ظاهرة ، وأعلامها واضحة . قال الإمام علي (ع) : قدر ما خلق فأحكم تقديره ، ودبره فألطف تدبيره ، ووجهه لوجهته فلم يتعد حدود منزلته ، ولم يقصر دون الانتهاء الى غايته .

(أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار) . الفرق بين الصالح والمفسد وبين النقي والفاجر تماماً كالفرق بين الطيب والخبيث وبين الأعمى والبصير . وتقدم مثله في الآية ١٠٠ من سورة المائدة ج ٣ ص ١٣١ والآية ٥٠ من سورة الأنعام ص ١٩٣ من المجلد المذكور . وفي « أحكام القرآن » للقاضي أبي بكر المعروف بابن العربي : ان هذه الآية نزلت في بني هاشم ، وان الذين آمنوا وعملوا الصالحات والمتقين هم علي بن أبي طالب وأخوه جعفر وعبيدة بن الحرث والطفيل بن الحارث وزيد بن حارثة وأم أيمن وغيرهم ، وان المفسدين والفجار هم من بني عبد شمس . (كتاب أنزلناه اليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب) . الخطاب لرسول الله (ص) ،

والكتاب القرآن ، وهو بركة على من آمن به ، وشفاء له من الكفر ومساوىء الأخلاق ، ونجاة من الشرك والهلاك . وفي نهج البلاغة : استنصحوه على أنفسكم ، واتهموا عليه آراءكم ، واستغفوا فيه أهواءكم .

سليمان الآية ٣٠ - ٤٠ :

وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ * إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ بِالْعِشِيِّ
الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ * فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى
تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ * رُدُّوهَا عَلَيَّ فَلَظِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ * وَلَقَدْ
فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ * قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي
وَهَبْ لِي مُلْكاً لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ *
فَسَخَرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ * وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ
بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ * وَآخَرِينَ مَقَرَّرِينَ فِي الْأَصْفَادِ * هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ
أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ * وَإِنْ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنُ مَآبٍ *

اللغة :

الصافنات جمع الصافنة من الخيل ، وهي الفرس تقوم على ثلاث قوائم ، وترفع إحدى يديها . والجياذ جمع جواد وهو من الخيل السريع ومن الناس الكرم . وتوارت غابت أو استترت . وطقق جمع ساق . ورخاء سهلة طيبة . وأصاب قصد وأراد . والأصفاد السلاسل والأغلال . فامنن اعط . وأمسك امنع .

الإعراب :

جملة نعم العبد خبر مبتدأ محذوف أي هو . وإذ في محل نصب بفعل محذوف أي اذكر إذ عرض . وقيل : أحببت هنا بمعنى آثرت وعليه يكون حب الخير مفعولاً به لأحببت . وطفق من أفعال المقاربة واسمها ضمير مستتر وخبرها محذوف دل عليه «مسحاً» أي وطفق يمسح مسحاً . ورشاء حال من الضمير المستتر بتجري . والشياطين عطف على الريح . وكل بناء وغواص وآخرين بدل مفصل من مجمل ، والمبدل منه الشياطين . ومقرنين صفة لآخرين . وبغير حساب حال من الضمير في آمن أي غير محاسب .

المعنى :

(ووهبنا لداود سليمان نعم العبد انه أواب) . جاء في قاموس الكتاب المقدس عند الكلام عن سليمان ما نصه بالحرف : « سليمان اسم عبري معناه رجل سلام ، وهو ابن الملك داود الذي خلفه على العرش .. مع انه كان له ستة اخوة من أمهات مختلفات .. وسليمان هو ابن بشيع التي كانت زوجة لأوريا ، وقد أحب داود سليمان لأنه كان ابن زوجته المفضلة .. وكان داود قد وعد بشيع ان يملك ابنتها على الشعب بعده » .

وقد تلخص هذا المساهمون في وضع القاموس ، تلخصوه من التوراة سفر الملوك الأول وسفر صموئيل الثاني . ومعناه ان التوراة تقول عن داود : انه لا يأتمر بأمر الله ، ولا يعمل بوحى منه ، بل بوحى امرأة اغتصبها من زوجها الذي قتله بحد السيف .. وانها هي الأمرة الناهية عليه وعلى شعبه .. وإذا كانت المرأة في عصرنا تطالب بالمساواة مع الرجل فإن التوراة تجعل الملوك والأنبياء طوع أهواء المرأة وشهواتها .. ولا بدع فلقد كان الجنس اللطيف وما زال عند اليهود أفضل الوسائل للريح وبلوغ المآرب .

(إذ عرض عليه بالعشي الصافنات الجياد ففسال اني أحببت حب الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب ردها علي فطفق مسحاً بالسوق والأعناق) .

للمفسرين هنا أقوال ، أرجحها ان سليمان قد بدا له في مساء يوم من الأيام أن يستعرض ما أعدده للحرب والعزو من رباط الخيل، وقد كانت آنذاك السلاح الذي يرهب الأعداء ، وبكلمة أراد أن يجري استعراضاً عسكرياً ، فأمر بإحضار الخيل، وان يجريها القرسان أمام عينيه ، وقال : أفعل هذا عن أمر ربي . لا عن هوى في نفسي .. حتى اذا أجريت أعجب بها واطمان إليها ، ولما غابت عن بصره في ركضها أمر بردها ، وشرع يمسح سوقها وأعناقها مسروراً بها وراضياً عنها .. وعلى هذا يكون المراد بـ « حب الخير » استعراض الخيل وجريها أمام عينيه، أما قوله : « عن ذكر ربي » فعناه اني فعلت هذا عن أمر الله لا عن أمري .

(ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسداً) . ابتلى سبحانه سليمان بمرض عضال ، وألقى به على سريره كجسد بلا روح ، تماماً كما ابتلى غيره من الأنبياء بأنواع البلاء، وتوهم الآيات الى ان الابتلاء كان جزاء على شيء صدر من سليمان، ولكن الله سبحانه لم يبين هذا الشيء . وما ذكره المفسرون في بيانه وتحديدده لا يقوم على أساس ، ومهما يكن فقد تاب سليمان مما حدث منه كما تاب غيره من الأنبياء ، وقبل الله من سليمان كما قبل من الأنبياء (ثم أناب قال رب اغفر لي) . وتجدر الإشارة الى أن الأنبياء يتوبون لتركهم الأولى والأفضل، لا لاقترافهم المعصية، وبيئنا ذلك في ج ١ ص ٨٨ .

(وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي انك أنت الوهاب) . طلب ملكاً لا نظير له من بعده في الكيف لا في الكم، ومن نوع الخوارق والمعجزات كتسخير الرياح والطير والجن ، فاستجاب الله دعوته بشهادة قوله تعالى : (فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب) . رخاء أي طيعة ، وحيث أصاب أي إلى أية جهة يشاء (والشياطين كل بناء) لما يريده سليمان من محاربي وغمائل وغيرها (وغواص) في البحر على اللؤلؤ والجواهر (وآخرين) من الشياطين أيضاً (مقربين في الأصفاد) لأنهم خرجوا عن أمره وطاعته . وتقدم مثله في الآية ١٢ و ١٣ من سورة سبأ .

(هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب) . وعطاء الله لا يثلمه الانفاق ولا ينقصه البذل ، ولذا أمر الله سليمان ان ينفق بالجملة ومن غير وزن وكيل ان شاء.

وفي نهج البلاغة : من أيقن بالخلف جاد بالعطية . ومع هذا فإن سليمان ضعيف كأي انسان « تؤله البقة ، وتقتله الشرقة ، وتنتنه العرقة » .

أيوب الآية ٤١ - ٤٨ :

وَإِذْ كُنَّا عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ *
أَرْكُضْ بِرَجْلِكَ هَذَا مَغْتَاسُ بَارِدٍ وَشَرَابٌ * وَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ
مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ * وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ
بِهِ وَلَا تَحْنُثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ * وَإِذْ كُنَّا
عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ * إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ
بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ * وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ * وَإِذْ كُنَّا
إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ *

اللغة :

النصب التعب والمشقة . والمغتسل موضع الغسل والمراد به هنا الماء . والضغث
القبضة من العيدان ونحوها . والحث في اليمن ترك المحلوف عليه . والأيدي القوة .
وخالصة أي صفة خالصة من كل شائبة . والمصطفين المختارين .

الإعراب :

أيوب بدل من عبدنا . والمصدر من أنني مسني مجرور بياء محذوفة . ورحمة

مفعول من أجله لوهنا . وإبراهيم وما بعده بدل مفصل من مجمل والمبدل منه عبادنا . وذكرى الدار خبر لمبتدأ محذوف أي هي ذكرى . ولما المصطفين متعلق بمحذوف خبراً لأنهم .

المعنى :

(واذكر عبدنا أيوب) . لأيوب سفر خاص في العهد القديم ، وقد استغرق حوالى ٤٠ صفحة ، وفي قاموس الكتاب المقدس : ان هذا السفر كُتب شعراً في الأصل ، وان بعض الناس يظنون انه كُتب في القرن الرابع قبل الميلاد، وان من المحتمل أن يكون أيوب عاش في الألف الثانية قبل الميلاد . ثم قال المساهمون في وضع القاموس ، في مادة عوص بضم العين : « ان أيوب أقام في أرض عوص ، ويُعتقد ان هذه الأرض في الصحراء السورية ، وهناك من يعتقد انها حوران » .

(إذ نادى ربه أنني مستي الشيطان بنصب وعذاب) . مضت مئات القرون، والناس تضرب الأمثال بمصائب أيوب ، وينسجون حولها الأساطير .. وتدل هذه الآية والآية ٨٣ من سورة الأنبياء ان أيوب قد أصيب في نفسه وماله، وانه نسب ما حل به الى الشيطان ، وهذا ما دعا جماعة من المفسرين أن يؤلفوا رواية « أيوب والشيطان » .. ومن قارن بين روايتهم وبين ما جاء في سفر أيوب من التوراة يجد أنهم يفسرون القرآن الكريم بالاسرائيليات .. وتتلخص رواية العهد القديم والمفسرين أيضاً بأن الله سلط الشيطان على أيوب ليختبر إيمانه ، فأتلف أمواله وأهلك أسرته ، ولما فشل أصابه في جسده ، ففشل أيضاً .

والآية صريحة في ان الشيطان قدم على أيوب بالأتعاب والصعاب ، ولكنها سكنت عن تحديدها وبيان نوعها ، ونحن نسكت عما سكنت الله عنه ، ولا نتكلف البحث والتفتيش، ولو كلفنا الله لبين، وحيث لا بيان منه فلا تكليف . وقد أشرنا إلى قصة أيوب في ج ٥ ص ٢٩٥ .

(اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب) . لجأ أيوب الى الله شاكياً اليه بما قاساه ، فاستجاب له ، وأمره أن يضرب الأرض برجله فيخرج ماء بارد ،

يقتل به ويشرب منه ، فبئراً يلاذن الله تعالى . وهكذا كان (ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمة منا وذكرى لأولي الألباب) . شفاه الله ورزقه من الأولاد والأحفاد ضعف ما فقد منهم . وتقدم مثله في الآية ٨٤ من سورة الأنبياء ج ٥ ص ٢٩٥ .

(وخذ بيدك ضعفاً فاضرب به ولا تحث انا وجدناه صابراً نعم العبد انه (أواب) . قال المفسرون : ان أيوب غضب على زوجته حين كان طريح الفراش ، غضب عليها لأمر يحدث بين المرء وزوجه .. فحلف ليضربنها كذا ضربة ان شفاه الله ، وبعد ان كتب الله له الشفاء أمره أن يضرب زوجته بمجموعة من الأغصان ونحوها دفعة واحدة ، وبذلك يتحلى من عيبه .

والآية لا تشير الى امرأة أيوب ولا الى غيرها من قريب أو بعيد ، ومع هذا فلا ننكر قول المفسرين ، حيث جاء في الآية ذكر الحث والضرب ، وليس من شك ان الحث فرع اليمين والضرب يستدعي وجود المضروب .. وطريح الفراش يضيق بأدنى الأمور ، وبخاصة إذا حدث من أهله .. فن الجائر - اذن - أن يحلف أيوب على ضرب زوجته لأدنى شيء يندر منها .. وبالتالي فإن قول المفسرين غير بعيد .

وتسأل : ان قوله تعالى : وخذ بيدك ضعفاً الخ يدل على ان الاحتيال على الدين جائز في شريعة القرآن مع انه أنكر على بني اسرائيل احتياهم لصيد الحيتان ، كما صرحت الآية ١٦٣ من سورة الأعراف : « إذ يعدون في السبت إذ تأتيتهم حيتانهم يوم سبتهم شراً يوماً لا يستون لا تأتيتهم كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون » . أنظر ج ٣ ص ٤١٠ .

الجواب أولاً : ان الضرب على هذا النحو مختص بأيوب وحده ولا يعم جميع الخالفين ، والا صرحت السنة النبوية بذلك ، وأفتى به جميع العلماء . ثانياً : ان هذا احتيال من أجل الرحمة والانسانية ، وليس احتيالا على الحق والانسانية .

(واذكر عبادنا ابراهيم وإسحق ويعقوب أولي الأيدي والأبصار) . أولي الأيدي أصحاب القوة على الصالحات ، والأبصار كناية عن العلم بالله ودينه ،

والمعنى أذكر يا محمد هؤلاء الأنبياء الذين علموا دين الله وعملوا به مخلصين ، وجاهدوا في سبيله صابرين ، أذكرهم واصبر على المكذبين من قومك كما صبر هؤلاء الرسل من قبلك .

(إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار) أي دار الآخرة ، وخالصة ضفة لا يشوبها شيء ، وهي أنهم يعملون للآخرة ، ويؤثرونها على كل شيء (وأنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار) . أخلصوا الله فاخصهم برسائله ، وجعلهم من خيرة خلقه (واذكر اسماعيل واليسع وذا الكفل وكل من الأخيار) . لم أجد في فهرس الكتاب المقدس وقاموسه ذكراً لليسع وذي الكفل ، والذي وجدته يشوع ابن نون خليفة موسى ، ويقال : انه اليسع ، ومهما كان فإنه هو وذو الكفل تماماً كما اسماعيل وإسحق ويعقوب من الأنبياء الأصفياء . وتقدم مثله في الآية ٨٥ من سورة الأنعام ج ٣ ص ٢١٨ والآية ٨٤ من سورة الأنبياء ج ٥ ص ٢٩٥ .

المثقون والطاغون الآية ٤٩ - ٦٤ :

هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ * جَنَّاتٍ عَدْنٍ مُمِيتَةً لَّهُمُ الْأَبْوَابُ *
مُتَكِنِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ * وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ
الطَّرْفِ أَتْرَابٌ * هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ * إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا
مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ * هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ شَرَّ مَآبٍ * جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَيُسْ
الْمِهَادُ * هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَعَسَاقُ * وَآخِرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجُ *
هَذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لَا مَرْجَأَ بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ * قَالُوا بَلْ
أَنْتُمْ لَا مَرْجَأَ بِكُمْ أَنْتُمْ قَدْ تَمْتَمُوهُ لَنَا فَيُسْ الْقَرَارُ * قَالُوا رَبَّنَا
مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَاباً ضِعْفاً فِي النَّارِ * قَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى

رَجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ * اتَّخَذْنَاهُمْ سِحْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ
الْأَبْصَارُ * إِنَّ ذَلِكَ لَحَقُّ تَخَاصُّمِ أَهْلِ النَّارِ *

اللفظ :

مآب مرجع . وعدن اقامة . وقاصرات الطرف ، على أزواجهن . وأتراب متساويات
في السن . والمهاد الفراش . والحميم شديد الحرارة . والفساق قبيح شديد الثن .
وأزواج ألوان . وفوج جمع كثير .

الإعراب :

جئات عدن بدل من حسن مآب . ومفتحة حال من جئات عدن . والأبواب
قائب فاعل . ومتكئين حال من ضمير لهم . وقاصرات وأتراب صفة لمبتدأ محذوف
أي عندهم حور قاصرات الخ . ومن زائدة إعراباً ونفاذ مبتدأ وله خبر . وهذا
مبتدأ وخبره محذوف أي هذا شأنهم . وان للطاغين كلام مستأنف . وجهن بدل
من شر مآب . وهذا مبتدأ وحيم خبر وغساق عطف عليه . وآخر مبتدأ ومن شكله
صفة وأزواج خبر ، وقيل : أزواج مبتدأ ثانٍ ومن شكله خبره والجملة خبر
المبتدأ الأول . لا مرحباً دعاء عليهم ، وهو منصوب بفعل محذوف يجب إضماره
على حد تعبير أبي حيان الأندلسي أي لا تأتون رجلاً وسعة . وسخريساً مفعول
ثاني لاتخذناهم . ولحق خبر ان . وتخاصم خبر لمبتدأ محذوف أي هو تخاصم أهل النار .

المعنى :

(هذا ذكر) . هذا إشارة الى الثناء على من ذكر سبحانه في الآيات السابقة
كإبراهيم وإسماعيل ودأود وسليمان وغيرهم . وذكر أي شرف تذكروهم به الأجيال

(وان للمتقين لحسن مآب) . لمن اتقى حسن الأحدث في الدنيا ، وثواب الله ومرضاته في الآخرة ، وهي (جنات عدن مفتحة لهم الأبواب) يدخلونها بسلام لا يسألهم سائل ، ولا يمنهم حاجب (متكئين فيها يدعون فيها بفاكهة كثيرة وشراب) . متعة في الطعام والشراب والفراش ، وفوق ذلك كله حور عين لا يعددن بطرفهن إلا لبعولتهن. وتقدم مثله في الآية ٤١ وما بعدها من سورة الصافات . (هذا ما توعدون ليوم الحساب) . وليس لما وعد الله من الخير مترك (ان هذا لرزقنا ماله من نفاد) بل هو قائم الى الأبد، حياة خالدة ، ونعمة دائمة (هذا وان للطاغين لشر مآب) تماماً عكس ما للمتقين ، لهؤلاء مقام أمين ، ولأولئك سواء الجحيم (جهنم يصلونها فبئس المهاد) فهم حطب لها ، وهي لهم غطاء ووطاء (هذا فليذوقوه حيم وغساق) . في تفسير الرازي ان في الكلام تقدماً وتأخيراً ، والأصل : هذا حيم وغساق فليذوقوه ، والحيم يحرق بحرّه ، والغساق صديد أهل النار (وآخر من شكله أزواج) . لا يقف عذاب أهل النار عند الحيم والغساق ، بل هناك أشكال أخرى من العذاب ، تتشابه في شدتها وقسوتها ، وتختلف في لونها ومظهرها كالزقوم والسموم ، وما إلى ذلك مما لا عين رأت ولا اذن سمعت .

(هذا فوج مقتحم معكم لا مرجأ بهم انهم صالوا النار) . يدخل المجرمون الى جهنم أفواجا ، فإذا دخل القوم اللاحقون قال لهم السابقون : لا مرجأ بكم .. انكم في النار معذبون (قالوا بل أنتم لا مرجأ بكم أنتم قدمتموه لنا فبئس القرار قالوا ربنا من قدم لنا هذا فزده عذاباً ضعفاً في النار) . هذا بكامله من كلام اللاحقين ، وفيه جواب للسابقين ، استقبلهم هؤلاء بالشر ، فردوه عليهم مضاعفاً .. وقولهم : و أنتم قدمتموه لنا يومئذ الى ان الرؤساء المتبوعين يتقدمون التابعين الى جهنم تماماً كما تقدموا عليهم في الحياة الدنيا .. والهاء في « قدمتموه » تعود الى العذاب المفهوم من السياق .. ثم طلب التابعون من الله سبحانه أن يضاعف العذاب لمن خدعهم وغرر بهم .. وتكرر هذا المعنى في العديد من الآيات ، منها الآية ١٦٦ من سورة البقرة ج ١ ص ٢٥٥ والآية ٣٧ من سورة الأعراف ج ٣ ص ٣٢٦ والآية ٣١ من سورة سبأ .

(وقالوا ما لنا لا نرى رجالاً كنا نعدهم من الأشرار) . ضمير قالوا للطفة

المترفين ، والمراد بالرجال هنا الضعفاء .. كان الأقوياء في الحياة الدنيا يسلبون أقوات المستضعفين في الأرض ، ثم يتباهون بها عليهم ، لأنهم من وجهة نظرهم مجرد حيوانات وأداة لما يتفنون ويشتهون .

الكادحون حيوانات وأشرار .. ولماذا ؟ لأنهم يأكلون من عرق الجبين ، ولا يقضون الليالي الحمراء في الكازينوهات ومواخير الدعارة .. أما الطغاة المترفون فنبلاء وأخيار لأنهم يفسدون ويتنعمون على حساب البؤساء والمناضلين .. الفقراء أنذال لأنهم لا يعيشون في الخفاء .. أما المترفون فسادة أشرف لأنهم يتلونون بكل لون ، ويسلكون كل سبيل تدر عليهم الأرباح والمكاسب .. وفي يوم الفصل تزول الأقنعة ، ويرى الخائنون مكانهم في نار جهنم ، ولا يرون فيها أحداً ممن أسموهم بالأشرار ، فيعجبون ويتساءلون عنهم ، وعن مقرهم ؟ وسرعان ما يعلمون أنهم في مقعد صدق عند مليك مقتدر ، فتذهب أنفسهم حشرات ويزدادون ألبساً على ألبم .

(اتخذناهم سخرياً أم زأغت عنهم الأبصار) ؟ هذا من كلام الطغاة يسخرون به يوم القيامة من أنفسهم لأنهم كانوا من الذين آمنوا يسخرون (ان ذلك لحق تخافهم أهل النار) . ذلك إشارة الى تلاعن أهل النار ، وقول بعضهم لبعض « لا مرحباً بك ، وهو كائن لا محالة .

انما أنا منذر الآية ٦٥ - ٨٨ :

قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ وَمَا مِن إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ * رَبُّ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ * قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ * أَنْتُمْ عَنْهُ
مُعْرِضُونَ * مَا كَانَ لِي مِن عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ * إِنْ
يُوحَى إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ * إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقُ
بَشَرًا مِّن طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ *

فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ
الْكَافِرِينَ * قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي
اسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ * قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ
وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ * قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ
لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ * قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ
الْمُنْظَرِينَ * إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ * قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَا غَوْيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ *
إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُتَخَلِّصِينَ * قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ * لَا مَلَأَنَّ جَهَنَّمَ
مِنْكَ وَبِمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ * قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا
أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ * إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ * وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ
بَعْدَ حِينٍ *

اللغة :

المراد بالملأ الأعلى الملائكة . وخلقْتُ بيدي أي من غير أب وأم بل بأسباب
أخرى أنا أوجدتها . ومن العالين أي من أهل الرفعة والعلو .

الإعراب :

رب السموات بدل من الله الواحد . ان يوحى « ان » نافية . وانما « ما »
زائدة ، والأصل اني نذير مبين ، والمصدر من ان واسمها وخبرها نائب فاعل
ليوحى أي ما يوحى إليّ إلا الانذار . وساجدين حال . وأجمعون تأكيد . والمصدر

من أن تسجد مجرور بمن محذوفة . واستكبرت الأصل استكبرت همزة الأولى للاستفهام والثانية همزة الوصل ، وحذفت هذه لمكان تلك .

المعنى :

(قل إنما أنا منذر وما من إله إلا الله الواحد القهار رب السموات والأرض وما بينهما العزيز الغفار) . قل يا محمد للمشركين : أنا بشيركم إن توحدوا الله ، ونذيركم أن تشركوا بعبادته أحداً ، فله وحده الملك والخلق والعزة والمغفرة لمن تاب وأناب (قل هو نبي عظيم أنتم عنه معرضون) . ضمير هو يعود إلى القرآن ، وأعرض عنه المشركون جهلاً أو عناداً وحرصاً على مصالحهم .. ونعت سبحانه القرآن بالنبي العظيم لأنه يرتكز بعقيدته ، بشريعته وجميع مبادئه وتعاليمه على أساس الخبر للجميع والتعاون مع الجميع :

الاسلام وفتاة انكليزية :

في شهر كانون الثاني ١٩٧٠ قرأت محاضرتين لـ « روجيه جارودي » ألقاهما في دار « الأهرام » بالقاهرة في تشرين الثاني ١٩٦٩ ، وجارودي من قادة الفكر التقدمي الفرنسيين ، وحائز على لقب بروفيسور في الفلسفة ودكتور في الآداب ، وقد نشرت المحاضرتين مجلة « الطليعة » المصرية عدد ١ - ١٩٧٠ . وما قاله في المحاضرة الأولى : « ان الفتح العربي لم يكن غزواً ولا استعماراً ، وإنما هو في كل بلد فرصة لخلق حضارة من صنع الاسلام والحضارة المحلية .. ان الفتح العربي قد سبب انتعاشاً حقيقياً للاقتصاد العالمي رغم سيطرة الاقطاعيين في السنوات الأولى من الفتح » . وقال في المحاضرة الثانية : « نحن أمام تراث سام عظيم من القيم الاسلامية التي تستطيع أن تسهم مساهمة كبيرة في التقدم الاسلامي » - وقال - نرى « سيكون » المفكر الغربي الكبير يقول : ان الفلسفة كلها نابعة من الاسلام » .

وأيضاً قرأت في جريدة « الجمهورية » المصرية عدد ٢١ - ١ - ١٩٧٠ :

ان فتاة انكليزية مثقفة اسمها « برجت هوني » دخلت الاسلام حديثاً ، وروت قصتها لجريدة « الجمهورية » ، وتتلخص بأن هذه الفتاة كانت كبقية الناس في الغرب تحمل أحقاداً وشكوكاً وشبهات حول الاسلام ، وبعد أن قرأت بوعي وتجرد ترجمة معاني القرآن وبعض الكتب عن الاسلام وتشبعت بتعاليمه وجدت نفسها مسلمة تلقائياً ومن حيث لا تشعر ، ثم قالت للجريدة : من العسير أن أبين حقيقة الاسلام بكلام سريع لأنه كنموذج هندسي بديع كامل يكمل كل جزء من أجزائه بقية الأجزاء الأخرى ، وسر جماله يكمن بانسجام هذه الأجزاء وتلاؤمها ، وهذه الصفة للاسلام هي التي تمارس تأثيراً عميقاً على البشرية .. ان الانسجام اللطيف في الاسلام بين متطلبات الجسد والروح له جاذبية قوية لدى الغرب اليوم : ويستطيع أن يؤثر في الحضارة الحديثة ، ويبين الطريق للغربيين المؤدية إلى النجاح والخلاص الحقيقيين .

وحبذا لو سلك شبابنا - ومنهم صاحب « نقد الفكر الديني » - مسلك هذه الفتاة ، فقرأوا القرآن وتدبروا معانيه ، واطلعوا على بعض ما كتبه أهل الاختصاص عن الاسلام ، كما فعلت هذه الفتاة الانكليزية ، ثم حكموا على الاسلام في ضوء ما قرأوا وما فهموا .. ان أقل أثر يتركه تدبر القرآن وآياته في قلب الانسان هو الايمان بعدالة قادر قاهر ، وانه يجزي الذين أحسنوا بالحسنى والذين أساءوا بما عملوا .. وماذا يبقى للانسان ان حرم من هذا الايمان ؟ .

(ما كان لي من علم بالملائكة الا على اذ يختصمون ان يوحى إليّ إلا انما انا نذير مبين) .

المراد بالملائكة الأعلى الملائكة ، وضمير يختصمون يعود اليهم ، وهذا الكلام كله مفعول للقول ، والمعنى قل يا محمد للمشركين : لقد أخبرتكم بحديث الملائكة حين قال لهم : « اني جاعل في الأرض خليفة » وانهم قالوا له : « أتجعل فيها من يفسد فيها » وما علمي بهذا لولا ان علمني ربي وأوحى به إلي ، أم ترون أنني أكذب على الله ؟ وما أدعي أية منقبة لنفسي إلا الانذار لتعبدوا الله وحده رغبة في ثوابه ورهبة من عذابه .

(إذ قال ربك للملائكة اني خالق بشراً من طين فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين) . المراد بروح الله هنا الحياة ، وقال أديب معاصر : بل المراد ضمير الانسان بالخصوص ، وان الله انما أمر الملائكة بالسجود لآدم لأنه علم كم سيعذب الضمير ذلك المخلوق الذي له جسم الطين وروح الله : « لقد خلقنا

الانسان في كبد - ٤ البلد ه أي في مكابدة مستمرة وشقاء دائم (فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين) . قال صاحب « نقد الفكر الديني » في صفحة ٩٠ : « ان رفض السجود لآدم من إبليس ينسجم كل الانسجام مع مشيئة الله » . وهذا القول من صاحب النقد ينسجم مع مذهب السنة القائلين : لا تلازم بين مسا يأمر به الله وما يريد ، ولا بين ما ينهى عنه وما يكره ، فقد يأمر بما يكره ، وينهى عما يحب (المواقف ٨ : ١٧٦) واستدلوا على ذلك بأدلة منها ان الله أمر إبليس بالسجود لآدم مع انه تعالى لم يرد ذلك منه ولو أراد له لسجد لإبليس لأن الله فعال لما يريد .. ولا ينسجم قول صاحب النقد مع مذهب الشيعة الذين قالوا : ان الله ارادتين : ارادة الخلق والتكوين التي يعبر عنها سبحانه بقوله : « كن فيكون » و ارادة الطلب والتشريع التي يعبر عنها بالأمر والنهي (انظر ج ١ ص ٧٢ فقرة التكوين والتشريع) . والله سبحانه أراد السجود من آدم بإرادة الطلب والتشريع ، لا بإرادة التكوين والابحاد .

(قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي استكبرت أم كنت من العالين) . والله سبحانه يعبر عن الأسباب الطبيعية بيده لأنها تنتهي اليه ، قال تعالى : « انا خلقنا لهم مما عملت أيدينا انعاماً - ٧١ يس » . والمعنى لماذا امتنعت يا إبليس عن السجود لآدم ؟ هل غلبت عليك شقوتك وأخذتك العزة بالاثم ، فاستكبرت ووضعت نفسك فوق قدرها ، أم لأنك في حقيقتك وواقعك أجل وأعظم من آدم ؟ (قال انا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين) . أجب إبليس بالشق الثاني وانه في حقيقته وواقعه أجل وأعظم من آدم لأنه مسن نار ، وبها تدار المصانع ومنها الأسلحة الجهنمية أما آدم فهو « فلاح » لأنه من ماء و تراب .. ونمي الخيث أو تناسى ان الماء أصل الحياة وان الحضارة فرع .

(قال فاخرج منها الخ .) وتقدمت قصة خلق آدم وسجود الملائكة وامتناع إبليس في سورة البقرة الآية ٣٠ - ٣٤ ج ١ ص ٧٩ - ٨٣ ، والآية ١١ - ١٨ من سورة الأعراف ج ٣ ص ٣٠٥ - ٣١٠ والآية ٢٦ - ٤٤ من سورة الحجر ج ٤ ص ٤٧٣ - ٤٧٩ والآية ٦١ - ٦٥ من سورة الإسراء ج ٥ ص ٦١ - ٦٣ والآية ٥٠ من سورة الكهف ج ٥ ص ١٣٦ .

(قل ما أسألكم عليه من أجر وما انا من المتكلفين) . ضمير عليه يعود الى

التبليغ والتذكير ، والتكليف التصنع ، والمراد به هنا الكذب ، والمعنى قل يا محمد للذين كذبوك : انما أنصحكم لوجه الله لا أريد منكم جزاءً ولا شكوراً ، وما أنا بمفترٍ على الله ، كيف ولديّ كتاب ينطق بالحق ويعجز العقول والألسن أن يأتوا بسورة من مثله (ان هو إلا ذكر للعالمين) ممن له قلب أو ألقى عليه السمع وهو شهيد (ولتعلمن نبأه بعد حين) . سيتبين لكم عما قليل أهيا المكذبون بالقرآن أنه الحق الذي لا ريب فيه ، يتبين لكم ذلك في الحياة الدنيا حيث يدخل الناس في دين الله أفواجا ، وأيضاً يتبين الحق في الآخرة حيث تثبت الحقائق، وتضمحل الأباطيل .

سُورَةُ الزُّمَرِ

٧٥ آية مكية . وقبل : إلا ٣ آيات .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الله الدين الخالص الآية ١ - ٤ :

تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ * إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ
بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ * أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ
اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ
يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ
كَفَّارٌ * لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ
هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ *

اللقية :

الزلفى القربى .

الإعراب :

تنزيل مبتدأ ، وخبره « من الله » ، ويجوز أن يكون تنزيل خبراً لمبتدأ محذوف

ومن الله متعلق بتزليل أي هذا تنزيل الكتاب . وبالحق متعلق بأنزلناه . ومخلصاً حال من ضمير فاعيد . وألا أداة تنبيه . والذين مبتدأ والخبر محذوف أي يقولون ما نعبدهم . وزلفى مفعول مطلق مثل قت وقوفاً .

المعنى :

(تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم) . القرآن من عند الله الذي خلق الخلائق بقدرته ، ودبرها بحكمته (انا أنزلنا اليك الكتاب فاعبد الله مخلصاً له الدين) . قد يقال : ان النبي (ص) على يقين بأن القرآن من لدن عزيز حكيم ، وانه يعبد الله مخلصاً له الدين ، اذن ، فما الغرض من هذا الأمر ، وذلك الإخبار ؟ .
الجواب : لقد أودى النبي (ص) ، وتحمل الكثير ، فقال له سبحانه : انك تدعو إلى الحق ، ومن دعا إليه في محيط مثل بلدك لا بد أن يدفع الثمن من نفسه أو أهله أو ماله .. وأيضاً أنت مخلص لله في جميع أقوالك وأفعالك ، ومن أخلص لله لاقى الكثير من أعدائه . وبعتبر ثانٍ ليس قوله تعالى : « أنزلنا اليك الكتاب » مجرد إخبار ، ولا قوله : « فاعبد الله » مجرد أمر ، بل هما شهادة للنبي بالعظمة وتسليمة عما يقامي من أعداء الله والحق .

(الا لله الدين الخالص) من كل شائبة ، أما الدين المشوب بالرياء والأهواء فهو للشيطان ، لا للرحمن .. ولا يكون هذا الدين الخالص إلا لمن يجعل منه مثله الأعلى ، ويضحى من أجله بنفسه وجميع منافعه ، ولا يضحى به لأجل منفعتيه ومصلحته (والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) . عاد سبحانه إلى المشركين وأخبر أنهم يتخلون من دون الله أرباباً ليشفعوا لهم عنده . وتقدم مثله في الآية ١٨ من سورة يونس ج ٤ ص ١٤٤ .

(ان الله يحكم بينهم فيما هم فيه مختلفون) . لا يختلف المشركون فيما بينهم على الشرك ، وانما يختلف المشركون والموحدون ، والله سبحانه يفصل بين الفريقين فينعم على من وحد واتقى ، وينتقم ممن أشرك وبغى (ان الله لا يهدي من هو كاذب كفار) . انه تعالى يهدي من سلك سبيل الهداية ، ويضل من اختار طريق الضلال ، ويهلك من ألقى يديه إلى التهلكة ، وينجي من احتاط وتجنب المهالك .

(لو أراد الله أن يتخذ ولدأ لاصطفى مما يخلق ما يشاء) . هذا من فرض المحال ، وفرض المحال ليس بمحال ، والوجه في امتناعه ان اتخاذ الولد يستدعي بطبعه الحاجة والافتقار اليه ، والله غني عن كل شيء .. هذا ، الى ان كل والد فهو موروث ، وكل موروث فهو هالك ، فكل والد هالك ، فكيف يكون الله والدأ (سبحانه هو الواحد القهار) لا شريك له ولا كفؤ ولا صاحبة ولا ولد .. لا شيء إلا هو .

يكور النهار على الليل الآية ٥ - ٨ :

خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكْوَرُ اللَّيْلُ عَلَى النَّهَارِ وَيُكْوَرُ النَّهَارُ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ * خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ * إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نِسِيَ مَا كَانَ يُدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ *

اللغة :

التكوير اللف ، ومنه كور العمامة التي يلتوي بعضها على بعض ، والمراد بتكوير الليل والنهار تكوير الأرض بالأصل والليل والنهار بالتبع ، ويأتي المزيد من البيان في الشرح . والظلمات الثلاث هي ظلمة البطن وظلمة الرحم وظلمة المشيمة . وتصرفون أي عن الصديق إلى الكذب وعن الحق إلى الباطل . والوزر الذنب . ومنياً راجعاً . وخوله أعطاه .

الإعراب :

ذلكم مبتدأ والله عطف بيان وربكم خبر ، وله الملك مبتدأ وخبر والجملة خبر ثان لذلك . وانتي تصرفون أي إلى أين تصرفون . ومنياً حال من ضمير دعا . وقليلًا أي زماً أو تمتعاً قليلاً .

المعنى :

(خلق السموات والأرض بالحق يكوّر الليل على النهار ويكور النهار على الليل). قلنا فيما سبق : ان لله كتابين : كتاب ناطق مسطور ، وهو القرآن ، وكتاب صامت منظور ، وهو الكون، وان هذا الكتاب بما فيه من وحدة التصميم وحكمة التنظيم يدل دلالة قاطعة على وحدة المصمم وحكمة المنظم .. أما الصدفة فلأنها ان صدقت في شيء فإنها لا تصدق في كل شيء، ولا تتكرر مرات في الشيء الواحد . وقال صاحب الظلال وهو يتكلم عن هذه الآية: « ان التعبير بيكور يقسرنى قسراً على النظر في موضوع كروية الأرض .. انها تدور حول نفسها في مواجهة الشمس ، فالجزء الذي يواجه الشمس من سطحها المكور يغمسه الضوء ويكون نهاراً ، ولكن هذا الجزء لا يثبت لأن الأرض تدور ، وكلما تحركت بدأ الليل يغمر سطح الأرض الذي كان عليه النهار، وهذا السطح مكور فالنهار عليه يكون مكوراً ، والليل يتبعه مكوراً ، وهكذا في حركة دائبة » .

وكلمة التكوير غير بعيدة في دلالتها عن كروية الأرض، ومن أجل هذا فنحن مع صاحب الظلال في قوله : ان التعبير بيكور يستدعي النظر في كروية الأرض . وقال، مصطفى محمود في مجلة « صباح الخير » كما قال صاحب الظلال دون أن يشير إليه ، ولا أدري ان كان هذا من باب توارد الخاطر . وتقدم نظيره في سورة يس الآية ٣٧ ، ولم ترد فيها كلمة التكوير، وعند شرحها أشرنا إلى دوران الأرض حول نفسها ، وان جانبها الذي يحاذي الشمس حين الدوران يكون نهراً، وغير المحاذي يكون ليلاً .

(وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ألا هو العزيز الغفار) تقدم في الآية ٢ من سورة الرعد ج ٤ ص ٣٧٣ والآية ٢٩ من سورة لقمان و ١٣ من سورة فاطر (خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها) . تقدم في الآية ١ من سورة النساء ج ٢ ص ٢٤٢ والآية ١٨٩ من سورة الأعراف ج ٣ ص ٤٣٤ (وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج) . تقدم في الآية ١٤٣ من سورة الأنعام ج ٣ ص ٢٧٤ .

(يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث ذلكم الله ربكم له الملك لا إله إلا هو فأنى تصرفون) . خلقاً من بعد خلق إشارة إلى ما جاء في الآية ٥ من سورة الحج : « فلما خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقه ثم من مضغة » ج ٥ ص ٣١٠ ، والظلمات الثلاث هي ظلمة البطن والرحم والمشيمة ، وهذا الارتقاء من طور لآخر داخل هذه الظلمات دليل قاطع على وجود الباري المصور .. وإذا كان هذا الارتقاء من صنع الطبيعة مباشرة فإن الطبيعة من صنع من يقول للشيء « كن فيكون » ولا يعنى عن هذا إلا أعمى ، قال الإمام علي (ع) :

« أيها المخلوق السوي والمنشأ المرعي في ظلمات الأرحام ، ومضاعفات الاستار، بدئت من سلالة من طين ، ووضعت في قرار مكين الى قدر معلوم ، تموراً في بطن أملك جنيئاً لا تحبر دعاء ولا تسمع نداء ، ثم أخرجك من مكره الى دار

لم تشهدا ، ولم تعرف سبل منافعها ، فمن هناك لاجترار الغذاء من ثدي أمك ، وعرفك عند الحاجة مواضع طلبك وارادتك ؟

(ان تكفروا فإن الله غني عنكم) . فلا تضره معصية من عصي ، ولا تنفعه طاعة من أطاع ، « ولكن تناله التقوى منكم » أي الرضا عنكم ان كنتم متقين (ولا يرضى لعباده الكفر) . قال الأشاعرة : ان الله يريد لجميع الكائنات حتى كفر الكافر وزنا الزاني وقتل القاتل ظلماً وعدواناً لأنه خالق كل شيء ، ومع ذلك فهو ينهى عن الكفر والزنا والقتل (المواقف ج ٨ ص ١٧٣) أما التكليف بما لا يطاق فجائز عند الأشاعرة لأن الله لا يحب عليه شيء ، ولا يقبح منه شيء (نفس المصدر ص ٢٠٠) . ولا شيء أوضح في الدلالة على بطلان هذا المذهب من قوله تعالى : (ولا يرضى لعباده الكفر) .

(وان تشكروا برضه لكم) . وما يرضاه لنا فهو أمان ورحمة (ولا ترز وازرة وزر أخرى) أي لا تجزي نفس عن نفس شيئاً . وتقدم بالنص الحرفي في الآية ١٦٤ من سورة الانعام ج ٣ ص ٢٩٣ والآية ٥ من سورة الإسراء والآية ١٨ من سورة فاطر (ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم تعملون انه عليم بذات الصدور) . اليه تعالى مصائر الخلق ، ويده جزاء الأعمال ، وهو العليم بسرائر أصحابها وما يهدفون من ورائها .

(وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيباً اليه ثم إذا خوله نعمة منه نسي ما كان يدعو اليه من قبل وجعل لله أنداداً ليضل عن سبيله) . مسه أصابه ، والضر ما يؤذي ويسوء ، والإنابة الرجوع الى الله ، وخوله أعطاه ، والأنسداد الأشباه ، والمعنى ان الانسان إذا أصيب بنفسه أو أهله أو ماله التجأ الى خالقه خاشعاً متضرعاً ، فإذا كشف كربيه وضره ، وأسبغ عليه من جوده وكرمه نسي تضرعه الى خالقه ، واتجه الى غيره بالعبادة والطاعة . وفي الآية إيماء الى ان الانسان حين الضراء يعود الى فطرته التي فطره الله عليها . وتقدم مثله في الآية ١٢ من سورة يونس ج ٤ ص ١٣٩ والآية ٥٤ من سورة النحل ص ٥٢١ من المجلد المذكور والآية ٦٧ من سورة الإسراء ج ٥ ص ٦٥ .

(قل تمنع بكمفرك قليلاً انك من أصحاب النار) . هذا تهديد ووعيد لمن

يؤمن عند الشدة ، ويكفر عند الرخاء ، وما من شك ان متاع الدنيا مع الكفر وخيم العاقبة .

بحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه الآية ٩ - ١٦ :

أَمِنْ هُوَ قَانِتٌ أَنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ
 هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ *
 قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا
 حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ *
 قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ * وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ
 أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ * قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ *
 قُلِ اللَّهُ أَعْبُدْ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي * فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِن
 الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ
 الْمُبِينُ * لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ
 بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ *

اللغة :

قانت قائم بالطاعة . وأناء جمع آن أي ساعة من الزمن . وظلل جمع ظلة
 أي ما يستظل به من حر أو برد .

الإعراب :

أم للاستفهام . ومن مبتدأ وخبره محذوف أي كمن ليس بقانت . وهو قانت مبتدأ وخبر والجملة صلة لمن . وساجداً حال من ضمير قانت . وللذين أحسنوا خبر مقدم وحسنة مبتدأ مؤخر . وإن أعبد أي بأن أعبد . ولأن أكون أي من أجل أن أكون وقيل : اللام زائدة . الله أعبد، الله مفعول مقدم . ومخلصاً حال . وظلل مبتدأ ولم خبر ومن النار صفة . ذلك يخوف مبتدأ وخبر . يا عباد فاتقون أي يا عبادي فاتقوني .

حتى الأنبياء يفعلون رغبة ورهبة :

(أم من هو قانت آناه الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه) . بعد أن ذكر سبحانه من يؤمن عند الضراء ، ويكفر عند السراء عقبه بقوله : ليس سواء عند الله هذا الذي يؤمن في الشدة دون الرخاء ، ومن يعبد الله في جميع حالاته ، ولا تزيده النعمة إلا إيماناً وشكراً وسجوداً وركوعاً في ظلمة الليل والناس نيام ، ولا يفعل شيئاً إلا رغبة في ثواب الله ورهبة من عذابه .

وفي الآية إيماء إلى أن الإنسان لا يتقاد إلا بدافع الرغبة والرهبة تقبلاً كان أم شقياً ، والفرق أن الشقي يفعل ويترك رغبة في زينة الدنيا وحلاوتها أو رهبة من همها ومرارتها ، أما التقى فإنه يفعل ويترك رغبة في حرث الآخرة ونعيمها ، ورهبة من عذابها وجحيمها ، وهذا ينطبق حتى على الأنبياء المعصومين الذين وصفهم الله بقوله : « ويدعوننا رغباً ورهباً » - ٩٠ الأنبياء ج ٥ ص ٢٩٦ .

(قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولو الألباب) . ليس المراد بالعلماء هنا الذين حفظوا الشروح والمتون ، ولا الذين اكتشفوا قوى الطبيعة ، واخترعوا العقول الإلكترونية والصواريخ عابرة القارات ، وغزوا الفضاء وصعدوا إلى القمر أو المريخ .. كلا ، إنما المراد بهم العاملون لخير الإنسانية جمعاء ، وتحرير المعذبين في الأرض وخلاص الناس من البؤس والشقاء ، أما العلماء اللامبالون أو الذين باعوا دينهم وأنفسهم للأبالسة والشياطين ، لجلادي الشعوب ،

فاخترعوا لهم الأسلحة الجهنمية ، أما هؤلاء فهم كالأنعام بل أضل سبيلاً .. ولا يدرك هذه الحقيقة إلا أولو العقول والأبصار .

(قل يا عباد الذين آمنوا اتقوا ربكم) . لأن الإيمان بلا تقوى والعمل الصالح لا يجدي نفعاً ، ومن أجل هذا ذهب جمع من العلماء إلى أن العمل الصالح جزء من الإيمان الحق (للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة) . هذا كلام مستأنف ومنقطع عن سابقه ، ومعناه من يعمل مثقال ذرة خيراً يره (وأرض الله واسعة) . فمن ضاق عليه بلده وعجز عن القيام فيه بواجبه الديني أو الدنيوي فليهاجر إلى غيره ، وتقدم مثله في الآية ٩٧ من سورة النساء ج ٢ ص ٤١٩ .

(انما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب) أي الصابرون على الشدائد صبر الأحرار الذين يرتفعون فوق الأحداث ، ويرفضون الاستسلام للفقر والذل ، أما الذين يخضعون للاقوياء ويجنون أمام الطغاة فهم الذين خسروا الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين (قل اني أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين) . أبداً لا فرق بين النبي وغيره .. انه عبد مأمور بالاخلاص لله في جميع أقواله وأفعاله كأي انسان (وأمرت لأن أكون أول المسلمين) دعا الرسول الأعظم (ص) إلى الاسلام بعد ان سبق الناس إليه لأنه منسجم مع نفسه يفعل ما يقول ولا يقول ما لا يفعل .

(قل لاني أخاف ان عصيت ربي عذاب يوم عظيم) . محمد (ص) يخاف الله لأنه لا براءة معه من الله، ولا حجة له عليه ، بل لله الحجة على محمد (ص) وعلى جميع خلقه .. وأعظم ما في محمد انه مطيع لله مخلص له في العبودية سابق إلى الخيرات يتلقى الوحي من ربه ويؤديه على وجهه : « قل ما كنت بدعاً من الرسل وما أدري ما يفعل بي ولا بكم ان اتبع إلا ما يوحى إلي وما أنا إلا نذير مبين - ٩ الأحقاف » .

(قل الله اعبد مخلصاً له ديني) مرة ثانية يؤكد محمد (ص) بأمر الله انه عبد مأمور . قال المستشرق الانكليزي « هاملتون جب » الأستاذ في جامعة اكسفورد في كتاب « دراسات في حضارة الاسلام » ، قال : « يرفض القرآن فكرة الوساطة بين الله والانسان .. ويضع الانسان أمام خالقه دون عناصر وساطية روحية أو شخصية » . وهذه هي الميزة الكبرى للاسلام على جميع الأديان .

(فاعبدوا ما شئتم من دونه) . هذا أبلغ اسلوب يعبر عن غضب الله وتهديد من اتخذ معبوداً من دونه (قل ان الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ألا ذلك هو الخسران المبين) . خسروا أنفسهم لأنهم إلى جهنم وبئس المصير ، وخسروا أهليهم لأن المشرك منهم هالك ، والمؤمن عدو لمن أشرك في الدنيا والآخرة (لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل) . أي ان عذاب الحريق أطبق عليهم من كل جانب .

(ذلك يخوف الله به عباده يا عباد فاتقون) . يبين لهم سبحانه عذاب الآخرة وشدته ليبتعدوا في الدنيا عن أسبابه بالطاعة والاخلاص ، وإلا فلهم ذائقوه لا محالة .

وقال قائل : ان الجنة هي اللذة الروحية : والنار الألم النفسي ، وان كل ما جاء في القرآن من أوصافها الحسية فإنما هو ألوان من ضرب الأمثال والتقريب إلى الأذهان حيث لا أمنية للبدوي إلا أن يحظى بالعسل واللبن والخمر والخور العين ، واستدل هذا القائل بقوله تعالى : (ذلك يخوف الله به عباده) لأن معناه في مفهومه ان الله ذكر ألفاظ العذاب لمجرد التخويف ولا حقيقة لدلالة هذه الألفاظ ولا واقع لمدايلها^١ .

ونجيب بأن كل لفظ ورد في كتاب الله وسنة نبيه يجب العمل بظاهره إلا أن يرفضه العقل ، وعندئذ نصرفه إلى معنى مجازي يتحملة اللفظ ، ولا يأباه العقل ، ولا شيء من أوصاف الجنة والنار التي ذكرها القرآن يتنافى مع العقل ، وعليه يجب ابقاء اللفظ على ظاهره ، ولا مبرر للتأويل ، أما قوله تعالى : « ذلك يخوف الله به عباده » فمعناه انه يبين لهم الحقيقة والواقع ليجتاطوا منه ويبتعدوا عن الأسباب المؤدية اليه والذي يفرض ارادة هذا المعنى نفس الآيات التي ذكرت أوصاف النار وشدائدها « ان ذلك لحق تخاصم أهل النار - ٦٤ ص » .

أما القول بأن رحمة الله لا تتفق مع عذاب هذا الانسان المسكين الذي لا يساوي

١ هذا القول قديم جداً ، وهو متروك ، ولكن مصطفى محمود اراد أن يحججه بمقال نشره في مجلة « صباح الخير » عدد ٢٢ - ١ - ١٩٧٠ .

ذرة أو هباء ، عذاب هذا الضعيف بنار لها كلب ولجب ، أما هذا القول فجوابه ان الله سبحانه أعد العذاب الشديد الأليم للذين يفسدون في الأرض ، ويسفكون الدماء ، ويستعبدون الشعوب ، ويدمرون الحياة بالأسلحة الجهنمية ، ويقتلون الألوف في دقائق معدودات .. وجههم بجميع أوصافها القرآنية هي أقل وأدنى جزاء لهؤلاء ، وهي عين العدل بل والرحمة أيضاً ، وسلام على من قال: « لا يشغله تعالى غضب عن رحمة ، ولا تلهيه رحمة عن عقاب » . أنظر ج ٥ ص ٤٥٩ فقرة « جهنم والأسلحة الجهنمية » .

الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه الآية ١٧ - ٢١ :

وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى
فَبَشِّرْ عِبَادِ* الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ
هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ* أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ
أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ* لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ
فَوْقَهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعَدَ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ
الْوَعْدَ* أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ
ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ
حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ*

اللغة :

الطاغوت مصدر بمعنى الطغيان مثل ملكوت ورحوت والمراد به هنا ما تكون

عبادته سبياً للطغيان . ويهيج يحف ويبلغ نهايته في اليبوسة . والحطام ما تكسر من الشيء اليس ، والمراد به هنا التبن .

الإعراب :

المصدر من ان يعبدوها بدل اشمال من الطاغوت . والذين يستمعون مبتدأ وأولئك الذين هداهم الله خبر . وأولئك هم أولو الألباب مبتدأ وخبر وهم ضمير الفصل . أقن «من» مبتدأ وخبره محذوف أي كمن نجا من العذاب . وألوانه فاعل مختلفاً . وحطاماً مفعول ثانٍ ليُجعلهُ .

المعنى :

(والذين اجتنبوا الطاغوت وأنابوا إلى الله لهم البشري فيشر عباد) . المراد بالطاغوت هنا الأصنام ، ولذا عباد الضمير عليها مؤنثاً .. بشر سبحانه بالنجاة من نبد الشرك وأطاع الله ، وان بدرت منه بادرة تاب إلى خالفه وأناب (الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب) . ليس المراد بحسن القول حسن الكلمات وفصاحة الأسلوب، وإنما المراد به ما نفع دنياً وآخرة ، فإن كان مضرراً فهو قبيح ، أما القول الذي لا يضر ولا ينفع فإنه لا يوصف بحسن ولا بقبح ، أما الوصف بالأحسن فهو نسبي - مثلاً - رد التحية بمثلها حسن ، وكذا القصاص بالمثل من اعتدى عليك ، ولكن العفو أحسن من القصاص ، ورد التحية بخير منها أحسن من ردها بمثلها .

وقول الله تعالى أحسن من كل قول أياً كان قائله ، ولا شيء منه تعالى أحسن من شيء قولاً كان أو فعلاً لأن الأشياء بالنسبة إليه سواء، والذين يستمعون قول الله ، ويعملون به هم المهتدون عند الله إلى معرفة الأحسن والآخذون بالباب دون القشور . وفي نهج البلاغة : « أفيضوا في ذكر الله فإنه أحسن الذكر ، وارغبوا فيما وعد المتقين فإن وعده أصدق الوعد ، واقتدوا بهدي نبيكم فإنه أفضل الهدي ، واستنوا بسنته فإنها أهدى السنن ، وتعلموا القرآن فإنه

أحسن الحديث ، وتفقهوا فيه فإنه ربيع القلوب .

(أفن حق عليه كلمة العذاب) كمن أنجاه الله منه (أفأنت - يا محمد - تنقذ من في النار) . كلا ، لا وسيلة للالتقاظ والخلص من عذاب الله إلا العمل الصالح وعفو الله وكرمه ، جلّت حكمته ، وليس من شك ان من لج وتماهى في الغي والضلال فلا ينظر الله اليه : « أولئك لا خلاق لهم في الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر اليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم - ٧٧ آل عمران » (لكن الذين اتقوا ربهم لهم غرف من فوقها غرف مبنية تجري من تحتها الأنهار وعد الله لا يخلف الله الميعاد) . هذا على طريقة القرآن يقرن البشارة بالإنذار ، والوعد بالوعيد ، وذكر المتقين وثوابهم بذكر الطاغين وعقابهم، فلهؤلاء من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل، ولأولئك غرف في الجنة فوقها غرف .. هذا وعده تعالى ووعيده ، ومن أصدق من الله حديثاً ؟.

(ألم ترَ ان الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع في الأرض) . يتزل المطر من السماء ، فيجري على سطح الأرض ، ثم يفسد في جوفها ، فيكون عيوناً وينابيع تنفع الناس .. فهل هذا صدفة ، أو من تدبير عليم حكيم ؟ (ثم يخرج به زرعاً مختلفاً ألوانه) . فهل هذا النبات المختلف لوناً وطعماً من صنع الطبيعة بما هي أو بعناية خالق الطبيعة بما فيها ؟ وإذا كانت الحياة بشئ ألوانها من نتاج الطبيعة وخصائصها فلماذا ظهرت الحياة في بعض أطراف الطبيعة وأجزائها دون بعض ؟

(ثم يهيج فتراه مصفراً) ثم يجف النبات الأخضر ويصفّر في أوانه وعند بلوغه (ثم يجعله حطاماً) فتأناً متكسراً (ان في ذلك لذكرى لأولي الألباب) . ان في انزال المطر ، وانبات النبات واخضراره ثم اصفراره ثم فثاته على وفق الحكمة والمصاحبة ، لن في ذلك كله تذكيراً بالبارئ المبدع .. وإذا كان هذا من الماء والتراب فن الذي أوجد الماء والتراب والكون بما فيه. انظر ج ٣ ص ٢٣١ فقرة ٥ من أين جاءت الحياة ، وج ٥ ص ٧٩ فقرة ٥ الروح من أمر ربي، والله وعلم الخلايا .

شرح الله صدره للإسلام الآية ٢٢ - ٢٤ :

أَفَنَنْتَ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ
 قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * اللهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ
 مُتَشَابِهًا مَثَانِي تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ
 وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ ذَلِكَ هُدَى اللهُ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ
 اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ * أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ
 لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ *

اللمعة :

شرح صدره لكنا اتسع له واطمأن اليه . وأحسن الحديث القرآن . والمراد
 بالمتشابه هنا ان القرآن بكامله على نسق واحد أسلوباً ومحتوى : « ولو كان من
 عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً » - ٨٢ النساء . ومثاني جمع مثني ،
 وهو عبارة عن الأمر والنهي والوعد والوعيد وما إلى هذا ، وقيل : المراد بالمثاني
 هنا ايراد المعنى بأكثر من أسلوب ، ومما يكن فإن معنى مثاني غير المعنى المراد
 منه في الآية ٨٧ من سورة الحجر . وتقشعر كناية عن الخوف عند ذكر الوعيد
 بالجحيم . وتلين كناية عن الاطمئنان عند ذكر الوعد بالنعيم .

الإعراب :

أفمن شرح « من » مبتداً وخبره محذوف أي كمن قسا قلبه ، ومثله أفمن يتقي.

وكتاباً بدل من أحسن الحديث . ومتشابهاً صفة كتاب . ومثاني صفة ثانية . وجملة
تقشعر صفة ثالثة .

المعنى :

(أفن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه) . من توكل على
الله كفاه ، ومن طلب الهداية هداه ، فإذا علم الخير من عبده وأنه يطلب معرفة
الحق للعمل به أخذ سبحانه بيده وأرشده إلى بغيته وجعله على بينة من أمره :
« ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها » - ١٤٥
آل عمران .

(فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله) . قست ولم تمل لهداية على الرغم من
العظات والعبر والتحذير والتبشير (أولئك في ضلال مبين) وعذاب مهين . قال
الحافظ محمد بن أحمد الكلابي في كتاب التسهيل لعلوم التنزيل : « روي أن السدي
شرح الله صدره للإسلام علي بن أبي طالب وحمة ، والمراد بالقاسية قلوبهم
أبرهه وأولاده » .

ثم وصف سبحانه القرآن بالأوصاف التالية :

١ - (الله نزل أحسن الحديث) في عقيدته وشريعته ومواعظه وحكمه وجميع
مبادئه وتعاليمه .

٢ - (كتاباً متشابهاً) أسلوباً ومحتوى ، ولا تهافت بين معانيه لأنها من إله
عليم حكيم .

٣ - (مثاني) أي تثنى أحكامه ومواعظه ، فهو يجمع بين الأمر والنهي ،
وبين الوعد والوعيد وما إلى ذلك ، وفي كتاب « النواة في حقل الحياة » للشيخ
العبيدي : « في القرآن صور الكائنات أمثالاً وأضداداً ، ثم يهب بك فيها يخص
الفضائل بصوت الأمر المشفق ، وفيها يخص الرذائل بصوت الزاجر الجبار ، وفيه
طمأنينة العابد وزجاجة القائد » .

٤ - (تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم) هذا كناية عن خوف المؤمنين حين يسمعون وعيد الله وتهديده بالجهيم ، ومثله قول الإمام علي في وصف المتقين : « وهم والنار كمن قد رآها فهم فيها معذبون » .

٥ - (ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله) كناية عن اطمئنانهم حين يسمعون وعد الله وبشارته بالنعيم ، ونحوه قول الإمام علي (ع) : « وهم والجنة كمن قد رآها فهم فيها منعمون » .

(ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ومن يضلل الله فما له من هاد) . يدع الله سبحانه الانسان وما يختار ، فمن اختار لنفسه الموت والانتحار بأحد أسبابه أماته الله ، ومن اختار لها الحياة بأسبابها أحياء لأجل مسمى ، وكذلك من اختار لنفسه الهدى وسلك سبيله هداه الله وشمله بعنايته ، وما له من مضل ، ومن اختار لها الضلال وسلك مسلكه أضله الله ، وما له من هاد ، وكفى دليلاً على ذلك قوله تعالى : « فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين » - « الصف » أي لا يهدي الذين اختاروا لأنفسهم بأنفسهم الفسق والفساد ، وقوله : « وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى » - ١٧ فصلت ، وقوله : « والذين اهتدوا زادهم هدى وآثارهم تقواهم » - ١٧ محمد ، أي طلبوا الهدى والتقوى بإخلاص فأرشدهم الله اليه .

(أفن ينقي بوجهه سوء العذاب يوم القيامة) . ليس سواء من يغمره العذاب من فرع إلى قدم ، ومن هو في آمان منه .. وانما ذكر سبحانه الوجه بالخصوص لأنه أعز الأعضاء على الانسان وأشرفه ، وبه يتميز عن غيره (وقيل للظالمين ذوقوا ما كنتم تكسبون) . تماماً كما ندين تدان ، وكما تزرع تحصد ، وما قدمت اليوم تقدم عليه غداً ، كما قال الإمام علي (ع) .

قرآناً عربياً غير ذي عوج الآية ٢٥ - ٣١ :

كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ * فَأَذَاقَهُمْ

اللهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ*
وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ*
قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ* ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا رَجُلًا
فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ
لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ* إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ* ثُمَّ إِنَّكُمْ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ*

اللفظ :

غير ذي عوج مستقيم على الحق والعدل في جميع معانيه . ومتشاكسون مختلفون .
وسلماً أي خالصاً .

الإعراب :

قرآنًا حال مؤكدة من القرآن . وعربياً صفة . وغير ذي عوج صفة بعد
صفة . وضرب هنا بمعنى جعل ومثلاً مفعول أول ورجلاً مفعول ثان وقيل :
ان رجلاً بدل من « مثلاً » . وفيه خبر مقدم وشركاء مبتدأ مؤخر ومتشاكسون
صفة لشركاء . ويستويان مثلاً ، « مثلاً » تمييز .

المعنى :

(كذب الذين من قبلهم فأناهم العذاب من حيث لا يشعرون فأذاقهم الله
الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون) . ضمير

الجزء الثالث والعشرون

قبلهم يعود الى مشركي مكة الذين كذبوا رسول الله (ص) ، ونقول لهم الآية :
أَتَكْذِبُونَ نبيكم محمداً ، ولا تعتبرون بما أصاب الأمم الماضية من الهلاك لأنهم كذبوا
أنبياءهم ؟ وتكرر هذا المعنى في العديد من الآيات ، منها الآية ١٤٨ من سورة
الانعام ج ٣ ص ٢٧٨ (ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلهم
يتذكرون) . حوى القرآن من التعاليم ما يكفل للناس حياة طيبة آمنة في كل
عصر وقطر ، فقد يتبن لهم ما فيه الخير والصلاح وأمرهم به ، وما فيه الشر
والفساد ونهاهم عنه بأساليب متنوعة ، وأمثال واضحة ليتعظوا ويستقيموا . وتقدم
مثله في الآية ٥٤ من سورة الكهف ج ٥ ص ١٣٩ والآية ٥٨ من سورة الروم .

لترجمة القرآن :

(قرآنًا عربيًّا غير ذي عوج لعلهم يتقون) . القرآن عربي لغة ، وانساني
ديناً ومبدأ لا يحده زمان ومكان ، ولا قومية وعنصرية : « وما أرسلناك إلا
كافة للناس بشيراً ونذيراً - ٢٨ سبأ » ، وهو مستقيم في مبناه ومحتواه ، لا لبس
فيه ولا انحراف لأنه من لدن عليم حكيم يهدف الى هداية الناس وارشادهم الى
جادة الحق وصراطه القويم. وتقدم مثله في الآية ٢ من سورة يوسف ج ٤ ص ٢٨٦
والآية ٣٧ من سورة الرعد والآية ٢٠ من سورة طه .

وتسأل : هل تجوز ترجمة القرآن الى اللغات الأجنبية ؟ ومع الجواز هل تجري
احكام القرآن على ترجمته فلا يحسبها إلا المطهرون ؟

الجواب : لا شبهة ولا ريب في جواز ترجمة القرآن الى كل اللغات ، بل
ورجحانها أيضاً لأن القرآن هو رسالة الله والاسلام الى الانسانية كلها ، والترجمة
عامل أساسي على بث هذه الرسالة الإلهية المحمدية وانتشارها .. وقد أسلم جماعة
أو عرفوا حقيقة الاسلام عن طريق ترجمة القرآن ، وبالألمس القريب أسلمت فتاة
انكليزية مثقفة بعد أن قرأت ترجمة معاني القرآن الى لغتها . انظر فقرة الاسلام
وفتاة انكليزية عند تفسير الآية ٦٨ من سورة ص .

وتجدر الإشارة الى ان القرآن مترجم الى ٢٧ لغة ، وأول ترجمة له كانت

سنة ١١٤٣ ميلادية (مجلة اللسان العربي . « الرباط » عدد كانون الثاني ١٩٦٩) .

وأيضاً لا شك ان ترجمة القرآن لا تجري عليها أحكام القرآن . أولاً لأن العربية من خصائص القرآن ومقوماته : « انا أنزلناه قرآناً عربياً - ٢ يوسف » . فإذا زالت عنه هذه الصفة تبعتها الصفة القرآنية حتماً . ثانياً ان الترجمة في واقعها انما هي لمعاني القرآن ، لا للقرآن بالذات . وبكلام أوضح ان القرآن عبارة عن الفصاحة العربية ومعانيه الحقيقية ، وكل منها جزء متمم للآخر بالنسبة الى القرآن ، فإذا زال أحد الجزئين ذهبت جنسية القرآن ، وأصبح الجزء الباقي شيئاً غير القرآن .. وعليه يكون حكم ترجمته تماماً كحكم تفسيره .. أجل ، ان حكم اسم الله تعالى وصفاته هو حكم القرآن بالذات بحرم مسه ومسها على غير المطهرين منها كانت اللغة . (ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون ورجلاً سليماً لرجل هل يستويان مثلاً) ؟ هذا المثل ضربه سبحانه للمشركين المكذبين برسالة محمد (ص)، وتوضيحه ان المشرك الذي يعبد أكثر من واحد هو أشبه بعبد مملوك لجماعة مختلفين في الرأي والأخلاق ، ولا يتفقون على شيء ، وكل واحد منهم يطلب من العبد ما يناقض طلب الآخر ، ولا يستطيع العبد تلبية الجميع وإرضاءهم، وفي الوقت نفسه لا يريد أن يَغضب واحداً منهم ، فهو معهم أبداً ودائماً تائه في فكره وحسائر في أمره لا يدري ماذا يصنع ؟

أما المؤمن الموحد فهو أشبه بعبد يمتلكه رجل واحد ولا يُطلب منه إرضاء أحد سوى مولاه الحكيم فيما يأمر وينهى ، وقد استراح كل منها للآخر ، فالسيد لا يكلف العبد ما لا يطيق ، والعبد يسمع ويطيع ، وهو طيب النفس لأنه على يقين من مرضاة مولاه .. فهل هذا الرجل الذي هو سلم لمولاه الواحد الحكيم ولا يخضع إلا له وحده ، وذلك الرجل الذي يُطلب منه أن يخضع ويطيع الرعاء المتشاكسين هل هما سواء؟ كلا: « أرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار - ٣٩ يوسف » .

(الحمد لله) الذي عزز دينه ورسوله بالحجج الدامغة والبيّنات الواضحة ، ونخلد أعداءه المبطلين وردهم على أعقابهم خاسئين (بسل أكثرهم لا يعلمون) ان المشرك كالعبد المملوك لرعاء متشاكسين (أنك ميت - يا محمد - وانهم

الجزء الثالث والعشرون

ميتون) لأن الموت نهاية كل حي نبياً كان أو غير نبي ، ولا يبقى إلا وجهه الكريم ، جلّت عظمته ، ولكن أعداء محمد (ص) يموتون موت الكفر والجهل ، ولا يبقى لهم من أثر إلا اللعن واللعن ، أما رسالة محمد (ص) فخالدة مدى الحياة ، ويبقى اسمه مقروناً بالصلوات والتحيات إلى آخر يوم (ثم انكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون) . المراد بالخصومة هنا ان النبي (ص) يشهد عليهم أمام الله يوم القيامة بأنه قد بلغهم رسالات ربهم : « وجئنا بك شهيداً على هؤلاء - ٨٩ النحل » .

الجزء الرابع والعشرون

أليس الله بكاف عبده الآية ٣٢ - ٣٧ :

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ * وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ * لَهُمْ مَا يَشَاؤُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ * لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ * أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ * وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ *

اللفظ :

المثوى المكان الذي يشوي فيه الانسان إذا أقام فيه .

الإعراب :

فن استفهام انكاري وعملها الرفع بالابتداء وأظلم خبر . والذي جاء مبتدأ ، والمراد به الجنس حيث أخبر عنه بالجمع ، وهو أولئك هم المتقون . والمصدر من ليكفروا متعلق بيشامون . وبكاف الباء زائدة لإعراباً وكاف خبر ليس ومثله بعزير . وعبدته مفعول كافٍ لأنه بمعنى يكفي .

المعنى :

(فمن أظلم ممن كذب على الله) ؟ فجعل له شريكاً أو ولداً .. وشر القول

الكذب ، وأعظم الكذب شراً الكذب على الله ورسوله (وكذب بالصدق إذ جاءه) من الله على لسان رسله .. وهكذا أبواب المصالح والمنافع في كل مكان وزمان يكذبون الصدق ويصدقون الكذب لأن مصالحهم تقوم على الزور والمباطل ، وما قرأته في هذا الباب : ان من أعظم الكذب أن يقول الكاذب : الله يعلم أنني لصادق (أليس في جهنم مثوى للكافرين) بلى ، انها مثوى ومأوى لهم ولكل طاغ وباغ .

(والذي جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون) . رسول الله (ص) جاء بالصدق من عند الله ، والمسلمون صدقوا ما جاء به ، وهم عند الله من الأبرار إذا اتقوه في محارمه ، وإلا فإن التصديق بلا عمل لا يجديهم عند الله نفعاً (لهم ما يشاءون عند ربهم ذلك جزاء المحسنين) أي المتقين محارم الله لأن الحديث عنهم ، ولم يحدد سبحانه في هذه الآية جزاءهم بشيء معين ، بل ترك الخيار لمشيئتهم .

(ليكفر عنهم أسوأ الذي عملوا ويجزيهم أجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون) . ان الله يغفر الذنوب جميعاً كبيرها وصغيرها لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ، ويجزي سبحانه العاملين بطاعته والشاكرين لنعمته بأحسن من طاعتهم وشكرهم (أليس الله بكاف عبده ويخوفونك بالذين من دونه) . المراد بعبده محمد (ص) ، وهو سبحانه كافيه شر من يريد به الشر ، والمراد بالذين من دونه الأصنام لأن ضمير دون يعود إليه تعالى . وقال جماعة من المفسرين : ان رسول الله (ص) لما ذكر الأصنام بسوء قالت قریش : لئن لم ينته محمد عن ذكر آفتنا لسلطنا عليه ، فتصبيه بخبل أو تعذيره بسوء .. فأنزل الله سبحانه هذه الآية .. وليس هذا ببعيد عن عقول أهل السفه والجهل . وليس من شك ان الله كاف عبده ورسوله .

(ومن يضل الله فما له من هادٍ ومن يهد الله فما له من مضل) . قلنا عند تفسير الآية ٢٣ من هذه السورة وغيرها من الآيات : ان الله يفضل من سلك مسلك الضلال بسوء اختياره ، ويهدي من اختار الهداية لنفسه وسلك بها سبيلها (أليس الله بعزیز ذي انتقام) ممن كفر وظلم بمشيئته وبعد إلقاء الحجة عليه ؟

قل حسبي الله الآية ٣٨ - ٤٥ :

وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ
مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ
أَوْ أَرَادَنِيَ بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ
الْمُتَوَكِّلُونَ * قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ
تَعْلَمُونَ * مَنْ يَأْتِهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ * إِنَّا أَنْزَلْنَا
عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ
عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ * اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي
لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ
أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ
دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوْ لَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَقُولُونَ *
قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ *
وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَنُحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا
ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ *

اللغة :

حسبي كافيني . ومكانتكم الحال التي أنتم عليها . وأصل التوفي الإيفاء وهو
أخذ الشيء كاملاً وافياً، ومن مات فقد استوفى عمره . واشمأزت انقبضت ونفرت.

الإعراب :

الله فاعل لفعل محذوف أي خلقهن الله . وحسي مبتدأ والله فاعل ساذ مسد الخبر . فلنفسه متعلق بمحذوف خبر لمبتدأ محذوف أي فاهتدأوه كائن لنفسه . أو لو كانوا المهزلة للانكار والواو للحال أي تتخذونهم شفعاء وهم لا يعقلون . وجميعاً حال من الشفاعة .

المعنى :

(ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله) . جوابهم هذا من وحي الفطرة التي فطر الله الناس عليها ، لأنها لا تجد تفسيراً للكسوف إلا بوجود الله ، ولكن الجاحدين يقولون : نحن لا نؤمن إلا بالتجربة ، أما الفطرة فكلام فارغ ، ونحن بدورنا نقول لهم : إذا كنتم لا تؤمنون إلا بالتجربة فأرونا التجربة التي دلتكم على ان الله غير موجود .. ونحن لا نشك في ان من أنكر هذه الفطرة أو أنكر منطقها فقد أنكر إنسانية الإنسان وأغلى ما فيه من طاقات وغرائز . وتقدم مثله في الآية ٦١ من سورة العنكبوت والآية ٢٥ من سورة لقمان .

(قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله ان أرادني الله بضر هل هن - أي الأصنام - كاشفات ضره أو ارادني برحمة هل هن ممسكات رحمته ؟) هدد المشركون الرسول الأعظم (ص) بالأصنام ، فأمره الجليل الأعلى أن يقول لهم : أي سلطان للأصنام علي أو على غيري ؟ فهل تدفع عني ما أَرَادَهُ اللهُ بي من الضر ، أو تمنع ما أَرَادَهُ لي من الخير ؟ بل هل تستطيع الأصنام أن تدفع عن نفسها إذا أراد إنسان أن يحطمها بفأسه ، أو يدوسها بنعله ؟ وتقدم مثله في الآية ١٧ من سورة الانعام ج ٣ ص ١٦٩ والآية ١٠٧ من سورة يونس ج ٤ ص ١٩٩ .

(قل حسبي الله عليه يتوكل المتوكلون) . قل يا محمد لمن كذب برسائلك : أستعين بالله واسترشد به ، وهو يكفيني ما أمني ، ومن ضاقت عليه الأمور فليلجأ إليه وحده ، وكفى به ولياً ونصيراً .

(قل يا قوم اعملوا على مكانتكم اني عامل فسوف تعلمون من يأتيه عذاب

ينجزه ويحل عليه عذاب مقيم) . على مكانتكم أي على حالتكم ، ومقيم دائم مدى الأبد ، والمعنى ليق كل منا على ما هو عليه ، ثم ينتظر المصير ، وهو عليكم خسران وجحيم،وعلينا بركة ونعيم . وتقدم مثله في الآية ١٣٥ من سورة الانعام ج ٣ ص ٢٦٧ والآية ٩٣ من سورة هود ج ٤ ص ٢٦٤ (انا أنزلنا عليك الكتاب للناس بالحق) . فبلغه عن ربك مبشراً ومنذراً بآياته،ولا تدع لأحد عذراً يتعلل به (فن اهتدى فلنفسه ومن ضل فلانما يضل عليها وما أنت عليهم بوكيل) فكل إنسان مسؤول عن عمله ، وحسابه على خالقه ، ولا سلطان لك عليه بعد ان بلغت ونصحت . وتقدم مثله في الآية ١٠٤ من سورة الانعام ج ٣ ص ١٣٨ والآية ١٠٧ من سورة يونس ج ٤ ص ١٩٩ .

(الله يتوفى الأنفس عند موتها) . قال الماديون : الانسان هو هذا الجسم ولا شيء وراءه . انظر « الماديون والحياة بعد الموت » ج ٤ ص ٣٧٩ ومع الماديين ص ٥٣٦ من المجلد المذكور . وقال المؤمنون : ان الانسان روح وبدن، وان الروح هي التي تسيّر البدن وتدبره بأمر الله تعالى ، والموت عبارة عن قطع العلاقة بين الروح والبدن ، وانها بعد ذلك تذهب الى خالقها : « يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي الى ربك - ٢٧ الفجر » . وعلى هذا يكون معنى قوله تعالى : (الله يتوفى الأنفس حين موتها) انه تعالى يقبضها اليه حين موت الأبدان.

(والتي لم تمت في منامها) . النوم نوع من الموت والوفاة أو هو وفاة مجازاً، قال تعالى : « هو الذي يتوفاكم بالليل - ٦٠ الانعام » . وقال صاحب مجمع البيان : « التي تتوفى عند النوم هي النفس التي يكون بها العقل والتمييز ، وهي التي تفارق النائم فلا يعقل ، أما التي تتوفى عند الموت فهي نفس الحياة التي إذا زالت زال معها النفس ، والنائم يتنفس ، فالفرق بين قبض النوم وقبض الموت ان قبض النوم يضاد اليقظة ، وقبض الموت يضاد الحياة ، وقبض النوم تكون الروح معه - أي مع القبض - في البدن ، وقبض الموت تخرج الروح من البدن » .

(فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى ان في ذلك لآيات لقوم يفتكرون) . يقبض سبحانه النفس عند موت الجسد ، وعند منامه ، وتبقى التي قضى عليها الموت عند خالقها ولا يردها إلى الجسد ، أما الثانية فيردها

اليه إلى أمدها المعين . قال عمر بن الخطاب : « العجب ان الرجل يرى رؤيا فتكون كالأخذ باليد ، ويرى رؤيا فلا تكون شيئاً .. فقال له الإمام علي بن أبي طالب : ان الله يتوفى الأنفس كلها ، فما رآته وهي عنده فهي صادقة، وما تراه بعد إرسالها فهي كاذبة ، فعجب عمر من قول الإمام » . نقل هذا الشيخ المراغي في تفسيره عن أبي حاتم وابن مردويه .

(أم اتخنوا من دون الله شفعاء قل أولو كانوا لا يملكون شيئاً ولا يعقلون) . الأصنام لا تعقل شيئاً ، ولا تدفع عن نفسها ضرراً ، ومع ذلك يرجو المشركون أن تشفع لهم وتنفعهم عند الله .. وهكذا يفعل الجاهل بنفسه .. ان خير شفيع عند الله تعالى للمذنبين التوبة والانابة (قل لله الشفاعة جميعاً) أي لا أحد يملك من الشفاعة شيئاً إلا ما ملكه الله منها : « ان الأمر كله لله - ١٥٤ آل عمران » . (له ملك السموات والأرض ثم اليه ترجعون) . ومثله : « والله ملك السموات والأرض وما بينهما واليه المصير - ١٨ المائدة » ج ٣ ص ٤٠ .

(وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه - أي من دون الله وهي الأصنام - إذا هم يستبشرون) . كان المشركون إذا سمعوا قول لا إله إلا الله نفروا، وإذا سمعوا مدح الأصنام فرحوا .. وهذا شأن المبطلين قديماً وحديثاً ، لا يؤنسهم إلا الباطل، ولا يوحشهم إلا الحق .. وفي نهج البلاغة : من استغل الحق أن يقال له أو العدل أن يعرض عليه كان العمل بهما أثقل عليه .

أنت تحكم بين عبادك الآية ٤٦ - ٥٢ :

قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ
بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ * وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي
الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

وَبَدَأَ لَهُمْ مِنْ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ * وَبَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا
كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ * فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ
دَعَا نُمًّا إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ
وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ
مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ
سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا لَهُمْ بِمُجْزِيْنَ * أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ
يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ *

اللغة :

حاق بهم نزل بهم . وخولناه أعطيناه . وفتنة بلية .

الإعراب :

اللهم فاطر السموات أي يا الله يا فاطر السموات يا عالم الغيب . والمصدر من
أن للذين ظلموا فاعل لفعل مخوف أي لو ثبت ملك الذين ظلموا . وجميعاً حال
من ما في الأرض . وبل هي أي النعمة .

المعنى :

(قل اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك
فما كانوا فيه يختلفون) . ترتبط هذه الآية بقوله تعالى في الآية السابقة : وما

أنت عليهم بوكيل » والمعنى واضح، وملخصه قل يا محمد بعد أن بلغت ونصحت : اللهم أنت خالق الخلق ومالك الملك ، وعالم بما كان مني ومن المكذبين ، ولك وحدك الحكم والقول الفصل في كل اختلاف وصراع بين عبادك في هذه الحياة . (ولو ان للذين ظلموا ما في الأرض جميعاً ومثله معه لافتدوا به من سوء العذاب يوم القيامة وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون) . كانوا يتكالبون على حطام الدنيا ، ويجمعون المال على المال غافلين عن لقاء الله وحسابه ، وحين وقفوا بين يديه لنقاش الحساب وتكشف لهم ما كانوا يأمنون عضوا يد الندامة ، وتمنّوا لو ملكوا أضعاف ما في الأرض وقبّل منهم فدية عن عذاب الحريق ، ولكن هيهات أن يُفدى لجهنم أسير .. وتقدم مثله في الآية ٩١ من سورة آل عمران ج ٢ ص ١٠٦ والآية ٥٤ من سورة يونس ج ٤ ص ١٦٩ والآية ١٨ من سورة الرعد .

(وبدا لهم سيئات ما كسبوا وحق بهم ما كانوا به يستهزئون) . كانوا اذا قبل لهم : اتقوا يوماً ترجعون فيه الى الله سخرؤا من هذا القول وقائله ، ولما أحضروا في اليوم الموعود بدت لهم الحقيقة ، ونزل بهم العذاب جزاءً وفاقاً على موقفهم الساخر منه ومن أنذر به .

عذر القبح من ذنب :

(فإذا مس الانسان ضر دعانا ثم إذا خولناه نعمة منا قال إنما أوتيته على علم) . المراد بالانسان هنا كل من ينطبق عليه هذا الوصف ، يستغيث بالله عند الشدة ، وينسأه عند الرخاء، ويقول في جهل وغرور : ان نعمتي من صنع تدبيرى وفطنتى . تذكرت وأنا أكتب هذه الكلمات سياسة الولايات المتحدة التي أعلنها «راسك» حين كان وزيراً للخارجية ، أعلنها بقوله : « لا بد للولايات المتحدة أن تظهر اهتمامها بالكرة الأرضية كلها بجميع أراضيها ومياهها وجوّها وفضاؤها الخارجي المحيط بها » . أي ان للولايات المتحدة أن تسيطر على الأرض بمن فيها وما فيها ، وكان هذا الاعلان سنة ١٩٦٦ ، أي قبيل أن ترسل الولايات المتحدة روادها ليطأوا أرض القمر ، أما اليوم فينبغي أن نعطف القمر وغيره من الكواكب على الأرض .

وبعد أن نشرت الصحف العالمية هذه السياسة الاستعمارية التي أعلنها وزير خارجية الولايات المتحدة كتب مأجور في إحدى الصحف العميلة مقالاً يبرر فيه هذه السياسة ويدافع عنها بقوله : ان الولايات المتحدة أقوى دولة علمياً وثراء ، وقد حققت انتصارات ضخمة في ميدان العلم والصناعة ، فلها - اذن - كل الحق أن تتدخل في شؤون العالم بمختلف الصور ، وان تستولي على كل ما تريد الاستيلاء عليه ، وان تغير ما شاءت من قوانين الدول والشعوب ، وتوجه اقتصادها ، وتضع هي ميزانها ، وتحدد ما تصدره وتستورده .. وأيضاً للولايات المتحدة كل الحق أن تستعمل سياسة العصا الغليظة مع كل بلد يدافع عن حريته واستقلاله ، فتقتل وتدمر بكل أسلوب ، بالانقلابات العسكرية ، وتدعيم الحركات الانفصالية والقضاء على الانتفاضات الوطنية ، بل لها الحق أيضاً أن تتدخل تدخلاً مباشراً ومسلحاً ان اقتضى الأمر .. لها الحق في ذلك وأكثر من ذلك لأن هذا الحق في واقعه للعلم أولاً، وثانياً للولايات المتحدة التي خرج العلم من مصانعها العسكرية، وتمثل في أسلحتها الجهنمية .. وكل من ملك هذا السلاح كان له الحق في السيطرة على الكرة الأرضية بمن فيها وما فيها. وكل ما جاء على لسان كاتب المقال هو بيان للسياسة الامريكية كما هي في واقعه .. ومن أراد الثبت من هذه الحقيقة فليدرس سياسة أمريكا في فيتنام وآسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية، وموقفها العدائي من العرب، وانتصارها غير المحدود لعدوان اسرائيل ومعارضتها للحل السلمي البناء لمشكلة فلسطين ولكل مشكلة قائمة في الشرق والغرب .

ونسأل ذاك الأفاك الأثيم الذي تطوع للدفاع عن أمريكا وبارك سياستها، وقال ان لها كل الحق في أن تشيع شهوتها العدوانية إلى أقصى ما تصل إليه الشهوات والتزوات .. بارك وبرر لا شيء إلا لأن أمريكا تمتلك مصانع الحروب والدمار ، نسأل هذا الأفاك : إذا كان العلم يبرر القتل والتدمير والسلب والنهب فعني هذا ان العلم للشر لا للخير ، وللفساد لا للصالح ، وان للعالم أن يستخدم علمه للفرصة واللصوصية والكذب والتزوير ، وان المجرم الحاذق مشكور ومأجور .. وانه كلما نفوق في الإجرام وكثر منه الضلال والفساد استحق الاحترام والتقدير .. وأيضاً إذا كان العلم يبرر العدوان فلماذا ترفع الولايات المتحدة شعارات العدل والانسانية ،

وتحاول جاهدة أن تُقنع الناس بأنها العابدة الزاهدة وتحارب الشيوعية باسم الإيمان بالله واليوم الآخر ؟

وبعد ، فقد ذهل ذاك الكاتب الأثيم انه يكشف عن ضلاله وخيائنه ، وهو يدافع بمنطقه المفضوح عن شهوة الولايات المتحدة وشقوتها ، ويعتذر عنها بما هو أقيح من ذنبها .

(بل هي فتنة) المراد بالفتنة هنا النعمة ، والمعنى ان الله سبحانه ينعم على العبد من فضله ليلوه أيشكر أم يكفر ؟ فإن شكر زاده الله نعمة في الدنيا وأجرأ في الآخرة ، وان كفر فإن جهنم أعدت للكافرين (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) ان الله يختبر عباده لتظهر الأفعال التي يستحقون بها الثواب والعقاب .

(قد قالوا الذين من قبلهم فإغنى عنهم ما كانوا يكسبون) . ضمير قالها يعود إلى مقالة القائل : « أوتيته على علم » والمعنى ان لهذا القائل الجهول أمثالا في التاريخ ، ولكن المال لم يرد عنهم غضب الله ونقمته ، ولم يدفع عنهم العذاب الموعود حين نزوله بهم . أنظر تفسير الآية ٧٨ وما بعدها من سورة القصص .

(فأصابهم سيئات ما كسبوا والذين ظلموا من هؤلاء - أي الذين كذبوا محمداً - سيصيبهم سيئات ما كسبوا) . من يعمل سوءاً يُجْزَ به ولا يجحد من دون الله ولياً ولا نصيراً ، وهذا الحكم ثابت في حق الجميع لا يقبل الاستثناء والتخصيص بالأثم السابقة أو اللاحقة ، سنة الله في خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلاً (وما هم بمعجزين) . وهل يُعجز المخلوق خالقه ؟ .

(أو لم يعلموا ان الله ييسر الرزق لمن يشاء ويقدر ان في ذلك لآيات لقوم يؤمنون) . تقدم مثله في الآية ٢٦ من سورة الرعد و ٣٠ من سورة الإسراء و ٨٢ من سورة القصص و ٦٢ من سورة العنكبوت و ٣٧ من سورة السجدة و ٣٦ و ٣٩ من سورة سبأ . وتكلمنا عن هذا الموضوع مفصلاً في المجلد الثالث ص ٩٤ فقرة « الرزق وفساد الأوضاع » ، وص ١٣١ فقرة « هل الرزق صدقة أو قدر » ، وفي المجلد الرابع ص ٤٠١ فقرة « الانسان والرزق » ، وعند تفسير الآية ٦٠ من سورة العنكبوت فقرة « الرزق والثقة بالمخلوق دون الخالق » .

ان الله يغفر الذنوب جميعاً الآية ٥٣ - ٥٩ :

قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلُمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ * وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بِغَتَّةٍ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ * أَنْ تَقُولَ نَفْسُ يَا حَسْرَتِي عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لِمِنَ السَّائِرِينَ * أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ * أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ * بَلَى قَدْ جَاءَ تِلْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ *

اللغة :

أسرفوا تجاوزوا الحد . لا تقنطوا لا تيأسوا . أنيبوا ارجعوا . أسلموا له أخلصوا له . فرطت أهملت وقصرت . في جنب الله في حقه وطاعته . وكرة رجعة .

الإعراب :

جميعاً حال من الذنوب . وبغته مصدر في موضع الحال من العذاب أي باغتها . والمصدر مسن أن تقول نفس مفعول من أجلسه لاتبعوا . يا حسرتنا الأصل يا حسرتي ثم قلبت الباء ألفاً ، وان كنت « ان » مخففة من الثقيلة واسمها محذوف

أي واني كنت والسلام في « من » هي الفارقة بين ان النافية والمخففة . فأكون مضارع منصوب بأن مضمره في جواب لو التي تفيد التمني . وبلى واقعة في جواب لو ان الله هداني لأن لو تتضمن معنى النفي .

المعنى :

(قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعاً انه هو الغفور الرحيم). هذه دعوة صريحة من الله للذين جاروا على أنفسهم بارتكاب الذنوب والمعاصي ، دعوة منه تعالى الى التوبة ، ووعد بالعتق والصفح عن كل ذنب مهما كبر وعظم ، وهذا ترك سبحانه الباب مفتوحاً أمام من يريد أن يكفّر عن سيئاته ، ويصلح ما أفسد من نفسه ، وفي الحديث : ان الله لا يمل حتى تمّلوا ، فإذا تركتم تركي، أي إذا تركتم التوبة ترك المغفرة . وفيه أيضاً ان رسول الله (ص) قال : ما أحب ان لي الدنيا بما فيها بهذه الآية . واشتهر انها أرجى آية في القرآن، ومن الذنوب الكبار أن يئس الانسان من رحمة الله « ومن يقطع من رحمة ربه إلا الضالون - ٥٦ الحجر » . وتكلمنا عن ذلك مفصلاً عند تفسير الآية ٤٨ من سورة النساء ج ٢ ص ٣٤٢ ، وأيضاً عقدنا فصلاً خاصاً للتوبة في المجلد المذكور ص ٢٧٥ .

(وأنبيوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون) . اغتنموا الفرصة ولا تضيعوها أي المذنبون ، توبوا اليه تعالى واخلصوا له في الأقوال والأفعال (واتبعوا أحسن ما أنزل اليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون) . لا شيء مما أنزل الله أحسن من شيء بالنسبة اليه تعالى ، فكل ما قال حسن وعظيم ، أما بالنسبة الى المذنبين فأحسن ما نزل في حقهم هو دعوتهم إلى التوبة ، وقبولها منهم وان عظم الذنب ، وما عدا ذلك وعيد وتهديد . ثم بين سبحانه ان عاقبة من أهمل التوبة من العصاة هي :

١ - (أن تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله) أي في طاعته ، والحسرة من أشد العذاب على النفس ، وبالمخصوص مع عدم المهرب والمخرج .

٢ - (وان كنت لمن الساخرين) . غسداً يقول المذنب ندامة وأسفاً : لم أكتف بمعصية الله وإهمال التوبة حتى سخرت من أهل طاعته والخائفين من عذابه ونقمته .

٣ - (أو تقول لو ان الله هداني لكنت من المتقين) . ونحوه قوله تعالى : « سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا - ١٤٨ الأنعام » ج ٣ ص ٢٧٨ .

٤ - (أو تقول حين ترى العذاب لو ان لي كرامة فأكون من المحسين) . ومثله الآية ١٠٠ من سورة المؤمنون : « قال ربي ارجعون لعلني أعمل صالحاً فيما تركت » ج ٥ ص ٣٨٨ .

(بلى) ليس الأمر كما زعمت وقلت : « لو ان الله هداني » . (قد جاءتك آياتي فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين) . جاءت آيات الله فأنكرها ، وقال ما هي من عند الله ، واستكبر عن الإيمان ، وكفر بالله والرسول ، ثم كذب وقال : ما جاءني من الله شيء على لسان نبيه ، فجمع بين مساوئ الكفر والكذب والاستكبار ، ولو بادر الفرصة إلى التوبة لكان في غنى عن ذلك وراحة من عذاب الخزي والهون .

الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة الآية ٦٠ - ٦٧ :

وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ * وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمِثَاقَاتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ * لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ * قُلْ أَغْفِرَ اللَّهُ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ * وَلَقَدْ أَوْحَى إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَكَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ

وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ * بَلِ اللَّهِ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ * وَمَا
قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ
مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ *

اللغة :

المثوى المقام . والمفازة المنجاة . ومقاليد جمع مقلد ومقلاد ، والمراد به هنا
المفتاح . ويمينه بقدرة تعالى .

الإعراب :

ترى هنا بصرية لا قلبية ولها مفعول واحد وهو الذين كذبوا . ووجوههم
مسودة مبتدأ وخبر والجملة حوال من الذين كذبوا . وجملة لا يمسه حال من
الذين انقوا . وغير الله مفعول اعبد ، وجملة تأمروني معترضة ، وتقدير الكلام
أفغير الله أعبد تأمروني . بل الله فاعبد « الله » مفعول مقدم . وحق قدره مفعول
مطلق . وجميعاً حال من الأرض ، واختلف النحاة في العامل بالحال ، والذي
نراه ان هذه الحال لا تحتاج الى عامل لأنها حال لإعراباً وتأكيده واقعاً ، والمعنى
الأرض كلها . وقبضته خبر للأرض . والسماوات مطويات مبتدأ وخبر ، ويمينه
متعلق بمطويات .

المعنى :

(ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة أليس في جهنم مثوى
للمتكبرين) . كل من نسب الى الله ما ليس له به علم فقد كذب على الله سواء
أكان المنسوب اليه تعالى شريكاً وصاحبة وولداً ، أم حلالاً وحراماً ، أم منصفاً

إلهياً كمن يتحلل النبوة أو الخلافة أو القضاء أو الإفتاء باسم دين الله وشريعته .. وسئل الإمام أبو جعفر الصادق (ع) عن معنى الآية ؟ فقال : « كل من انتحل إمامة ليست من الله فقد كذب عليه . قال السائل : وان كان علوياً . قال الإمام : وان كان علوياً . قال السائل : وان كان فاطمياً . قال الامام : وان كان فاطمياً . وجزاء من كذب على الله ورسوله أن يحترق أسود الوجه في زمرة من أعد الله لهم جهنم وساءت مصيراً . وقوله تعالى : « للمتكبرين » بعد قوله : الذين كذبوا على الله يومئذ الى ان كل من كذب على الله فهو متكبر ومكابر أيضاً .

(وينجي الله الذين اتقوا بمغازتهم لا بمعصم سوء ولا هم يحزنون) . بمغازتهم أي بسبب فوزهم . بعد أن هدد سبحانه الكاذبين بنار جهنم بشر أهل الصدق والتقوى بالنجاة من كل سوء ، وفوق ذلك أنهم لا يستشعرون الحزن والندامة على شيء فاتهم في الحياة الدنيا (الله خالق كل شيء) . كل ما في الوجود من انسان وحيوان ونبات وجهاد يدل عليه تعالى دلالة الصورة الفنية على مصورها ، والبنابة العظيمة على عظمة بانيها (وهو على كل شيء وكيل) أي قائم عليه لأن كل شيء وجد بقدرة الله ، ويبقى بعناية الله إلى ما شاء الله ، ولو تخلى عنه لصار هباء .

(له مقاليد السموات والأرض) . المراد بالمقاليد هنا المفاتيح ، وهي كناية عن تدبيره تعالى للكون وعلمه بكل ما يجري فيه من الذرة إلى أعظم الكواكب : « وعنده مفاتيح الغيب - ٥٩ الأنعام » .

(والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسرون) . المراد بآيات الله الكون ونظامه العجيب الذي لو حاد عنه قيد شعرة لآل إلى الخراب والدمار ، ومعنى الكفر بآيات الله عدم الاعتراف بدلالة هذا النظام على المنظم ، وهذه الهندسة على المهندس . وقد خسروا المكذبون هذه الدلالة عقولهم في الدنيا لأنها عمت عن المحسوس ، وأيضاً خسروا أنفسهم في الآخرة لأنهم اختاروا لها الكفر والمناد .. وجهنم مثوى ومأوى لكل كفار عنيد .

(قل أغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون) . جاء في بعض الروايات : ان المشركين قالوا لرسول الله (ص) : تعطيك من المال ما تكون به أغنى رجل

في مكة ، ونزولك من نساكنا ما تريد شريطة أن تكف عن دعوتك، فترلت هذه الآية ، وسواء أصحت الرواية أم لم تصح فإنها أوضح تفسير للآية . ومن المفيد أن نقتطف الجمل التالية من مقال للمرحوم مصطفى صادق الرافعي بعنوان «الدرهم والدينار» :

« رأيت فقهاء يعظون ويتكلمون على الناس في الحلال والحرام .. وتسخر منهم الحقيقة بذات الأسلوب الذي تسخر به من لص يعظ لصاً آخر ، ويقول له : لا تسرق ، .. وأيضاً ينطبق هذا على كثير من الصحفيين والسياسيين وغيرهم من الأحزاب التي تحمل شعارات وطنية وإنسانية .. ثم قال الرافعي : « من يعظم الدرهم والدينار فلانما يعظم النفاق والطمع والكذب .. ان هيئة الاسلام في بدل الحياة لا في الحرص عليها ، وفي تعاون المؤمنين لا في تعاديبهم ، أما الغنى فإنه يقاس بما يعمل بالمال لا بما يجمع منه » .

(ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين) . المراد بالإحباط عدم الثواب . والشرك محال على الأنبياء ، ولكن فرض المحال ليس محالاً ، هذا الى أن التحذير من الفعل لا يدل على أنه محتمل الوقوع ممن حذّر وأنذر ، والمعنى ان الله لا يقبل العبادة من أحد إلا إذا كانت خالصة لوجهه الكريم من كل شائبة ، ومن عبد مع الله إلهاً آخر فلا يستحق الثواب على عبادته حتى ولو كان كالنبي في عبادته . وتكلمنا عن الإحباط مفصلاً في ج ١ ص ٣٢٦ .

(بل الله فاعبد وكن من الشاكرين) . هذا أمر في الظاهر ، وإخبار في الواقع عن ان الرسول الأعظم (ص) لا يعبد إلا الله ، ولا يشكر أحداً سواه ، وإنما جاء بصيغة الأمر للتنبيه على ان العبادة والشكر يجب أن يكونا لله الواحد الأحد .. هذا ، الى ان الله سبحانه كثيراً ما يخاطب العموم بشخص نبيه الكريم : « وان أقم وجهك للدين حنيفاً .. فاستقم كما أمرت .. وأقم الصلاة طرفي النهار نخ » .

(وما قدروا الله حق قدره) لأنهم كفروا به ، وآمنوا بالأصنام وبالدرهم والدينار (والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه) . هذا

كتابة عن عظمة الله وقدرته وان السموات والأرض وما فيهن وبينهن خاضعات
لأمره مدعئات (سبحانه وتعالى عما يشركون) . تنزه سبحانه عن الشريك ، وعن
مقالة من قال : ان له بدأً وبمياً ، وعن كل شبه يتوهمه الواصفون الجاهلون .

وسيق الذين كفروا الآية ٦٨ - ٧٢ :

وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ
شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ * وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ
بِنُورٍ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ
بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ * وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا
يَفْعَلُونَ * وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ ذُرُوعًا حَتَّىٰ إِذَا جَاؤُوهَا فَُفِتْحَتْ
أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ
رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ
الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ * قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ
مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ *

اللمة :

الصور القرن يُنفخ فيه . وبنور ربها ببدله تعالى . ووضع الكتاب أي كتاب
أعمال العباد . والسوق الحث على السير . وزمر جمع زمرة وهي الجماعة . والمثوى
المقام .

الإعراب :

زمرأ حال من الذين كفروا . وخالدين حال من واو ادخلوا .

المعنى :

(ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض الا من شاء الله).
النفخ في الصور كناية عن الصيحة ، قال تعالى : « يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج - ٤٢ ق » . وفي بعض التفسير ان هذه الصيحة أو هذا النفخ يتكرر ثلاث مرات : الأولى نفخة الفزع التي ذكرت في الآية ٨٧ من سورة النمل : « ويوم ينفخ في الصور ففزع من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله » وهم المتقون الذين سبقت لهم من الله الحسنى .

النفخة الثانية نفخة الموت ، واليها أشار سبحانه بقوله : « ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله » أي ان أهل الأرض يموتون وأهل السماء لا يبقون إلا من استثناه سبحانه بقوله : « إلا من شاء الله » واختلف المفسرون في المستثنى من هو ؟ فقيل : هو جبريل ومعه اسرافيل . وقال آخر : المراد به الشهداء . وقال ثالث : هو الله - نستخفزه ونتوب اليه - وغير بعيد أن لا يكون هذا استثناء حقيقياً بل لمجرد البيان ان الأمر لله وحده وان « كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام - ٢٦ الرحمن » .

النفخة الثالثة للبعث ، واليها أشار تعالى بقوله : (ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون) أي ينتظرون حكم الله فيهم . وفي نهج البلاغة : وينفخ في الصور فتهزق كل مهجة، وتبكم كل لهجة، ولا شفيع يشفع، ولا حميم يدفع، ولا معللة تنفع. (وأشرقت الأرض بنور ربها) . المراد بالأرض هنا أرض المحشر ، وهي مشرقة بنور الله تعالى لأنها طاهرة مطهرة من شتى أنواع الضلال والفساد .. ولا شيء فيها إلا الحق والعدل (ووضع الكتاب) أي صحائف الأعمال : « ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً - ١٣ الإسراء » . وقال الملا صدرا في كتاب الأسفار : « من فعل فعلاً أو قال قولاً ظهر أثره في نفسه وقلبه - ثم قال -

وهذا الأثر الحاصل في القلب والروح هو بمتزلة النقش والكتابة الحاصلة في الكتب والألواح ، وتلك القلوب والأرواح التي فيها آثار الأفعال والأقوال يقال لها في لسان الشريعة صحائف الأعمال .

(وحيء بالنيبين والشهداء وقضي بينهم بالحق وهم لا يظلمون ووفيت كل نفس ما عملت وهو أعلم بما يفعلون) . المراد بالشهداء هنا النواب عن الأنبياء في تبليغ رسالتهم وستتهم الى الناس ، والمعنى أن الله يحشر العباد غداً لنقاش الحساب ، ويأتي بالنيبين ، فيشهدون على نوابهم أنهم قد أخذوا عليهم أن يعلموا ويلفوا الناس ، ثم يشهد هؤلاء النواب على الناس أنهم علموهم وبلغوهم على أكمل وجه ، وبعد قيام الحجة على النواب بشهادة الأنبياء ، وعلى الناس بشهادة النواب يحكم الله بالعدل بين الجميع لا يتقص من ثواب من أطاع ، ولا يزيد في عقاب من عصى ، وهو أعلم بهما من أنفسها ومن النيبين والشهداء ، وانما دعاهم للشهادة لإلزام الحجة وقطع المذعة . انظر تفسير الآية ١٤٣ من سورة البقرة ج ١ ص ٢٢٥ .

(وسيق الذين كفروا الى جهنم زمراً حتى إذا جاؤوها فتحت أبوابها) . ذكر سبحانه في كتابه ألواناً من عذاب المجرمين ، منها الذل والهوان ، ومنها العمى وسواد الوجوه ، ومنها الأغلال والأصفاد وسرايل القطران وطعام الزقوم وشراب الحميم ، ومنها أن تسوقهم بعنف ملائكة العذاب فوجاً بعد فوج ليكونوا لجهنم حطباً ، وانما معهم على ميعاد ، ولذا يجدونها مفتحة الأبواب (وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا) ؟ القصد من هذا السؤال التقرع والتوبيخ : وانهم هم الذين اختاروا لأنفسهم سوء المصير .

(قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين) . ومثله : « وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير - ١١ الملك » . (قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين) على الحق والخارجين على العدل ، ولو لم يكن من دليل على جهنم إلا أنها أعدت للمتكبرين والطاغين وأهل الفساد والضلال - لو لم يكن إلا هذا الدليل لكفى ، قال تعالى : « ان المنافقين في الدرك الأسفل من النار - ١٤٥

النساء ، وقال : « ان جهنم كانت مرصداً للطاغين مآباً لابثنين فيها أحقاباً - ٢٣
النبا ، . وقلنا فيها سبق لو لم يكن لله محكمة في اليوم الآخر تقتص من الظالم
المظلوم لكان المقتول ظلماً أسوأ حالاً من قاتله . انظر تفسير الآية ٤ من سورة
يونس ج ٤ ص ١٣٢ فقرة الحساب والجزاء حم . »

وسيق الذين اتقوا الآية ٧٣ - ٧٥ :

وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ
أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طُبِّئْتُمْ فَأَدْخُلُوهَا خَالِدِينَ * وَقَالُوا
الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ
نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ * وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ
يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمُ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ *

اللفظة :

زمرأ جماعات . وحافين محدقين به دائرين حوله .

الإعراب :

زمرأ حال . وجواب إذا مخدوف أي إذا جاءوها اطمأنوا . وفتحت الواو
للحال أي وقد فتحت . وسلام عليكم مبتدأ وخبر والجملة مفعول قال . وخالدين
حال . والملائكة مفعول ترى البصرية . وحافين حال من الملائكة .

المعنى :

(وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرأ حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها

الجزء الرابع والعشرون

وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتُم فادخلوها خالدين) . المجرمون إلى جهنم ، وملائكة العذاب يسوقونهم إليها عتفاً ، ويسومونهم خسفاً ، والمتقون إلى الجنة يحف بهم ملائكة الرحمة تعظيماً ، ويحبونهم تكريماً (وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض ننبأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين) . ضمير قالوا يعود إلى المؤمنين ، والمراد بالأرض هنا أرض الجنة ، وانهم يتصرفون فيها تصرف الوارث فيها ورثه .. وكانوا قد عملوا للجنة في الدنيا ثقة وإيماناً بما وعد الله به المتقين والصابرين ، فلما رأوها فرحوا وحمدوا الله حمد العارفين بأن وعده حق وصدق . وفي نهج البلاغة : حفت الملائكة بأهل الجنة ، وتزلت عليهم السكينة ، وفتحت لهم أبواب السماء، وأعدت مقامات الكرامات في مقام اطلع الله عليهم فيه فرضي سعيهم وحمد مقامهم .

(وتري الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم) . عند تفسير الآية ٥٤ من سورة الأعراف ج ٣ ص ٣٣٩ بينا ان المراد من العرش - بشهادة القرآن - ان الأمر كله لله ، والمعنى المراد هنا ان الملائكة لا يصعدون إلا عن أمر الله ، كما جاء وصفهم في الآية ٢٦ من سورة الأنبياء : « بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وبأمره يعملون » . (وقضي بينهم بالحق) ضمير بينهم يعود إلى أهل الجنة والنار ، وبالحق أي لا يزيد في عقاب من عصي ، ولا ينقص من ثواب من أطاع . وفي بعض التفسير : ان الله قال في ابتداء الخلق : الحمد لله الذي خلق السموات والأرض ، وبعد فناء الخلق ثم بعثهم واستقرار أهل الجنة في الجنة ، قال : الحمد لله رب العالمين، ليعلم عباده الأخذ بأدبه في ابتداء كل أمر بالحمد والخم به .

سُورَةُ غَافِرٍ

٨٥ آية مكية ، وقيل : ما عدا آيتين ، ونسب أيضاً المؤمن .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

غافر الذنب وقابل التوب الآية ١ - ٦ :

حم * تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ
التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهُ الْمَصِيرِ * مَا
يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرُكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ *
كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ
بِرُسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَيَجَادِلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتَهُمْ
فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ * وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا
أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ *

اللغة :

التوب والتوبة كلاهما مصدر تاب . وذو الطول ذي الفضل . وتقلبهم في
البلاد تصرفهم فيها بالدهاب والإياب للتجارة ونحوها . ليدحضوا ليبطلوا . وحقت
وجبت .

الإعراب :

تنزيل خبر لمبتدأ محذوف أي هذا تنزيل . والعزير وما بعده صفات لله تعالى .
والمصدر من ليأخذوه متعلق بهمت . ومن ليدحضوا بجادلوا . ومن أنهم أصحاب
النار بدل من كلمة ، ويجوز جره بلام محذوفة أي لأنهم من أصحاب النار .

المعنى :

(حم) تقدم الكلام على مثله في أول سورة البقرة (تنزيل الكتاب من الله)
لأنه ميزان الحق والعدل ، ونور يهدي من ظلمة الضلال والجهل (العزيز العليم
غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول) . كل وصف من هذه الصفات
له صلة وتأثير في الكون والانسان ومصيره ، فخلق الكون لا بد له من علم الخالق
وقدرته ، ومن هنا جاء الوصف بالعزيز العليم ، والعزير هو القادر الغالب ..
والذنب والتوبة من فعل الانسان ، أما قبول هذه والغفران عن ذلك فمن الله ،
وهو سبحانه يغفر بالتوبة أو بطاعة جلتي تمحو الذنب لأن الحسنات يُذهبن السيئات
وأيضاً هو شديد العقاب لمن أصر على التمرّد والعصيان ، وهو صاحب الفضل لأنه
يُعطي من سأله ومن لم يسأله ، وبضعاف لمن أحسن اضعافاً كثيرة .

(لا إله إلا هو) تفرد بوصف التوحيد وعلم الغيب ، والقدرة على كل
شيء .. وجميع المذنبين في فاقة إلى عفوه ورحمته (إليه المصير) لا مفر من لقاءه
وحسابه وجزائه ، وطوبى لمن لا يرى مستحقاً لهذه الصفات إلا الله ولا يخاف
أحدًا سواه .

(ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا) بالحق والعدل ، ولا يؤمنون إلا
بأهوائهم ومصالحهم ، ومع هذا يتحلون لأنفسهم الأعذار، ويدّعون أنهم المحقّقون،
فيجادلون في القرآن ، ويقولون : انه أساطير ، وان التوحيد تضليل ، والبعث
حديث خرافة .. ودليلهم الأول والأخير تقاليد الآباء ووحى المصالحح والأهواء
(فلا يفرّك - يا محمد - تقلبهم في البلاد) للتجارة وذهابهم إلى الشام في رحلة
الصيف ، ولا إلى اليمن في رحلة الشتاء ، لا يفرّك هذا وما إليه فإن نهايتهم

الويل والثبور : وانما نخلي لهم ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مهين - ١٧٨ آل عمران ، ج ٢ ص ٢٠٨ .

(كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق) . المراد بالأحزاب هنا كل قوم تحزبوا ضد الحق وأهله ، والمعنى ان معركتك يا محمد مع المشركين ليست معركة شخصية ، وانما هي صراع بين الحق والباطل ، والكفر والإيمان ، سنة الله في السلف والخلف ، فقد كذبت الأمم الأنبياء والمصلحين ، وجادلتهم بالجهل والعناد ، وحاولت كل أمة أن تقتل نبيها ومنذرها ، تماماً كما تأمرت قريش على قتلك ، وأنت نائم في فراشك . أنظر ج ٣ ص ٤٧٢ .

(فأخذتهم فكيف كان عقاب) ؟ كان شديداً ومدمراً (وكذلك حققت كلمة ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار) . هذا تحذير وإنذار لقريش إن أصروا على الكفر والفساد أن يصيبهم ما أصاب قوم نوح وعاد وثمود .. وتخويف من لا يخاف الله لا يجدي نفعاً إلا قيام الحجة وقطع المعصرة .

الذين يحملون العرش الآية ٧ - ١٠ :

الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ * رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادُونَ لِمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ *

الإعراب :

ومن حوله عطف على الذين يحملون . رحمة وعلماً تمييز محول عن فاعل أي وسعت رحمته وعلمه . ومن صلح « من » مفعول لفعل محذوف أي وادخل من صلح . واللام في لمقت في جواب قسم محذوف أي والله لمقت . وأنفسكم مفعول مقسم . وإذ في محل نصب بفعل محذوف أي مقسم الله إذ تدعون .

المعنى :

(الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به) . عند تفسير قوله تعالى : « ثم استوى على العرش - ٥٤ الأعراف » قلنا : ان المراد بالعرش الملك والاستيلاء والتدبير ، وعند تفسير : « وترى الملائكة حافين من حول العرش - ٧٥ الزمر » قلنا هذا كناية عن ان الملائكة لا يسبقون الله بالقول وبأمره يعملون ، ونحن على ثقة ان اللفظ - بقرينة السياق - يتحمل هذا التفسير ، أما سياق الآية التي نحن بصددنا والآية ١٧ من سورة الحاقة : « ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية » أما سياق هاتين الآيتين فيحتم علينا أن نبحث للعرش عن معنى آخر لمكان يحمل ويحملون مع العلم بأن حمل الملائكة لعرشه تعالى لا يستدعي ان يكون جالساً عليه ، وإلا كان جسماً يفتقر إلى حيز ، والله غني عن كل شيء .. هذا ، إلى ان جلوسه تعالى على العرش معناه انه في مكان دون مكان . ونسأل : إذا لم يكن الله جالساً على العرش فلماذا نُسب إليه في قوله : « عرش ربك » ؟

الجواب : ان مسألة النسبة سهلة جداً حيث تصح لأدنى ملابس كما هي الحال في تسمية الشوارع بأسماء أشخاص لا يعرفون عنها شيئاً ، فكيف بخالق الكون ؟ وكل المعابد في شرق الأرض وغربها فضلاً عن الكعبة المشرفة - تنسب إليه تعالى ، ويقال لها بيوت الله ، فهل معنى هذا انه يقيم فيها ؟ وعليه من الجائز أن يكون سبحانه خلق في السماء عرشاً يحمله ثمانية من الكائنات الساوية ، وقد أمر سائر الملائكة أن تطوف من حوله تماماً كما أمر خليله ابراهيم أن يبني البيت العتيق وأوجب

زيارته والطواف من حوله على من استطاع اليه سبيلاً .

ومها يكن فإن الملائكة يؤمنون بالله ، ويسبحون بحمده (ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم) . للمؤمنين المخلصين ألوان من الثواب عند الله ، منها جنة تجري من تحتها الأنهار ، ومنها أنهم رفقاء النبيين والصديقين ، ومنها ان ملائكة السماء تنفي عليهم أحسن الثناء ، وتدعو الله لهم بعلو الدرجات عنده ، والوقاية من غضبه وعذابه .

(ربنا وادخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم انك أنت العزيز الحكيم) . دعا الملائكة الله سبحانه أن يجمع غداً في جناته بين أفراد الأسرة المؤمنة تماماً كما كانوا في الدنيا ليزدادوا سروراً على سرور .. وقوله : « ومن صلح » يشير إلى انقطاع الصلة بين المؤمن والكافر حتى ولو كان أحدهما أباً للآخر : « فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم - ١٠١ المؤمنون » . « الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين - ٦٧ الزخرف » .

(وقهم السينات ومن تق السينات يومئذ فقد رحمته وذلك هو الفوز العظيم) . ادفع عنهم يوم القيامة كل سوء .. وما من شك ان من نال هذه المنزلة عند الله فقد فاز بفضل ورحمة (ان الذين كفروا يتادون لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون) . يمقت أهل النار، وهم فيها، يعمقون أنفسهم ويزرون عليها حيث أدت بهم إلى هذا المصير ، وكانوا في الدنيا أطوع الناس لها وأكثرهم رضى عنها .. ويأتيهم النداء وهم يلعنون أنفسهم : ان مقت الله لكم في الدنيا على كفركم أشد وأعظم من مقتكم الآن لأنفسهم ، فقد دعاكم سبحانه بلسان رسله إلى الإيمان فأبئتم إلا كفوراً ، فذوقوا وما للظالمين من نصير .

أمتنا التين وأحييتنا التين الآية ١١ - ١٧ :

قَالُوا رَبَّنَا أُمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى

خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ * ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَلَمْ يَشْرِكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ * هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ * فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ * رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ * يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ * لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ * الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ *

الإعراب :

اثنين صفة لمفعول مطلق محذوف أي إمامتين اثنتين وإحياءتين اثنتين . وذلك مبتدأ، وبأنه متعلق بمحذوف خبراً . وحده مصدر في موضع الحال من الله . ومخلصين حال من فاعل فادعوا ، ورفع الدرجات خبر ثانٍ هو الذي يريكم . والمصدر من لينذر متعلق بيلقي . ويوم هم « يوم » بدل من يوم التلاق وهم مبتدأ وبارزون خبر . والمالك فاعل فعلل محذوف أي ثبت الملك . والله متعلق بمحذوف أي ثبت لله . اليوم تجزى اليوم ظرف لتجزى . لا ظلم اليوم ظلم اسم لا واليوم خبرها .

المعنى :

(قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل) . ضمير قالوا يعود إلى أهل النار ، والموتة الأولى قبل خروجهم من

بطون أمهاتهم ، والثانية الموت المهود ، أما حياتهم الأولى فهي حياتهم في الدنيا ، والثانية البعث بعد الموت ، والمعنى ان أهل جهنم يتضرعون الى الله ، وهم في قعرها معذبون ، يتضرعون إليه تعالى ويقولون : إلهنا أنت القادر على كل شيء . أوجدتنا في الدنيا ، ثم أخرجتنا منها بالموت ، ثم بعثتنا بعده ، ونحن الآن بين يديك نادمين معترفين بالخطايا والذنوب، فهل من سبيل إلى منك وكرمك بالخروج من النار ، ولك عهد الطاعة والامثال ؟

(ذلكم بأنه إذا دعي الله وحده كفرتم وان يشرك به تؤمنوا) هذا جواب الله سبحانه على قولهم : « فهل إلى خروج من سبيل » ويتلخص الجواب بأن داعي الله دعاكم الى الحق ، وأنتم في الحياة الدنيا ، فكلبتموه ، ودعاكم داعي الشيطان الى الباطل فأجبتموه .. والآن تدعون فلا تُجابون ، واحدة بواحدة ، وقوله تعالى : (فالحكم لله العلي الكبير) يومئذ الى أنه لا حكم غداً إلا لله وحده فلا عالي ولا كبير إلا هو : « وعنت الوجوه للحي القيوم وقد خاب من حمل ظلماً » - ١١١ طه .

(هو الذي يرسم آياته وينزل لكم من السماء رزقاً وما يتذكر إلا من ينيب) . أرانا سبحانه الكثير من الشواهد على وجوده وعظمته، والدلائل على تدبيره وحكمته . في السماء والأرض ، وفي الانسان والحيوان ، وفي المطر والزرع .. الى ما لا نهاية ، ويدية ان هذه الدلائل والشواهد - على الرغم من كثرتها - لا تظهر إلا لمن أبصر وتدبر ، أما تائه القلب فإنه في عمى عنها ، قال طاغور :

« ان الله أبرز وجوده في قالب حي من صور الخليقة، أبرزه في هذا التنسيق والانسجام بين قوى الطبيعة المتصارعة في وحدة شاملة تخضع جميعها لقانون رتيب لا تحيد عنه ، وفي الوقت نفسه تهدف الى تحقيق غاية بعينها .. ان كل شيء في الطبيعة له وظيفة خاصة ، وعمل معين ، وهدف محدد يسعى إليه ، فالحبة إلا عامل يكذب ليبرز الشجرة الكامنة في أعماقها ، والشجرة بدورها تكذب لتصل الى الزهرة ، والزهرة تجاهد في سبيل الثمرة ، ولا يدرك هذا إلا صاحب القلب السليم » . والمراد بصاحب القلب السليم هو المراد بالذات من قوله تعالى : « وما يتذكر إلا من ينيب » .

(فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره المشركون) . الخطاب للمؤمنين ، والمراد بالدعاء هنا العبادة ، وبالدين الطاعة ، والمعنى اعبدوا الله وحده ، وأطيعوه في أمره ونهيه ، ولا تأخذكم في ذلك لومة لائم ، وقد سهل سبحانه لعباده سبل طاعته ، حيث أرشدهم محذراً ، وكلفهم يسيراً ، وما ترك عذراً لمتمل (رفيع الدرجات) . هذا كناية عن علوه تعالى وعظمته ، وقيل : ان المراد بالدرجات هنا تفاوت العارفين بالله في معرفتهم به قوة وضعفاً ، ابتداء من معرفة الرجل العادي الى معرفة الفلاسفة والأنبياء (ذو العرش) كناية عن الملك والاستيلاء . (يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق) . المراد بالروح هنا الوحي ، ويوم التلاق يوم القيامة حيث يلتقي فيه كل انسان بجزاء عمله ، والمراد بإنذار هذا اليوم الانذار بعذابه ، وجاء التعبير بأنه هو المنذر للإشارة إلى شدة وقعه وهوله ، والمعنى ان الله سبحانه يتزل الوحي على من يشاء من عباده لينذر الناس بأنهم يحشرون بعد الموت في شر يوم على الطغاة العصاة ، ويسألون عما كانوا يعملون (يوم هم بارزون) أي ظهوروا لله على حقيقتهم (لا يخفى على الله منهم شيء) . هذا بيان وتفسير لقوله تعالى : « يوم هم بارزون » . (لمن الملك اليوم) يسألون يوم القيامة ، وهم بارزون لفصل القضاء : لمن الأمر والحكم ؟ فيجيب سبحانه عنهم لأن الجواب متعين واقعاً وحقيقة ، أو هم يجيبونه بلسان الحال والمقال : (لله الواحد القهار) فوق عباده (اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم ان الله سريع الحساب) واضح . وتقدم مثله بالنص في الآية ٥١ من سورة ابراهيم ج ٤ ص ٤٦٠ .

وانذرهم يوم الآزفة الآية ١٨ - ٢٢ :

وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاطِئِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حِمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ * يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ * وَاللَّهُ يَفْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ

السَّمِيعُ الْبَصِيرُ* أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ
الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَاراً فِي الْأَرْضِ
فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ* ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ
كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ
الْعِقَابِ*

اللغة :

الآزفة القرية الدانية لأن يوم القيامة آت ، وكل آت قريب . وكاظمين
محزونين . وحيم صديق . وخاتمة الأعين هي التي تنظر ما لا يحل . وواق حافظ .

الإعراب :

يوم الآزفة مفعول به لأنلرهم . وإذ القلوب بدل من الآزفة . وكاظمين حال
من القلوب . وما للظالمين خبر مقدم . ومن حيم ومنه زائدة إعراباً وحيم مبتدأ ،
وجملة يطاع صفة لشفيح . هم ضمير فصل . وأشد خبر كانوا . وقوة تمييز .

المعنى :

(وأنلرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حيم
ولا شفيح يطاع) . الخطاب في أنلرهم لرسول الله (ص) . وضمير الغائب
لمشركي العرب ، والمعنى ما عليك يا محمد إلا أن تنذر المشركين عذاب يوم
تنوب فيه القلوب والأبصار هلعاً وجزعاً ، حيث لا صديق يتوجه ، ولا الشفاعة
تنفع .. وهذا اليوم آت لا محالة .

(يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور والله يقضي بالحق) . ما أضمر الانسان شيئاً ، أو نظر اليه بخيانة وريبة إلا وكان الله عليماً بما أضمر وأبصر، وهو يقضي غداً بعلمه وعدله على كل خائن ومجرم قضاء لازماً لا مرد له ولا اعتراض عليه (والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء) . المراد بالذين يدعون الخ .. كل ما عدا الله مما تعبد به الناس صنماً كان أو مالاً أو جاهاً أو غير ذلك .. وبدية انه لا قضاء في الآخرة إلا لله . (ان الله هو السميع البصير) . هذا تعبير ثانٍ عن قوله تعالى : « وان الله قد أحاط بكل شيء علماً » - ١٢ الطلاق .

(أو لم يسبوا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثاراً في الأرض فأخضعهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق) . هذا تحذير من الله للمجرمين أن يكون مصيرهم مصير الذين من قبلهم ، فقد كانوا أكثر منهم مالاً وعدداً ، ولما نزل بهم العذاب لم يجدوا ولياً ولا نصيراً . وتقدم مثله في الآية ١٠٩ من سورة يوسف و ٤٦ من سورة الحج و ٩ من سورة الروم و ٤٤ من سورة فاطر .

(ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخضعهم الله انه قوي شديد العقاب) . تقدم مراراً ان عاقبة الذين كذبوا بالرسول الخراب والدمار . ولا فرق غداً في حكم الله وقضائه بين من كفر بالنبين وبين من آمن بهم وخالف تعاليمهم وأطفاً سنتهم وان عوملوا في الحياة الدنيا معاملة المسلمين .

موسى الآية ٢٣ - ٢٩ :

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ * إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ * فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ * وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ

دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ * وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي
وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ يَوْمَ الْحِسَابِ * وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ
مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ
جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا
يُصِيبْكُمْ بِغَضِ الَّذِي يُعَذِّبُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ *
يَا قَوْمِ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ
بِأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ
إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ *

اللغة :

سلطان مبین حجة واضحة . وهامان وزير فرعون . وقارون أغنى الأغنياء في
زمانه . وعذت لذت وتحصنت . والمسرِف هنا من تجاوز الحد في معاصي الله .
وظاهرين غالِبين . وما أُرِيكم إلا ما أرى : ما أشير عليكم إلا بما أراه حقاً وصواباً .

الإعراب :

وليدع اللام للأمر . والمصدر من أن يبدل مفعول أخاف ، ومن أن يظهر
معطوف على ان يبدل . ما أُرِيكم « ما » نافية . وإلا ما أرى « ما » اسم موصول
مفعولاً ثانياً لأُرِيكم .

المعنى :

تقدم الكلام عن موسى مرات ومرات ، وكنا نشير عند الآية اللاحقة الى الآية

السابقة واسم السورة ورقم الآية ، والآن عاد الحديث الى قصة موسى ، وسيأتي أيضاً .. وعند تفسير الآية ٩ من سورة طه ج ٥ ص ٢٠٦ فقرة ١ تكرار قصة موسى ، يتنا السبب الموجب لهذا التكرار ، والآن نعطف على ما بيناه هناك انه من غير البعيد ان كل آية ، وان تكررت ، فإنها تلقي أضواءً جديدة قد خفيت علينا لأننا لم نتصدّ للبحث عنها ، أو لأننا لا نملك الموهبة التي تؤهلنا لادراكها ، ومهما يكن فإن الجديد في هذه الآيات التي نحن الآن بصدها والتي بعدها هو الحديث عن مؤمن آل فرعون .

(ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين الى فرعون وهامان وقارون) . هامان وزير فرعون ، وقارون أغنى رجل في عصره ، وقيل : انه كان وزير المالبة عند فرعون .. والله سبحانه أرسل موسى لأهل زمانه كافة ، وخص بالذكر هؤلاء الثلاثة لأنهم أصل الفساد ومصدر الضلال ، ولو آمنوا لآمن الجميع (فقالوا ساحر كذاب) تماماً كما قال الذين من قبلهم ومن بعدهم لمن جاءهم بالآيات والبيّنات . (فلما جاءهم بالحق من عندنا قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحبوا نساءهم) . أمر بقتل الذكور خوفاً منهم ، وابقاء الاناث للخدمة .. وتساءل : لقد أصدر فرعون هذا الأمر من قبل أن يأتي موسى ، فما هو القصد من هذا التكرار ؟ .

وأجاب بعض المفسرين بأن فرعون كان قد أمسك عن قتل الولدان بعد ولادة موسى ، فلما بعث الله موسى رسولاً عاد فرعون إلى ما كان .. وهذا يحتاج إلى اثبات . وغير بعيد أن يكون الأمر الثاني بالقتل استمراراً للاول ، وانه لا يصح العدول عنه بحال .

(وما كيد الكافرين إلا في ضلال) أي « ولا يحق المكر السيء إلا بأهله فهل ينظرون إلا سنة الأولين - ٤٣ فاطر » . (وقال فرعون ذروني اقتل موسى وليدع ربه) . بومىء هذا إلى ان بعض رجال فرعون أشاروا عليه أن لا يقتل موسى مخافة أن يثار رب موسى من قتله . قال فرعون : (اني أخاف ان يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد) . فرعون مصلح لأنه يقول : أنا ربكم الأعلى . وما علمت لكم من إله غيري .. وموسى مفسد لأنه يدعو الى تحرير الانسان من

عبادة الانسان .. ولا بدع فهذا هو بالذات منطق الجبابة الطغاة في كل زمان ومكان.
(وقال موسى اني عدت يربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب) .
تعوذ موسى بالله ممن جمع بين التكبر وعدم الخوف من الله وحسابه وعقابه لأن
أرذل الخلق على الإطلاق من جمع بين هاتين الرذيلتين .

(قال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه أتقتلون رجلاً أن يقول ربي
الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم) . ان الحق لا يخلو من ناصر ، ولو بكلمة
الاخلاص يجابه بها أهل الباطل والضلال .. هذا رجل من قوم فرعون آمن بالله
عن صدق ويقين ، ولكنه كتم إيمانه خوفاً على نفسه من القتل ، ولما أراد فرعون
الشرب بموسى دفعت به حرارة الإيمان الخالص الى ان يحذر ويستنكر ولكن بأسلوب
العالم العاقل والناصح المشفق ، وقال فيما قال : ماذا جنى هذا الرجل حتى استحق
منكم القتل ؟ لأنه قال : ربي الله ومعه الحجة القاطعة التي أفحمتكم وأعجزتكم
كاليد البيضاء والعصا التي تلقف ما تأفكون ؟ .

وقال الشيخ المراغي في تفسيره ما نصه بالحرف : « الرجل المؤمن هو ابن
عم فرعون وولي عهده وصاحب شرطته ، وهو الذي نجما مع موسى ، وهو المراد
بقوله تعالى : « وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى - ٢٠ يس » . ويلاحظ
بأنه قد سبق من الشيخ المراغي ان قال وهو يفسر سورة يس : ان هذا الرجل
الذي جاء من أقصى المدينة كان في عهد عيسى تماماً كما قال غيره من المفسرين.
فن الذي أحياء وجاء به إلى زمن عيسى وبينه وبين زمن موسى أكثر من ١٢٠٠
سنة على أقل التقادير التي ذهب اليها المؤرخون ؟ .. ولكن العصمة لأهلها .

(وان بك كاذباً فعليه كذبه) . وما عليكم من تبعته شيء (وان بك صادقاً
يصبكم بعض الذي يعدكم) سواء أقتلتموه أم تركتموه لشأنه . وقال المؤمن «بعض»
الذي يعدكم ولم يقل «كل» لأن البعض كاف واف في الاهلاك (ان الله لا يهدي
من هو مسرف كذاب) . زعمتم انه كاذب ، فدعوه بلاتي من الله جزاء
الكاذبين ، وفيه إيماء الى ان هذا الوصف ينطبق على فرعون ، وانه سيلاتي جزاء
كذبه وإسرافه لا محالة .

(يا قوم لكم الملك اليوم ظاهريسن في الأرض فن ينصرونا من بأس الله ان

جاءنا) . ما زال الخطاب من المؤمن الصالح لقومه آل فرعون ، ومعناه : أنتم الآن في أمن وأمان ، ولكم الملك والغلبة ، وهذه نعمة امتن بها الله عليكم ، فلا تعرضوها للزوال بقتلكم . قال : الله ربي .. ومن الذي ينجيننا من بأسه تعالى إذا جاءنا بياتاً أو نهاراً ؟ .

والخلاصة ان مؤمن آل فرعون دافع عن موسى بالنبي هي أحسن ، وجادل أعداء الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، فبرأ أولاً موسى من الذنب ، ثم أمّن ثانياً أعداءه من خطره وضرره ، ثم ذكرهم ثالثاً بنعمة الله عليهم ، وحذرهم أن يبدلوها كفرآ .. وقد استطاع هذا الأسلوب الحكيم أن يثني الطاغية عن عزمه وتصميمه على قتل موسى حتى (قال فرعون ما أربكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد) . وهذا القول من فرعون يشبه الاعتذار مما كان قد عزم عليه من قتل موسى والفضل في ذلك للمؤمن الناصح ، والمعنى اني ما أشرت بقتل موسى إلا بعد التدبر وإمعان النظر ، وما أردت بذلك إلا خيركم وصلاحكم .

وما الله يريد ظلماً للعباد الآية ٣٠ - ٣٥ :

وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ * مِثْلَ ذَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ * وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ * يَوْمَ تَوَلَّوْنَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنْ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ * وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ * وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ * الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ

كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ *

اللغة :

دأب عادة . ويوم التناد هو يوم القيامة حيث ينادى فيه الناس كما في الآية ٤١ من سورة ق : « يوم ينادي المناد من مكان قريب » . وعاصم مانع . والمراد بالمرتاب الشاك في الحق . والجبار يُطلق على من يُصلح الأمور وعلى الطاغية ، وإذا وُصف به ذو الجلال فمعناه العالي .

الإعراب :

مثل يوم الأحزاب «مثل» صفة لمفعول محذوف أي أخاف عليكم يوماً مثل يوم الأحزاب . ومثل دأب بدل من مثل يوم الأحزاب . ويوم تولون بدل من يوم التناد . ومديرين حال . والذين يجادلون بدل من « من هو مسرف » لأن «من» هنا اسم موصول بمعنى الجمع . وكذلك يطبع أي مثل ذلك الطبع يطبع .

المعنى :

(وقال الذي آمن يا قوم اني أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم) . المراد بالأحزاب الجماعات التي تكاثرت ونحزبت ضد أنبيائها بدليل قوله : « مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود » .. لما قال فرعون : « وما أهديك إلا سبيل الرشاد » قال المؤمن الناصح : وأنا أيضاً ما قلت لكم الذي قلته إلا خوفاً أن يصيبكم ما أصاب الأولين من الهلاك حين كذبوا أنبياءهم (وما الله يريد ظلماً للعباد) ولكن كانوا أنفسهم يظلمون بتكذيب الرسل والتمرد على أمر الله ونهيه .

وبعد أن حلزهم المؤمن عذاب الدنيا حلزهم عذاب الآخرة بقوله : (ويا قوم اني أخاف عليكم يوم التناد) أي عذاب يوم القيامة حيث تسمعون الصيحة بالحق ، فتخرجون من القبور الى الحساب والجزاء (يوم تولون مدبرين) تحاولون الحرب من عذاب الحريق ، ولكن هيهات (ما لكم من الله من عاصم) كيف وهو الغالب على أمره لا يرده شيء ، ولا ينازعه شيء (ومن يضلل الله فلا اله من هاد) أي من يسلك طريق الضلال فإن الله يضلّه ، ولا يجد من يهديه تماماً كمن يشرب السم فإن الله يميته ولا يجد من يحييه أو يشفيه .

(ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم في شك مما جاءكم به) . هذا على حذف مضاف أي جاء آباءكم أيها المصريون ، فشكوا في نبوة يوسف ، فكذلك أنتم شككم في نبوة موسى . وفي قاموس الكتاب المقدس ان يوسف معناه في العبرية يزيد ، وان امه أسمته بهذا الاسم ليزيدها ابناً آخر ، وانه مات وهو ابن ١١٠ سنين (حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا) . ويومئ هذا الى انهم فرحوا بموت يوسف لأنهم تحرروا من التكالييف الإلهية ، وقالوا من غير علم بل يدافع من الشهوات والأهواء : ان الله لن يرسل رسولا بعد يوسف الى يوم يبعثون .

(كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب) في الله والحق .. وأضل الله المسرف المرتاب لأنه خرج من الهدى وارتكس بسوء اختياره في الضلالة والعمى (الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم) . المسراد بالذين يجادلون الخ المسرفون المرتابون ، وآيات الله دلائله على وحدانيته ونبوة أنبيائه، والسلطان الحجة، والمعنى ان المجرمين يردون حجج الله القاطعة بالرجبات والأهواء وتقليد الآباء .

(كبر مقتاً عند الله وعند الذين آمنوا) أن يجادل المجرمون بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير . (كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار) . كسل من التكبر والتعبر هو بالذات سبب من أسباب الختم على القلب ، وانما أسند ذلك اليه تعالى لأنه هو الذي جعل التكبر سبباً لعمى القلب تماماً كما جعل الجهل سبباً للحريرة والبعد عن الحق ، وجعل الدرس والبحث سبباً للعلم والوعي .

لعل أبلغ الأسباب الآية ٣٦ - ٤٠ :

وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ * أَسْبَابَ
السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زَيْنَ فِرْعَوْنَ
سُوهُ عَمَلِهِ وَضَدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كِيدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ * وَقَالَ
الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِيكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ * يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَؤُلَاءِ
الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ * مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً
فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَتَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ
فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ *

اللغة :

الصرح البناء العالي . والأسباب جمع سبب وهو الذي يكون وسيلة إلى غيره.
وتباب خسران وهلاك .

الإعراب :

أسباب السموات بدل من الأسباب . فاطلع بالنصب جواباً للترجي الذي يشبه
الطلب . والحياة الدنيا عطف بيان من هذه . وهي ضمير القصل ، وجملة وهو
مؤمن حال من « من عمل صالحاً » .

المعنى :

(وقال فرعون يا هامان ابن لي صرحاً لعل أبلغ الأسباب أسباب السموات

فاطلع إلى إله موسى وإني لأظنه كاذباً) . طلب فرعون من وزيره هامان أن يبنى له برجاً عالياً يصعد به إلى السماء ليبحث فيها عن الله ، ويتأكد من قول موسى .. طلب هذا ، وهو على يقين انه أعجز وأحقر ، ولكنه أيضاً على يقين ان في مملكته قاصري العقل والوعي يصدقونه فيما يقول ، ولذا موه ودلس ، وليس قوله هذا بأعظم من قوله : أنا ربكم الأعلى .. وما كان ليجرأ على مثله لولا أن يحمّد من يقول له : أجل ، إنك أنت العلي الكبير ! .. ونحن الآن في القرن العشرين وعصر الفضاء والقمر ، ومع هذا وجد الدالاي لاما من يقول له : أنت إله .. ووجد آغا خان من يقول له : أنت نصف إله ، وفي كل قطر كعبة وإمام .

(وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصّد عن السبيل) . أمران يزينان للإنسان سوء أعماله : اتباع الهوى ، والاصرار على الجهل ، وقد زين الهوى لفرعون أن يدّعي الربوبية فادّعاها ، وزين الجهل طاعة فرعون فأطاعوه (وما كيد فرعون إلا في تباب) أي في خسران .. وكسل من حاول أو يحاول أن ينجذع الناس ويمكر بهم ويكيد لهم فهو خاسر وإن كان له ملك فرعون ومال قارون .

(وقال الذي آمن يا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد) . حذر المؤمن الناصح قومه أولاً وثانياً ، وهذه هي المرة الثالثة ، وفيها يرغب إلى قومه أن يقبلوا منه النصيحة لأنه يريد لهم النجاة والخير ، أما غيره فيقودهم إلى الشر والهلاك (يا قوم انما هذه الحياة الدنيا متاع وان الآخرة هي دار القرار) . متاع الحياة الدنيا زائل باند ، ما في ذلك ريب ، أما الحياة الآخرة فباقية دائمة ، فأَي الحياتين أولى بالعمل لها ؟ وفي نهج البلاغة : ما يصنع بالدنيا من خلق للآخرة ؟ وما يصنع بالمال من عما قليل يسلبه ، وتبقى عليه تبعته وحسابه ؟ وفيه أيضاً : مرارة الدنيا حلالة الآخرة ، وحلاوة الآخرة مرارة الدنيا .

(من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها ومن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب) . الله عادل وكريم ، ويتجلى عدله في عقوبة المسيء ، فإنها عند الله تساوي سيئته جزاء وفاقاً . وقد

تنقص العقوبة رأفة منه تعالى ورحمة ، أما المحسن فيضاعف له الجزاء اضعافاً كثيرة وبغير حساب ذكراً كان أو انثى ، وكفى بالجنة ثواباً ونوالاً ، وتدل الآية بوضوح على ان الجنة وقف خاص على من آمن بالله واليوم الآخر إيماناً لا يشوبه ريب ، أما من يفعل الخير لوجه الخير ، وهو كافر بالله واليوم الآخر ، أما هذا فجزاؤه في غير الجنة لأنها محرمة على الكافرين . انظر ج ٢ ص ٢١١ فقرة « الكافر وعمل الخير » . وفي بعض الروايات ان رسول الله (ص) قال : ما أحسن محسن مسلم أو كافر إلا أثابه الله . فقيل يا رسول الله ما إثابة الكافر ؟ قال : المال والولد والصحة وأشبه ذلك . قيل : فما أثابه في الآخرة ؟ قال : يعذب عذاباً دون عذاب .

أدعوكم الى النجاة وتدعونني الى النار الآية ٤١ - ٤٦ :

وَيَا قَوْمِ مَالِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ * تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ * لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ * فَسْتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفَوضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ * فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكْرُوهًا وَحَاقَ بِالِافِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ * النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ *

اللغة :

مردنا مرجعنا . وحق به أحاط ونزل به . غدواً وعشياً صباحاً ومساء .

الإعراب :

جرم اسم لا مبني معها على الفتح ، والمعنى لا محالة ، والمصدر من ان ما تدعوني بجرور بحرف جر محذوف متعلق بمحذوف وهو خبر لا . وهم أصحاب النار وهم ضمير فصل . والنار بدل من سوء العذاب . وأدخلوا ان كان أمراً للملائكة فال فرعون مفعول أدخلوا ، وان كان أمراً لآل فرعون فال فرعون منادى ، وفي الحالين أشد العذاب منصوب بترع الخافض أي في أشد العذاب مثل دخلت الدار أي في الدار .

المعنى :

(وقال يا قوم مالي أدعوكم إلى النجاة وتدعوني إلى النار تدعوني لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لي به علم وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار) . هذا الكلام وما بعده إلى آخره ان الله بصير بالعباد ، يحكيه سبحانه عن المؤمن الناصح ، والمعنى أخبروني أيها المشركون عن حالي معكم : أنا أدعوكم إلى الخير الذي فيه خلاصكم من العذاب والهلاك ، وهو الإيمان بالله العزيز الذي ليس كمثله شيء ، والغفار لمن تاب إليه وأناب ، وأنتم تدعوني إلى عذاب الحريق، إلى الشرك الذي لا يغفره الله ، ولا يقره العقل ، ولا يدين به إلا من ضل عن سواء السبيل .

(لا جرم ان ما تدعوني إليه ليس له دعوة في الدنيا ولا في الآخرة) . ليس من شك ان الذي تدعوني إلى عبادته كفرعون أو غيره لا شأن له ولا فائدة منه في الدنيا ولا في الآخرة : ان تدعوهم لا يسمعو دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم - ١٤ فاطر .. (وان مردنا إلى الله) . كل الخلائق ترجع غداً إلى الله تعالى ، لا إلى فرعون ولا إلى سواء ، ويقفون بين يديه تعالى للحساب والجزاء (وان المسرفين هم أصحاب النار) . نقل الطبري والرازي عن مجاهد ان المراد بالمسرفين هنا سفاكو الدماء بغير حقها .

(فستذكرون ما أقول لكم) من الصدق والنصح حين ترون العذاب وتنزل بكم الأهوال (وأفوض أمري إلى الله ان الله بصير بالعباد). قال محيي الدين بن عربي

في الفتوحات المكية ما توضيحه: ان أفوض هنا مأخوذة من فاض الاناء اذا امتلأ، ولم يتسع للمزيد .. واذا حُمل المؤمن أكثر مما في وسعه رجع في الزائد الفائض الى الله تعالى ، فيتلقي سبحانه الزائد من المؤمن ويخفف عنه ، وهو جل وعز العليم البصير بمن آمن به وتوكل عليه ، ومن يلتجئ في المهات الى غيره .

(فوقاه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب) . اضممر فرعون السوء لموسى والمؤمن الناصح ، فأنجاهما الله من كبده ، وأغرق فرعون وملأه في اليم .. وهكذا يصرف سبحانه السوء عن المخلصين ، وتدور دائرته على رؤوس المجرمين . هذا قبل الموت ، أما بعد الموت فلهم (النار يعرضون عليها غدواً وعشياً) . وفي رواية عن الإمام جعفر الصادق : ان ذلك بعد الموت وقبل يوم القيامة لأن هذا اليوم لا غلو فيه ولا عشي ، ولو عذب المجرمون في الغد والعشي فقط لكانوا بين ذلك من السعداء .

(ويوم تقوم الساعة ادخلوا آل فرعون أشد العذاب) . كل مجرم يقال له يوم القيامة : ادخل جهنم وساءت مصيراً ، سواء أكان من آل فرعون أم من غيرهم : وإنما خص سبحانه آل فرعون بالذكر لأن الحديث عنهم .

يتحاجون في النار الآية ٤٧ - ٥٥ :

وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا قَبْلَ أَنْ تُمْ مَغْنُونًا عَنَّا نَفِيبًا مِنَ النَّارِ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ * وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ * قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ * إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ

الشَّهَادُ * يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ
الدَّارِ * وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْثَقْنَا بِرَبِّهِ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ *
هُدًى وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ * فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ
لِذَنبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعُتَمَى وَالْإِبْكَارِ *

اللغة :

المراد بالضعفاء هنا الأتباع المرؤسون . وبالذين استكبروا الرؤساء المتبوعون .
ومغنون دافعون . ونصيياً قسماً . والأشهاد جمع شاهد ، ويوم الأشهاد هو يوم
القيامة حيث يؤتى بشهود الحق لمن أطاع وعلى من عصى .

الإعراب :

تبعاً خبر كنا وهو مصدر في موضع اسم الفاعل أي تابعين . ونصيياً مفعول
مطلق لـ « مغنون » لأنه بمعنى شيء فيعرب أعرابه، ونحوه قوله تعالى : « فلم تغن عنكم
شيئاً » - ٢٥ التوبة . وكل مبتدأ وفيها خبر . والجملة خبر أنا . ومفعول يخفف
محذوف ويوماً منصوب على الظرفية أي يخفف عنا شيئاً من العذاب في يوم من
الأيام . واسم تلك ضمير مستتر يعود إلى القصة ، وتأنيكم رسلكم تفسير للقصة .
ويوم لا ينفع بدل من يوم الأشهاد . وهدى وذكرى مفعول من أجله لأورثنا أي
أورثناهم الكتاب لأجل الهداية والتذكير ، أو هما مصدران في موضع الحال من
الكتاب أي هادياً ومذكراً .

المعنى :

تقدمت هذه الآيات باللفظ أو بالمعنى ، لذا نفسرها تفسيراً سريعاً ، ونشير إلى
سورة الآية ورقها .

(وإذ يتحاجون في النار فيقول الضعفاء - أي التابعون - للذين استكبروا - أي المتبوعون - انا كنا لكم تبعاً فهل أنتم مغنون عنا نصيباً من النار) ؟
الانسان في الآخرة مع من أحب في الدنيا وأطاع ، فمن تبع الهداة في هذه الدار فهو معهم في نعم الجنان ، ويشكرهم على هدايته الى سبيل السلامة والنجاة ، أما من أسلس قياده للطفاة فإنه يلعنهم غداً ، ويقول لهم : أنتم السبب في شقائي ، فهل تخففون عني بعض ما أقاسيه من العذاب ؟ . وتقدم مثله في الآية ٢١ من سورة ابراهيم ج ٤ ص ٤٣٤ .

(قال الذين استكبروا إنا كل فيها ان الله قد حكم بين العباد) . ويجب المتبوعون من سمع لهم وأطاع : لا جدال اليوم ولا كلام ، فقد حكم الله على كل نفس بما كسبت ، وقضى علينا وعلى من اتبعنا بعذاب الجحيم (وقال الذين في النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوماً من العذاب) . قاسوا عذاب جهنم على سجن الدنيا، حيث يسمح للمسجونين فيه أن يستريحوا ساعة خارج السجن ، ومن ثم طلبوا ان يعاملوا في النار كما يعامل المسجون في الدنيا .

(قالوا أولم تك تأتيكم رسلكم بالبينات قالوا بلى قالوا فادعوا وما دعاء الكافرين إلا في ضلال) . أجابهم الخزنة : ان الله قد أعذر اليكم على لسان رسله باعترافيكم ، اذن ، فلا لوم اذا لم يستجب لدعائكم ، ولوموا أنفسكم ان كنتم تعقلون . وتقدم مثله في الآية ٧١ من سورة الزمر، وبصورة أوسع في الآية ٥٠ من سورة الأعراف ج ٣ ص ٣٣٥ .

(انا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الاشهاد) . يوم الاشهاد هو يوم القيامة حيث يشهد على المجرمين الكرام الكاتيون والعلماء المبلّغون وأعضاء المجرم وجوارحه : ه حتى اذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون - ٢٠ فصلت ه . وتدل الآية بوضوح ان الله ينصر الأنبياء والمؤمنين المتخلصين في الدنيا والآخرة ، والنصر في الآخرة واضح ، أما النصر في الدنيا فله صور ومظاهر ، فقد يكون بالقهر والغلبة على الأعداء ، وقد يكون بانتشار العقيدة والمبدأ ، وعلو الشأن وجميل الذكر مدى الأجيال ، فإن بعض شهداء الفضيلة صارت قبورهم كعبة يحج اليها الملايين ، والتاريخ متخم

بالشواهد على ذلك ، وتقدم مثله في الآية ٣٨ من سورة الحج ج ٥ ص ٣٣١
فقرة « لا يخلو المؤمن من ناصر » .

(يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولم العنة ولهم سوء الدار) حيث لا حسم
يدفع ولا معذرة تنفع العصاة لأن الله سبحانه قطع عليهم جميع الأعذار ، والسعيد
من استغنى عن الاعتذار بمصالح الأعمال (ولقد آتينا موسى الهدى وأورثنا
بني اسرائيل الكتاب هدى وذكرى لأولي الألباب) . المراد هنا بالهدى المعجزات
الدالة على نبوة موسى ، وما أوحى الله به اليه من حلاله وحرامه، والمراد بالكتاب
التوراة الصادقة .. بعد أن ذكر سبحانه انه ينصر الرسل والمؤمنين أشار الى موسى
ومن أخلص من بني اسرائيل لأنه نصرهم على فرعون وقومه .

(فاصبر ان وعد الله حق) . الخطاب لمحمد (ص) يأمره الله فيه أن يصبر
كما صبر أولو العزم من الرسل ، ويشير الى وعده تعالى الذي صرح به الآية
٣٣ من سورة التوبة : « هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على
الدين كله ولو كره المشركون » . وليس لما وعد الله مترك (واستغفر لذنك) .
والأمر بالاستغفار من الذنب لا يستدعي وجوده ، فقد سأل النبي ربه أن يحكم
بالحق مع العلم انه لا يحكم إلا به : « قال رب احكم بالحق - ١١٢ الأنبياء » .
وتسأل : اذن ، ما الفائدة من الأمر بالاستغفار من الذنب ؟

الجواب : لا شيء سوى العبادة تماماً كالأمر بالتهليل والتكبير والتسبيح (وسبح
بحمد ربك بالعشي والابكار) . العشي من الزوال الى الليل ، والابكار من الفجر
الى الضحى .. هذا ، الى أن أمر النبي بالاستغفار من الذنب مع عدم صدوره منه
بدل على أمر المذنبين بالتوبة بطريق أولى ، وتسمى هذه الدلالة بفحوى الخطاب
ولحنه أيضاً لأن السامع يدرك ان الحكم الثابت للمنطوق ثابت للمسكوت عنه بمجرد
سماع اللفظ .

الله واسرائيل :

ولمناسبة قوله تعالى : « وأورثنا بني اسرائيل الكتاب هدى وذكرى » نشير
إلى أنه في المجلد الأول قلنا : ان معنى اسرائيل عبد الله ، لأن كلمة « اسرا »

معناها في العبرية عبد، و « ايل » الله ، قلنا هذا تبعاً لكثير من المفسرين ، منهم الطبري والرازي وصاحب مجمع البيان ، وبعد أن باشرنا بالمجلد السادس تبين لنا ان هذا القول يقتدر الى اثبات ، وكان علينا أن لا نقت بأقوال المفسرين ، أو نسب هذا القول الى قائله - على الأقل - كما يقتضيه منطق العلم ، ولكن الثقة بالمخبرين وبخاصة القدامى كانت وما زالت آفة المؤلفين والمحدثين .

منذ أمد بحثت في مكتبات بيروت التجارية عن كتاب « التلمود » فلم أجده ووجدت الأكثر المرصود في قواعد التلمود وقاموس الكتاب المقدس . فاشتريتها ، وقد ساهم في وضع القاموس ٢٧ مؤلفاً مسيحياً ، منهم ١٧ قساً ، والباقيون بين دكتور وشماس وأستاذ واشئندريت ، وجاء فيه بالنص : « اسرائيل : معنى هذا الاسم العبري « يجاهد الله » أو « يصارع الله » وهو اسم يعقوب إذ أطلقه عليه الملاك الذي صارعه حتى مطلع الفجر . التوراة سفر التكوين الاصحاح ٣٢ الآية ٢٨ .

فمعنى اسرائيل - إذن - يصارع الله ويجاهده بنص التوراة ، والفرق كبير جداً بين العبد والمصارع ، لأن المصارع والمبارز نظير ومثيل ، أما العبد فرفيق وضعيف ، وبهذا يتبين معنا ان التوراة الحالية غير الكتاب الذي أشار اليه سبحانه بقوله : « وأورثنا بني اسرائيل الكتاب هدى وذكرى » لأن هذا الكتاب كما وصفه سبحانه هدى وذكرى ، أما التوراة الموجودة فهوى وعمى لأنها تقول : يعقوب صارع الرب حتى مطلع الفجر ، ولوط ضائع ابنتيه وحملتا منه ، وداود اغتصب الزوجات وقتل أزواجهن ، وقد أجمع الباحثون ان التوراة الحالية كتبت بعد موسى بأمد غير قصير (انظر قاموس الكتاب المقدس ص ٧٦٣ و ١١٢٠ المطبعة الانجيلية ببيروت سنة ١٩٦٤ ، وكتاب « الأسفار المقدسة » لعبد الواحد وافي ص ١٦ وما بعدها، الطبعة الأولى سنة ١٩٦٤ .

وأيضاً يتبين معنا أن بني اسرائيل الأوائل الذين أورثهم الله الكتاب هم أبعد الناس نسباً وشبهاً بدولة اسرائيل قاعدة الاستعمار الجديد في الشرق الأوسط .

ونشرت مجلة « المجلة » المصرية في عدد كانون الثاني سنة ١٩٧٠ بحثاً استغرق حوالى ٢٠ صفحة بعنوان « توراة اليهود » لحسين ذي الفقار صبري نقل فيه عن الصهيوني « نيهير » ان إله اسرائيل كما يراه الفكر اليهودي مرتبط ارتباطاً عضوياً

بالواقع المتسلسل لتاريخ بني اسرائيل ، فإذا تلاشى الوجود الاسرائيلي فكأن الدلائل الدالة على وجود الإله قد زالت ، فهو اذن عدم ، وان على كسل يهودي أن يصارع الذات المجهولة - أي الله - حتى مطلع الفجر تماماً كما صارعها يعقوب ، سواء أكانت هذه المصارعة ميمية أم ظافرة . وأيضاً نقل الكاتب عن « يوبر » الصهيوني ان المعنى الذي تنتجه اليه تلقائياً أذهان جمهرة اليهود هو ان يعقوب كان قوياً ضد الله .

ثم خرج الكاتب من بحته الطويل العميق الى نتيجة استنتجها من التوراة وغيرها من الكتب اليهودية الدينية ومن أقوال المفكرين الصهاينة ، خرج بهذه النتيجة ، وهي ان لب العقيدة الصهيونية أن تفرض اسرائيل وجودها بالتصدي لما يهدد كيائها ، حتى ولو كان الرب مصدر هذا التهديد ، وان التوراة الحالية ليست إلا تحليلاً دقيقاً لنفسية اليهود ، وتناقضاً لعلاقتهم مع الله ، فهم معه وعليه في آن واحد ، وهو صاحب شخصية مزدوجة في توراتهم فهو الرحيم ، وأيضاً هو الرحيم . هذه هي الصهيونية ، انها في عقيدة أصحابها أقوى وأعظم من الله ، وان وجوده مرتبط بوجود اسرائيل ، فإذا ما تلاشت فقد زال الله من الوجود ، ومن هنا التقت الصهيونية مع الاستعمار العالمي ، وتحالفوا معاً ضد الشعوب والأديان والانسانية ، وكان من نتيجة هذا التحالف وجود اسرائيل في أرض فلسطين ، ولكن روح النعمة والعداء للاستعمار والصهيونية قد انتشرت في كل بلد عربي ، والله الحمد ، ولا شيء أدل على ذلك من المقاومة الفلسطينية ، وإجماع العرب كلمة واحدة على دعمها وتأييدها ، وسنجنّي ثمارها بحول الله ان عاجلاً أو آجلاً .

خلق السموات والأرض أكبر الآية ٥٦ - ٦٣ :

إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنَّ فِي صُدُورِهِمْ
إِلَّا كِبَرٌ مَّا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ* خَلَقَ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ*

وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا
 الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ * إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ
 أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ * وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ
 يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ * اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ
 لَكُمْ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى
 النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ * ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ
 كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ قَاتِنَىٰ تُؤَفَّكُونَ * كَذَلِكَ يُؤَفَّكُ الَّذِينَ كَانُوا
 بِآيَاتِ اللَّهِ يَخْفَدُونَ *

الغزة :

بغير سلطان أي بغير حجة ودليل . وداخرين صاخرين . ومبصراً مضياً تبصرون
 فيه . وتؤفكون تصرفون عن الصدق الى الكذب وعن الحق الى الباطل .

الإعراب :

ان نافية وفي صلورهم خبر مقدم وكبر مبتدأ مؤخر ، والجملة خبر ان الذين
 يجادلون . وبياغيه الباء زائدة وبالغوه خبر « هم » . وقليلًا ما « ما » زائدة
 وقليلًا صفة لمفعول مطلق محذوف أي تذكر أقليلًا . داخرين حال من فاعل
 سيدخلون . والمصدر من لتسكنوا متعلق بعمل . ومبصراً مفعول ثانٍ لجعل محذوف
 أي وجعل النهار مبصراً . وأنتى ان كانت بمعنى أين فهي مجرورة بإلى أي إلى
 أين تصرفون وان كانت بمعنى كيف فهي في محل نصب على الحال .

المعنى :

(إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم ان في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه) . المراد بالذين يجادلون هنا المترفون فانهم يتكبرون كل شيء إذا لم يعترف بتعظيمهم ، ويخضع لكبريائهم ، والشاهد على ان المترفين المتكبرين هم المقصودون بالذات قوله تعالى : « ان في صدورهم الا كبر » أي انهم لتكبرهم وتعظيمهم لا يلذعون للحق ، ويجادلون فيه بالباطل .. ومن أفضل الفضائل التوبة من الخطيئة ، والاعتراف بالخطأ والرجوع الى الصواب (فاستعد بالله) من التكبر وسوء عاقبته (انه هو السميع البصير) بتعصب المتكبرين لجاههم وثرائهم، وفي نهج البلاغة استعذوا بالله من لواقع الكبر - أي أثره في النفوس - كما تستعينون من طوارق الدهر .

(خلقت السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون) . كلما تقدمت العلوم ازدادت معاني القرآن قوة ووضوحاً في الأذهان .. قال العلماء القدماي : الانسان أعجب الكائنات الأرضية والعلوية ، وان الأرض هي مركز الكون .. ثم جاءت العقول الألكترونية وغيرها من أدوات العلم الحديث لتقول : كلا ، ليس الانسان أعجب الكائنات ، ولا الأرض مركزاً للكون، فإن في الكون ملايين الملايين من المجرات ، وان في كل مجرة ملايين الملايين من الكواكب ، وان في كل كوكب ملايين الملايين من عجائب الكائنات ، وانه لا أحد غير الله يعلم أو يستطيع أن يعلم عدد المجرات أو عدد الكواكب في كل مجرة ، أو ما فيها من الكائنات وان نسبة الأرض الى الكون كنسبة الذرة أو دونها الى الأرض .. وبهذا نجد تفسير قوله تعالى : (خلقت السموات والأرض أكبر من خلق الناس) . أجل ، ولكن في داخل الانسان أيضاً كوناً عجبياً في كنهه وحقيقته ، وميوله وشعوره ، وطموحه وجميع غرائزه .

(وما يستوي الأعمى والبصير والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسيء قليلاً ما تتذكرون) . الفرق بعيد جداً بين العالم والجاهل ، وبين الصالح والفاقد ، وبين المحسن والمسيء .. كلا ، لا يستويان عند الله ، ولا عند الناس من أهل

الوعي والانصاف . وتقدم مثله في الآية ٥٠ من سورة الأنعام و ١٦ من سورة الرعد و ١٩ من سورة فاطر (ان الساعة آتية لا ريب فيها) وهي تسوقنا للوقوف بين يدي قدير عليم ، تُزاح عنده الأباطيل ، وتستحق الحقائق ، وتضمحل العلل (ولكن أكثر الناس لا يؤمنون) بأنهم مبعوثون ليوم عظيم ، ومسؤولون عما كانوا يعملون .

(وقال ربكم ادعوني استجب لكم) . قال بعض المفسرين : معناه اعبدوني أثبكم ، واستدل بأن القرآن يستعمل كلمة الدعاء في العبادة ، ومن ذلك قوله تعالى في الآية ١١٧ من سورة النساء : « ان يدعون من دونه إلا أنا » . ونحن مع هذا القائل في هذه الآية بالذات ، لأن السياق يرجع هذا المعنى على غيره حيث قال تعالى بلا فاصل : (ان الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين) . فقله : يستكبرون عن عبادتي بيان وتفسير لأدعوني . ومهما يكن فإن الإسلام دين الأعمال لا دين الأقوال ، والله يرزق من جاهد وصبر : « هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه واليه النشور - ١٥ الملك . وتكلمنا عن الدعاء مفصلاً عند تفسير الآية ١٨٦ من سورة البقرة ج ١ ص ٢٨٦ .) الله الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصراً ان الله للو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون) . مبصراً أي مضيئاً تبصرون فيه . وتقدم مثله في الآية ٦٧ من سورة يونس ج ٤ ص ١٧٧ (ذلكم الله ربكم خسالى كل شيء لا إله إلا هو فأنى تؤفكون) ؟ كيف تصرفون عن طاعة الله وعبادته ، وهو وحده الخالق الرازق ؟ والقصد من قوله تعالى : « جعل لكم .. وذو فضل وخالق كل شيء » الخ ؟ القصد ان يبين سبحانه ونعلم نحن بأنه الجامع لجميع صفات الجلال والكمال ، وان دلائل هذه الصفات ظاهرة لِقُلِّ العيون وقرائح العقول ، ولكن أكثر الناس في غفلة عنها وعما يراد بهم أيضاً (كذلك يؤفك الذين كانوا بآيات الله يمحذون) كل من غفل وذهل عن الدلائل الدالة على عظمة الله لا بد أن ينصرف عن طاعته وعبادته لأن الناس أعداء ما جهلوا .

وصوركم فأحسن صوركم الآية ٦٤ - ٦٨ :

اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ
صُورَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ *
هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ
الْعَالَمِينَ * قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أُعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا
جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ * هُوَ الَّذِي
خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ
لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يَتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ
وَلِتَبْلُغُوا أَجْلًا مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * هُوَ الَّذِي يُنْجِي وَيُمِيتُ فَإِذَا
فَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ *

اللغة :

قراراً مستقراً . وتبارك تقدس وتعالى . وطفلاً اسم جنس يشمل جميع الأطفال ،
ويكون المعنى يخرج كل واحد منكم طفلاً .

الإعراب :

مُخْلِصِينَ حال . والمصدر من أن أعبد مجرور بمن محذوف أي عن عبادة الخ .
والمصدر من أن أسلم مجرور بياء محذوف . وطفلاً حال . ثم لتبلغوا متعلق بمحذوف
أي يبيحكم لتبلغوا . ثم لتكونوا أيضاً متعلق بمحذوف أي فعل ذلك لتكونوا .

المعنى :

(الله الذي جعل لكم الأرض قراراً والسماء بناء) . وصف سبحانه الأرض في هذه الآية بكلمة قرار ، وفي غيرها بكلمة مستقر وفراش ومهد ومهاد، والمعنى واحد . ووصف السماء في هذه الآية بالبناء ، وفي غيرها بالسقف وذات البروج وذات الحبك ، والمراد بالسقف التشبيه به لأنها تظهر للعيان مثله ، وقال جماعة من المفسرين : ان المراد بالبروج النجوم ، والحبك الطرق . أما البناء فالمراد به انه تعالى احكم خلقها وزينها بزينة الكواكب ، كما في الآية ٦ من سورة الصافات.

(وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات ذلكم الله ربكم فبارك الله رب العالمين) . خلق الله الانسان في أحسن خلقه وأحكمها وأدقها شكلاً وقواماً وأعضاء ، بالإضافة الى البيان والاذراك وغيره من الغرائز .. ولعل أروع ما في خلق الانسان هذا التلاؤم العجيب بينه وبين الكون أرضاً وسماء بحيث جاء تصميمه على نحو يستطيع أن يستغل ويكيف ما في الكون من طاقات وخبرات حسب مصالحه وحاجاته ... ولو لم يكن من دليل على وجود الله وعظمته إلا هذا الكائن العجيب — الانسان — لكفى . وبهذا نجد تفسير قوله تعالى : « وفي أنفسكم أفلا تبصرون ٢١ الذاريات » . وتكلمنا عن ذلك مفصلاً عند تفسير الآية ٧٠ من سورة الإسراء ج ٥ ص ٦٦ فقرة « بماذا كرم الله بني آدم » ؟

(هو الحي لا إله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين الحمد لله رب العالمين) . هو الحي لأنه وهب الحياة ، وهو الواحد الأحد لأنه إله ، والألوهية في واقعها تستدعي التفرد والوحدانية ، ومعنى الاختلاص لله في الدين ان تؤمن به وحده ، وتتجه إليه دون سواه في جميع أقوالك وأفعالك . وتقدم مثله في الآية ٢٩ من سورة الأعراف والآية ١٤ من السورة التي نحن بصدددها. وقوله تعالى : الحمد لله رب العالمين بعد قوله : وصوركم .. ورزقكم يشير الى أن على الانسان أن يحمد الله ويشكره على نعمة الخلق والرزق .

(قل اني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله لما جاءنيّ البينات من ربي وأمرت أن أسلم لرب العالمين) . هذا هو الاسلوب الحكيم في الجدال والنقاش.

قال المشركون لرسول الله (ص) : اعبد ما نعبد من الأصنام .. فقال سبحانه لنبيه الكريم : قل لهم : كيف أعبد الأصنام وقد نهاني ربي عن عبادتها، وأمرني أن أسلم جميع أموري له وحده ، وأهمني الأدلة الكافية الشافية على ان معبودكم ليس أهلاً للعبادة لأنه حجر لا ينفع ولا يضر . وتقدم مثله في الآية ٤١ من هذه السورة .

(هو الذي خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقه ثم يخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخاً ومنكم من يتوفى من قبل وتبلغوا أجلاً مسمى ولعلكم تعقلون) . تقدم مثله في الآية ٧٠ من سورة النحل و ٥ من سورة الحج و ١٤ من سورة المؤمنون و ١١ من سورة فاطر .

الفيلسوف «راسل» والأجل المسمى :

(هو الذي يحبي ويميت فإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون) . الله سبحانه يوجد الموت والحياة في الأشياء الطبيعية ، ويوجد الطبيعة بجميع كواكبها بكلمة «كن» يوجد لها من لا شيء ، فلا سديم ، وهو على ما قيل يشبه الدخان ، ولا غيره من قبل ، وإذا قال قائل : ومن الذي خلق الله ؟ قلنا في جوابه : ان معنى « الله » انه خالق غير مخلوق ، وان ذاته بما هي تستدعي الوجود ولا تحتاج إلى موجد ، فإذا قال ثانية : هذه مجرد دعوى ، ويحق لنا أن نأتي بمثلها ونقول : ان ذات السديم مقتضية للوجود ولا تحتاج الى موجد ، وإذا طالبنا من يؤمن بالله - ما زال الكلام للقاتل - إذا طالبنا بالدليل على دعوانا طالبناه بدورنا بالدليل على دعواه ، إذا قال هذا قائل قلنا في جوابه : ان هذه الحياة وهذا النظام في الطبيعة لا يفسرها الأثر ، ولا أي شيء لا حياة فيه ولا إدراك لأن فاقد الشيء لا يعطيه .. إذن، لم يبق أمام العقل في تفسير الحياة والنظام في الطبيعة الا التسليم بوجود قادر حكيم خالق كل شيء ، ولا يفتقر إلى شيء ، وكل فرض غير هذا فإن العقل يأباه ، ومن أنكر صحته فليأت بغير منه ويدع من يشاء ونحن معه .

والخلاصة ان الله سبحانه خلق الانسان في أحسن تقويم ، ونقله من طور إلى

طور حتى بلغ أجله المحتوم .. وإذا لم نَرَ الخالق بالذات فقد رأينا آثاره والدلائل الدالة عليه في عظيم خلقه .. وما أحقر ما رأينا في جنب ما غاب عنا من قدرته وملكوته .

وبمناسبة قوله تعالى : « ولتبلغوا أجلاً مسمى ولعلكم تعقلون » نذكر حادثة حصلت للفيلسوف الكبير « برتراند راسل » حين كان في السادسة والسبعين من عمره .

في سنة ١٩٤٨ سافر راسل في الطائرة من أوسلو الى لندن ، ولما قربت الطائرة من شاطئ الزويج سأته المضيفه ان كان من الضروري أن يدخن ؟ فقال لها : ان لم أَدخن فسوف أموت . وكان يجلس في مقدمة الطائرة ، فأشارت عليه أن يجلس في المؤخرة إذا أراد التدخين ففعل ، وما أن استقر به الجلوس حتى سقطت الطائرة في البحر ، ففرق كل من في مقدمتها ، ونجا من في المؤخرة .. ولا نجد تفسيراً لهذا إلا قوله تعالى : « ولتبلغوا أجلاً مسمى ولعلكم تعقلون » وانما قرن سبحانه الأجل المسمى بقوله : ولعلكم تعقلون، ليشير الى الملحدين الذين يفسرون هذه الحادثة وأمثالها بالصدفة .

ذلكم بما كنتم تفرحون الآية ٦٩ - ٧٨ :

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُضْرَفُونَ* الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ* إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ* فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ* ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ* مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُو مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ* ذَلِكَمُ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ*

أَدْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ * فَاصْبِرْ
إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرَبِّيكَ بِغُصٍّ أَلَّذِي نَعِدُكُمْ أَوْ تَتَوَقَّعُكَ فَإِلَيْنَا
يُرْجَعُونَ * وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ
وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ
اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ فُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ *

اللمة :

السَّحْبُ الجِر . والحميم الماء الحار . والسجر الاحراق . والفرح السرور .
والمرح شدة الفرح .

الإعراب :

الذين كذبوا بدل من الذين يجادلون . وإذ في محل نصب يعلمون . أين ما
كنتم تشركون « أين » خبر مقدم و « ما » موصول بمعنى الذين مبتدأ . وذلكم
مبتدأ وبما كنتم خير . وأبواب منصوبة بنزع الخافض أي ادخلوا في أبواب .
فبئس مَثْوًى المتكبرين المخصوص بالذم محذوف أي مَثْوًى لكم وهو مبتدأ وخبره
جملة بئس مَثْوًى المتكبرين . فلما كلمتان « ان » الشرطية و « ما » الزائدة وجواب
الشرط محذوف أي فتقر عينك . ومنهم خبر مقدم . ومن قصصنا مبتدأ مؤخر .
وهناك إشارة إلى المكان واستعبر هنا للزمان .

المعنى :

(ألم تر الى الذين يجادلون في آيات الله انى يصرفون) ؟ يقول سبحانه لنبيه

الكريم منكراً جدال المشركين بالباطل : أرأيت وشاهدت يا محمد الى المشركين والمترفين كيف يعملون عن الحجج القاطعة والبيئات الواضحة على عظمة الله ونبوتك وينصرفون عن الحق ودلائله الى الجهل والضلال وعبادة الأحجار ؟ وأوضح تفسير لهذه الآية وأخصره قول الإمام علي (ع) : من كثّر نزاعه بالجهل دام عماء عن الحق . (الذين كذبوا بالكتاب - أي القرآن - وبما أرسلنا به رسلنا فسوف يعلمون) . وذلك يوم تسفر الحقيقة عن وجهها ، ويرى المجرمون ما يحل بهم من العذاب (إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون في الحميم ثم في النار يسجرون) . يجرّون بالسلاسل الى حريق الحميم وشراب الحميم ، والأيدي مغلولة الى الأعناق ، والنواصي مقرونة بالأقدام : « يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام - ٤١ الرحمن » .

(ثم قيل لهم أين ما كنتم تشركون من دون الله) وتدخرونها للشدائد ؟ فادعوهم فليستجيبوا لكم ان كنتم صادقين (قالوا ضلوا عنا) غابوا عن أعيننا ولم نرَ لهم عيناً ولا أثراً (بل لم نكن ندعو من قبل شيئاً) بعند به ، وتبين لنا الآن أنه كان سراباً (كذلك يضل الله الكافرين) لأنهم سلكوا طريق الضلال بسوء اختيارهم بعد أن نهوا عنه ، ومانوا على البغي والكفر ، وقد أمروا بالتوبة منه والانابة الى الله الغفور الرحيم .. ومن دخل مدخل السوء فلا يلومن إلا نفسه .

نطلب الدنيا باسم الدين :

(ذلكم بما كنتم تفرحون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تمرحون) . يفرحون بالحقر الزائل يدركونه من الدنيا ، ولا يهتمون بالنعم الدائم يفوتهم من الآخرة . وهذا الوصف يشملنا نحن أيضاً ، ولا يختص بالمشركين ، والفرق أنهم يُقبلون على الدنيا ، وهم كافرون باليوم الآخر ظاهراً وباطناً ، أما نحن فنقبل على الدنيا ونطلبها متكالبين ، ولكن باسم الإيمان بالله واليوم الآخر .. فأبي الفريقتين أحق بغضب الله وعذابه ؟ (ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين) . يقال هذا غداً للمتكبرين ، ولكل من استغل الدين ، وتاجر بالوطنية ، وعبث

يقول البسطاء والأبرياء سواء أفعل ذلك عن عمد أم عن جهل بحقيقته وواقعه ، قال تعالى : « هل أنبئكم بالأخسرين أعمالاً الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا » - ١٠٤ الكهف . واتفقت كلمة العلماء على ان الجاهل المقصر لا عذر له عند الله .

(فاصبر ان وعد الله حق) . تقدم بالحرف الواحد في الآية ٥٥ من هذه السورة (فإما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك فإلينا يرجعون) . الخطاب في نرينك لمحمد (ص) ، وضمير نعدهم للمشركين ، والمعنى قد نعاقب في الدنيا الذين كذبوك يا محمد وأذكوك وعلى مرأى منك ، وقد نختارك البنا قبل ذلك .. وفي سائر الأحوال فإن الأمر والمرجع الى الله وحده ، وليس لك من الأمر شيء . وتسمى الآية الى أن المؤمن الحق ينبغي أن يفرح بمرضاة الله ، وبأنه على يقين من دينه ، وأن يجاهد أهل الباطل والضلال بما استطاع من قوة ، ثم يدع الجزاء الى الله : « وما ربك بغافل عما يعملون » - ١٣٢ الأنعام .

(ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك) . تقدم مثله في الآية ١٦٤ من سورة النساء ج ٢ ص ٤٩٢ . انظر أيضاً فقرة « هل الأنبياء كلهم شريقون » ؟

(وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله) . المراد بالآية هنا المعجزة ، والمعنى ان الله سبحانه يُظهر المعجزة على يد الرسول كما تقتضيه الحكمة والمصلحة لا كما يشاء المكابرون والمعادنون (فإذا جاء أمر الله قضي بالحق وخسر هنالك المبطلون) . هنالك إشارة الى يوم القيامة ، وهو أسوأ يوم على المبطلين وأسعد على المحققين .

الذي جعل لكم الأنعام الآية ٧٩ - ٨٥ :

اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ

تَحْمِلُونَ * وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ * أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي
الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ
وَأَشَدُّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ *
فَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ
مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ * فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا
بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ * فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّةَ اللَّهِ
الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَيْرَ هَذَا لِكَافِرُونَ *

الإعراب :

فأي آيات الله مفعول تنكرون ، ويجوز فأي بالياء ، وقيل : ان التذكير أشهر
وأكثر . وقوة وآثاراً تمييز . وحده حال من الله . وسنة منصوبة على المصدر أي
سنتاً بهم سنة الله .

المعنى :

(الله الذي جعل لكم الأنعام لتركبوا منها ومنها تأكلون) . الأنعام هي الإبل
والبحر والغنم ، وقد سخرها سبحانه لمنافع عباده كالأكل والركوب ، وانما خصها
 بالذكر مع ان نعمه لا يبلغها الإحصاء لصلتها الوثيقة بحياة العرب آنذاك على انها
 ما زالت تسد الكثير من حاجات الحياة بخاصة في بعض الأقطار (ولكم فيها
 منافع) أخر كالانتفاع بأوبارها وجلودها (ولتبلغوا عليها حاجة في صدوركم)
 كحمل الأثقال والسلع من بلد إلى بلد (وعليها وعلى الفلك تحملون) . تقدم
 مثله في الآية ١٤٢ من سورة الأنعام و ٦٥ من سورة النحل وغيرهما (ويرىكم
 آياته فأَيَّ آياتِ الله تنكرون) أي مع الحججة والدليل ، وإلا فقد أنكروا بالفعل
 آيات الله وأحكامه لأن المعروف عندهم هو المنكر ، والمنكر هو المعروف .

(أفلم يسروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثاراً في الأرض) . ان تاريخ أهل الأرض متختم بالعبر والعظات لمن يعتبر ويتعظ ، فكمن من أمة بلغت الغاية من الترف والحضارة ، ولما طغت وبغت أخذها الله بظلمها أخذ عزيز مقتدر (فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون) من سلطان وأموال، وما يبنون من قصور وقلاع . وتقدم مثله في الآية ١٠٩ من سورة يوسف و ٤٦ من سورة الحج و ٩ من سورة الروم .

(فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم) . المراد بفرحوا هنا اغتروا ، وبالعلم أسباب الثراء أي العلم العملي الذي ينتج الغذاء والكساء ، ويشير إلى ذلك قوله تعالى : « وأشد قوة وآثاراً في الأرض » . وقال قارون : « إنما أوتيته على علم عندي » لمن قال له : « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة » والمعنى ان الله أرسل نبياً مضى رسله بالحجج القاطعة لأهم تملك أسباب الثراء كالمصانع ونحوها ، فاعتروا بهذه الأسباب أو بهذا العلم ، وسخروا من أنبياء الله وكتبه تماماً كما هي حال الشركات الاحتكارية اليوم التي تكفر بالحق والانسانية وتسخر من قيمها ومن أماني الشعوب (وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون) أخذهم الله بطغيانهم وأصابعهم وبال استهزائهم .. وهذه نهاية كل من طغى وبغى وان طال الزمن .

(فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين) . حين كانوا في أمان من سطوة الله كفروا به ، ولما رأوا العذاب قالوا آمنا (فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا) لأن هذا ليس من الإيمان في شيء ، وإنما هو محاولة للفرار من عذاب الحريق ، ولكن أين المخر والإله الطالب ؟ (ستة الله التي قد خلقت في عباده) وهي ان الله يسمع التوبة ويقبلها في دار التكليف والعمل ، لا في دار الحساب والجزاء (وخسر هنالك الكافرون) وكل مجرم فهو خاسر وخائب .

سُورَةُ فَصَّلَتِ السَّجْدَةِ

٥٤ آية مكية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كتاب فصلت آياته الآية ١ - ٨ :

حَمْ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ * وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ يَمَا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَأَعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ * قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ * الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ * إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ *

اللغة :

فُصِّلَتْ بَيَّنَتْ . وَأَكِنَّةٌ جَمْعُ كَنَانٍ وَهُوَ الْغَطَاءُ . وَالْوَقْرُ الصَّمَمُ . وَغَيْرُ مَمْنُونٍ أَيُّ لَا يَمُنُ بِهِ عَلَيْهِمْ . وَقِيلَ : غَيْرُ مَقْطُوعٍ .

الإعراب :

تتزيل خبر مبتدأ محذوف أي هذا تتزيل . وكتاب بدل من تتزيل أو خبر ثان . وقرآنًا حال من كتاب . وعربياً صفة لقرآن وبشيراً ونذيراً صفة أخرى . هم كافرون هم تأكيد لـ هم الأولى .

المعنى :

(حم) تقدم الكلام على مثله في أول سورة البقرة . وقد ابتدأ سبحانه هذه السورة بذكر القرآن الكريم ووصفه بالأوصاف التالية :

١ - (تتزيل من الرحمن الرحيم) . القرآن من أرحم الراحمين ، وهو رحمة للعالمين ، وأيضاً الذي نزل به على قلب محمد (ص) هو رحمة لأنه الروح الأمين ، وقد شهد الله لنبيه الكريم بأنه « حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم - ١٢٩ التوبة » . فالقرآن رحمة ، والذي بلغه للرسول رحمة ، والرسول أيضاً رحمة ، أما الذي أنزل القرآن فهو أساس الرحمة ومصدرها ، والنتيجة الحتمية لهذه الرحمتين الأربع ان من تمسك بالقرآن ، وعمل بتعاليمه نزلت عليه شآبيب الرحمة ، ومن أعرض عنه فقد ظلم نفسه ورضي لها الهلاك والوبال .

٢ - (كتاب فصلت آياته) بيّنت حلال الله وحرامه ، ونصائحه ومواعظه ، ولم تدع عذراً لمعتذر ، وعلة لمعتل .

٣ - (قرآنًا عربياً لقوم يعلمون) . أنزل سبحانه القرآن عربياً لأنه لا يرسل رسولاً إلا بلغه قومه ليفهموا منه . وكذا كانت الحال في صحف إبراهيم ، وتوراة موسى ، وانجيل عيسى .. وقد كتب النبي محمد (ص) باللغة العربية إلى كسرى وقيصر وغيرهما من الرؤساء والملوك غير العرب يدعوهم الى الاسلام . وتقدم الكلام عن ذلك عند تفسير الآية ٣ من سورة يوسف ج ٤ ص ٢٨٦ و ٤ من سورة يس فقرة « الموسيقى في القرآن » . ومهما يكن فإن سر العظمة في القرآن لا يكمن في اللغة وحدها ، والأسلوب وحده ، بل يكمن في معانيه ومراميهِ الانسانية الخالدة التي لا تحدها قومية ، ولا بيئة ولا زمان .

سورة فصلت السجدة

٤ - (بشيراً ونذيراً) . بشر القرآن من أطاع برحمة الله وجهته ، وأنذر من عصى بعذابه ونقمته .

(فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون) . أعرضوا عن الحق جهلاً وتعصباً لتقاليد الآباء أو إثاراً وطمعاً بنفع عاجل ، ولو كان وهماً وخيالاً (وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا اليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل اننا عاملون) . دعا الرسول الأعظم (ص) مترفي المشركين الى الإيمان بالله وحده ، والعمل بكتابه ، فما كان جوابهم إلا أن قالوا : أفئدتنا موعدة دون دعوتك ، وآذاننا غير سميعة لأقوالك ، وبيننا وبينك ما يحجبنا عنك ، ويبعدك عنا ، فاجتهد ما استطعت ، وهدد بما شئت ، فنحن في خوفنا لا نعيد عنه مهما كلنت العواقب .. وهكذا تفعل الأهواء .. تميمت القلوب وتعصي العيون ، وتطلق العنان للجهل والضلال .

(قل انما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما ألهم إله واحد فاستقيموا اليه واستغفروه) . قال الطغاة للرسول (ص) : بيننا وبينك حجاب .. فأمر الله نبيه الكريم أن يقول لهم : من أين جاء هذا الحجاب ؟ ألست بشراً مثلكم روحاً وجسداً ، أفضل مما تفعلون ؟ وهل الوحي إليّ من السماء بأن تؤمن جميعاً أنا وأنتم بإله واحد لا نشرك به شيئاً ، وننوب اليه من الذنوب والمواقفات ، ونستقيم على سبيل الحق والعدل - هل الوحي إليّ بهذا يبعدني عنكم ، أو هو أجدى وسيلة تجمعنا على الخير والتقوى ؟ ولكن أيتم الا العمى والضلال .

(وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون) . جاء في تفسير البحر المحيط ان هذه السورة مكية ، وزكاة المال نزلت بالمدينة ، وعليه فلا بد من تفسير الزكاة هنا بمطلق البذل في سبيل الخير ، أو تفسيرها بتطهير النفس من الشرك .. ونرجح نحن التفسير الأول لأن الكلام عن المشركين الذين لم تطهر قلوبهم من الشرك ، فإن غسرن الزكاة بذلك يكون تفسيرنا أشبه بمن فسر الماء بالماء . وعلى ارادة البذل من الزكاة يكون معنى الآية ان المشركين جمعوا بين ثلاث رذائل : رذيلة الشرك ، ورذيلة الجحود باليوم الآخر ، ورذيلة البخل (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون) . أي ان الله سبحانه يؤجرهم ويثيبهم ، ولا يمنّ عليهم بالأجر والثواب لأنهم أهل لكل كرامة ..

وَيُسْتَعْمَلُ الْمَنْ أَيْضاً بِمَعْنَى الْقَطْع ، وَمِنْهُ قَوْلُ الْعَرَبِ : قَدْ مَنَّهُ السَّفَرُ أَيْ قَطَعَهُ ، وَتَفْسِيرُ الْآيَةِ بِكُلِّ مِنَ الْمَعْنَيْنِ جَائِزٌ ، وَلَكِنْ الْأَوَّلُ أَقْرَبُ .

خلق الله الأرض الآية ٩ - ١٢ :

قُلْ أَنتُمْ لَكُمْ تُكْفَرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ
أَنْدَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِي مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا
وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلنَّاسِ لِيَوْمٍ * ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى
السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ أَنْتِنَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا
طَائِعِينَ * فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا
وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ *

اللغة :

رواسي جبال . وأقواتها أقوات أهل الأرض . واستوى قصد . والمراد بالمصابيح
الكواكب .

الإعراب :

سواء منصوب على المصدر أي استوت سواء واستواء . طوعاً أو كرهاً مصدر
في موضع الحال أي طائعين أو كارهين . وسبع سموات حال من ضمير قضاهن .
وحفظاً منصوب على المصدر .

المعنى :

(قل أنتم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين) . لا وقت ولا مكان قبل خلق الكون ، لا شيء على الإطلاق إلا الواحد القهار ، وعليه يكون المراد باليومين الدفعتان أو الطوران - كما قيل - وتقدم الكلام عن ذلك عند تفسير الآية ٥٣ من سورة الأعراف ج ٣ ص ٣٣٨ .. وبالمناسبة نذكر ما قاله بعض الأدباء حول بعض الآيات : « ان اسلوب القرآن يختلف عن كل الأساليب ، فهو حين يشير إلى مسألة علمية لا يعرضها كما يعرضها علماء الطبيعة بالمعادلات والتفاصيل ، بل يقيسها بالإشارة والرمز واللمحة الخاطفة بكلمة قد يفوت فهمها على معاصريها ، ولكنه يعلم ان التاريخ والمستقبل سوف يشرح هذه الكلمة ويثبتها تفصيلاً » . وقد جاءت هذه الحقيقة على لسان ابن عباس منذ حوالي ١٤ قرناً حيث قال : لا تفسروا القرآن الزمان يفسره . أي لا تصمموا في تفسير الآيات الكونية فإن تقدم العلم كفيل بالكشف عن أسرارها .

(وجعل فيها رواسي من فوقها) أي جبالاً فوق الأرض ونحوه الآية ١٥ من سورة النحل : « وألقى في الأرض رواسي أن تمدد بكم » . (وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين) . بارك سبحانه بما حوته من نبات ومعادن وبرول وغيره ، والمراد بقدر أقواتها ان ما في الأرض من خيرات هي على قدر ما فيها من الأحياء الذين يحتاجون الى القوت بها بلغ عددهم .

وقال جماعة من المفسرين : ان اليومين الأولين هما من جملة الأيام الأربعة أي ان خلق الأرض وتقدير الأقوات فيها ، كل ذلك تم في أربعة أيام من أيام الله ، والمراد بالسائلين هنا كل من يحتاج الى القوت ، وسواء تسمى الى أن الله ما جعل خير الأرض لجنس دون جنس أو فئة دون فئة ، بل الخلائق بكاملها سواء في رزقه وفضله ، وإذا وجد جائع فإنما هو من ظلم القوي للضعيف . انظر تفسير الآية ٥٦ من سورة الأعراف ج ٣ ص ٣٤٠ فقرة « الله أصلح الأرض والانسان أفسدها » .

ما هو الحل لمشكلة الجوع ؟

ولمناسبة قوله تعالى عن الأرض : « وبارك فيها وقدر فيها أقواتها » نشر إلى الذين قالوا : ان السبب الأول لوجود الجوع في العالم هو تضخم سكان الأرض وتزايدهم يوماً بعد يوم بينا أقوات الأرض وخيراتها لا تفي بحاجة السكان ، ولا تتناسب مع زيادة انتاج الأطفال ، ثم اختلف هؤلاء فيما بينهم على وجه الحل لهذه المشكلة ، فمن قائل : ان الحل هو حتمية الحروب الطاحنة ، وتفتيل الناس بالملايين حتى يحصل التوازن بين عدد السكان وانتاج الغذاء .. وقد روج لهذا الرأي الذين يملكون الصناعة العسكرية ومعهم الذين يحتكرون موارد الأرض ومقدراتها ، ويكسبون الثروات على حساب الملايين ويؤسهم وشقائهم .

وقال آخرون : إذا لم تكن الحرب فلنكن الأمراض والأوبئة المهلكة ، وشاع رأي ثالث ، وهو تحديد النسل وتخطيطه . ولا ضرر في هذا الرأي فإن تحديد النسل حق طبيعي وشرعي لكل انسان ، شريطة أن يكون التحديد قبل وجود النسل ، بل وقبل استقرار النطفة في الرحم واستعدادها لتكوين الجنين ، أما الرأي القائل بضرورة انتشار الأوبئة فهو موبوء . وكفى القول الأول وهذا ان القاتلين به هم تجار الحروب الاستعمارية، وأصحاب الشركات الاحتكارية والسيطرة الاقتصادية على البلاد الفقيرة النامية .

ان السبب الأول لمشكلة الجوع يكمن في صراع قوى الشر على خيرات الأرض واحتكار مقدراتها ، وفي رفاهة الفئة القليلة على حساب شقاء القصة الكثيرة ، وفي إحراق المحاصيل الزراعية للمحافظة على الغلاء وارتفاع الأسعار ، وفي إلقاء الوف الأطنان من المواد الكيماوية السامة على القرى والمزارع في مناطق واسعة شاسعة ببيتنام وغيرها ، وفي توجيه العلم إلى الانتاج الحربي والصناعة العسكرية . ولو انجه العلم إلى الانتاج السلمي فقط لزادت خيرات الأرض عن حاجة أهلها وكانت الأرزاق كالتراب . فقد نشرت « مجلة اليونسكو » بحثاً جاء فيه : ان تكاليف قذيفة كبيرة واحدة تكفي لبناء ٧٥ مستشفى ، بكل واحد منها مئة سرير بكامل المعدات ، أو شراء خمسين ألفاً من الجرارات الزراعية التي يمكن أن تحرق ملايين الأفدنة بدلاً من حرثها بمن عليها بقنايل الدمار .. وقد أنفقت الولايات المتحدة

على حرب فيتنام وحدها ٤٠٠ بليون دولار دون أن تنتهي الحرب .. أليست هذه البلايين من بعض خبرات الأرض وبيركاتها ؟ ولو أنفقت في سبيل الزراعة لكانت كافية وافية بزرع جميع الصحاري والبحار وبعض الكواكب أيضاً ، ولعاش أهل الأرض ومعهم أمثالهم في هناء ورخاء .

وأيضاً لو صح الرأي القائل : ان خبرات الأرض وأقواتها لا تنفي بحاجة أهلها لكان معنى هذا ان الله لم يحسن التقدير والتدبير ، وانه أخطأ في إحصاء سكان الأرض على مدى الأزمان ، أو انه أخطأ في تقدير ما يحتاجونه من الأقوات .. تعالى الله عما يقول الجاهلون .. ان الحل لمشكلة الجوع لا يكون بالحروب ، ولا بانتشار الأوبئة ، ولا بتحديد النسل ، وأية جدوى من هذا التحديد ما دام في الناس ظالم ومظلوم ، وآكل ومأكول ، وإنما الحل لهذه المشكلة هو إزالة الموانع التي تحول بين الانسان وأسباب معيشته ، هو استغلال خبرات الأرض لانتاج الغذاء والكساء ، ولسد كل ما يحتاجه الانسان الحاضر والآتي .

(ثم استوى الى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قلنا ائتيا طائعين) . استوى قصد ، وقالنا ائتيا طائعين كناية عن قدرة الله وانقياد الكون لأمره ، وتوهم الآية الى ان الفضاء قبل خلق الكواكب كان فيه شيء كالدخان (ففضاهن سبع سموات في يومين) . والسموات السبع هي الأكوان الفضائية العلوية السبعة ، وليس الكواكب السبعة . انظر تفسير الآية ١٧ من سورة المؤمنون ج ٥ ص ٣٦٢ فقرة « معنى السموات السبع » أما اليومان فهما الدفعتان أو الطوارن كما قيل .

(وأوحى في كل سماء أمرها) أي خلق في كل سماء ما فيها من الكواكب وغيرها مما علمه عند ربي (وزينا السماء الدنيا بمصابيح) وهي الكواكب التي تضيء كالمصابيح (وحفظاً) يحفظ الله الكواكب في استمرارها على نهج واحد (ذلك تقدير العزيز العليم) . ذلك إشارة إلى كل ما تقدم من خلق الأرض وأقواتها ، وخلق السماء وزينتها وحفظها ، ولا يكون ذلك إلا من قادر حكيم ، ومدير عليم .

هذا كل ما نملك من الفهم والعلم في تفسير هذه الآيات ، نذكره بنحفظ

مؤمنين بالله وقدرته ، وبكل غيب أشار اليه في كتابه بكلمة لا نعرف معناها على وجهه ولا ندرك سرها على حقيقته .. ولو ألحنا في طلب المزيد من المعرفة لا نجد أمامنا إلا النفل من كتب أهل الاختصاص ، على أنهم لا يقيمون البراهين القاطعة على ما يشبتون وينفون إلا قليلاً . ومن أراد الاطلاع على أقوالهم فليرجع إلى كتاب « الكون العجيب » لقدري حافظ طوقان وكتاب « مع الله في السماء » لأحمد زكي وغيره .

أندركم صاعقة الآية ١٣ - ١٨ :

فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَأَنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ * فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَحْحَدُونَ * فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِصَاتٍ لِنَذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ * وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ *

• اللغة

صاعقة عذاب من السماء . وريحاً صرصرأ باردة مهلكة . ونحسات نكدات . والهون الذل .

الإعراب :

المصدر من ألا تعبدوا مجرور بباء الجر المحذوفة أي جاءتهم بعدم العبادة لغير الله . وعاد مبتدأ واستكبروا خبر . وقوة تمييز .

المعنى :

(فإن أعرضوا فقل أنذرتم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم الا تعبدوا إلا الله) . ضمير أعرضوا لمشركي العرب والمخاطب بقل رسول الله (ص) ، ومن بين أيديهم ومن خلفهم كتابة عن مبالغة الرسل واجتهادهم في التبشير والانذار ، وأنهم سلكوا من أجل هدايتهم كل سبيل ، ولكن استحوذ عليهم الشيطان، وصدق فيهم ظنه حيث قال : «لأقعدن لهم صراطك المستقيم ثم لأتيهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم - ١٧ الأعراف » . والمعنى قل يا محمد لمن كفر بك وبرسالتك : لقد كذبت عاد وثمود بالرسل الذين دعوهم الى ما دعوتكم اليه من التوحيد ، وبذلوا كل جهد لهدايتهم ، ولما أصرروا على الضلال أخذهم الله بعذاب الدنيا والآخرة ، واني نذير لكم أن يصيبكم ما أصابهم (قالوا لو شاء ربنا لأنزل ملائكة فإنا بما أرسلتم به كافرون) . أجاب عاد وثمود الرسل بالكذب لأن الله بزعمهم لا يبعث للناس رسولا منهم ، بل يبعثه من الملائكة .. ودحضنا هذا القول عند تفسير الآية ٨ من سورة الانعام ج ٣ ص ١٦٤ .

(فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة) . قوله بغير حق هو من باب الايضاح والتأكيد ، لأن الاستكبار لا يكون من المخلوق إلا بالباطل خاصة إذا كان عن عبادة الله، وقد استكبر عنها عاد واحقرروا الضعفاء، وقالوا: نحن أقوى وأعظم من أن ينالنا أحد بسوء (أولم يروا ان الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة) . وهذه بديهة لا تحتاج الى دليل . قال الإمام علي (ع) : كل عزيز غير الله ذليل ، وكل قوي غيره ضعيف ، وكل مالك غيره مملوك ، وكل عالم غيره متعلم ، وكل قادر غيره يقدر ويعجز (وكانوا بآياتنا يمحذون).

كفروا بالأدلة الكونية الدالة على وحدانية الله وعظمته ، وقالوا : كل ما في الكون من حياة وإحكام ونظام هو من عمل الطبيعة .

(فأرسلنا عليهم رجلاً صرصراً في أيام نوحات لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أشد وأخزى وهم لا ينصرون) . أخذهم سبحانه في الدنيا بريح هوجاء باردة في أيام هي نحس وخزي عليهم ، ثم استكملوا العذاب في الآخرة بما هو أشد وأخزى من عذاب الدنيا .

(وأما نوح فهديناهاهم فاستجابوا للعمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون) . هذه الآية واضحة الدلالة على ان الانسان مخير غير مسير لأنها تقول : ان الله أرشد نوحاً إلى طريق النجاة ، وأمرهم بسلوكه ، وحذرهم من المعصية ، وبيّن لهم طريق الهلاك ونهاهم عنه ، وألهمهم سوء العاقبة ان سلوكه ولكنهم آثروه على طريق النجاة ، فكان جزاؤهم الوبال والخسران (ونجيننا الذين آمنوا وكانوا يتقون) نجاهم سبحانه لأنهم سلكوا طريق النجاة . وتقدم الكلام عن عاد في الآية ٥٠ وما بعدها من سورة هود ج ٤ ص ٢٣٩ ، وعن نوح في الآية ٦١ ص ٢٤٤ من نفس السورة والمجلد .

شهد عليهم سمعهم وأبصارهم الآية ١٩ - ٢٤ :

وَيَوْمَ يُنْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ * حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَقَالُوا لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ عَلَيْنَا فُلْنَا أَلَمْ نَحْمَدْكَ أَنْتَ خَلَقْتَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْتَ بِكُلِّ شَيْءٍ وَهَّوَّ خَلْقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَوُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ * وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَأَيْتُمْ

فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ* فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا لَهُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ*

اللغة :

الوازع الزاجر والمانع وبوزعون أي ان الملائكة تزجر أهل النار وتمنعهم من الفوضى . ومثوى مقام . وان يستعتبوا ان يعتذروا ويطلبوا الرضا .

الإعراب :

ويوم منصوب بفعل محذوف أي واذكر يوم يحشر . وحتى للغاية . وإذا ما هـ زائدة . وذلك مبتدأ ، وظنكم بدل أو عطف بيان من ذلكم ، والذي صفة لظنكم ، وأرداكم خبر ذلكم .

المعنى :

(ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون) . هذه الآيات التي نحن بصددنا متصل بالآية السابقة ، وهي : « فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ » .. وأيضاً قل لهم يا محمد : ان ملائكة العذاب تسوق غداً المجرمين الى جهنم بانتظام ، فمن تأخر زجره ، ومن حاول الهرب صدّوه ، والقصد انه لا مفر لهم من عذاب الحريق .

(حتى اذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون) . لا شيء في اليوم الآخر إلا الحساب والجزاء .. وتدل بعض الآيات ، ومنها هذه الآية التي نقرها ان الله لا يعاقب المجرم في ذلك اليوم إلا بعد أن يقتنع هو بأنه مذنب يستحق العقاب ، وهذا بعض الفروق بين حكم الحاكم في الدنيا حيث ينقله

الحاكم على كل حال سواء اقتنع به المحكوم عليه أم لم يقتنع، وبين حكم الله في الآخرة فإنه تعالى لا ينفذه حتى يقنع المحكوم عليه بأنه يستحق العقاب .. ومن أجل هذا تراكم الشهود على المجرم ، فحملة الدين يشهدون عليه بأنهم قد بلغوه حلال الله وحرامه ، والملائكة يشهدون بأنه عصي وعمر ، وصحيفة أعماله تسجل عليه كل قول وفعل ، فإذا أظهر المجرم عدم الاقتناع بكل هذه الشواهد أقام الله عليه شاهداً من نفسه ، فيشهد عليه جلده بأنه لامس الحرام كالزنا ومقدماته ، ويشهد عليه سمعه بأنه سمع الحق فأعرض عنه ، ويشهد بصره بأنه رأى دلائل الوحداية فجحدتها ، وما إلى ذلك من الرذائل والموبقات .

وتسمى الآية إلى معنى دقيق ، وهو ان الشرط في الشاهد أن لا يتحيز، وربما توهم المجرم ان المبلغين والملائكة قد مالوا بشهادتهم إلى الله لأنهم لا يعصونه وبأمره يعملون ، فأقام سبحانه شهوداً على نفس المجرم من نفسه دفعاً لهذا التوهم وان كان باطلاً . وفي بعض الروايات ان العبد غداً يخاطب ربه ويقول : ألم تجبرني من الظلم ؟ فيأتيه الجواب بلى . فيقول العبد : اني لا أجيز على نفسي إلا شاهداً من نفسي ، وعندئذ يأمر تعالى أعضائه أن تشهد عليه . فيقول العبد المذنب لأعضائه : بعداً لكنّ وسحقاً ، فكم ناضلت عنكنّ .

(وقالوا لجلودهم لم تشهدتم علينا) ؟ وفي قولهم هذا اشعار بأن بعض المجرمين لم يقبلوا شهادة المبلغين والملائكة ، وانهم توهّموا ان هذا الرفض مجلبهم نفعاً لولا ان يقيم الله عليهم شهوداً من أنفسهم (قالوا - أي الجلود - انطقنا الله الذي أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون) . أعضاؤهم تنطق في الدنيا بلسان الحال ، ويشهد ما فيها من حكمة واتقان بأن الله هو المبدئ والمعيد، وتنطق بذلك صراحة في الآخرة أيضاً . واختلف المفسرون في كيفية شهادة الأعضاء على أصحابها غداً ، فن قائل : ان الله يظهر عليها علامات تشير إلى الجرائم التي ارتكبوها . وقائل : ان الله ينطقها حقيقة . وهذا هو الصحيح لأن ظاهر الآية يدل عليه ، والعقل لا يأباه .

(وما كنتم تسترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم ان الله لا يعلم كثيراً - أي ما تخفون - مما تعملون) . ظننتم أي اعتقدتم،

انكم ايها المجرمون ارتكبتم الذنوب والجرائم وراء الستار خوفاً من الناس ، لا خوفاً من الله حيث اعتقدتم ان الله لا يعلم ما تفعلون في الخفاء ، وان أعضاءكم لن تشهد عليكم يوم الحساب لأنكم لا تؤمنون به (وذلكم ظنكم الذي ظنتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين) . ان هذا الاعتقاد الباطل هو السذي قادكم الى جهنم وبئس المصير .. وهذا ينطبق أيضاً على الذين يؤمنون باليوم الآخر نظرياً ، ويكفرون به عملياً حيث يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله ، بل هم أسوأ حالاً ممن أنكر البعث وقدرة الله لأنهم عصوا وهم على يقين بأن الله معهم يسمع ويرى ، وأنه لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء .

(فإن يصبروا فالتار مثوى لهم وان يستعذبوا فما هم من المعتبين) . ان يصبر المجرمون على النار فهي نصيبهم ومسكنهم ، ولا خلاص لهم منها ، وان يطلبوا الرضا من الله فلن يرضى عنهم : « وان يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفعاً — ٢٩ الكهف » .

وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن الآية ٢٥ - ٢٩ :

وَقَيْضَنَا لَهُمْ قُرْآنًا فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ * وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ * فَلَنُذِيقَنَ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَشْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ * ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ * وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرَنَا الَّذِينَ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ تَجْعَلُنَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ *

اللغة :

قيضنا هيأنا . والقرناء جمع قرين . وكل كلام لا معنى له أو لا فائدة منه فهو لغو .

الإعراب :

ذلك مبتدأ وجزاء أعداء الله خبر . والنار بدل من جزاء . وجزاء منصوب على المصدر أي يجزي بالنار جزاء .

المعنى :

(وقيضنا لهم قرناء فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم) . المراد بما بين أيديهم الدنيا وحطامها ، وبما خلفهم الآخرة وهي مجرد خرافة عند الجاحدين ، والمعنى ان الله سبحانه هيأ للظغاة المجرمين قرناء سوء يغرونهم بالسيئات، ويزهدونهم بالحسنات .

وتسأل : إذا كان الله هو الذي قيض لهم من يغريهم بالضلالة والمعصية فمن الظلم والجهور أن يعاقبهم ويقول : « حق عليهم القول » أي العذاب ؟

الجواب : الله سبحانه فعل بهم ذلك بعد أن سلكوا طريق الضلال والغواية بسوء اختيارهم .. وقد أوضح سبحانه ذلك في الآية ٣٦ من سورة الزخرف حيث قال : « ومن يَعْشُ عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين » . وقال : « فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين - ٥ الصف » . وتقدم ذلك مرات ومرات .

(وحق عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والانس انهم كانوا خاسرين) . طغوا وبغوا فاستحقوا العذاب تماماً كما استحق أمثالهم من الأمم الماضية ، وتدل الآية على ان الجن أمم وأجيال ، وان فيهم رسلاً وأنبياء ، وان منهم الصالحين ومنهم دون ذلك تماماً كالانس (وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا

سورة فصلت السجدة

القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون) . دهش الطغاة حين رأوا أثر القرآن وسلطانه على النفوس ، وماجوا في حيرة : ماذا يصنعون بعد أن عجزوا عن مقارعته بالبرهان ، ومقابلة الحجة بالحجة .. ثم اتفقوا أن يحاربوه بالباطل ، ويصفوه بالسر والأكاسير ، ويقابلوا تلاوته بالتشويش والهلذان .. بهذا السخف والجهل ينتصرون لباطلهم ، ويريدون أن يطفئوا نور القرآن .. وإذا دل قولهم : « والغوا فيه لعلكم تغلبون » إذا دل على شيء فلنما يدل على اعترافهم بالعجز إلا عن اللغو والهلذان ، وإن القرآن هو حصن الله الحصين الذي أعجز ويعجز الفكر الانساني على مدى العصور والأزمان .

(فلنذيقن الذين كفروا عذاباً شديداً ولنجزينهم أسوأ الذي كانوا يعملون) يتقسم عمل المجرمين الى قسمين : سيئ وأسوأ ، وكذلك الجزاء، لأن « من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها - ٤٠ غافر » وإنما ذكر سبحانه أسوأ أعمالهم ليبين ان جزاءهم غداً أسوأ الجزاء تماماً كأعمالهم (ذلك جزاء أعداء الله النار لهم فيها دار الخلد جزاء بما كانوا بآياتنا يمحذون) . ذلك اشارة إلى الجزاء على أسوأ الأعمال ، وهو الخلود في نار جهنم ، وهذا الخلود قد جعله الله جزاء كل جاحد ومعاند لما أقامه الله من الدلائل الواضحة على وحدانيته وعظمته .. وفي الآية إيماء الى ان الجاحد والمشرک لا عذر لهما على الاطلاق ، وإن الجهل إنما يكون عذراً في غير الجحود والشرك لأن دلائل الوحدانية لا غموض فيها ولا خفاء ، ولا تحتاج معرفتها والايمان بها إلا الى النظر المجرد عن الهوى والتقليد .

(وقال الذين كفروا) من الضملاء التابعين : (ربنا أرنا للذين أضلانا من الجن والانس) المتبوعين (نجعلها تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين) . سألوا الله سبحانه أن يسلطهم على من أضلهم من شياطين الإنس والجن ليدوسوهم بالأقدام ويكونوا في مكان أعق من مكانهم في الجحيم .. ولكن الله سبحانه قد كفاهم ذلك حيث أخذ كلاً بذنبه السيئ والأمور .

قالوا ربنا الله ثم استقاموا الآية ٣٠ - ٣٦ :

إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ * فَمَنْ أُولِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ * نَزَّلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ * وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ * وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلْقَاها إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاها إِلَّا ذُو حِظٍّ عَظِيمٍ * وَإِذَا يَنْزَعُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ *

اللغة :

النزل ما يُعَدُّ للنازل ، والمراد به هنا الرزق والعطاء . والترغ في اللغة التفرغ والوترز ونزع الشيطان اغراؤه بالشر .

الإعراب :

نزلًا منصوب على المصدر أي أنزلكم ربكم نزلًا ، ويجوز أن يكون حالًا من « ما تدعون » أي من اسم الموصول . وإما كلمتان « انه الشرطية و « ما »

الزائدة ، ولذا دخلت نون التوكيد على يترغتك لأنها لا تدخل على فعل الشرط إلا إذا كان مع الشرط « ما » الزائدة .

الله والانسان والعمل :

من تتبع آي الذكر الحكيم يجد أنها تدل بمنطوقها ومفهومها على ان العمل مع الايمان هو كل شيء بالنسبة الى الانسان . واليك الدليل .

١ - الآيات الناطقة بأن الغاية الأولى والحكمة الكبرى من وجود الانسان هي العمل الصالح . ومن هذه الآيات قوله تعالى : « الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً » - ٢ تبارك « وقوله : « وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون » . أي ليعملوا . أنظر فقرة « لماذا خلق الله الانسان » عند تفسير الآية ٣٣ من سورة لقمان .

٢ - الآيات التي دلت على ان العمل هو الميزان الذي يقيّم الانسان على أساسه ، مثل قوله تعالى : « كل امرئ بما كسب رهين » - ٢١ الطور ، وقوله : « وما تجزون إلا ما كنتم تعملون » - ٣٩ الصافات ، وقوله : « ولكل درجات بما عملوا » - ١٣٢ الأنعام ، إلى غير ذلك .

٣ - أما قوله تعالى : (ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا) فهو دليل واضح وقاطع على ان العمل هو الظاهرة الوحيدة التي تعكس الايمان بالله حقاً وواقعاً ، وان أي انسان يقول : أنا مؤمن دون أن يترجم ايمانه بالسلوك والعمل في علاقته مع خالقه ومع نفسه ومع مجتمعه فهو مفتر كذاب . ومن نافلة الكلام أن نقول : ان مقصود القرآن من العمل هو العمل البناء المثمر ، وان كل قول ينتج هذا العمل فهو في حكمه . وتكلمنا عن الاستقامة مفصلاً في ج ١ ص ٢٦ و ج ٥ ص ٢٧٣ .

٤ - وفوق ذلك كله فإن الله سبحانه استدل على وجوده وعظمته بالعمل ، قال عز من قائل : « سريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم انه الحق » - ٥٢ فصلت . ثم ذكر سبحانه في كتابه العديد من هذه الآيات، نكتفي

بواحدة منها : « خلق الانسان علمه البيان الشمس والقمر بحسبان - « الرحمن » .
 (تنزل عليهم الملائكة الا تخافوا ولا تحزنوا وابشروا بالجنة التي كنتم
 توعدون) . لكل شيء أجل معلوم ، واذا جاء أجل الذين استقاموا على الطريقة
 الإلهية تنزلت عليهم ملائكة الرحمة بالسكينة والبشرى بأن الله قد اطلع على عملهم ،
 ورضي سعيهم ، وأعد لهم مقاعد الكرامات التي وعدهم بها على لسان أنبيائه ورسله
 (نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما
 تدعون نزلاً من غفور رحيم) . ما زال الكلام للملائكة الرحمة مع الذين استقاموا .
 وما تدعون أي ما تتمنون ، والتزل العطاء ، ويتلخص المعنى بأن أهل الطاعة
 والاستقامة هم عند رب رحيم ، ولهم ما يشاؤون من الرزق الكريم . وقال ابن
 عربي في الفتوحات المكية حول هذه الآية كلاماً تلخصه بأن الملائكة تقول للمخلصين
 قبل أن ينتقلوا من دار الفناء الى دار البقاء ، تقول لهم : نحن أولياؤكم في الدنيا
 لأن الشيطان كان يغريكم بالعدول عن صراط الله المستقيم ، ونحن ننهاكم عنه وكنتم
 تسمعون لنا من دونه .. وأيضاً نحن أولياؤكم في الآخرة لأننا نشهد لكم عند الله
 بالإيمان والاستقامة .

(ومن أحسن قولاً ممن دعا الى الله وعمل صالحاً وقال انني من المسلمين) .
 إذا عطفنا هذه الآية على قوله تعالى : « قالوا ربنا الله ثم استقاموا » وجمعناهما
 في كلام واحد - ينتج معنا ان الإيمان الحق على ثلاث شعب : الأولى اعلان
 الإيمان بالله . الثانية العمل بشريعة الله ، وأهمه وأعظمه الاسهام في خدمة الانسان .
 الثالثة الدعوة الى الله . ويدل على الأولى « قالوا ربنا الله » أي أعلنوا ذلك على
 الملأ ، ويدل على الثانية « ثم استقاموا » وعلى الثالثة « دعا الى الله » . ومن
 جمع بين هذه الصفات الثلاث فله ان يدعي الاسلام ، ويقول : « انني من
 المسلمين » ومن قالها دون أن يؤمن بالله أو آمن ولم يسهم في خدمة الانسان ولم
 يدع الى الله فإله هو من الاسلام ولا المسلمين في شيء وان حوصل معاملتهم في
 الدنيا .

(ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه
 عداوة كأنه ولي حميم) . الخطاب في ادفع وفي بينك لمحمد (ص) . وبدل السياق

سورة فصلت السجدة

على ان المراد بالحسنة هنا حسنة الرسول الداعي الى الله ، وهي جهاده وصبره على الأذى في سبيل هذه الدعوة ، والمراد بالسيئة سيئة السفیه الجاهل من الدين دعاهم الرسول إلى الله ، والمعنى : فرق بين عملك يا محمد وأنت تدعو الى الله وتحمل الأذى في سبيله صابراً محتسباً وبين عمل الذين أجابوا دعوتك الى الله بالإعراض والأذى والافراء .. ان عملك صلوات وحسنات ، وعملهم سيئات ولعنات .. وعلى الرغم من ذلك فعليك أن ترفق بهم وتسامح معهم وتصبر على سفاهتهم ، فإن منهم من لو قابلته بهذه الساحة لعاد إلى ربه وعقله وانقلبت عداوته لك إلى محبة ، وبغضه إلى مودة .

والانسان أي انسان ، يستطيع أن يكسب أصدقاء يقاتلون معه بكلمة طيبة ، وان يخلق له أعداء يقاتلون ضده بكلمة خبيثة ، وقد استطاعت كلمات الأبرار ان تهدي الكثير من الفجار ، وتُنهي العديد من المشاكل بين البشر ، ولولاها لجرت الدماء أنهرأ .

(وما يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حِظٍّ عَظِيمٍ) . ضمير يلقاها يعود إلى هذه الصفة ، وهي دفع السيئة بالحسنة ، وذو الحظ العظيم من كان مرضياً عند الله ، والمعنى ان دفع السيئة بالحسنة منقبة عظيمة لا يتحلى بها إلا من صبر عند الشدائد ، وكان وجيهاً عند الله . وفي نهج البلاغة : الصبر من الإيمان كالرأس من الجسد ، ولا خير في جسد لا رأس معه ، ولا في إيمان لا صبر معه . وفيه أيضاً : احصد الشر من صدر غيرك بقلعه من صدرك .

(وإِذَا يَتَزَوَّجُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) . الخطاب لمحمد (ص) ، وتدل الآية بالفحوى على ان الانسان معرض للخطأ ، وان عليه أن يحاط نفسه ، ولا يزكيها بالفاء ما بلغ من الدين والعلم والعقل . وتقدمت هذه الآية بالحرف الواحد في الآية ٢٠٠ من سورة الأعراف ج ٣ ص ٤٣٩ .

لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ الْآيَةُ ٣٧ - ٤٦ :

وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا

لِقَمَرٍ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ * فَإِنِ
استَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا
يَسْأَمُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّهُ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ
اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
قَدِيرٌ * إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفُونَ عَلَيْنَا أَفَمَن يُلْقَى فِي
النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ
بَصِيرٌ * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ *
لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ *
مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ
وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ * وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَبِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ
آيَاتُهُ الْأَعْجَمِيَّ وَعَرَبِيَّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً وَالَّذِينَ لَا
يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقُرْ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ
بَعِيدٍ * وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ
مِنْ رَبِّكَ لَفُضِّي بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ * مَنْ عَمِلَ صَالِحًا
فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ *

اللغة :

خاشعة هامة لا حياة فيها . وربت زادت . والإلحاد الانحراف عن الحق والمراد به هنا الطعن في القرآن . وحيد محمود . والفرق بين الأعجم والعجمي ان الأعجم من لا يفصح وان كان عربياً ، والعجمي المنسوب الى العجم . وقد يطلق أحدهما على الآخر . والوقر الصمم .

الإعراب :

المصدر من انك ترى مبتدأ وخبره من آياته . وترى هنا بصرية تحتاج الى مفعول واحد وهو الأرض . وخاشعة حال . وآمنا حال من ضمير يأتي . وأن الذين كفروا بدل من ان الذين يلحدون ، وخبر ان محذوف أي معذبون أو لا يخفون علينا ، وقد حذف من الثاني لدلالة الأول عليه . وعزيز صفة لكتاب ، وجملة لا يأتيه صفة ثانية ، وتتريل صفة ثالثة . ولولا أداة تفضيض بمعنى هلا . وأعجمي خبر مبتدأ محذوف وكذلك عربي أي أكتاب اعجمي ونبي عربي . فلنفسه متعلق بمحذوف خبراً مبتدأ محذوف أي فعله لنفسه .

الرحلة الى القمر :

(ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر) . ذكر سبحانه في كتابه العزيز العديد من الآيات الكونية ودلائنها على الخالق وصفاته ، ومن تلك الآيات اختلاف الليل والنهار ، وخلق الشمس والقمر . انظر تفسير الآية ٢٧ من سورة آل عمران ج ٢ ص ٣٧ وتفسير الآية ٣٧ وما بعدها من سورة يس والآية ٥ من سورة الزمر وغيرها من الآيات التي فيها ذكر الليل والنهار والشمس والقمر .

ولمناسبة ذكر القمر في هذه الآية نشر الى الحدث العالمي الهام ، وهو رحلة رائدي الفضاء : «ونج» و «ادوين» الأمريكيين الى القمر في صيف سنة ١٩٦٩ ، وقد تكلم الناس عنها كثيراً ، وسألني أكثر من واحد عن رأي الدين في هذه

الرحلة ، وأجبت بكلمة نشرتها الصحف ، ثم أدرجتها في المجلد الخامس من التفسير الكاشف بمناسبة بعض الآيات ، ولما وصل إليها عامل المطبعة شعرت من أعماقي بناصح بأمرني بالعدول عنها فاستنصحته دون أن أعرف السبب .

وبعد الانتهاء من طبع المجلد الخامس بقليل ظهر لي ان الحرية فيها وقع ، ذلك اني قرأت في جريدة الأخبار المصرية عدد ٦ - ٢ - ١٩٧٠ مقالاً مترجماً عن جريدة برفادا السوفيتية لعالمين بارزين في العلوم الطبيعية ، وهما « م فاسين » و « اشرباكوف » السوفييتان .. اطلع هذان العالمان على النتائج التي أعلنها العلماء الامريكيون للدراسة تربة القمر والمعادن الموجودة في أرضه ، وقالوا : « ان هذه الدراسة ترفض كل النظريات الشائعة عن أصل القمر ، ولا تقبل إلا تفسيراً واحداً ، وهو ان القمر مصنوع صنفاً دقيقاً ومحكماً ، وان الذي صنعه قوة خارقة مذهلة تملك من الطاقات ما لا يملكه كائن من الكائنات » ، وينتج من هذا ان ما يعتقده الماديون عن الكون هو مجرد أوهام ، ونقتطف من هذا المقال الكلمات التالية :

« ان الدراسات العلمية الحديثة ترفض كل ما قيل من النظريات والافراضات عن نشأة القمر ، وتبدأ بفكرة جديدة لحل هذا اللغز .. وتقول هذه الفكرة الجديدة : ان صناعة القمر تمت بأيدي « كائنات » متقدمة في علومها وآلاتها الفنية .. ثم « فرملت » حركته بواسطة الأجهزة البالغة التقدم بداخله .. ان في القمر ظواهر غريبة يستحيل أن توجد بالصدفة ، وقد اجتهد صانعو القمر كثيراً حتى توصلوا إليها .

« ان الغلاف الخارجي للقمر يتكوّن من طبقتين أساسيتين : الأولى طبقة عازلة للحرارة ، سمكها حوالي ٤ كيلومترات ، والثانية سمكها ٣٠٠ كيلومتر ، وفوقها أجهزة وآلات مختلفة تم تصميمها لحماية المحركات . فالقمر - اذن - مذهب الصنع يستطيع تحمل السفر الطويل والتواجد في مكانه ملايين الملايين من السنين . ولكن يبقى هذا السؤال قائماً ، وهو إذا كان القمر قد صنعه « كائنات عاقلة متقدمة » فمن أين جاءت هذه الكائنات ؟ ولماذا تكبدت هذا المجهود لصنع هذا الكوكب ؟ المجرد ان يدور حول كوكبنا بالذات ؟ . وهنا لا تقدم النظرية الجديدة اجابات .. ولكنها تعتقد ان أقرب الافتراضات إلى العقل من أي شيء آخر هو ان القمر مصنوع ، وقد أحكمت صنعه قوة مذهلة » .

هنا هو بيت القصيد وشاهدنا من المقال ، أعني قول العالمين الشيوعيين : « ان العقل يرفض كل افتراض وتفسير لوجود القمر إلا افتراضاً واحداً ، وهو ان القمر مصنوع ، وان الذي صنعه قوة مذهلة » . أجل ، هو مصنوع وصانعه لا شريك له ولا مثيل ، وهندسته هي التي أرشدتنا إلى ذلك . أما قول العالمين : صنعه كائنات متقدمة .. وفركته أجهزة خارقة بالغة الدقة .. وان صانعه بذلوا جهداً كبيراً في صنعه لأجل اخراجه ، أما هذا القول فإنه اعتراف صريح بأن ما في القمر من دقة وإحكام لا يكون ومحال أن يكون إلا من لدن قدير حكيم ليس كمثله شيء ، وهو الخلاق العليم .. ونحن على يقين بأننا سنقرأ في المستقبل القريب اعترافات أوضح تهدم أقوال الماديين ونظريات الملاحدين ، وثبتت بالحس والتجربة ان وراء هذا الكون قوة قاهرة تقول للشيء كن فيكون .. وهذه نتيجة لا مفر منها لتقدم العلوم وانطلاق العقل نحو الكون العجيب .. وهنا يكمن السر لقوله تعالى : « أولم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق من شيء - ١٨٥ - الأعراف » . وقوله : « هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه - ١١ - لقمان » . وقوله : « ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون - ٤ - الرعد » .

(لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن ان كنتم إياه تعبدون) . ضمير الاناث في خلقهن يعود الى الليل والنهار والشمس والقمر ، أو إلى جميع الكواكب ، وعبر سبحانه عنها بالشمس والقمر لأنها أظهر الأفراد .. وقد اتفق الفقهاء قولاً واحداً على أنه يجب أن يسجد قارئ هذه الآية ومن استمع اليها ، وقال بعضهم : بل ومن سمعها من غير قصد . وهي مخاطبة الصابئة الذين عبدوا الكواكب لما فيها من المنافع ، مخاطبهم وتقول لهم : ان الله هو الذي خلق الكواكب وسخرها لمنافع العباد ، وما هي إلا مخلوقات مثلنا تتوجه اليه تعالى بالسجود وتعترف له بالعبودية .

(فان استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون) . ضمير استكبروا يعود لعبدة الكواكب ، والمعنى ان أصر هؤلاء على الشرك فإن الله غني عنهم وعن عبادتهم لأن له عباداً - الملائكة - لا يفرون عن التبجيل له ليلاً ونهاراً (ومن آياته انك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذي أحياها لمحيي الموتى انه على كل شيء قدير) . تكرر هذا المعنى

في العديد من الآيات وبأساليب شتى، منها الآية ٥ من سورة الحج ج ٥ ص ٣١١ .
(ان الذين يلحدون في آياتنا لا يخفون علينا) . طعن المشركون بالقرآن فقالوا : هو سحر ، وقالوا : انه أساطير .. والله علم بأقوالهم، وسائلهم عنها ، وأخذهم بها (أفمن يلقى في النار خير أم من يأتي آمناً يوم القيامة) ؟ وهذا السؤال يحمل جوابه معه ، وأي عاقل يقول : النار خير من الجنة ، والخوف أحسن من الأمن ؟ ولكن المجرمين ذهلوا عن هذه البديهة وانهم في واقعهم قد آثروا الجحيم على النعيم، والخوف على الأمن (اعملوا ما شئتم انه بما تعملون بصير). هذا تهديد ووعيد بأنهم سيلاقون العذاب بعد أن ركبوا اليه طريق الكفر والضلال (ان الذين كفروا بالذكر لما جاءهم). المراد بالذكر القرآن، وخبر ان مخلوف أي معذبون.

اسرائيل والقرآن :

(وانه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) . وصف سبحانه القرآن بأنه عزيز وانه لا يأتيه الباطل، ومعنى عزيز انه القاهر الغالب بمججه الواضحة وبراهينه القاطعة ، أما حفظه من الباطل فقد ذكر له المفسرون خمسة معاني ، وأقربها ان كل ما فيه من عقيدة وشرعة وأنباء وغيرها فهو حق لا ريب فيه . وتقدم الكلام عن ذلك مفصلاً عند تفسير الآية ٩ من سورة الحجر ج ٤ ص ٤٦٨ . وذكرنا هناك ان اسرائيل طبعت الوف النسخ من القرآن ، وشوهت بعض الآيات ، منها الآية ٨٥ من سورة آل عمران التي صارت في قرآن اسرائيل : ومن يتبع غير الاسلام ديناً يفسد منه . وقد حدث هذا سنة ١٩٦٨ . فجمع الأزهر هذه النسخ ومنعها من الانتشار، ولكن اسرائيل عادت ثانية وزوّرت سنة ١٩٦٩ آيات أخرى منها : «وقالت اليهود يدالله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا - ٦٤ المائدة » فغيرت اسرائيل كلمة لعنوا الى كلمة «آمنوا» وغمرت بهذه النسخ أسواق لبنان ومعظم البلاد العربية وماليزيا وباكستان والهند وأندونيسيا وغينيا وساحل العاج وايران .. وفي هذا اليوم بالذات ٢٥-٢-٧٠ نشرت جريدة « النهار » البيروتية ان المحامي فاروق سعد أقام بوكالته عن مكتبة ومطبعة المشهد الحسيني بالقاهرة دعوى على مجهول بجرم تزوير طبعة القرآن الكريم

وتقليدها وتحريفها وتعديلها ، وان النسخ المحرفة طبعت في ألمانيا الغربية في مطبعة « كولونيا - دويتس » .

ولم تقف اسرائيل في حربها للإسلام والمسلمين عند هذا الحد .. فأذاعت القرآن من اذاعتها محرراً ، وقد ظلت اذاعة القاهرة شهراً كاملاً تسجل القرآن من اذاعة اسرائيل .. وأيضاً صممت اسرائيل «راديوها» لا تلتقط إلا اذاعتها التي تحرف القرآن وياعتها بأجناس الألمان .. فعلت اسرائيل هذا وأكثر من هذا تطبيقاً للمبدأ الصهيوني الذي أعلنه أحد زعماء الصهاينة بقوله : « يجب أن نتخذ القرآن سلاحاً مشهراً ضد الاسلام لنقضي عليه » .

نذكر هذا كمثل للحرب التي تشنها اسرائيل على الاسلام .. عسى أن يعتبر به بعض الملوك والرؤساء بل وبعض الشيوخ أيضاً الذين يتسمون باسم الاسلام ، ويعملون في الخفاء لصالح اسرائيل ومن يساندها .. وطريف قول بعض الشيوخ المزيفين : ان اسرائيل أحسن من غيرها لأنها تذيب القرآن من اذاعتها .. أجل ، يا شيخ انها تذيبه بل وتطبعه وتشره أيضاً، ولكن مزيفاً ومحرراً لتقضي على الاسلام تماماً كبعض المعمّنين المزيفين .

(ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك) . قال مشركو الأمم السابقة لرسلهم وأنبيائهم : « قلوبنا في أكنة مما تدعونا اليه .. ما هذا إلا سحر مفترى .. ان هذا إلا أساطير الأولين .. ان رسولكم الذي أرسل اليكم لمجنون الخ .. » وهكذا قال لك يا محمد طغاة قومك لأن الإله الذي أرسلك وأرسل من كان قبلك واحد، ورسالته واحدة ، ومصلحة الطغاة التي تحول بينهم وبين اتباع الحق هي هي في كل زمان ومكان (ان ربك ل ذو مغفرة وذو عقاب أليم) . جمعت الآية بين ذكر الضدين : العفو عن الذنب إذا تاب صاحبه ، والأخذ به إذا أصر عليه .. وهكذا سبحانه في الكثير من الآيات يقرن الوعد بالوعيد والترغيب بالترهيب كي يخشى العبد من عذاب الله قتيقبيه ، ولا يقنط من رحمته فينتوب ويؤوب .

(ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فصلت آياته أعجمي وعربي) . نزل القرآن على العرب بلغتهم التي يحبونها ويعتزون بها ، فقال بعض طغاتهم لبعض : « لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه » . ولو نزل بغير لغتهم لاعترضوا وقالوا : أنبي عربي وكتاب أعجمي؟ هكذا يعدون لكل باب مفتاحاً ، ولكل ليل مصباحاً ،

ولا هدف إلا الهروب من الحق .

(قل هو للدين آمنوا هدى وشفاء) القرآن هدى لمن طلب الهدى والحق لوجه الحق ، وشفاء لمن طلب الشفاء من الكفر والنفاق . قال الإمام علي (ع) : « ان في القرآن شفاء من أكبر الداء ، وهو الكفر والنفاق والبغي » . (والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عى) القرآن هدى ونور للمخلصين ، وعى ليعيون المنافقين ، وصمم لأسماعهم ، ومرض لقلوبهم (أولئك ينادون من مكان بعيد) . ناداهم القرآن في الدنيا بدعوة الله فلم يستجيبوا له ، حتى كأنه لا نداء ، أو ان النداء بعيد لا تسمعه الآذان .. وأيضاً سوف يناديهم المنادي يوم القيامة : « ألا كل حارث مبتلى في حرثه وعاقبة عمله غير حرث القرآن » كما في نهج البلاغة . وقال المفسرون : ان قوله تعالى : « من مكان بعيد » إشارة إلى أنهم لا يسمعون ولا يفهمون تماماً كالذي يدعى بصوت بعيد عنه لا يسمعه ولا يفهمه .. ويلاحظ بأن هذا المعنى يناقض الغرض المطلوب من النداء لأنه غير مسموع . والأرجح أن يكون قوله تعالى : من مكان بعيد إشارة إلى أن الصيحة تأتي من السماء ولكن يسمعها الجميع ، ويدل على ذلك قوله تعالى : « يوم يناد المناد من مكان قريب يوم يسمعون الصيحة بالحق » ٤٢ ق .

(ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه) . المراد بالكتاب التوراة ، وقد اختلفوا فيها عند نزولها ، فمن مصدق ومكذب ، وكذلك اختلفوا في القرآن عند نزوله ، فمن مؤمن به وكافر (ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم) . لقد شاعت حكمته تعالى أن يؤخر عذاب المجرمين إلى يوم يبعثون ، ولولا ذلك ما ترك على ظهرها من طاغٍ ولا أئيم (وأنهم لفي شك منه مريب) . ضمير انهم يعود لمشركي العرب ، وضمير منه للقرآن ، والمراد بالشك هنا الجدل بغير العلم والحق ، والمعنى أنهم يجادلون في القرآن ، ولكن بالجهل والباطل وتقدمت هذه الآية بنصها الحرفي في سورة هود الآية ١١٠ ج ٤ ص ٢٧٢ (من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد) . تكرر هذا المعنى في العديد من الآيات ، منها الآية ٥٤ من سورة يس : « فالיום لا تظلم نفس شيئاً ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون » . والآية ١٧ من سورة غافر : « اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم » وكثير غيرها من الآيات التي تنطق بأن الانسان مخير غير مسير .

الْمَجْمُوعُ الْخَامِسُ وَالْعِشْرُونَ

اليه يرد علم الساعة الآية ٤٧ - ٥٠ :

إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْثَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ
أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِيَ قَالُوا أَدْذَاكَ مَا
مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ * وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنُوا مَا لَهُمْ
مِنْ مَحْصٍ * لَا يَسْأَلُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ
قَنُوطٌ * وَلَئِنْ أَدْخَلْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي
وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ
فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ *

اللمة :

المراد بالساعة هنا يوم القيامة . والأكمام جمع كم بكسر الكاف ، وهو غلاف
الثمرة قبل ظهورها . وأذناك أعلمناك . ومحيص مهرب . ولا يسأل لا يمل ، والمراد
بالخير هنا المال والجاه والصحة والولد . والمراد بالرحمة كل ما يسر به الإنسان ،
وضدها الضراء .

الإعراب :

وما تخرج وما تحمل « ما » نافية . من ثمرات « من » زائدة وثمرات فاعل
تخرج . ومن أكمامها متعلق بمحذوف صفة لثمرات . ويعلمه متعلق بمحذوف حالاً
أي إلا كائنات يعلمه . وما لهم من محيص « من » زائدة ومحيص مبتدأ وخبره لهم .

سورة فصلت السجدة

ومن دعاء الخير أي من دعائه الخير . فيؤوس خبر مبتدأ محذوف أي فهو يؤوس .
ولئن اللام للقسم وإن شرطية . وليقولن جواب القسم ساداً مسدّ جواب
الشرط .

المعنى :

(إليه يرد علم الساعة) . لا أحد يعلم متى تقوم الساعة إلا الله وحده . وفي
نهج البلاغة : أنتم والساعة في قرن . والقرن الحبل أي إن الإنسان مقرون بها . ومن
مات فقد قامت قيامته (وما تخرج من ثمرات من أكمامها وما تحمل من أنثى^١
ولا تضع إلا بعلمه) . تقدم مثله في الآية ٥٩ من سورة الأنعام ج ٣ ص ٢٠٠
(ويوم يناديهم أين شركائي قالوا آذناك ما منا من شهيد) . يسأل سبحانه غداً
المشركين موجعاً : أين ما كنتم تعبدون من دون الله ؟ هل ينصرونكم أو ينتصرون ؟
فيقولون لله سبحانه : أخبرناك أنه لا أحد منا يشهد في هذا اليوم إن لك شريكاً
(وضل عنهم ما كانوا يمدعون من قبل) . لا يجد الإنسان يوم القيامة صنياً ولا
مالاً ولا ولداً ، ولا حيلة أو وسيلة ، لا شيء إلا الحساب والجزاء على الأعمال
(وظنوا ما لهم من محيص) . ينكشف الغطاء غداً للمجرمين ويوقنون أنه لا مفر
من العذاب .

(لا يسأم الإنسان من دعاء الخير وإن مسه الشر فيؤوس قنوط) . يلج الإنسان
في طلب المال والجاه والصحة والأمان ، ويبالغ في ذلك بلا ملل وانقطاع ، فإن
أصيب بشيء من دنياه خارت قواه ، وقنط من رحمة الله (ولئن أذناه رحمة منا
من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لي) . يطلب الدنيا بالحساح ، ويأس أن فاته
شيء منها ، وإن أنجاه الله من محنة يقاسيها قال : نجوت بحولي وقوتي ولا
فضل لأحد عليّ .. ولا يسلم من هذا الغرور القاتل إلا أهل الحق والعقل
السليم .

١ آخر ما توصلت إليه الأبحاث الطبية أنه يمكن معرفة نوع الجنين : هل هو ذكر أو أنثى ابتداء من
الشهر الثالث . انظر تفسير الآية ٣٤ من سورة لقمان .

(وما أظن الساعة قائمة ولئن رجعت الى ربي ان لي عنده للحسنى) . ما زال الكلام للجاهل المغرور ، ومعناه - على لسانه - أنا الذي فعلت وفعلت في الحياة الدنيا ، أما البعث بعد الموت الذي يخوفي منه المؤمنون به فهو وهم .. وإن صح فإن لي في الآخرة من الرزق والمكانة خيراً . وأفضل لأنني أهل لكل مكربة .. وإذا لم يكن لهذا الجهول من ذنب إلا هذه الغطرسة لكفى بها ذنباً . وتقدم هذا بصورة أوسع في الآيات ٣٢ - ٤٤ من سورة الكهف ص ١٢٦ - ١٣١ .

(فلننبئن الذين كفروا بما عملوا ولنذيقنهم من عذاب غليظ) . ما من سيئة يقترفها الانسان في هذه الحياة إلا ويجد علمها غداً عند الله ، وهو سائله عنها ومعاينه عليها بما يستحق ، فإن كانت من نوع الذنوب الكبار كالكفر والشرك والظلم أذاق الله صاحبها العذاب الأكبر ، وإن كانت دون ذلك كان العذاب أخف مع العلم بأن كل بلاء دون النار عافية .

سزيرهم آياتنا في الآفاق الآية ٥١ - ٥٤ :

وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاهُ عَرِيضٌ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ يَمُنْ هُوَ فِي شِقَاقِ بَعِيدٍ * سَزِيرِهِمْ آيَاتُنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ * أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ *

اللغة :

جانب الانسان أحد شقيه ، ونأى بجانبه كناية عن تعاضله . وعريض كثير .

سورة فصلت السجدة

أرأيتم اخبروني . والشقاق البعيد، الخلاف مكابرة وعناداً . والآفاق أقطار السموات والأرض .

الإعراب :

فلمو دعاء خبر لمبتدأ محذوف أي فهو ذو دعاء . والمصدر من انه الحق فاعل يتبين . والباء في « بربك » زائدة وربك فاعل يكف . والمصدر من أنه على كل شيء بدل من ربك . وألا أداة تنبيه .

المعنى :

(وإذا أنعمنا على الانسان أعرض ونأى بجانبه وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض).
ان استغنى بطر وقتن ، وان افتقر قنط ووهن كما قال الإمام علي (ع) . وتقدم مثله في سورة يونس الآية ١٢ ج ٤ ص ١٣٩ وسورة هود الآية ٩ ج ٤ ص ٢١٢ وسورة الإسراء الآية ٨٣ ج ٥ ص ٧٨ .

(قل أرأيتم ان كان من عند الله ثم كفرتم به من أضل ممن هو في شقاق بعيد) . الخطاب في أرأيتم لمن كذب بالقرآن ، والشقاق البعيد الخلاف مكابرة وعناداً .. أمر سبحانه نبيه الكريم أن يقول لهم : أترعمون ان القرآن أساطير ؟ اخبروني ماذا يكون حالكم ومآلكم ان كان القرآن حقاً من عند الله ، وأنتم تخالفونه مكابرة وعناداً .. ألا ترحمون أنفسكم ، وتحتاطون لها من عذاب النار ؟

الكون هو قرآن الله الكبير :

(سترهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم انه الحق) . يقيم سبحانه الدليل لعباده كي يقتنعهم بوجوده وصحة دينه وصدق كتبه ورسله ، يقيم لهم الدليل على ذلك من الحس والمشاهدة من أنفسهم ومن الكون الظاهر للعيان، ويكشف عما فيها من الدلائل ، فينبه العقول الى خلق السموات والأرض ، واختلاف الليل

والنهار ، وتصريف الرياح والسحاب ، وإحياء الأرض بعد موتها ، وحركة الكواكب ومنافعها ، وخلق الانسان في أحسن تقويم ، وما إلى ذلك مما يدركه الانسان بحواسه ويدل دلالة قاطعة على وجود الله ، وانه هو وحده الخالق المهيمن على كل شيء .

وإذا كان الله سبحانه يعتمد على الدليل الحسي لاقتناع عباده وبخاطبهم بقوله : « فاعتبروا يا أولي الأبصار - ٢ الحشر » أي العيون ، وقوله « أفلا تبصرون السجدة » إذا كان كذلك فكيف يقال : ان الدين غيب في غيب لا يعتمد على الحس والتجربة ؟ كلا ، انه يثبت بالحس والمشاهدة ما غاب عن العين تماماً كما ثبت عقل العاقل من أقواله وأفعاله ، ويثبت علماء الطبيعة بالحس الكثير من الحقائق التي لا تدرك بالحس والعيان ، وبهذا يتبين خطأ بعض الأدباء في قوله : « ان الله دائماً يتقبل من الذين يؤمنون بالغيب دون حاجة الى برهان ودون حاجة الى عيان - مجلة صباح الخير ٢٦ - ٢ - ١٩٧٠ » .. هذا ، الى أن علماء المسلمين أجمعوا على وجوب النظر لمعرفة الله تعالى والايان به مستندين في ذلك الى حكم العقل والآيات القرآنية ، ولكن أديباً ما يقول العكس .. ومع ذلك يتصدى لتفسير القرآن .

قال ابن عربي في الفتوحات المكية : انك لا تقدر أن تنكر ما ترى ، كما انك لا تقدر أن تجهل ما تعلم ، وأنت ترى الوجود ، وتعلم به علم اليقين ، وهو حروف وكلمات وسور وآيات تنطق بوجود كاتبها وهو الله وان لم تره ، فالوجود قرآن الله الكبير الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . انظر تفسير الآية ٤ من سورة الأنعام ج ٣ ص ١٦١ فقرة « لا دكتاتورية في الأرض ولا في السماء » .

(أو لم يكف بربك انه على كل شيء شهيد) . بعد ان قال سبحانه أنه يقيم الدليل لعباده في آفاق السموات والأرض وفي أنفسهم على ان الله حق ، والقرآن حق ، ونبوة محمد حق ، بعد هذا قال : وكفى بأدلة تعالى شاهد عدل وصدق على ذلك . وقال الصوفية في معنى الآية: ان الله هو الذي يشهد ويدل على وجود غيره ، أما هو فلا يحتاج شاهدأ من غيره يدل عليه .

سورة فصلت السجدة

(الا انهم في مربة من لقاء ربهم) . إنما كذبوا بالقرآن لأنهم لا يؤمنون بالغيب والجزاء .. وفي هذا إشعار بأن من لا يؤمن بلقاء الله فلن يهتدي الى خير (ألا انه بكل شيء محيط) يعلم ظاهر العباد وباطنهم ، ويجازي كلاً بما كسبت يده ، ان خيراً فخير ، وان شراً فشر ، ومن أجل هذا يعذب الذين كفروا بلقائه ، وكذبوا بكتابه جزاء بما كانوا يكسبون .

سُورَةُ الشُّورَى

٥٣ آية مكية . وقيل : إلا بضع آيات .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كذلك يوحى إليك الآية ١ - ٨ :

حَمَّ * عَسَى * كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ
 الْحَكِيمُ * لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ *
 تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ
 وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا لِمَنْ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَالَّذِينَ
 اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيفٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ *
 وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا
 وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجُمُعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ *
 وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ
 وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ *

اللغة :

حفيظ رقيب . وما أنت عليهم بوكيل أي لست موكلًا بهم . وأم القرى مكة .

الإعراب :

كذلك الكاف بمعنى مثل وعملها النصب صفة لمفعول مطلق محذوف أي إحياء مثل ذلك . والله فاعل يوحى . والذين اتخذوا مبتدأ أول والله مبتدأ ثان وحفيظ خبر المبتدأ الثاني والجملة خبر المبتدأ الأول . وقرآنًا مفعول أوحينا . وجملة لا ريب فيه صفة ليوم الجمع . وفريق مبتدأ وخبره محذوف أي منهم فريق . ومن ولي « من » زائدة إعراباً وولي مبتدأ وما لهم خبر مقدم ، والجملة خبر الظالمون .

المعنى :

(حم عسق) . تقدم للكلام عن هذه الأحرف أو الكلمات في أول سورة البقرة ، وقال بعض المفسرين : ان (حم عسق) هما اسمان لهذه السورة لبيان فضلها على سائر الحواميم . وقال الرازي : ان الكلام في أمثال هذه الفواتح يضيّق ، وفتح باب المجازفات مما لا سبيل إليه ، فالأولى أن يفوض علمها إلى الله .

(كذلك يوحى إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم) . ان القوي القادر الذي يدبر الأمور وفق تقديره وحكمته قد أوحى إليك يا محمد وإلى الأنبياء من قبلك ان (له ما في السموات وما في الأرض وهو العلي العظيم) . هو وحده مالك الكون بما فيه لا يملك معه أحد شيئاً إلا ملكه (تكاد السموات يتفطرن من فوقهن) . المراد بالسموات الكواكب العلوية ، وضمير فوقهن يعود إليها ، والمعنى ان الكواكب التي يعلو بعضها بعضاً تكاد تنشق من قول من قال : ان لله أنداداً . ومثله قوله تعالى : « تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً أن دعوا للرحمن ولداً » - ٩٢ مريم ، ج ٥ ص ٢٠٠ .

(والملائكة يستمعون بحمد ربهم) . ولو كان لله أنداد لما سبّحت الملائكة بحمد الله الذي لا إله سواه . قال الإمام علي (ع) : لو كان لله شريك لأنتك رسله ، ولرأيت آثار ملكه وسلطانه ، ولعرفت أفعاله وصفاته (ويستغفرون) أي الملائكة (لمن في الأرض) من المؤمنين والتائبين كما في الآية ٨ من سورة غافر :

« ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك » . (ان الله هو الغفور الرحيم) لا يمنع سائلاً يسأله الرحمة والمغفرة أبياً كان شريطة أن يسلك طريقها ، وهو التوبة وصدق النية .

(والذين اتخذوا من دونه أولياء الله حفيظ عليهم وما أنت عليهم بوكيل) . يقول سبحانه لنبيه : أنت مبلغ تبشر وتنذر فقط ، والله هو الذي يحصي على العباد أعمالهم وأقوالهم ومقاصدهم ويحاسبهم عليها . وتكرر هذا المعنى في العديد من الآيات . وليس من شك انه لا قسر ولا جبر على الإيمان ، ولكن من يعتدي على حرمة الناس يجب تأديبه وردعه لأنه هو الذي انتهك حرمة نفسه ، وأيضاً من يولد على الاسلام ثم يرتد عنه يجب قتله ، وكذا المسلم إذا ترك الصلاة أو الصوم تهوناً فإنه ينبه ويعزر ، فإن أصر يقتل بعد التنبيه الرابع .

وعلى هذا يتحتم تفسير الآيات التي قالت للنبي : ما أنت عليهم بوكيل ، يتحتم تفسيرها وتخصيصها بغير هذه الموارد وما إليها من المستثنيات ، أو نقول : انها نزلت في زمان ما كان النبي يملك فيه القوة الرادعة المؤدبة .

(وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً لتنذر أم القرى ومن حولها) أي لتبدأ يا محمد أول ما تبدأ بالدعوة الى الاسلام في بلدك مكة والبلدان التي حولها ، ثم تنتشر في أرجاء العالم ، كآية دعوة عامة تبتدىء حيث تولد ، ثم تنطلق الى سائر الأقطار . انظر تفسير الآية ٩٢ من سورة الانعام ج ٣ ص ٢٢٥ (وتنذر يوم الجمع لا ريب فيه فريق في الجنة وفريق في السعير) . يوم الجمع هو يوم القيامة الذي نفى سبحانه الريب عن وقوعه ، ويميز فيه أهل الجنة عن أهل النار ، وانما سمي يوم الجمع لأن الخلائق تجتمع فيه للحساب والجزاء : « ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود - ١٠٤ هود » .

(ولو شاء الله لجمعهم أمة واحدة) لو ان الله حل الناس على دين واحد بالقسر والجبر لزال صفة الانسانية عن الانسان حيث يكون ، وهذه هي الحال ، بلا ارادة واختيار تماماً كريشة في مهب الريح . وتقدم ذلك في الآية ٤٨ من سورة المائدة والآية ٩٣ من سورة النحل والآية ١١٨ من سورة هود ، وتكلمنا عنه مفصلاً عند تفسير الآية الأخيرة ج ٤ ص ٢٧٨ (ولكن يدخل من يشاء في

رحمته) وهم المؤمنون بدليل قوله تعالى : « وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون - ١٣٢ آل عمران » . (والظالمون ما لهم من ولي ولا نصير) لأنهم استجبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون .

أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه الآية ٩ - ١٤ :

أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَالَ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ * فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُوكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ * لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَنْسُطُ الرُّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ * وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوْرُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٌ *

اللغة :

أنيب ارجع . وفاطر خالق ومبدع . وأزواجاً الأولى الاناث ، والثانية الذكور والاناث . ويندركم يبرزكم الى الوجود نسلًا بعد نسل . ومقاليد مفاتيح . ويقدر بضيق . ويحتج بصطفي .

الإعراب :

أم اتخلوا «أم» بمعنى بل للانتقال من كلام الى كلام ، وقيل هي بمعنى الهمة فقط . وما اختلفتم «ما» اسم متضمن معنى ان الشرطية ، ويحتاج الى فعل الشرط وجوابه . ومن شيء «من» بيان لما ، أي كل شيء تختلفون فيه . وذلكم مبتدأ والله خبر وربّي بدل وفاطر خبر آخر . ويندركم فيه ضمير فيه يعود الى الجمل المفهوم من قوله تعالى جعل لكم . وكمثله الكاف زائدة اعراباً أي ليس مثله . وان أقيموا «ان» مفسرة لشرع لكم . وبغياً مفعول من أجله لتفروا .

المعنى :

(أم اتخلوا من دونه أولياء فالله هو الولي وهو يحيي الموتى وهو على كل شيء قدير) . بعد أن قال سبحانه في الآية ٦ : « والذين اتخلوا من دونه أولياء الله حفيظ عليهم » أعاد هنا هذا القول وزاد عليه بأنه تعالى وحده الناصر والمعين والمحيي والمميت والقادر على كل شيء ، أعاد مع هذه الزيادة بقصد الاستنكار على من اتخذ من دونه أولياء مع ان غير الله لا يحيي ولا يميت ولا ينصر ويعين لأنه لا يقدر على شيء .

(وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه الى الله ذلكم الله ربّي عليه توكلت واليه أنيب) . هذا حكاية لكلام الرسول الأعظم (ص) يخاطب به جميع الناس ، ويقول لهم ، ان كل شيء يختلف الناس في أنه حق أو باطل فالمرجع فيه الى القرآن ،

سورة الشورى

فقله الفصل ، وحكمه العدل ، ومثل هذه الآية قوله تعالى : « فإن تنازعتم في شيء فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً » - ٥٩ النساء « ج ٢ ص ٣٦٢ .

(فاطر السموات والأرض) خالقها ومدبرها ، ولا فرق عند الله بين خلق السموات والأرض وبين خلق النملة ، فقد أحكم خلق هذه تماماً كما أحكم خلق الكون (جعل لكم من أنفسكم أزواجاً) لتسكنوا اليها « وجعل بينكم مودة ورحمة ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون - ٢١ الروم » . (ومن الانعام أزواجاً) ذكوراً وإناثاً (ينزروكم فيه) أي في هذا الجعل ، وينزروكم هنا تتضمن معنى التكثير ، أي ان الله جعل الناس ذكوراً وإناثاً وكذلك الانعام ليتكاثر الناس والانعام ، وهذا التكاثر نعمة من الله تعالى .

(ليس كمثله شيء) لا في ذاته ، ولا في صفاته لأنه فوق كل شيء وخالق كل شيء ، لا إله إلا الله الواحد القهار (وهو السميع البصير) يسمع الأقوال ، ويبصر النوايا والأفعال (له مقاليد السموات والأرض يسطر الرزق لمن يشاء ويقدر انه بكل شيء عليم) . أرزاق السموات والأرض بيد الله يسطرها لهذا ، ويقبضها عن ذلك ، وهو عليم بما تستدعيه الحكمة ، وليس من شك ان البلغة من المال مع الصحة والأمان والدين والصلاح خير الف مرة من الكثرة مع الخوف والسقم والكفر والفساد . وتكلمنا عن الرزق بعنوان « الرزق وفساد الأوضاع » عند تفسير الآية ٦٦ من سورة المائدة ج ٣ ص ٩٤ ، وبمعنوان « هل الرزق صدقة أو قدر » عند تفسير الآية ١٠٠ ص ١٣١ من نفس السورة والمجلد ، وبمعنوان « الانسان والرزق » عند تفسير الآية ٢٦ من سورة الرعد ج ٤ ص ٤٠١ .

(شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى ان أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه) . أرسل سبحانه جميع الأنبياء بكلمة التوحيد والإيمان باليوم الآخر ، وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، وتحريم الظلم والنفس والزنا والكذب ، والأمهات والبنات والاخوات ، وما إلى ذلك من أصول الدين والشرعة دون فروعها التي تختلف وتتفاوت بحسب الظروف والمصالح ، وأشار سبحانه إلى ذلك بقوله : « لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً » - ٤٨ المائدة ،

ج ٣ ص ٦٨ ، وانما خص سبحانه بالذكر نوحاً وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد لأنهم من أولي العزم ، وإلا فإن هذا الموصى به واحد الى جميع الأنبياء .

وإذا كان الإله واحداً ، والدين واحداً ، والدعوة واحدة فلماذا التناحر والعداء في الدين ؟ وما هو المبرر لتلك الحروب الدينية التي سجلها التاريخ بأحرف الحزري والعار ؟ وتكلمنا مفصلاً عن دعوة الأنبياء وأنهم على دين واحد بعنوان : «الدين عند الله الاسلام » ج ٢ ص ٢٦ ، وتكلمنا عن الاختلاف بين أهل الأديان والمذاهب في المجلد المذكور ص ٢٩ بعنوان : « تفرق أمي ٧٣ فرقة » وفي المجلد الأول ص ١٧٨ فقرة « احتكار الجنة » ، وص ١٨١ فقرة « كل يعزز دينه » .

(كبر على المشركين ما تدعوهم اليه) يا محمد أولاً لأنك لا تملك سلطاناً ولا مالاً . ثانياً أنك تدعو الى الحق ، ولا شيء أثقل منه على أهل الأهواء والباطل . ثالثاً وصفت آباءهم بالجهل والفساد . (الله يجتبي اليه من يشاء) . وقد اختار محمداً لأنه أهل لرسالته ، وختم به جميع الرسل حيث لا يقاس به أحد من الأولين والآخرين (ويهدي اليه من ينيب) . كل من يلجأ الى الله بصدق وإخلاص يستجيب له ويهديه : « ومن يؤمن بالله يهد قلبه - ١١ التغابن » .

(وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم) . تقدم مثله في الآية ٢١٣ من سورة البقرة ج ١ ص ٣١٧ والآية ١٩ من سورة آل عمران ج ٢ ص ٢٨ (ولولا كلمة سبقت من ربك الى أجل مسمى لقضي بينهم) . تقدم في الآية ١٩ من سورة يونس ج ٤ ص ١٤٤ والآية ١١٠ من سورة هود ج ٤ ص ٢٧٢ والآية ١٢٩ من سورة طه ج ٥ ص ٢٥٣ والآية ٤٥ من سورة فصلت .

(وان الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفي شك منه مريب) . المراد بالذين أورثوا الكتاب اليهود والنصارى ، وضمير من بعدهم يعود الى الأنبياء أو الى الأمم السابقة ، وضمير منه يعود الى محمد المصطفى من قوله تعالى : « الله يجتبي اليه من يشاء » والمعنى ان أهل الكتاب جعلوا ما جاء به محمد (ص) على الرغم من شواهد البينات على نبوته وصدق رسالته .

واستقم كما امرت الآية ١٥ - ١٨ :

فَإِذْ لَكَ فَادَعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أَمَرْتُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا
أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأَمَرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا
وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ*
وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ
رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ* اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ
بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ* يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ
لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلا إِنَّ
الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ*

اللمعة :

لا حجة بيننا أي لا خصومة ولا جدال . ويحاجون في الله يحاصمون في دينه .
استُجيب له دخل الناس في الاسلام . حجتهم داحضة خصومتهم باطلة . والميزان
العدل . والساعة القيامة . ومشفقون خائفون . ويمارون يجادلون .

الإعراب :

والذين يحاجون مبتدأ أول ، وحجتهم مبتدأ ثانٍ ، وداحضة خبره ، والجملة
خبر المبتدأ الأول . والميزان عطف على الكتاب . ولعل الساعة على حذف مضاف
أي لعل محيى الساعة .

المعنى :

(فلذلك فادع واستقم كما أمرت) . ذلك إشارة إلى دين الله وأقامته ، والمعنى ادع يا محمد إلى الدين الخفيف الذي وصى به سبحانه جميع الأنبياء ، واثبت عليه وعلى الدعوة إليه ، وقال تعالى في الآية ١١٣ من سورة هود : « فاستقم كما أمرت » ج ٤ ص ٢٧٢ تماماً كما في الآية التي نحن بصدددها ، وتكلمنا هناك عن الاستقامة وأقسامها .

(ولا تتبع أهواءهم) . النبي معصوم يتبع ما يوحى إليه ، ولا يتبع أهواء ولا هوى غيره .. وقلنا أكثر من مرة : ان النهي عن الشيء لا يذل على جواز وقوعه من المخاطب ، وان للأعلى أن ينهى غيره بما شاء . وتقدمت هذه الجملة بالحرف في الآية ٤٨ من سورة المائدة ج ٣ ص ٦٧ (وقل آمنتم بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا وإليه المصير) . أعلن يا محمد على الملأ إيمانك بكل كتاب أنزله الله كائناً ما كان، وان الله هو رب الجميع ، وانك تحكم بين الناس بالعدل ، فتتصف للمظلوم من الظالم ، وتقتص للضعيف من القوي ، وان كان ذا قربى ، وأعلن أيضاً ان كل امرئ هو وحده المسؤول عن عمله أمام الله، وانه لا خصومة بينك وبين أي انسان ، وان إليه تعالى مصير العباد ، فيجازي كل نفس بما كسبت ، وبهذا النهج القويم والمنطق السليم تقم الحجة على أعدائك ، ولا تبقي حلة لمتمل .

(والذين يحاجون في الله من بعد ما استجيب له حاجتهم داحضة عند ربهم وعليهم غضب ولهم عذاب شديد) . كان أهل الكتاب يجادلون المسلمين ويحاولون أن يردوهم عن دينهم بعد أن هداهم الله إلى الاسلام . وروى الطبري في تفسيره ان اليهود والنصارى قالوا للمسلمين : « كتابنا قبل كتابكم ، ونبينا قبل نبيكم ، فنحن خير منكم » .. وليس هذا بعيد عن جدال أعداء الحق والدين ، بل هو أقل ما ينتظر منهم .. ولكن حاجتهم باطلة لأن الفضل يكون بالعمل لا بالوقت وتقدمه ، وإلا كان إبليس أفضل من آدم ، لأنه أقدم منه . وعلى أية حال فإن عاقبة من جادل بالباطل إلى الوبال والخسران دنيا وآخرة .

(الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان) . المراد بالكتاب هنا القرآن، ومعنى نزوله بالحق ان كل ما فيه حق ، وأيضاً يقر ويعترف بكل ما هو حق ، ومعنى نزوله بالعدل انه يفصل بين الناس بالعدل ، فالعدل يحتاج الى طرفين دون الحق أي ان الحق أعم ، فكل عدل يقال له حق ، وليس كل حق يقال له عدل .. تقول : الشمس حق لأنها موجودة ، ولا تقول : الشمس عدل (وما يدريك لعل الساعة قريب) . هذا جواب قول المستهزئين : متى قيام الساعة ؟ أما قربها فلا ن كل آت قريب . ومن مات فقد قامت قيامته .

(يستعجل بها) استهزاء (الذين لا يؤمنون بها) . وكم من مستعجل أمراً ودّ حين يدرکه ان بينه وبينه بعد المشرقين (والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق) . أجل ، انهم يعرفون حقيقتها تماماً كمن قد رآها ، لذا خافوا منها ، ومما قاله الإمام علي (ع) في وصفهم : « قد يراهم الخوف يري القداح - أي السهام - ينظر اليهم الناظر فيجسبهم مرضى ، وما بالقوم من مرض ، ويقول : قد خولطوا ، ولقد خالطهم أمر عظيم » ونظم هذا المعنى بعض الشعراء فقال :

يقال مرضى وما بالقوم من مرض أو خولطوا خيلاً حاشاهم الخبل
تعاذل الخوف والرجاء فلم يفرط بهم طمع يوماً ولا وجل

(الا ان الذين يمارون في الساعة لفي ضلال بعيد) . يمارون يجادلون ، وفي ضلال بعيد أي أوغلوا في الضلال لأنهم أنكروا النشأة الأخرى : وهم يرون النشأة الأولى .

الله لطيف بعباده الآية ١٩ - ٢٢ :

اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ * مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ * أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ

مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنَ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُمْ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ *

اللفظة :

الحِثُّ الكسب ، يقال : فلان يحِثُّ لعياله أي يكتسب لهم ، وحِثُّ الآخرة والدنيا العمل لها . وشرعوا يبينوا وزينوا . ومشفقين خائفين .

الإعراب :

من نصيب « من » زائدة لإعراباً ونصيب مبتدأ ، وما قبله خبر . وضمير لهم للكفار ، وضمير شرعوا للشركاء . وكلمة مبتدأ والخبر محذوف أي لولا كلمة الفصل موجودة أو سابقة .

المعنى :

(الله لطيف بعباده يرزق من يشاء وهو القوي العزيز) . ذكر سبحانه في هذه الآية انه اللطيف الرزاق ، والقوي العزيز ، والمراد باللطيف البر ، قال تعالى : « انه هو البر الرحيم — ٢٨ الطور » والبر هو المحسن ، ومعنى الرزاق ان الله يهب الانسان القوة وجميع الطاقات التي تؤهله للعمل من أجل الرزق ، ويرشده إلى طريقه وسبيله ، بالإضافة الى ان ما في الأرض والسماء من الخيرات هو من صنعه تعالى وفضله ، أما القوي العزيز فهو الذي لا يُقهر ولا يغلب ، ولا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء .

سورة الشورى

(من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب) . من عمل للآخرة فله أجر ما عمل ، ويزيده الله من فضله أصحافاً ، ولا يُنقص من دينه شيئاً ، وليس من شك ان الكد في سبيل العيش من عمل الآخرة أيضاً ، ومن أعرض عن الآخرة وعمل للدنيا وحدها تمتنع فيها أياماً قلائل ، ثم يرتحل عنها الى عذاب مقيم .. وأسوأ حالاً وماً من هذا الذين يتاجرون بالدين ، ويطلبون الدنيا بعمل الآخرة نفاقاً ورباه . وتقدم مثله في الآية ١٤٥ من سورة آل عمران ج ٢ ص ١٧٢ والآية ١٨ من سورة الإسراء ج ٥ ص ٣٢ .

(أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله) . أم استفهام توبيخ وانكار ، والمراد بالشركاء هنا شياطين الانس والجن ، وشرعوا أي أغروا وزينوا ، والمعنى لماذا يعمل المجرمون للدنيا ، وينسون الآخرة ؟ لأن لهم شياطين يصدونهم عنها ، ويوسوسون لهم بأشياء ما هي من دين الله في شيء ؟ ثم هددهم سبحانه وتوعدهم بقوله : (ولولا كلمة الفصل لفضي بينهم) . لقد شاعت حكمته تعالى أن يؤخر عذاب المجرمين إلى يوم يبعثون ، ولولا ذلك لأخذ بنقمة كسل معتد أثم (وان الظالمين لهم عذاب أليم) في الآخرة ، والقليل منه كثير بالنسبة إلى عذاب الدنيا .

(ترى الظالمين مشفقين عما كسبوا وهو واقع بهم والذين آمنوا وعملوا الصالحات في روضات الجنات لهم ما يشاءون عند ربهم) . تجري غداً عملية الاحصاء والفرز لجميع الأعمال ، فمن عمل صالحاً فهو في أمن وجنان ، له فيها ما أحب وأراد (ذلك هو الفضل الكبير) ومن عمل السيئات فهو في خوف من غضب الله وعذابه .. وهذا العذاب محيط به لا محالة جزاء لما كسبت يده .

أطعني تكن مثلي :

كنت من قبل في شك من حديثين ترددا كثيراً على سمعي ، أولها هذا الحديث القدسي : يا عبادي أطعني تكن مثلي تقل للشيء كن فيكون . وثانيها هذا الحديث

النبوي : ان الله عبادةً إذا أرادوا أراد . شككت في سند هذين الحديثين لأنني لم أجد لهما أي أثر في هذه الحياة .. ثم أدركت ، وأنا أفسر أي الذكر الحكيم ان موضوع الحديثين الآخرة لا الدنيا ، فزال الشك ، وأيقنت ان كلاماً من الحديث القدسي والنبوي هو تفسير وبيان لقوله تعالى : « والذين آمنوا وعملوا الصالحات في روضات الجنات لهم ما يشاؤون عند ربهم » ونحوه من الآيات .

من هم القربى الآية ٢٣ - ٢٦ :

ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ * أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ * وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ

اللغة :

القربى القرابة . ويفترِف يفعل أو يكتسب . وعو الباطل ازالته . وذات الصدور الضمائر .

الإعراب :

ذلك الذي مبتدأ وخبر . يبشر الله عباده صلة الموصول والعائد محذوف أي يبشر الله به عباده . إلا المسودة في القربى استثناء منقطع أي لكن أسألكم المودة في القربى . وكذباً مفعول مطلق لافترى لأن الكذب والافتراء بمعنى واحد . ويمح مستأنف وغير معطوف على جواب الشرط وهو يحتم لأن محو الباطل مطلق لا يجوز تعليقه على شيء ، وحذفت الواو من محو للاختصار مثل قوله تعالى : « يوم يدعُ الداع إلى شيء نكر - ٦ القمر » .

المعنى :

(ذلك الذي يبشر الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات) . ذلك إشارة إلى الفضل الكبير الذي أعدّه الله في الآخرة للمتقين ، وقد أنزله في كتابه بشرى لهم ولتطمئن قلوبهم .

(قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى) . جاء في تفسير البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي وروح البيان لاسماعيل حفي : « لما نزلت هذه الآية قيل : يا رسول الله من هم قرابتك الذين وجبت علينا مودتهم ؟ قال : علي وفاطمة والحسن والحسين » . وقال ابن عربي في الجزء الرابع من الفتوحات بعنوان « لا تحنوا الله والرسول » : سألتنا رسولُ الله المودة في قرابته وأهل بيته ، وهو واحد منهم ، وحب أهل البيت لا يتبعض ، فن خان أهل البيت فقد خان رسول الله (ص) . وبالملازمة من خان رسول الله فقد خان الله .

ونقل بعض المفسرين رواية ، في سندها معاوية ، ومؤدى هذه الرواية ان معنى الآية قل يا محمد لقريش : ناشدتمكم الرحم أن لا تؤذوني .

وفي تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان لنظام الدين الحسن بن محمد النيسابوري : « عن سعد بن جبير : لما نزلت هذه الآية قالوا : يا رسول الله من هؤلاء الذين أوجب الله علينا مودتهم ؟ فقال علي وفاطمة وابناهما . ولا ريب ان هذا فخر عظيم وشرف تام : ويؤيده ما روي ان علياً شكاً الى الرسول حسد الناس له .

فقال النبي : أما ترضى أن تكون رابع أربعة أول من يدخل الجنة أنا وأنت والحسن والحسين ، وأزواجنا عن أيماننا وشمالنا وذريتنا خلف أزواجنا ، وعن النبي (ص) حرمت الجنة على من ظلم أهل بيته وآذوني في عترتي ، وكان يقول فاطمة بضعة مني يؤذيها ما يؤذيها ، وثبت بالنقل المتواتر انه كان يحب علياً وحسناً وحسيناً فوجب علينا محبتهم ، وشرافاً لآل الرسول ختم الشاهد بهم ، والصلاة عليهم في كل صلاة ، وقال الرسول (ص) : مثل أهل بيتي كمثل سفينة نوح من ركب فيها نجا ، ومن تخلف عنها غرق .

(ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسناً) ومثله : « من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها - ١٦٠ الأنعام » . (ان الله غفور شكور) أي يثيب الشاكرين . (أم يقولون افترى على الله كذباً فلن يشأ الله بنحتم على قلبك) . قال المفترون : انك يا محمد تفترى على الله بدعوى النبوة .. وجهلوا ان الله قد عصمك عن الخطأ والخطيئة ، وانه لو حاولت الافتراء عليه - وفرض المحال غير محال - لطبع على قلبك ومنعك عن ذلك بالقهر والجبر (ويمح الله الباطل ويحق الحق بكلماته). أنت يا محمد على حق ، وأعدائك على باطل ، ويزهق الله الباطل ويحق الحق بالدلائل والبيانات الواضحة الواقعة ، وقد أيدك الله بها ، وجعل كلمتك العليا وكلمة أعدائك السفلى على الرغم من كثرتهم وتظاهروهم عليك وعلى الاسلام (انه عليم بذات الصدور) عليم بما تخفيه القلوب التي في الصدور ، فيجري على أربابها ما يستحقونه من ثواب وعقاب .

(وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات) . من أذنب ثم تاب قبل الله توبته وصفح عن ذنبه ما عدا حق الناس ، وأيضاً إذا كان له حسنات وسيئات لا تتصل بحقوق الناس ، وكانت بمقدار حسناته - عفا الله عنها جميعاً ، وأصبح كأنه لم يسيء ولم يحسن ، وإذا كانت الحسنات أكثر بقي له منها ما زاد عن السيئات ، وفي الحالين يصدق عليه قوله تعالى : « ان الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين - ١١٤ هود ، ج ٤ ص ٢٧٥ وقوله : « خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم - ١٠٢ التوبة ، ج ٤ ص ٩٦) ويعلم ما تفعلون) من الحسنات والسيئات ، فمن ثقلت موازين سيئاته فهو من الخاسرين ، ومن ثقلت موازين حسناته فهو من المفلحين .

(ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله والكافرون لهم عذاب شديد) . الذين آمنوا فاعل يستجيب ، والمعنى ان المؤمنين يسمعون دعوة الله ويستجيبون لها ، فيثيبهم على الاستجابة والطاعة، ويزيدهم من فضله أضعافاً .. والمجرمون يعرضون عن دعوة الله، فيعذبهم على الإعراض والمعصية العذاب الأكبر.

الرزق بالعمل لا بالدعاء الآية ٢٧ - ٣٥ :

وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنْزِلُ بِقَدَرِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ * وَهُوَ الَّذِي يُنْزِلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ * وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ * وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ * وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ * وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ * إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ * أَوْ يُوقِنُ إِذَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ * وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُحَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ *

اللغة :

بقدر بتقدير . والمراد بالدابة هنا كل ما فيه حياة فبشمل الملائكة والطيور

ونحوها . وبمعجزين بجاعلين الله عاجزاً عنكم . والجوار السفن الجارية . والمراد بالأعلام الجبال ، كأنه علّم في رأسه ناراً ، أي كأنه جبل . فيظللن يقمن . والرواكد الثوابت . ويوبقهن يهلكهن . والمحيص المهرب .

الإعراب :

الجوار مبتدأ وأصلها الجوّاري وحذفت الباء تخفيفاً وفي البحر متعلق بها . وكالأعلام الكاف بمعنى مثل حالاً من الجوّاري . فيظللن عملها الجزم جواباً للشرط . ورواكد حال . والضمير في ظهره إلى البحر . أو يوبقهن ويبف عطف على يظللن . ويعلم بالنصب على حذف اللام أي ليعلم ، وقيل بالعطف على محذوف أي لينتقم منه ويعلم الذين الخ .

المعنى :

(ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض) . لقد أناط سبحانه أرزاق العباد بكسبهم وعملهم ، لا بإرادتهم وأهوائهم ، وإلا عمت القوضى وتفرغوا للفساد في الأرض (ولكن ينزل بقدر ما يشاء) أي يرزقه على قدر عمله ، وقد يرزق سبحانه الكثير من العمل القليل ، أو القليل من العمل الكثير لحكمة هو بها أعلم ، أما الثراء عن طريق الحرام كالغش والسلب والنهب فهو من رزق الشيطان ، لا من عطاء الرحمن ، كيف وقد توعد صاحبه بعذاب أليم (انه يعاده خبير بصير) . يعلم من يعيش على حساب المعلمين ، ومن يعيش بكد اليمين ، وأعد للأول الخزي والعذاب ، وللثاني الكرامة والثواب .

(وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته) بعد ان ذكر سبحانه الرزق قال : ان أسبابه كالمنطق وغيره بيده تعالى يرسلها لمنافع الناس ومصالحهم ، ويقبضها عنهم متى شاء ، فإن تأخرت قليلاً يشبوا وقنطوا ، فيتداركهم برحمته التي وسعت كل شيء (وهو الولي) يتولى عباده بالاحسان (الحميد) المستحق للحمد والشكر .

(ومن آياته خلق السموات والأرض وما بث فيها من دابة) . المراد بالسمااء الشيء العالمى كوكباً كان أو فضاء ، والمراد بالدابة هنا كل ما فيه حياة طيراً كان أو ملكاً أو أي حي من الأحياء التي تعيش في البر أو البحر أو الفضاء أو في كوكب من الكواكب .. وكلها تنطق بوجود بارئها ومصورها (وهو على جمعهم إذا يشاء قدير) تماماً كما قدر على خلقهم وبثهم في السموات والأرض .

(وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم) . هذه الآية تسدل بصراحة لا تقبل التأويل على ان الظلم والفقر من صنع الناس لا من صنع الله ، ومن فساد الأنظمة والأوضاع لا من حكم الله وشريعته حتى القحط وحس الغيث سببه البغي والفساد كما في الحديث .. وفي كتاب الله : « ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم - ٦٦ المائدة » ج ٣ ص ٩٤ فقرة « الرزق وفساد الأوضاع » (ويعفو عن كثير) من الذنوب ما عدا الشرك والظلم لأنه هو القاتل : « لا يغفر ان يشرك به » والقاتل : « يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولم لهم العنة ولم سوء الدار - ٥٢ غافر » .

(وما أنتم بمعجزين في الأرض وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير) . هذا تهديد ووعيد . وتقدم مثله بالحرف في الآية ٢٢ من سورة النكبات (ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام) جمع علم وهو الجبل ، وإذا كانت السفينة من صنع الانسان فإن الماء الذي تجري عليه ، والهواء الذي يدفعها هما من صنع الله تعالى ، وكذا أخشابها وسائر أجزائها ، ومثلها الطائرة التي تطير في فضاء الله ، والسيارة التي تسير على أرض الله وغيرها وغيرها من الأدوات حتى الانسان الذي صنعها واختراعها ، ذلك وغيره مظهر لقدرته تعالى وفيض من رحمته .

(ان يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره) . اذا أمسك الهواء أو جمد الماء وقفت السفينة عن الجري (ان في ذلك لآيات لكل صبار شكور) . من صبر على التفكير والنظر الى الكون، وما فيه من عجائب وأسرار - لا بد أن ينتهي الى الإيمان بالله وعظمته ، ويشكره على فضله وهديته .

(أو يوبقهن بما كسبن أو يعف عن كثير) . أو يهلك أصحاب السفن بذنوبهم، ولكنه يعفو عن كثير أي لا يعاجلهم بالكثير من ذنوبهم (ويعلم الذين يجادلون في آياتنا

ما لهم من محيص) . يعلم أي يعلم على حذف اللام ، والذين يجادلون في آيات الله هم الذين يقولون : لا شيء يدل على ان الله موجود ، والمعنى ان الكافرين لا يؤمنون بالله ، ويجحدون كل دليل ينطق بوجوده .. أجل ، هناك سبيل واحد لايمانهم واعترافهم ، وهو أن يروا الهلاك عياناً ويعلموا انه لا مهرب لهم منه ، مثل أن تقف بهم السفينة أو تمصف به الريح . وبكامة لا يؤمنون حتى يروا العذاب .

وما عند الله خير وأبهى الآية ٣٦ - ٤٣ :

فَمَا أَوْفَيْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * وَالَّذِينَ يَخْتَفُونَ كِبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ * وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ * وَجِزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ * وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ * إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَلَمَنِ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ *

اللغة :

كبائر الإثم المعاصي العظيمة . وكل ما تجاوز في القبح فهو فحش . والمشاورة المفاوضة في الكلام لظهار الحق . والمراد بالسبيل هنا العقاب . وعزم الأمور أحسنها .

الإعراب :

فما أوتيتم من شيء وماه شرطية وعملها النصب بأوتيتم لأن الفعل هنا بمعنى أعطيتم . فتناح الحياة خبر لمبتدأ محذوف أي هو متاع . والذين يجتنبون عطف على الذين آمنوا . وهم تأكيد لفاعل غضبوا . والذين إذا أصابهم البغي يتصرفون ، فيه تقديم وتأخير ، والأصل والذين هم يتصرفون إذا أصابهم البغي . ولئن صبر بفتح اللام وهي للابتداء ومن موصول في محل رفع بالابتداء ، والجملة من ان ذلك الخ خبر .

المعنى :

(فما أوتيتم من شيء فتناح الحياة الدنيا) . متاع الحياة كل ما تتمتع به في هذه الحياة من صحة وجاه ومال ونساء وأولاد وبناء وأثاث وغيره ، وملذات الدنيا وان كثرت فهي الى زوال ونفاد ، أما نعيم الآخرة فهو باق ببقاء الله : وما عندكم ينقد وما عند الله باق - ٩٦ النحل . وقال تعالى : (وما عند الله خير وأبقى) . وكل عمل يسد حاجة من حاجات الحياة فهو ذخيرة عند الله بالشروط التالية :

١ - (للذين آمنوا) بالله ، أما الذين كفروا به فلا شيء لهم عند الله إلا العذاب لأنهم لا يعترفون بوجوده . وفي الحديث : من عمل لغير الله أوكله سبحانه لمن عمل ، ويقال له غداً : خذ أجرك ممن عملت له .

٢ - (وعلى ربهم يتوكلون) في جميع أمورهم ، ولا يعترفون إلا بتقوى الله ومرضاته .

٣ - (والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش) . ومنها الظلم والكذب والزنا والفساد . أنظر تفسير : ان يجتنبوا كبائر ما تنهون عنه - ٣١ النساء ، ج ٢ ص ٣٠٦ وتفسير : ولا تقرّبوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن - ١٥١ الأنعام ، ج ٣ ص ٢٨٣ .

٤ - (وإذا ما غضبوا هم يغفرون) . يكظمون الغيظ ، ولا يفضيئون إلا لله .

٥ - (والذين استجابوا لربهم) ولم يعصوه في أمر ولا نهى .

٦ - (وأقاموا الصلاة) . وخصها سبحانه بالذكر لأنها عمود الدين ، وكان النبي (ص) يعبر عنها بقرّة العين ، وسماها بعض العارفين حقيقة المسلم .

٧ - (وأمرهم شورى بينهم) . وكلمة أمرهم تومئ الى الصالح العام ، وانهم يتعاونون يداً واحدة على العمل من أجله .. ولا صلة لهذا التشاور في حلال الله وحرامه لأنهما لله وحده. انظر تفسير « وشاورهم في الأمر » - ١٥٩ آل عمران ج ٢ ص ١٨٩ . وفي نهج البلاغة : الاستشارة عين الهداية ، وقد خاطر من استغنى برأيه .

٨ - (وبما رزقناهم ينفقون) في الخيرات والمبرات .

٩ - (والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون) . وتساءل : ما هو وجه الجمع بين هذه الآية وقوله تعالى : « وإذا ما غضبوا هم يغفرون » ؟
الجواب : ان العفو عن السيئة يحسن حيث يكون سبباً لاصلاح المسيء واثابته أو تغافياً لوقوع شقاق أو فتنه ، ولا يحسن حيث يكون سبباً لتماهي الطغاة والسفهاء. قال الإمام علي (ع) : الوفاء لأهل الغدر غدر عند الله ، والغدر بأهل الغدر وفاء عند الله . وتكلمنا عن ذلك مفصلاً عند تفسير قوله تعالى : « ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم » - ٣٤ فصلت .

(وجزاء سيئة سيئة مثلها) . ونحوه : « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » - ١٩٤ البقرة ج ١ ص ٣٠١ (فمن عفا وأصلح فأجره على الله) . ومثله : « وان تغفوا أقرب للتقوى » - ٢٣٧ البقرة . وأيضاً : « فمن تصدق به فهو كفارة له » - ٤٥ المائدة . (ان الله لا يحب الظالمين) . والمراد بالظالمين هنا الذين يتجاوزون الحد في القصاص والانتقام .

(ولئن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل) اطلاقاً ، لا عتاب ولا عقاب لأن البادي هو الظالم ، وللمظلوم كل الحق أن يتصرف لنفسه ممن ظلمه ، بل إذا سكت عنه مع قدرته عليه فهو شريكه في الظلم ، لأن سبوك المظلوم عن

الظالم تشجيع له ، ولو علم الظالم ان المظلوم يستमित من أجل كرامته لتحاماه .
 (انما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبيعون في الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم) . قلنا فيما تقدم : ان الظالم بحكم الكافر عند الله ، وان نطق بالشهادتين .. أجل ، انه يعامل في الحياة الدنيا معاملة المسلمين ، أما في الآخرة فهو مع القوم الكافرين بشهادة العديد من آيات الله التي عبرت عن الكافر بالظالم ، وعن الظالم بالكافر . أنظر ج ١ ص ٣٩٠ و ج ٥ ص ٤٧٨ (ولمن صبر وغفر) حيث يحسن الصبر والمغفرة (ان ذلك لمن عزم الأمور) أي مما يحسن العزم والتصميم على فعله ، وأفضل أنواع الصبر تحمّل الأذى في سبيل إحقاق الحق وإعلانه ، وأفضل أنواع الغفو ما كان سبباً للقضاء على الفتن والفساد .

الخاسر من عشر نفسه الآية ٤٤ - ٥٠ :

وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ * وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذَّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ * وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ * اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدٍّ لَهُ مِنْ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ * فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا إِلَّا أَلْبَاحُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَفَرِحَ بِهَا وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ

أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ * اللَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِمَّا نَأْتِيَنَّ وَيَهَبْ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ * أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَّا نَأْتِيَنَّ وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيماً إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ *

اللمعة :

مرد مرجع . ونكبر أي لا تنكرون أعمالكم . وحفيظ وكيل .

الإعراب :

ضمير عليها يعود الى النار المدلول عليها بكلمة العذاب . وخاشعين حال من مفعول تراهم لأن الرؤيا هنا بصرية تتعدى الى مفعول واحد . وحفيظاً حال من كاف أرسلناك .

المعنى :

(ومن يضل الله فما له من ولي من بعده) . من سلك طريق الضلال بسوء اختياره حقت عليه كلمة الله بأنه من الضالين .. ولا يلومن إلا نفسه .. ومن خذله الله وأخزاه فلن يجد من ينصره ويتقذه من هذا الخذلان (وترى الظالمين لما رأوا العذاب يقولون هل الى مرد من سبيل) ؟ اعتزوا بأنفسهم، وشمخوا بأنوفهم بغياً واستكباراً في الحياة الدنيا ، ولما حشرهم الله أذلة خاشعين تضرعوا وطلبوا الخلاص من العذاب أو الرجوع الى الدنيا ثانية .. وهكذا الطغاة يتعاضمون حيث لا قوة رادعة ، وينهارون اذا ظهرت لهم دلائلها .

(وتراهم يُعرضون عليها خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفي) . أقبلوا على النار بأعمالهم في تخوف وانكسار ، يسترقون النظر الى جهنم، وفرائصهم ترتعد

من شدة الخوف، ومن قبل كانوا بها يستهزئون (وقال الذين آمنوا ان الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ألا ان الظالمين في عذاب مقيم) . قال المؤمنون هذا حين رأوا المجرمين يساقون الى عاقبة أعمالهم ، قالوه حداً لله الذي أنجاهم من هذا الخزي والعذاب المقيم . وتقدم مثله في الآية ١٥ من سورة الزمر .

(وما كان لهم من أولياء ينصرونهم من دون الله) . الشرط الاسامي في الولي والناصر أن يكون له شيء من القوة ينتصر بها لنفسه أو لغيره ، وما لأحد في ذلك اليوم حول ولا قوة (ومن يضلل الله فما له من سبيل) الى الخلاص من النار.. ونفس الضلال هنا بالنار لأن السياق يوصي الى تمامها كما هو في قوله تعالى : « كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب - ٣٤ غافر » أي يعذب الله .

(استجبوا لربكم من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله ما لكم من ملجأ يومئذ وما لكم من نكير) . كلف سبحانه العباد بما يعود عليهم بالنفع والخير ، ومنحهم القدرة على ما كلفهم به ، وأمهلهم ليعملوا ويتوبوا ، وحذرهم عاقبة الإهمال والتقصير ، ولم يدع لأحد حجة يلجأ اليها في يوم لا يُرد فيه الانسان الى حياته الأولى ، ولا يستطيع انكار ما كسبت يده (فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظاً ان عليك إلا البلاغ) . المعنى واضح ، وتقدم في العديد من الآيات ، منها الآية ٨٠ من سورة النساء و ١٠٧ من سورة الأنعام .

(وانا إذا أذقنا الانسان منا رحمة فرح بها وان تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم فإن الانسان كفور) . المراد بالرحمة النعمة كالصحة والمال، وبالسيئة البلاء كالفقر والمرض ، وبالاتسان أكثر أفرادهم أو الكثير منهم لأن الانسان غير مجرم بطبعه وإلا سقط عنه التكليف كما بينا في ج ٤ ص ٤٤٩ . والمعنى ان الجاهل الخاسر يفرح ويبطر بما يناله من حطام الدنيا ، ويكفر إذا فاته شيء منه حتى ولو كان ذلك بسوء رأيه وهوى نفسه . وتقدم مثله في الآية ١٠ من سورة هود ج ٤ ص ٢١٢ وغيرها .

(الله ملك السموات والأرض يخلق ما يشاء يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور أو يزوجهم ذكراً وإناثاً ويجعل من يشاء عقيماً انه عليم قدير) . يزوجه أي يجمع ويقرن بين نوعي الذكور والإناث .. وليس من شك ان الانسان لا إرادة

له ولا اختيار في ان يجعل أولاده ذكوراً أو إناثاً أو هما معاً ، ولكن الله هو الذي يهب الذكور فقط أو الإناث فقط أو هما معاً أو يجعله عقياً من غير نسل ، وحتى الآن لم يهتدِ الطب الى علاج العقم في الرجل أو المرأة ، وقد التجأ الأطباء إلى التلقيح الصناعي إذا كان الزوج عقياً ، وذلك بأن تلقح زوجته بنطفة رجل أجنبي غير عقيم من دون مقارنة . وعقدنا فصلاً مستقلاً لهذا الموضوع في كتاب « الاسلام مع الحياة » ، وأفئنا بنحریم التلقيح ، وإذا حملت المرأة فلا يلحق الحمل بالزوج إجماعاً ، ويلحق بالأم .

صورة الاتصال بين الله ورسله الآية ٥١ - ٥٣ :

وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحِيّاً أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ * وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَذَرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ *

الإعراب :

المصدر من أن يكلمه اسم كان ، ولشعر متعلق بمحذوف خبرها أي ما كان تكليم الله واقعاً لبشر . وإلا وحياً استثناء منقطع لأن الوحي غير التكليم . أو يرسل بالنصب عطفاً على « وحياً » لأن المعنى إلا أن يوحى . ولا يجوز عطف يرسل على أن يكلمه إذ يصير المعنى ان الله لا يكلم بشراً ولا يرسل إليه رسولا . وصراط الله بدل من صراط مستقيم .

المعنى :

(وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحى بإذنه ما يشاء انه علي حكيم) . يطلق كلام الله سبحانه على العديد من المعاني ، منها قضاؤه وقدره : « ولولا كلمة سبقت من ربك .. واخلق والابجاد : « وكلمته ألقاها إلى مريم » . والحق : « وكلمة الله هي العليا » .. والكون الذي أوجده بكلمة « كن » . والالهام : « ان يكلمه الله إلا وحياً » كما يأتي .. ومن كلام الله الكلام المسموع : « يسمعون كلام الله ثم يحرفونه » . وهذا الكلام هو الذي يسمعه النبي من وراء حجاب أو يرسل الله به الى النبي رسولاً .

وقد ذكر سبحانه في الآية التي نحن بصددنا - ثلاثة أوجه لتكليمه الرسل ، وكيفية اتصاله بهم : الأول القاء المعنى في قلب النبي مباشرة ومن غير واسطة ، وهذا هو المراد بقوله : « إلا وحياً » . الثاني أن يخلق الله الكلام كما يخلق غيره من الكائنات ، فيسمعه النبي لا بواسطة رسول من الله بل من وراء حجاب أي ان النبي يسمع الكلام ولا يرى المتكلم ، وهذا هو المقصود من قوله تعالى : « وكلم الله موسى تكليماً » - ١٦٤ النساء . الثالث أن يرسل سبحانه الى رسوله ملكاً يبلغه رسالات ربه . قال الملائ صدرا في الأسفار : « إياك أن تظن ان تلقى النبي (ص) كلام الله بواسطة جبريل وسماعه منه كاستماعك من النبي ، أو تقول ان النبي (ص) كان مقلداً لجبريل » .

وليس من شك انه لا يظن هذا الظن أو يقول هذا القول إلا جاهل .. لأن ما بلغه جبريل لمحمد (ص) هو كلام الله بالذات ، ووعاه الرسول الأعظم على حقيقته ، وعليه تكون معرفة الرسول بكلامه تعالى هي عين كلام الله ، وكلام الله هو عين معرفة الرسول .

(وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا) . المراد بالروح هنا القرآن لأنه حياة للأرواح والأبدان أيضاً ، قال الإمام علي (ع) : كتاب الله تبصرون به ، وتنطقون به ، وتسمعون به (ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان) . المراد بالكتاب القرآن ، وبالإيمان شريعة الله التي بينها سبحانه لنبيه الكريم بعد أن اختاره سبحانه

لرسالته ، وقد اختلفوا في تفسير هذه الآية على أقوال أنهاها الرازي الى خمسة وأرجحها - فيما نرى - قول الشيخ اسماعيل حقي في تفسير روح البيان، وهذا نصه : المراد بالايان تفاصيل ما جاء في القرآن التي لا تهدي اليها العقول ، لا الايمان بما يستقل به العقل والنظر ، لأن دراية النبي (ص) لا ريب فيها ، وقد أجمع أهل الوصول - الى معرفة الله وأنبياؤه - على ان الرسل كانوا مؤمنين قبل الوحي معصومين من الكبائر والصغائر الموجبة لفرة الانسان عنهم قبل البعثة وبعدها فضلاً عن الكفر .

(ولكن جعلناه - أي القرآن - نوراً يهدي به من نشاء من عبادنا) وهم الذين طلبوا الهداية بتجرد واخلاص والحق لوجه الحق ، أما من عاند وتمرد فبدعه الله وشأنه : ان الله لا يهدي من هو كاذب كفار - ٣ الزمر . (وانك لتهدي الى صراط مستقيم صراط الله) . النبي (ص) يدعو الى الاسلام دين الله وصراطه القويم ، ومن سلك هذا الصراط فقد سلك الطريق الواضح الى الله، وأمن جميع العواقب (الذي له ما في السموات وما في الأرض ألا الى الله تصير الأمور) . ان دعوة رسول الله هي السبيل الى مالك الكون وجامع الخلق في يوم لا ريب فيه ، فمن استمع لدعوة رسوله وأجاب فهو غداً مع الصديقين والنبيين وحسن أولئك رفيقاً ، ومن نكص عنها ونأى فهو في نار جهنم ضجيع حجر وقرين شيطان .

سُورَةُ الزَّخْرِفِ

٨٩ آية مكية . وقيل : إلا آية واحدة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وانه في ام الكتاب الآية ١ - ١٤ :

حَمَّ * وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ *
وَلَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِّي حَكِيمٌ * أَفَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ
صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ * وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ *
وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ * فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا
وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ * وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ
لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ
لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ
فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ نُخْرِجُوجُونَ * وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا
وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْأَفْلاكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ * لَيْسَتُوا عَلَى ظُهُورِهِ
ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي
سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ * وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ *

اللغة :

أفضرِبَ عنكم أي أنعرض عنكم وترككم . صفحاً لإعراضاً . مسرفين متجاوزين الحد . مثل الأولين بفتح الثاء وصفهم وحالهم . مهدياً فراشاً . بقدر بمقدار . فأنشرنا فأحيينا . والأزواج الأصناف . لتستروا لتستقروا مثل واستوت على الجودي . سخرَ ذلِّل . مقرنين مطيقين . ومنقلبون راجعون .

الإعراب :

والكتاب الواو للقسام . وجعلناه هنا بمعنى أنزلناه كما في الآية ٢ من سورة يوسف و ١١٣ من سورة طه ، وقرأنا حال ، وعربياً صفة . ولعليّ حكيم خبر انه . وفي أم الكتاب متعلق بـعليّ واللام لا تمنع من ذلك على حد تعبير البيضاوي . ولدينا بدل من أم الكتاب . وصفحاً مفعول مطلق لنضرب لأنها بمعنى واحد . وأن كنتم وأنه مصدرية والمصدر المنسبك مفعول من أجله لنضرب أي أفضرِبَ عنكم الذكر صفحاً من أجل كونكم قوماً مسرفين . وكم خبرية ومحلها النصب بأرسلنا ، ومن نبي تمييز . وبطشاً تمييز .

المعنى :

(حم) تقدم الكلام في مثله في أول سورة البقرة (والكتاب المبين) . هذا قسم منه تعالى بالقرآن الذي فيه بيان الهدى والضلال ، والحلال والحرام (إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون) . تقدم مثله في الآية ٢ من سورة يوسف ج٤ ص٤٨٦ والآية ١١٣ من سورة طه ج٥ ص٢٤٧ والآية ٣ من سورة حم السجدة والآية ٧ من سورة الشورى . وتكلمنا كثيراً حولها، وليس لدينا الآن من مزيد . (وانه في أم الكتاب لدينا لـعليّ حكيم) . ضمير انه للقرآن ، وأم الكتاب أصله .. وليس من شك ان علم الله سبحانه هو الأصل لجميع الكتب السماوية .. ووصف سبحانه القرآن بالعني لأنه يُعَلِي ويرفع من شأن الذين يستمعون له ويعملون

سورة الزخرف

به ، وقد رأينا كيف أخرج العرب من جاهلية جهلاء إلى حضارة زاهرة، وكيف نشر سلطانهم ولغتهم في شرق الأرض وغربها حين أحلّوا حلال القرآن ، وحرّموا حرامه .. وأيضاً وصفه تعالى بالحكيم لأنه ساوى بين الناس دون استثناء، ودعا إلى التسامح ، وحث على العمل النافع ، والتعاون لمصلحة الإنسانية جمعاء .

(أفضرب عنكم الذكر صفحاً أن كنتم مفسرين) . بعد أن ذكر سبحانه القرآن ، وأنه الناصح الأمين قال للذين كذبوا به من مشركي العرب: ماذا ترون؟ أنترك تذكيركم بالقرآن لا شيء إلا لأنكم أسرفتم على أنفسكم وظلمتموها بالجهل والضلال ؟ بل أنتم أولى بالتذكير من غيركم (وكم أرسلنا من نبي في الأولين) . إنهم كثيرون ، وقص سبحانه على نبيه أخبار العديد منهم ، وقال له : « ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك - ٧٨ غافر » .

(وما يأتيهم من نبي إلا كانوا به يستهزئون) . تماماً كما استهزأ بك قومك يا محمد .. فلا يشقن ذلك عليك .. ولا بدع في ذلك .. انه الصراع بين أهل الضلالة والعمى وبين دعاة الحق والعدل في كل زمان ومكان (فأهلكنا أشد منهم بطشاً) أهلك سبحانه الطفلة الأشداء من الأمم الماضية انتصاراً للأبرار الضعفاء (ومضى مثل الأولين) أي وقصصنا في القرآن حال المكذبين الأولين وإهلاكهم لعل قومك يتذكرون ويتعظون .

(ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم) . تقدم مثله في الآية ٦١ من سورة العنكبوت والآية ٢٥ من سورة لقمان والآية ٣٨ من سورة الزمر (الذي جعل لكم الأرض مهدياً وجعل لكم فيها سبلاً لعلكم تهتدون) والذي نزل من السماء ماء بقلدر فأنشأنا به بلدة ميتة كذلك تخرجون) . تقدم في الآية ٩٩ من سورة الأنعام ج ٣ ص ٢٣٤ والآية ٣ من سورة الرعد ج ٤ ص ٣٧٤ والآية ٥٣ من سورة طه ج ٥ ص ٢٢٣ (والذي خلق الأزواج كلها) أي الأصناف من الحيوان والنبات والجماد .

(وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون) . بعد أن ذكرهم سبحانه بنعمة الماء والأرض ، وإنهم يأكلون منها ويلبسون ويشربون - ذكرهم بنعمة

المواصلات ، وخص الفلك والأنعام بالذكر من باب المثال لا من باب الحصر لأن غيرهما كالسبارة والطائرة لم يكن معروفاً في ذلك العهد (لتستروا على ظهوره) ضمير ظهوره يعود الى الاسم الموصول ، وهو ما تركبون (ثم تذكروا نعمة ربكم اذا استويتم عليه) الاستواء الاستقرار ، وعليه أي على ما تركبون .
(وتقولوا سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإننا الى ربنا لمنقلبون) أي راجعون ، ومقرنين مطبقين . وفي نهج البلاغة : « اللهم اني أعوذ بك من وعاء السفر ، وكآبة المنقلب وسوء المنظر في الأهل والمال ، اللهم أنت الصاحب في السفر ، وأنت الخليفة في الأهل ، ولا يجمعهما - وهما الصلبة في السفر والبقاء عند الأهل - غيرك لأن المستخلف لا يكون مستصحباً، والمستصحب لا يكون مستخلفاً » .

وعلق الشيخ محمد عبده على ذلك بقوله : « أول هذا الكلام مروى عن رسول الله (ص) ، وأتمه أمير المؤمنين بقوله : ولا يجمعهما الخ وذات الله تستوي عندها الأمكنة كما تستوي الأزمنة ، فالسفر والحضر عندها سواء » .

أم اتخذ مما يخلق بنات الآية ١٦ - ٢٥ :

وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْأً إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ * أَمْ اتَّخَذَ
مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ * وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ
لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * أَوْ مَنْ يُنشَأُ فِي الْحِلْيَةِ
وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ * وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ
إِنَا أَنَا أَشْهَدُوا خَلَقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيَسْأَلُونَ * وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ
مَا عَبَدْنَاكُمْ مَا لَكُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَفْرُصُونَ * أَمْ آتَيْنَاهُمْ
كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ * بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى

أُمِّيَّةٌ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ * وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي
 قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمِّيَّةٍ وَإِنَّا عَلَى
 آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ * قَالَ أُولَؤُاْ جِتُّكُمْ بِأَهْدَىٰ يَمًّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ
 قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ * فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَنْظَرُ كَيْفَ كَانَ
 عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ *

اللغة :

المراد بالجزء هنا البنات لقوله تعالى بلا فاصل : أم اتخذ مما يخلق بنات .
 وأصفاكم خصمكم . ومثلاً شبيهاً . ووجهه مسوداً كناية عن الهم والغم . وكظيم
 ممتلئ غيظاً . والحلبة زينة الأنثى ، والبت هي التي تنشأ وتربى فيها . وهو في
 الخصام غير مبين أي يجادل بغير علم . أشهدوا أحضروا . ويخرون يكذبون .
 وعلى أمة أي ملة وطريقة .

الإعراب :

بنات مفعول اتخذ ، وفي الكلام تقديم وتأخير أي أم اتخذ بنات مما يخلق .
 ومسوداً خبر ظل . وجملة وهو كظيم حال . أو من ينشأ الهمة للانكار والتوبيخ
 ومن مفعول لفعل محذوف ، والمراد بها الأنثى ، أي أو قد جعل الأنثى لله .
 وإن هم « ان » نافية . وكذلك خبر مبتدأ محذوف أي الأمر مثل ذلك .

المعنى :

(وجعلوا له من عباده جزءاً ان الانسان لكفور مبين أم اتخذ مما يخلق بنات

وأصفاكم بالبئين) . المراد بالجزء هنا الولد لأنه بضمة من والده ، أما قوله تعالى :
 « مما يخلق بنات » فيتضمن الدليل على فساد زعمهم بأن لله ولداً لأن المخلوق
 لا يكون جزءاً من الخالق كما لا يكون البيت جزءاً من بانيه ، ولم يكنف المشركون
 بهذا الافتراء حتى خصوا الله بما يكرهون من الأولاد ، وأنفسهم بما يحبون ..
 وتقدم مثله في الآية ١٠٠ من سورة الانعام ج ٣ ص ٢٣٧ والآية ٤٠ من سورة
 الاسراء ج ٥ ص ٤٦ والآية ١٥٢ من سورة الصافات .

(وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلاً ظل وجهه مسوداً وهو كظيم) .
 فاعل ضرب ضمير مستتر يعود على أحدهم .. بعد أن وصف سبحانه بالكفر
 الواضح من أشرك وقال : اتخذ الرحمن ولداً - ذم من يحزن ويكتئب إذا ولدت
 له أنثى ، وفي الوقت نفسه يفترى على الله ويقول : اتخذ مما يخلق بنات . وتقدم
 مثله في الآية ٥٧ من سورة النحل ج ٤ ص ٥٢٣ .

(أو من ينشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين) . أنتسب الله أيها المشرك
 الجاهل الإنث التي تتحلّى بالزينة ، وإذا حاجتك وخاصمك في ذلك غاصم عجزت
 عن الحجة والدليل ؟ وقال المفسرون : ضمير هو يعود الى الأنثى بالنظر إلى أن
 لفظ « من » مذكر ، وعليه يكون المعنى ان الأنثى ناقصة العقل تعجز عن ايراد
 الدليل على قولها عند المخاصمة والمنازعة ، ومع ذلك يقول المشركون : انها بنت الله ..
 وظاهر السياق يرجح هذا التفسير .

(وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن اناثاً أشهدوا خلقهم) ؟ كيف تجرأ
 المشركون على القول : ان الملائكة بنات الله ؟ فهل كانوا عند الله حين خلق
 الملائكة أو أخبرهم بذلك شاهد عيان ؟ . وصدق من قال : كذب الانسان على
 مثله وعلى ربه وعلى ملائكته ورسله ، وأيضاً كذب على نفسه . ومثل هذه الآية
 قوله تعالى : « أم خلقنا الملائكة اناثاً وهم شاهدون - ١٥٠ الصافات » (ستكتب
 شهادتهم ويسألون) . ان الله لا يخفى عليه شيء فهو يعلم افتراءهم عليه وعلى
 ملائكته ، وغداً يسألهم عنه ويحاسبهم عليه .

(وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم) . زعموا ان الله راض عن عبادة
 الأصنام والملائكة، وإلا ردصهم عن ذلك بالقهر والقوة .. وجهلوا انه تعالى لو فعل
 ذلك لكان الانسان أشبه بالجهاد لا يستحق ثواباً ولا عقاباً . وتقدم مثله في الآية

سورة الزخرف

١٤٨ من سورة الأنعام ج ٣ ص ٢٧٨ (ما لهم بذلك من علم ان هم الا بخرصون). نسبوا شركهم وضلالتهم الى الله تعالى علواً كبيراً .. وجهلوا انه جل وعز أمر ونهى تكليفاً وارشاداً ، وترك التنفيذ لارادة المكلف لتظهر أفعاله التي يستحق عليها الثواب والعقاب .

(أم آتيناكم كتاباً من قبله فهم به مستمسكون) ؟ كلا ، لا دليل لهم من العقل ولا من النقل على ما يزعمون إلا هذا الدليل (بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون) . فتقليد الآباء هو ملجأهم الأول والأخير . وقد حكى الله سبحانه قولهم هذا في العديد من الآيات، منها الآية ١٧٠ من سورة البقرة و ١٠٥ من سورة المائدة و ٥٣ من سورة الأنبياء و ٢١ من سورة لقمان وغيرها . وعقدنا فصلاً خاصاً للكلام عن التقليد وأقسامه في ج ١ ص ٢٥٩ .

(وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون) . هذا منطق الانتهازيين والتفيعيين منذ وجدوا وإلى آخر يوم . أنظر ج ٤ ص ٤٠٥ فقرة « تفكير الطغاة » و ج ٥ ص ٣٠ فقرة « المترفون » و ص ٤٥٣ فقرة « منطق أرباب المال : بنك وعقار » (قال أولو جثكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم) . ويومئ هذا إلى صحة التقليد إذا كان المقلد على هدى من ربه، وعلى فساد التقليد إذا كان المقلد ضالاً مضلاً .

(قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون) . والذي نفهمه من قولهم هذا انهم يكفرون بالحق أبياً كان ويكون حتى ولو كان مع الآباء، وانهم لا يؤمنون بشيء إطلاقاً إلا بما كاسبهم ومنافهم، أما التلرع بدين الآباء فهو لمجرد الخوف أن يظهروا للملأ على حقيقتهم، وقد رأينا الكثير من الأبناء يسخرون من الآباء وتقاليدهم ، لا شيء إلا لأنها تصطدم مع ميولهم ورغباتهم .. ولا جزء لمن عاند الحق إلا القسوة والعنف (فانتقمنا منهم فانظر كيف كان عاقبة المكذبين) انها خزي وجحيم من غير شك .

أهم يقسمون رحمة ربك الآية ٢٦ - ٣٥ :

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ * إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي

فَإِنَّهُ سَيِّدِينَ * وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * بَلْ
 مَتَّعْتُ هَؤُلَاءَ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ * وَلَمَّا جَاءَهُمُ
 الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ * وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا
 الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ * أَهُم يَفْسِمُونَ بِرَحْمَةِ رَبِّكَ فَحَنُ
 قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ
 دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم لِبَعْضٍ سُبْحَرِيًّا وَرَحْمَةً رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ *
 وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالْإِيمَانِ
 لِيُؤْتِيَهُمْ سُقْفًا مِّنْ فَضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ * وَلِيُؤْتِيَهُمْ
 أُنْبِيَآءَ سُرُورًا عَلَيْهِآ يَتَكَبَّرُونَ * وَزُخْرَفًا وَإِنَّ كُلَّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ
 الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ *

اللغة :

براء بفتح الباء مصدر يستوي فيه التذكير والتأنيث والافراد والثنية والجمع ،
 تقول : انا براء مما تعملون ، وأنتم براء بما أعمل أي انا بريء وأنتم بريئون أو
 أنا ذو براء ، وأنتم ذوو براء . وفطرني خلقي . وفي عقبه في ذريته . ومن
 القرينين على حذف مضاف أي احدى القرينين ، وهما مكة والطائف . والمراد
 برحمة ربك هنا النبوة . وسخرياً هنا بمعنى السخير ، لا بمعنى الاستهزاء . ومعارج
 جمع معرج وهو الدرج . وعليها يظهرون أي يصعدون . وسرر وأسرة جمع
 سرير . والزخرف الزينة .

الإعراب :

هؤلاء إشارة إلى مشركي مكة . ولولا نُزِّل «لولا» أداة طلب مثل هلا . ولولا أن يكون «لولا» هذه تدل على امتناع الثاني لوجود الأول ، والمصدر من أن يكون مبتدأ والخبر محذوف أي لولا كراهية كون الناس الخ حاصل أو لولا رغبة الناس في الكفر حاصلة، وليبوتهم سقفاً أي على بيوتهم سقفاً كما قبل . وان كل «ان نافية» ولما بالتشديد بمعنى إلا .

المعنى :

(وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه انني براء مما تعبدون إلا السني فطرني فإنه سيهدين) . كان قوم إبراهيم يعبدون الأصنام ، ومنهم أبوه كما يدل ظاهر الآية، فنهاهم عن عبادتها ، وأعلن براءته منهم ومن آلتهم ، وأنه يعبد الله الذي خلقه على فطرة التوحيد ، وأنه سيهديه ويرشده إلى ما فيه خيره وصلاحه ، وقوله : « سيهدين » يومىء إلى يقينه وثقته بالله .. وهكذا كل من طلب الهدى والحق بإخلاص يثق بأن الله معه وكافيه وهاديه لقوله تعالى : « واعلموا ان الله مع المتقين .. ان الله مع الصابرين .. ان الله لمح المحسنين » . وتقدم مثله في الآية ٧٤ من سورة الأنعام ج ٣ ص ١١٢ والآية ٤٢ من سورة مريم و ٥٢ من سورة الأنبياء و ٧٠ من سورة الشعراء و ٨٥ من سورة الصافات .

(وجعلها كلمة باقية في عقبه) . ضمير جعلها يعود إلى كلمة التوحيد التي دل عليها قوله : « انني براء مما تعبدون » والمراد بجعلها وصى بها لقوله تعالى في الآية ١٣١ من سورة البقرة : « ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بني ان الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون » .. (لعلهم يرجعون) . هذا تعليل لوصية إبراهيم ، والمعنى انما وصى إبراهيم بنيه بكلمة التوحيد ليعملوا بها ، وإذا أشرك واحد منهم أو حاول يُذكر بوصية أبيه ، ويقال له : انك خالفت ما وصى به إبراهيم . وقد حدث ذلك بالفعل : « قل صدق الله فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين - ٩٥ آل عمران » .. « ملة ابيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل - ٧٨ الحج » .

لماذا كرم الله وجه علي ؟

في العام الماضي ١٣٨٩ هـ صمت رمضان المبارك في (دبي) بدعوة من أهلها ، وقد وجه إليّ الشباب العديد من الأسئلة منها هذا السؤال : لماذا يقول السنة عند ذكر بعض الصحابة : رضي الله عنه ، ويقول الشيعة عند ذكر أحد الأئمة : عليه السلام ؟

فأجبت بأن كلاً من السنة والشيعة يستقون من القرآن الكريم ، وقد جاء فيه : « رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك الفوز العظيم - ١١٩ المائدة » وأيضاً جاء فيه : « وسلام على عباده الذين اصطفى - ٥٩ النمل » فأخذ الشيعة بهذه الآية ، وأخذ السنة بتلك .. وحين بلغت بالتفسير الى قوله تعالى : « لعلهم يرجعون » قرأت في تفسير روح البيان للشيخ اسماعيل حقي من علماء السنة - ما نصه بالحرف : « قال بعضهم في سبب تكريم وجه علي بن أبي طالب بأن يقال : كرم الله وجهه : انه نقل عن والدته فاطمة بنت أسد أنها كانت إذا أرادت أن تسجد للصنم : وعلي في بطنها يمنعها من ذلك » .

(بل تمتعت هؤلاء وآباؤهم حتى جاءهم الحق ورسول مبين) . هؤلاء اشارة الى مشركي قريش ، وهم من ذرية ابراهيم (ع) ، والمراد بالحق هنا القرآن ، وبالرسول محمد (ص) وقد وصفه سبحانه بالبين لأن رسالته ظاهرة الدلائل ، ومعجزته أفحمت كل منكر ، والمعنى ان عتاة قريش أشركوا بالله ، وأعرضوا عن وصية أبيهم ابراهيم (ع) بالتوحيد ، فأمهلهم سبحانه وأنعم عليهم من فضله ، ولكن تملّكهم الغرور ، وطمعوا وبغوا الى ان جاءهم رسول من أنفسهم بكتاب الله يدعوهم الى التوحيد ملة أبيهم ابراهيم .

(ولما جاءهم الحق قالوا هذا سحر وإنا به كافرون) . كفروا بالقرآن وقالوا : سحر مفترى ، وكفروا بالرسول وقالوا : « يا أيها الذي نزل عليه الذكر انك لمجنون لو ما تأتينا بالملائكة ان كنت من الصادقين - ٧ الحجر » . (وقالوا - أيضاً - لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) . محمد فقير .. ومع هذا يقول : ان الله نزل عليّ قرآنًا .. وهذا أعجب المعجب ! لأن الله لا يختار لرسالته إلا العظيم الكبير ، وهو في مفهومهم من ملك الجاه والمال مثل

الوليد بن المغيرة بمكة ، وعروة بن مسعود الثقفي بالطائف ، وعلى أحد هذين يجب أن ينزل القرآن لو كان هناك قرآن . وهكذا نفوا الرسالة عن محمد (ص) لا لشيء إلا لأنه لا يملك مالا ولا عقاراً .. وجهلوا ان المال يملكه البر والفاجر ، والمؤمن والكافر ، أما الرسالة فهي وقف على الاكفاء وصفوة الأصفياء . ولا فرق عند الله سبحانه بين من نفى النبوة عن محمد لفقره ، وبين من يكرّم ويقدر الأغنياء لما لهم وراثتهم ، ويزدري المؤمن الفقير لفقره وبؤسه ، لا فرق عند الله بين هذين اطلاقاً ، وان نطق أحدهما بالشهادتين . غاية الأمر ان من قال : لا إله إلا الله محمد رسول الله يعامل في الدنيا معاملة المسلم ، أما في الآخرة فهو مع الجاحدين والمشرّكين .

(أهم يقسمون رحمة ربك) ؟ . الحمزة للانكار ، والمراد برحمة الله هنا النبوة ، والمعنى هل أمر النبوة بيد الطغاة المترفين ليختاروا لها من يشاؤون ويحرموا منها من يريدون ؟ وهل النبي مختار في قرية ، أو نائب في برلمان ؟ . ان النبوة منصب إلهي ، والنبي يبلغ عن الله سبحانه ، فهو لسانه وبيانه ، فهل يريد المترفون أن يختاروا الله من يبلغ عنه ويتكلم باسمه من لا يأتمنه ويرتضيه ؟ وهل يجيز المترفون لأحد أن ينوب عنهم ، ويتكلم باسمهم دون أن يأذنوا له في ذلك ؟ فكيف أجازوا على الله ما لا يجيزونه على أنفسهم ؟

(نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً ورحمة ربك خير مما يجمعون) . الله يرزق من يشاء ما في ذلك ريب ، ولكنه شاء أيضاً أن لا يرزق إلا بسبب : « هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه - ١٥ الملك » . وهذه الأسباب أو السعي في الأرض على أنواع ، منها الصناعة والزراعة والتجارة والاستخدام الذي عبّر عنه سبحانه بـ « سخرياً » كالذي يُستخدم في الدولة أو في المصنع أو عند تاجر أو طبيب وغيرهما من أرباب العمل ، وفي مفهوم الناس ان رب العمل أرفع من العامل ، أما عند الله تعالى فالأكرم والأرفع هو الأتقى : « ان أكرمكم عند الله أتقاكم - ١٣ الحجرات » .. « وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين - ١٣٣ آل عمران » . وفي نهج البلاغة : « جاع رسول الله في الدنيا مع خاصته - أي خصوصيته عند ربه - وزويت عنه زخارفها مع عظيم زلفته ،

فلينظر ناظر بعقله أكرم الله عمداً بذلك أم أهانه ، فإن قال : أهانه فقد كذب والعظيم ، وإن قال : أكرمه فليعلم أن الله قد أهان غيره حيث بسط له الدنيا وزواها عن أقرب الناس منه .

وتسأل : وماذا تفعل بقوله تعالى : « نحن قسمنا .. ورفعنا » فإنه صريح في أن الله هو الذي يفقر ويغني ويجعل هذا عاملاً ، وذلك رباً للعمل ؟

الجواب : أن قوله هذا حكاية للواقع الذي عليه الناس ، وأسندته إليه تعالى لأن التفاوت يرجع إلى أسبابه الكونية مباشرة ، وإليه تعالى بالواسطة لأنه خالق الكون وموجده ، ويدل على إرادة هذا المعنى قوله سبحانه في آخر الآية : (ورحمة ربك خير مما يجمعون) حيث أسند جمع المال إلى الناس لا إليه .. وبهذا يمكن التوفيق بين الآيات الآمرة بالسعي من أجل الرزق ، والآيات التي أسندت الرزق إلى الله عز وجل .. وأشرنا عند تفسير الآية ٢٧ من سورة الشورى إلى أنه تعالى قد يشمل بعض عباده بالتوفيق والعناية ، فبرزهم من القليل كثيراً .

(ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجلدنا من يكفر بالرحمن لبيوتهم سفكاً من فضة ومعارج عليها يظهرهم وليوتهم أبواباً وسرراً عليها يتكئون وزخرفاً . أي معارج من فضة وأبواباً من فضة وسرراً من فضة . والآية رد على من قال : أن الفقير لا يصلح للنبوّة لأن الفقر منقصة في الخلق ، وتلخص الرد بأن الدنيا لا تعدل عند الله جناح بعوضة ، والآخرة خير عند ربك وأبقى ، ولكن الناس يؤثرون الدنيا على الآخرة ، ويميلون معها انتهى انجهدت ، ولولا ذلك لأعطى سبحانه الكافر بيوتاً من فضة بسقفها وأبوابها ومساعدتها وأثاثها ، وزادهم على ذلك من زخرف الدنيا وزينتها احتقاراً لها .. وقال بعض العارفين : مال الناس مع الدنيا ، وما فعل الله ذلك ، فكيف لو فعل ؟ وتدل هذه الآية على أن الله يلطف لعباده ، ويفعل ما يقربهم من الطاعة ، ويباعد عنهم المعصية - وعلى الأقل - لا يفعل ما يزيحهم بالمعصية .

(وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا) أي إن نعيم الدنيا مهما كان نوعه فهو إلى زوال لا يستحق العناية والاهتمام ، وقد جاء التعبير عنه في بعض الآيات باللغو واللعب والغرور (والآخرة عند ربك للمتقين) وهم الذين أخلصوا لله في أقوالهم وأفعالهم .

أفأنت تسمع الصم الآية ٣٦ - ٤٥ :

وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ * وَإِنَّهُمْ
لَيَصْدُوْنَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُوْنَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُوْنَ * حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ
يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيَنْسَى الْقَرِينَ * وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ
إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ * أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي
الْعُمْيَ وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * فَأَمَّا نَذَاهِبٌ بِكَ فَأَمَّا مِنْهُمْ مُتَّقِمُونَ *
أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَأَمَّا عَلَيْهِمْ مُّقْتَدِرُونَ * فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي
أُوْحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ
وَسَوْفَ نُسْأَلُوْنَ * وَأَسْأَلُ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ
دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ *

الالهة :

ومن يعش عن ذكر الرحمن أي من يعرض مثل : « ومن يعرض عن ذكر
ربه يسلكه عذاباً صعباً - ١٧ الجن » . ونُقَيِّضْ نتيج ونهيه . والمراد بذكر
الرحمن القرآن وبذكر لك ولقومك الشرف .

الإعراب :

يا ليت بمنزلة الكلمة الواحدة ومعناها أتمنى . فيش القرين المخصوص باللعن
محذوف وهو أنت . والمصدر من أنكم في العذاب مشتركون فاعل ينفعكم أي لا

ينفعكم الاشتراك في العذاب أو كونكم مشتركين فيه . فاما نذهبن « إما » كلمتان ان الشرطية وما الزائدة ، وهي هنا بمنزلة لام القسم ، ولذا اتصلت نون التوكيد بالمضارع . واسأل من أرسلنا على حذف مضاف أي اتباع من أرسلنا .

المعنى :

(ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين) . الله سبحانه عادل وحكيم لا يسلط الشياطين على عباده ليغريهم بالضلال والمعصية ثم يعاقبهم عليها ، كيف وهو القائل : « ان عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين - ٤٢ الحجر » والقائل : « وما ربك بظلام للعبيد - ٤٦ فصلت » ؟ وعليه يكون معنى الآية من ينصرف عن دين الله وشريعته الى الشهوات والملذات يتخلى سبحانه عنه ، ويكمله إلى نفسه الأمارة ، وإلى شياطين الانس والجن تفتك به ، وتقوده إلى المهالك ، ولا يردعه الله عن المعصية بالجبر واقهر . وتقدم مثله في الآية ٢٥ من سورة فصلت . (وانهم ليصدونهم عن السبيل) . الضمير في انهم يعود إلى الشياطين لأن المراد بالشيطان الجنس ، وضمير يصدونهم يعود إلى أتباع الشياطين ، والسبيل هو طريق الهدى والحق (ويحسبون أنهم مهتدون) . الشياطين يقودون أتباعهم إلى الضلال ، والأتباع يعتقدون أنهم على الهدى في الانقياد إلى الشياطين .. وأشقى الناس من سار على طريق الهلاك : وهو يعتقد انه على طريق السلام والصراط القويم : « قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً الذين ظلل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا - ١٠٥ الكهف » .

(حتى إذا جاءنا قال يا ليت بيني وبينك بُعسد المشرقين فبئس القرين) . في جاءنا وقال ضمير مستتر يعود إلى الذي اتبع الشياطين والمضللين ، وفي الكلام حذف أي ان التابع يقول غداً للمتبوع : ليتني كنت بعيداً عنك بُعد المشرق عن المغرب ، فبئس صاحب كنت لي والرفيق ، ومثله : « إذ تبرا الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب ونقطعت بهم الأسباب - ١٦٦ البقرة » . (ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم انكم في العذاب مشتركون) . الخطاب في ينفعكم للتابعين ، والمعنى قد يهون عذاب الدنيا بعض الشيء على صاحبه إذا رأى غيره يعاني مما

سورة الزخرف

يعانيه ، أما عذاب الآخرة فهو هو في شدته ، سواء أكان خاصاً بالتابعين أم عاماً لهم وللمتبعين ، فاشترك هؤلاء مع أولئك في العذاب لا يخفف منه شيئاً ، ولا يجدي التابعين نفعاً .

(أفأنت تسمع الصم أو تهدي العمي ومن كان في ضلال مبين) . لقد ختمت الشهوات على أعينهم وقلوبهم وأذانهم ، فكيف يرون الحق ويسمعون كلمته ؟ وتقدم مثله في الآية ٤٢ من سورة يونس و ٨٠ من سورة النمل و ٥٢ من سورة الروم (فإذا نذهبن بك فإننا منهم منتقمون أو نرينك الذي وعدناهم فإنا عليهم مقتدرون) . الخطاب لرسول الله (ص) ، وضمير منهم وعليهم للمشركين ، والمعنى ان الله سبحانه لا يدع المشركين على ما هم عليه، فإن انتقل الرسول إلى رحمة ربه قبل أن يسلموا أو يستسلموا انتقم الله منهم ، وان بقي الرسول حياً أظهره الله عليهم وأخضعهم لأمره مرغمين، وفاء لوعده الله تعالى. وهذا ما حدث بالفعل. فلقد دخل الرسول الأعظم مكة فاتحاً واستسلم له عتاتها بعد أن أخرجوه منها خائفاً يترقب . وتقدم مثله في الآية ٤٦ من سورة يونس والآية ٤٠ من سورة الرعد والآية ٧٧ من سورة غافر .

(فاستمسك بالذي أوحى إليك إنك على صراط مستقيم) . اعتصم يا محمد بالقرآن لأنه الحق ، والله معك لأنك على صراطه القويم ، وهو كافيك المستهزين والمعاندين (وانه لذكر لك ولقومك) أي ان القرآن شرف لك وللعرب لأنه رفع من شأنهم ونشر سلطانهم ولغتهم في شرق الأرض وغربها كما ذكرنا عند تفسير الآية ٤ من هذه السورة . وتقدم مثله في الآية ١٠ من سورة الأنبياء (وسوف تسألون) . أيها العرب عن العمل بالقرآن .. ولا شيء أهون اليوم عليهم منه ، ومن هنا أصبحوا أكلة سائغة لكل آكل وطامع .

(واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آتة يعبدون) . اسأل يا محمد أهل الأديان واتباع من سبقك من الرسل : هل سمعوا بنبي من الأنبياء أجاز الشرك ، وأباح عبادة الأصنام ؟ وإذا كان جميع الرسل دعوا إلى التوحيد ونبد الشرك كما دعا محمد فعلام أيها المشركون تعلنون الحرب عليه وعلى دعوته ؟

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ
 الْعَالَمِينَ * فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ * وَمَا نُرِيهِمْ
 مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتَيْهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ *
 وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ * فَلَمَّا
 كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ * وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ
 قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا
 تُبْصِرُونَ * أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ * وَلَا يَكَادُ يُبِينُ *
 فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسُورَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَأِكَةُ مُقْتَرِنِينَ *
 فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَاطَّاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ * فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا
 مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْجَعِينَ * فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ *

اللغة :

بآياتنا بمعجزاتنا التي أظهرناها على يد موسى . وملائته أشراف قومه . ومهين
 حقير . ويسين يفصح . وأسورة جمع سوار مثل أخرة جمع خار . ومقترنين
 ملازمين . وآسفونا أغضبونا . وسلفاً أي سابقين الى النار . ومثلاً عبرة وموعظة .

الإعراب :

أَمْ أَنَا بَلْ أَنَا . فَلَوْلَا فَهَلَا . ومفترنين حال من الملائكة . وأجمعين تأكيد
لضمير أغرقناهم . وللآخرين متعلق بـ « مثلاً » .

المعنى :

(ولقد أرسلنا موسى بآياتنا إلى فرعون وملئه فقال اني رسول رب العالمين فلما
جاءهم بآياتنا إذا هم منها يضحكون) . هذه هي المرة السادسة عشرة التي تكررت
فيها قصة موسى (ع) ما عدا الآيات التي جاء فيها ذكره . وتكلمنا مفصلاً حيناً
ومجماً حيناً آخر عن هذه القصة ، وعند تفسير الآية ٩ من سورة طه في المجلد
الخامس ذكرنا السبب الموجب لتكرارها ، وقال بعض المفسرين : ان الله عز
وجل أعاد هنا قصة موسى لأن عتاة قريش طعنوا بنبوة محمد (ص) لفقره ، فبيّن
سبحانه انه قد أرسل موسى الفقير إلى فرعون الغني ، والآيات السابقة تؤيد هذا
القول . ومهما يكن فإن معنى الآية التي نحن بصدها واضح ، ويتلخص بأن الله
بعث موسى إلى فرعون وقومه بالمعجزات الدالة على نبوته ، كالعصا واليد البيضاء ، فسخروا
منه ومن دعوته ومعجزاته .

(وما نريهم من آية إلا هي أكبر من أختها) . المراد بالآية هنا العذاب ،
كما قال سبحانه : « فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات
مفصلات - ١٣٣ الأعراف » . ومعنى أكبر هنا أوضح ، وأختها أي شريكها
في العذاب (وأخذناهم بالعذاب لعلهم يرجعون) عن الضلال إلى الهدى ، وعن
الفساد في الأرض إلى اصلاحها، ولكن ما أغنت الآيات والنذر عن قوم لا يبصرون
إلا منافعهم ومكاسبهم .

(وقالوا يا أيها الساحر ادع لنا ربك بما عهد عندك اننا لمهتدون). في هذه الآية
حكى سبحانه ان قوم فرعون خاطبوا موسى بالساحر ، وفي الآية ١٣٤ من سورة
الأعراف حكى انهم خاطبوه باسمه : « ولما وقع عليهم الرجز قالوا يا موسى ادع لنا ربك
بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن » . وغير بعيد انهم خاطبوه مرة بالاسم ،

الجزء الخامس والعشرون

ومرة بكلمة الساحر.. وهذا مألوف في الحوار عند الناس (فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينتكون) . أخذهم الله بالسنين ، فاستغاثوا بموسى وعاهدوا الله أن يتوبوا إليه ان كشف عنهم العذاب ، ولكنهم نكثوا واستمروا على الكفر والضلال بعد أن كشف عنهم الرجز وشملهم برحمته وعنايته .

(ونادى فرعون في قومه قال يا قوم أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون) . من تحتي كناية عن تصرفه في الأنهار كما يشاء .. وقد استدل فرعون على عظمته وعلو شأنه بالمال والعقار .. ولا عجب ، فهذا هو المنطق السائد عند الأكثرية الغالبية في كل قطر وعصر .. وأصحاب المال في هذا العصر هم الحاكمون بأمرهم في كثير من البلدان (أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين) . مهين حقير لفقره، وبين يفصح ويوضح عما يريد . وقد كان في لسان موسى لثغة فأزالها الله سبحانه بدليل قول موسى لربه : « واحلل عقدة من لساني » وقوله تعالى لموسى : « قال قد أوتيت سؤالك يا موسى - ٣٦ طه » . وفرعون غير موسى بما كان ، لا بما هو كائن بالفعل .

(فلولاً ألقى عليه اسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين) أي ملازمين لموسى تماماً كما تلازم الرجل العظيم حاشيته . وقال المفسرون : جرت عادة قوم فرعون إذا اختاروا رئيساً لهم أن يسوّروه بسوار من ذهب ، ويطوقوه بطوق من ذهب علامة على رياسته ، ومن أجل هذا قال فرعون : كيف يكون موسى نبياً ، ولا سوار في يده ، ولا طوق في عنقه ، والذي جراه على ذلك هو جهل قومه وضلالهم وضعف عقولهم كما قال سبحانه : (فاستخف قومه فأطاعوه أنهم كانوا قوماً فاسقين) . في العام الماضي طلبت عاملاً ليصلح خط الكهرباء في مكنتي، ولما رأى الكتب مبعثرة في كل جزء من الغرفة ذهل وقال : ان زوجي تكرهني ، فأرجوك أن تكتب لها كتاب عجة . فقلت له : أنا جاهل بهذا الفن . فقال : ولماذا تقفني هذه الكتب ؟

(فلما آسفونا) أي أغضبونا بتكذيب الرسول ، ونكث العهد واصرارهم على الكفر والضلال (انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين) القائد منهم والمقود (فجلناهم سلفاً) أي متقدمين على غيرهم الى النار (ومثلاً للآخرين) عبرة وعظة لمن

سورة الزخرف

يأتي بعدهم ، ومثله : « وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم وجعلناهم للناس آية - ٣٧ الفرقان » .

ولما ضرب ابن مريم مثلاً الآية ٥٧ - ٦٦ :

وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ * وَقَالُوا آلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ * إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ * وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ * وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ * وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا * إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ * فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابٍ يَوْمِ أَلِيمٍ * هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ *

اللغة :

يصدون أي يصيحون ويضجون . وخصمون شديدون في الخصومة . وجعلناه مثلاً أي آية . والامراء الشك .

الإعراب :

مثلاً مفعول ثانٍ لضرب لأن الفعل هنا بمعنى جعل، وهو يعود إلى ابن مريم . وما ضربه كلام مستأنف ، و « ما » نافية . وجدلاً مفعول لأجله . وإن هو «إن» نافية . فلا تَمْتَرُ التَّوَنَ للتوكيد . واتبعون أي واتبعوني ومثله وأطيعون . والمصدر من أن تأتيهم بدل من الساعة لأن المعنى هل ينظرون إلا اتيان الساعة . وبغثة صفة للمفعول مطلق محذوف أي اتياناً بغثة أو في مكان الحال أي مباغثة .

المعنى :

(ولما ضرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدون وقالوا أآلئنا خير أم هو) ؟ الخطاب في قومك لرسول الله (ص) وضرب مبني للمجهول . وقال المفسرون : ان الذي ضرب ابن مريم مثلاً هو عبدالله بن الزبيرى بكسر الزاي وفتح الباء والراء ، وتشير الآية إلى حادثة خاصة بين النبي (ص) وكفار قريش، وملخصها انه لما نزل قوله تعالى : « انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون - ٩٨ الأنبياء » شق ذلك على قريش ، فقال ابن الزبيرى قبل أن يسلم ، قال للرسول : ان النصرارى يعبدون المسيح ، فإذا كان المسيح في النار فنحن نرضى أن نكون آلئنا معه لأنه خير منها ، أو هي ليست خيراً منه . ولما سمع المشركون هذا النقض من ابن الزبيرى رفعوا أصواتهم بالضجيج ليسكتوا الرسول عن الجواب ويوهمو الناس انه أعجز وأفهم ، وفي بعض الروايات ان رسول الله (ص) قال لابن الزبيرى : ما أجهلك بلغة قومك ؟ أما فهمت ان « ما » لما لا يعقل ؟.

(ما ضربه لك إلا جدلاً) . ان نقض المشركين عليك يا محمد بالمسيح ما هو بقصد إحقاق الحق وإظهاره .. كلا ، بل للتهرب منه بالكذب والتمويه ، وإلا فلأنهم على علم اليقين بأن المراد من « وما تعبدون » أصنامهم بالذات (بل هم قوم خصمون) يبسافون في اللجاج والخصومة بالباطل حرصاً على أرباحهم وعدوانهم (ان هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلاً لبي اسرائيل) . ان عيسى

سورة الزخرف

عبد من عباد الله أنعم الله عليه بالنبوة، وخلق كآدم من غير أب ليكون آية تدل بني اسرائيل على قدرة الله وعظمته لعلمهم يهودون وبنقون .. ولكنهم ازدادوا عتواً وطغياناً ، وقالوا عن السيد المسيح وأمه ما يهتر له العرش .

(ولو نشاء لجعلنا منكم - أي بدلاً منكم - ملائكة في الأرض يخلفون) أي يخلفونكم . هذا تهديد ووعيد للمشركين ، ومعناه ان الله غني عنكم وعن عبادتكم أيها المشركون ، ولو شاء أهلككم وجعل مكانكم ملائكة يخلفونكم في الأرض يقدسونه ويستحون بحمده ولا يعصون له أمراً . ومثله : « وان تولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم - ٣٨ حمد » .

(وانه لعلم للساعة فلا تترن بها واتبعون هذا صراط مستقيم) . ضمير انه يعود الى القرآن ، والمعنى ان القرآن يُعلم الناس بيوم القيامة ويخبرهم عن حقيقته ، ويحذرهم من أهواله ، ولا يجوز الشك فيه .. و « هذا » اشارة الى القرآن أيضاً وانه صراط الله المستقيم ، قال تعالى : « ان هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم - ٩ الإسراء » . والأقوم هو الصراط المستقيم .

ونسأل : كيف يعود الضمير الى القرآن مع العلم بأنه لم يرد له في الآيات ذكر ، والذي ذكر فيها هو عيسى (ع) فينبغي أن يعود الضمير اليه ، لا إلى القرآن ؟

الجواب : ان موضوع الآيات هو الجدل في عيسى ، والحديث عنه كما وصفه القرآن ، لا كما هو في ذاته بصرف النظر عما جاء في كتاب الله ، وعليه يكون ذكر السيد المسيح ذكراً للقرآن ، ويؤيده قوله تعالى في نفس الآية : هذا صراط مستقيم ، فإن المراد به القرآن كما أسلفنا . والغريب ان بعض المفسرين أعادوا الضمير إلى عيسى ، ومع هذا فستروا الصراط المستقيم في الآية بدعوة محمد (ص) والقرآن .

(ولا يصدنكم الشيطان) عن الحق والعمل بالقرآن (انه لكم عدو مبين) ، ظاهر العداوة والبغضاء يغريكم بالمنكر والمعشء ، ومثله : « لا يفتنكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة - ٢٧ الأعراف » . (ولما جاء عيسى بالبينات قال قد جئتكم بالحكمة ولأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه فاتقوا الله وأطيعون) .

المراد بالبينات هنا المعجزات الدالة على نبوة عيسى ، كشفاء الأكمه والأبرص ، والمراد بالحكمة العلم بدين الله وشريعته، والمعنى ان عيسى الذي ثبتت نبوته بالدلائل الواضحة قال لبني اسرائيل : قد جئتم من عند الله بأحكام الدين كلها عقيدة وشرعية ، وبها تعرفون المحق من المبطل ، فاتقوا الله ترشدوا .
وتسأل : لماذا قال بعض الذين يختلفون فيه ولم يقل كل :

وأجاب جماعة من المفسرين بأن القصد من ذلك ان عيسى (ع) بوصفه نبياً يبين لهم أمور الدين فقط ، أما شؤون الدنيا فلا تدخل في مهمته . وقد روى علماء السنة في صحاحهم عن النبي (ص) انه قال : « أنتم أعلم بأمور دينكم ، وأنا أعلم بأمور دنيكم » .

(ان الله هو ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم) . هذا إشارة الى التوحيد والنهي عن الشرك ، والمعنى ظاهر على حد تعبير الرازي (فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم) . المراد بالأحزاب اليهود والنصارى من جهة ، والنصارى فيما بينهم من جهة ثانية . قال اليهود : ان عيسى ابن زنا مخالفين في ذلك جميع النصارى والمسلمين ، أما النصارى فقد اختلفوا بعد المسيح وتفرقوا شيعاً ، فن قائل : ان عيسى عبد الله ورسوله ، وقائل : هو ابن الله ، وقائل : بل هو الله بالذات .. تعالى الله عما يصفون . (هل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة وهم لا يشعرون) ؟ هذا تهديد ووعيد لمن آله عيسى . وتقدم مثله في سورة يوسف الآية ١٠٧ .

الاغلاء يومئذ الآية ٦٧ - ٨٠ :

الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ * يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ * ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ * يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا

خَالِدُونَ* وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ* لَكُمْ فِيهَا
فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ* إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَبَّارٍ خَالِدُونَ*
لَا يُفْتَرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ* وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمْ
الظَّالِمِينَ* وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَا كُنْتُمْ
لَقَدْ جِئْتُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنْ أَكْثَرُكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ* أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا
فَأَنَّا مُبْرِمُونَ* أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا
لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ*

اللغة :

مسلمين متقادين لله . "تَجَبَّرُونَ" تسرون . وصحاف جمع صحفة كجفان جمع
جفنة ، وهي اناء يؤكل فيه الطعام . وأكواب جمع كوب ، وهو كوز أو ما
أشبهه ، ولا أذن له كما قيل . لا يفتَر عنهم لا يخفف عنهم . ومبلسون آبسون
من النجاة . ومالك خازن النار . وأبرموا أحكموا .

الإعراب :

الأخلاء مبتدأ وبعضهم مبتدأ ثانٍ وعدو خبره ، والجملة خبر الأول ، ويومثل
متعلق بعُدو . وجملة يا عباد السخ مفعول لقول محذوف ، والأصل يا عبادي
وحذفت الياء تخفيفاً . والذين آمنوا بدل من يا عبادي . وفيها ما تشبهه مبتدأ
وخبر . وتلك الجنة مبتدأ وخبر . وهم الظالمين هم ضمير فصل لا عمل له
من الإعراب . أم أبرموا اضراب ومثلها ام يحسبون .

المعنى :

(الاخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين) . المراد بالعداء هنا انقطاع الصلة سواء أكان معه تباغض وتلاعن أم لم يكن ، والمعنى ان صلة الحب والصدقة التي كانت في الدنيا قائمة بين الناس تنقطع يوم القيامة وتزول إلا إذا كان مصدرها الاخوة في الله والتعاون على طاعته ، فلأنها عندئذ تستمر إلى ما لا نهاية بل تنمو وتزداد كلما طال المدى لأن ما كان لله ينمو .. هذا ، إلى ان أهل الجنة أسرة واحدة على اختلاف قومياتهم وبلادهم في الدنيا ، قال تعالى : « ونزعنا ما في صدورهم من غل إخواناً على سرر متقابلين - ٤٧ الحجر » .

(يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون) . هذا أمان الله من الحزن والخوف غداً لمن آمن بالله واتقاه (الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون) . هذا بيان وتفسير لعباد الله وأنهم الذين آمنوا به وانقادوا لطاعته ، وان جزاءهم عنده تعالى أن يدخلهم الجنة مع أزواجهم الصالحات ، ومعنى تحبرون تسرون أي ان ثوابهم لا يقف عند الأمن وعدم الخوف بل يتعداه إلى النعيم والحبور ، وأيضاً (يظاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب) . الصحاف للطعام ، والأكواب للشراب (وفيها ما تشتهي الأنفس) من الملذات الروحية والمادية (وتلد الأعين) من المناظر الجميلة (وأنتم فيها خالدون) إلى ما لا نهاية (وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون) الجنة حق لكم أيها المؤمنون العاملون تماماً كالآرث من مورثكم لأنكم في الحياة الدنيا عملتم من أجلها (لكم فيها فاكهة كثيرة منها تأكلون) . طعام وشراب وفاكهة أيضاً . والذي تشتهي الأنفس لا يبلغه الحصر ، لأن شهوة النفس لا ضابط لها ، وكذلك لذة العين .

(ان المجرمين في عذاب جهنم خالدون لا يفتر عنهم وهم فيه مبلسون) . بعد أن ذكر سبحانه الهادين المهديين ذكر الصالحين المضلين ، وأنهم في عذاب دائم لا أمل لهم في انقطاعه ، ولا في تخفيفه بعض الشيء (وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين) . لأنه سبحانه حذرهم وأنذرهم ، فأبوا إلا كفوراً .

(ونادوا يا مالك ليقتض علينا ربك قال انكم ما تكون) . استغاثوا بمالك خازن النيران ، وطلبوا منه أن يمن الله عليهم بالموت ليستريحوا من العذاب . فأجابهم

سورة الزخرف

مالك : لا نجاه مما أنتم فيه .. هذا ما كنتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكتزون .
وتسأل : لقد وصفهم سبحانه في الآية السابقة بأنهم مبلسون أي آيسون حتى
من تخفيف العذاب لحظة واحدة فضلاً عن انقطاعه ، فكيف أخبر عنهم هنا
أنهم يطلبون الموت ليستريحوا من العذاب ؟ ألا يدل هذا الطلب على الرجاء الذي
يتنافى مع اليأس ؟

الجواب : ان لأهل النار حالات يغلب عليهم اليأس في بعضها ، وتلوح لهم
بارقة من أمل في بعضها الآخر .. هذا ، الى أنه من الجائز أن يكون نداؤهم
مالكاً لمجرد التعبير عن شدة ما بهم .

(لقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحسق كارهون) . الذين يعرضون عن
الحق على نوعين : الأول يعرض عنه لجهله به . والثاني يعرض عنه لأنه يصادم
أهواءهم وأغراضهم . وهذا النوع من الناس هم الأكثريّة الغالبية .. وكل من
يدخل النار غداً يدخلها لأنه أعرض عن الحق ولم يعمل به ، ولكن القليل منهم
استحق العذاب لأنه قصّر في طلب العلم بالحق ، والأكثر استحقوا العذاب لأنهم
تركوا الحق لتصادمه مع أهوائهم ، لا لجهلهم به (أم أبرموا أمراً فإنا مبرمون) .
ضمير أبرموا يعود إلى المشركين ، والمعنى ما دبر المشركون كيذاً للنبي إلا أبطل
الله كيدهم ، كما فعل بقريش حين اجتمعت على اغتيال الرسول (ص) وهونائم
في فراشه (أم يحسبون أننا لا نسمع سرهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون) .
أنهم يدبرون الكيد بالسر ، ويعتقدون ان ذلك يخفى عليه تعالى ، ولكنه يعلم السر
وأخفى ، وهو لا يهدي كيد الخائنين .

ان كان للرحمن ولد الآية ٨١ - ٨٩ :

قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ * سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ * فَذَرُهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى
يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ * وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهُ وَفِي الْأَرْضِ

إِلَهُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ * وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ
يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ * وَلَئِنْ
سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنْتَ يُؤْفَكُونَ * وَقِيلَ يَا رَبِّ إِنَّ
هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ * فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ *

الله :

يؤفكون بصرفون عن الحق . وقيله وقوله بمعنى واحد .

الإعراب :

هو مبتدأ والذي خبر وفي السماء متعلق بإله لأنه بمعنى معبود ، وإله خبر لمبتدأ
محذوف أي هو إله في السماء . وقيله على حذف مضاف عطفاً على وعنده علم
الساعة أي وعنده علم قبله أيضاً .

المعنى :

(قل ان كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين) . ذكر صاحب مجمع البيان
هذه الآية خمسة معان ، وأطال الكلام من غير موجب ، لأن المعنى واضح ،
وهو قل يا محمد لمن يدعي بأن لله ولداً : أنا معك شريطة أن تثبت ذلك بالدليل
القاطع .. ولكن لا دليل على هذا الزعم ، بل قام الدليل على عكسه وفساده ،
لذا أنا من الموحدين المؤمنين بأن الله لم يلد ولم يولد .. واختصاراً ان الرسول
الأعظم (ص) علق اعترافه بعبادة الله الذي يلد ، علقه على محال ، وليس من

سورة الزخرف

شك ان وجود المعلق على محال محال مثله .. وهذا أسلوب معروف بين العلماء في الجدل والنقاش ، وهو أبلغ في افحام الخصم .

(سبحانه رب السموات والأرض رب العرش عما يصفون) من نسبة الولد والشريك اليه تعالى (فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون) .
ذرهم تهديد ووعد ، والمراد بالخوض واللعب هنا القول في الله بغير علم ، ويومهم هو يوم القيامة (وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله وهو الحكيم العليم) . الله وحده خالق الكون بأرضه وسماؤه ، ومدبره بعلمه وحكمته ، ولا أحد سواه يستحق العبادة .

(وتبارك الذي له ملك السموات والأرض وما بينها وعنده علم الساعة) . قوله تعالى : « وما بينها » يرمي الى ان في الفضاء كائنات لا نعلم حقيقتها ، والساعة يوم القيامة ، ولا أحد يعلم متى تقوم الا الله (واليه ترجعون) للحساب والجزاء (ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق وهم يعلمون) .
أنهم يعبدون الأصنام لأنها تشفع لهم عند الله بزعمهم . فقال سبحانه : كلا ، لا يشفع عنده إلا من نطق بكلمة التوحيد ، وآمن بها عن علم ، وكان المشفوع له أهلاً للشفاعة والشفوع عنه .

(ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله فأنى يؤفكون) . هم يعترفون بالله وانه هو الذي خلقهم ومع ذلك ينصرفون عن عبادته الى عبادة الأصنام . وتقدم مثله في الآية ٩ من هذه السورة (وقيله يا رب ان هؤلاء قوم لا يؤمنون فاصفح عنهم وقل سلام فسوف يعلمون) . ضمير قيله يعود الى الرسول (ص) ، وهو على حذف مضاف عطفاً على علم الساعة أي وعنده علم قول الرسول ، والمسمى ان الرسول قال لربه : ان الذين بعثني اليهم لم يستجيبوا لي . فقال له سبحانه : لا تختل بإعراضهم فإن العاقبة لك عليهم . والمراد بالسلام هنا هو المراد بالسلام في قوله تعالى : « وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً » - ٦٣ الفرقان ، .

كُتبت القسم الأخير من هذا المجلد في العشرة الأولى من شهر المحرم سنة ١٣٩٠ هـ بفسد كربلاء المقدسة في جوار سيد الشهداء سبط الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم .

الفهرست

سورة النمل

٥	هدى وبشرى للمؤمنين الآية ١ - ٥
٧	موسى الآية ٦ - ١٤
١٠	سليمان الآية ١٥ - ١٩
١٢	المظلات والعبر في نملة سليمان
١٤	مالي لا أرى المدهد الآية ٢٠ - ٢٦
١٧	اذهب بكتابي هذا الآية ٢٧ - ٣٥
١٩	هل الفساد طبيعة في الملوك ؟
٢٠	عرش بلقيس الآية ٣٦ - ٤٠
٢٣	نكروا لها عرشها الآية ٤١ - ٤٤
٢٥	صالح الآية ٤٥ - ٥٣
٢٧	لوط الآية ٥٤ - ٥٨
٣١	سلام على عباده الذين اصطفى الآية ٥٩ - ٦٤
٣٢	الصلاة والسلام على المتقين
٣٤	عالم الغيب والبعث الآية ٦٥ - ٧٥
٣٧	ان هذا القرآن يقصص الآية ٧٦ - ٨٥
٣٨	شعار اسرائيل سمعنا وعصينا
٤١	تمر الجبال مر السحاب الآية ٨٦ - ٩٣
٤٣	الجبال وحركة الأرض

سورة القصص

- ٤٦ آيات الكتاب الآية ١ - ٦
- ٤٧ لماذا اضطهد فرعون بني اسرائيل
- ٤٨ متى يمن الله على المستضعفين
- ٥٠ أم موسى الآية ٧ - ١٣
- ٥٣ ولما بلغ أشده الآية ١٤ - ١٩
- ٥٦ ان الملأ يأتهمون بك الآية ٢٠ - ٢٨
- ٦٠ الشريعة الاسلامية نسخت جميع الشرائع
- ٦٢ قضى موسى الأجل الآية ٢٩ - ٣٢
- ٦٣ فاحاف ان يقتلون الآية ٣٣ - ٣٧
- ٦٥ ما علمت لكم من إله غيري الآية ٣٨ - ٤٣
- ٦٨ محمد وأنباء الغابرين الآية ٤٤ - ٥١
- ٧٣ يؤتون أجورهم مرتين الآية ٥٢ - ٥٤
- ٧٤ الصبر حكمة وبطولة
- ٧٥ انك لا تهدي من أحببت الآية ٥٥ - ٦١
- ٧٦ أبو طالب والاسلام
- ٧٩ ابن شركاني الآية ٦٢ - ٧٠
- ٨٢ الحكمة من الليل والنهار الآية ٧١ - ٧٥
- ٨٤ فارون الآية ٧٦ - ٨٢
- ٨٦ فارون والرأسمالية المستبدة
- ٨٩ لرادك إلى معاد الآية ٨٣ - ٨٨
- ٩٠ أنخبار الغيب عن العملاء والخونة

سورة العنكبوت

- ٩٢ الإيمان جهاد وصبر الآية ١ - ٩
٩٥ أيضاً البر بالوالدين
٩٦ ومن الناس من يقول آمنا الآية ١٠ - ١٥
٩٧ إيمان أو سراب
٩٩ ابراهيم الآية ١٦ - ١٨
١٠٠ الله المبدىء والمعيد الآية ١٩ - ٢٧
١٠١ القرآن والفكر
١٠٥ لوط الآية ٢٨ - ٣٥
١٠٦ شعيب الآية ٣٦ - ٤٠
١٠٨ ان أوهن البيوت لبنت العنكبوت الآية ٤١ - ٤٥
١١١ الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر
١١٥ الجدل بالتي هي أحسن الآية ٤٦ - ٤٩
١١٥ المنهج الجدلي في القرآن
١١٩ إنما الآيات عند الله الآية ٥٠ - ٥٥
١٢١ وكأين من دابة لا تحمل رزقها الآية ٥٦ - ٦٣
١٢٣ الرزق والثقة بالمخلوق دون الخالق
١٢٥ الدنيا هو ولعب الآية ٦٤ - ٦٩

سورة الروم

- ١٢٨ غلبت الروم الآية ١ - ٧
١٣٠ أولم يتفكروا في أنفسهم الآية ٨ - ١٦
١٣٣ من مشاهد الكون وخلق الانسان الآية ١٧ - ٢٥
١٣٦ الزواج القرآني

- كل له قانتون الآية ٢٦ - ٢٩ ١٣٨
 ذلك الدين القيم الآية ٣٠ - ٣٢ ١٤٠
 دين الله والقطرة ١٤١
 وإذا مس الناس ضرر الآية ٣٣ - ٤٠ ١٤٣
 ظهر الفساد في البر والبحر الآية ٤١ - ٤٥ ١٤٦
 من الآيات الكونية الآية ٤٦ - ٥١ ١٤٨
 العقل وفكرة البعث ١٥١
 خلقكم من ضعف الآية ٥٢ - ٦٠ ١٥١

سورة لقمان

- هذا خلق الله الآية ١ - ١١ ١٥٥
 الانحجار بالدين والضمير ١٥٧
 لقمان الآية ١٢ - ١٩ ١٥٨
 الصخرة وقرن الثور ١٦٢
 فقد استمسك بالعروة الوثقى الآية ٢٠ - ٢٨ ١٦٤
 من هو المستمسك بالعروة الوثقى ؟ ١٦٦
 يولج الليل في النهار الآية ٢٩ - ٣٢ ١٦٨
 ان الله عنده علم الساعة الآية ٣٣ - ٣٤ ١٧٠
 لماذا خلق الله الانسان ؟ ١٧١
 علم الساعة والغيب وما في الأرحام ١٧٣

سورة السجدة

- الذي أحسن كل شيء خلقه الآية ١ - ٩ ١٧٦

١٧٩	المجرمون ناكسو رؤوسهم الآية ١٠ - ١٤
١٨١	أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً الآية ١٥ - ٢٢
١٨٤	فلا تكن في مرية من لقائه الآية ٢٣ - ٣٠
	سورة الأحزاب
١٨٨	يا أيها النبي اتق الله الآية ١ - ٣
١٨٩	ما جعل الله لرجل من قلبين الآية ٤ - ٥
١٩٠	قلب واحد وإيمان واحد
١٩٢	النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم الآية ٦ - ٨
١٩٣	هل النبي حاكم بأمره ؟
١٩٥	الأحزاب الآية ٩ - ١٥
١٩٦	ملخص قصة الأحزاب
٢٠٠	لن ينفعكم القرار الآية ١٦ - ٢٠
٢٠٣	في رسول الله أسوة حسنة الآية ٢١ - ٢٧
٢٠٥	المسلم على قسمين
٢٠٧	ملخص قصة بني قريظة
٢٠٨	هل ظلم محمد (ص) بني قريظة ؟
٢١٠	يا أيها النبي قل لأزواجك الآية ٢٨ - ٣٠
٢١١	النبي وكثرة الأزواج
٢١٥	طهارة أهل البيت الآية ٣١ - ٣٤
٢١٦	أهل البيت
٢١٨	والحافظون لحدود الله والحافظات الآية ٣٥
٢١٩	قصة زينب بنت جحش الآية ٣٦ - ٤٠

٢٢٠	هل اشتهى النبي زينب بنت جحش ؟
٢٢٥	لماذا ختمت النبوة بمحمد ؟
٢٢٧	هو الذي يصلي عليكم الآية ٤١ - ٤٩
٢٢٩	يا أيها النبي إنا أحللتنا لك أزواجك الآية ٥٠ - ٥٢
٢٣٣	فإذا طعمتم فانتشروا الآية ٥٣ - ٥٥
٢٣٦	صلوا عليه وسلموا تسليماً الآية ٥٦ - ٥٨
٢٣٧	كيف نصلي عليك يا رسول الله ؟
٢٣٨	وجوب الحجاب الآية ٥٩ - ٦٢
٢٤٠	الحرب النفسية
٢٤١	يسألك الناس عن الساعة الآية ٦٣ - ٦٩
٢٤٣	إنا عرضنا الأمانة الآية ٧٠ - ٧٣

سورة سبأ

٢٤٦	الحمد لله الذي له ما في السموات الآية ١ - ٦
٢٤٨	الكافرون باليوم الآخر الآية ٧ - ٩
٢٥٠	داود وسليمان الآية ١٠ - ١٤
٢٥٣	نقد الفكر الديني
٢٥٦	سبأ الآية ١٥ - ٢١
٢٥٧	ملخص القصة
٢٦٠	قل ادعوا الذين زعمتم الآية ٢٢ - ٣٠
٢٦٣	لن يؤمنوا بالقرآن الآية ٣١ - ٣٣
٢٦٦	المترفون الآية ٣٤ - ٤٢

٢٦٩	انما أعظكم بواحدة الآية ٤٣ - ٥٠
٢٧٢	وانتى لهم التناوش الآية ٥١ - ٥٢

سورة فاطر

٢٧٥	الحمد لله فاطر السموات والأرض الآية ١ - ٣
٢٧٧	فقد كذبت رسل من قبلك الآية ٤ - ٨
٢٧٩	زين له سوء عمله
٢٨٠	والعمل الصالح يرفعه الآية ٩ - ١١
٢٨٢	وما يستوي البحران الآية ١٢ - ١٨
٢٨٥	وما يستوى الأعمى والبصير الآية ١٩ - ٢٨
٢٨٧	لكل أمة رسول
٢٨٩	ظالم لنفسه ومقتصد وسابق بالخيرات الآية ٢٩ - ٣٥
٢٩٢	لا يقضى عليهم الآية ٣٦ - ٣٩
٢٩٤	يمسك السموات والأرض الآية ٤٠ - ٤٣
٢٩٧	ما ترك على ظهرها من دابة الآية ٤٤ - ٤٥

سورة يس

٢٩٩	انك لمن المرسلين الآية ١ - ١٢
٣٠٠	الموسيقى الباطنية في القرآن
٣٠٣	رسولان عززهما الله بثالث الآية ١٣ - ٢٧
٣١١	يا حسرة على العباد الآية ٢٨ - ٣٦
٣١٣	وفي كل شيء له آية الآية ٣٧ - ٤٤

- ٣١٦ اتقوا ما بين أيديكم الآية ٤٥ - ٥٤
 ٣١٩ أصحاب الجنة وأصحاب النار الآية ٥٥ - ٦٨
 ٣٢٢ وما علمناه الشعر الآية ٦٩ - ٧٠
 ٣٢٤ أيدي الله هي سنن الكون والطبيعة الآية ٧١ - ٧٦
 ٣٢٥ قال من يحيي العظام الآية ٧٧ - ٨٣

سورة الصافات

- ٣٢٨ والصافات صفاً الآية ١ - ١٠
 ٣٣٠ الله والقسم بخلقه
 ٣٣١ بل عجبنا ويسخرون الآية ١١ - ٢٦
 ٣٣٥ وأقبل بعضهم على بعض الآية ٢٧ - ٣٧
 ٣٣٧ على سرر متقابلين الآية ٣٨ - ٤٩
 ٣٣٨ المرأة والفتيان
 ٣٣٩ لمثل هذا فليعمل العاملون الآية ٥٠ - ٦٨
 ٣٤٢ ضل قبلهم أكثر الأولين الآية ٦٩ - ٨٢
 ٣٤٤ سام وبافث وحام
 ٣٤٥ وإن من شيعته لإبراهيم الآية ٨٣ - ٩٩
 ٣٤٨ أرى في المنام اني أذبحك الآية ١٠٠ - ١١٣
 ٣٥١ هل الذبيح اسماعيل أو إسحق ؟
 ٣٥٢ موسى والباس الآية ١١٤ - ١٣٢
 ٣٥٤ لوط ويونس الآية ١٣٣ - ١٤٨
 ٣٥٧ أترك البنات ولهم البنون الآية ١٤٩ - ١٦٠

- ٣٥٩ فلأنكم وما تعبدون الآية ١٦١ - ١٧٠
 ٣٦٠ وإن جندنا لهم الغالبون الآية ١٧١ - ١٨٢

سورة ص

- ٣٦٣ ص والقرآن ذي الذكر الآية ١ - ١١
 ٣٦٥ تقليد الموحّد وتقليد المشرك
 ٣٦٧ اصبر على ما يقولون الآية ١٢ - ٢٠
 ٣٧٠ ٩٩ نعمة ونعمة واحدة الآية ٢١ - ٢٥
 ٣٧١ التفسير والاسرائيليات
 ٣٧٥ جعلناك خليفة في الأرض الآية ٢٦ - ٢٩
 ٣٧٧ سليمان الآية ٣٠ - ٤٠
 ٣٨٠ أيوب الآية ٤١ - ٤٨
 ٣٨٣ المتقون والطاغون الآية ٤٩ - ٦٤
 ٣٨٦ إنما أنا منفر الآية ٦٥ - ٨٨
 ٣٨٨ الاسلام وفتاة انكليزية

سورة الزمر

- ٣٩٢ لله الدين الخالص الآية ١ - ٤
 ٣٩٣ يَكُونُ النهار على الليل الآية ٥ - ٨
 ٣٩٨ يحلر الآخرة ويرجو رحمة ربه الآية ٩ - ١٦
 ٣٩٩ حتى الأنبياء يفعلون رغبة ورهبة
 ٤٠٢ الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه الآية ١٧ - ٢١

- ٤٠٥ شرح الله صدره للإسلام الآية ٢٢ - ٢٤
- ٤٠٧ قرآنًا عربياً غير ذي عوج الآية ٢٥ - ٣١
- ٤٠٩ ترجمة القرآن
- ٤١٥ أليس الله بكاف عبده الآية ٣٢ - ٣٧
- ٤١٧ قل حسبى الله الآية ٣٨ - ٤٥
- ٤٢٠ أنت تحكم بين عبادك الآية ٤٦ - ٥٢
- ٤٢٢ علر أقيح من ذنب
- ٤٢٥ ان الله بغفر الذنوب جميعاً الآية ٥٣ - ٥٩
- ٤٢٧ الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة الآية ٦٠ - ٦٧
- ٤٣١ وسبق الذين كفروا الآية ٦٨ - ٧٢
- ٤٣٤ وسبق الذين اتفوا الآية ٧٣ - ٧٥

سورة غافر

- ٤٣٦ غافر الذنب وقابل التوب الآية ١ - ٦
- ٤٣٨ الذين يحملون العرش الآية ٧ - ١٠
- ٤٤٠ أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين الآية ١١ - ١٧
- ٤٤٣ وانلهم يوم الآزفة الآية ١٨ - ٢٢
- ٤٤٥ موسى الآية ٢٣ - ٢٩
- ٤٤٩ وما الله يريد ظلماً للعباد الآية ٣٠ - ٣٥
- ٤٥٢ لعلي أبلغ الأسباب الآية ٣٦ - ٤٠
- ٤٥٤ ادعوكم الى النجاة وتدعونني الى النار الآية ٤١ - ٤٦
- ٤٥٦ يحتاجون في النار الآية ٤٧ - ٥٥

٤٥٩	الله واسرائيل
٤٦١	خلق السموات والأرض أكبر الآية ٥٦ - ٦٣
٤٦٥	وصوركم فأحسن صوركم الآية ٦٤ - ٦٨
٤٦٧	الفيلسوف راسل والأجل المسمى
٤٦٨	ذلكم بما كنتم نفرحون الآية ٦٩ - ٧٨
٤٧٠	نطلب الدنيا باسم الدين
٤٧١	الذي جعل لكم الانعام الآية ٧٩ - ٨٥

سورة فصلت السجدة

٤٧٤	كتاب فصلت آياته الآية ١ - ٨
٤٧٧	خلق الله الأرض الآية ٩ - ١٢
٤٧٩	ما هو الحل لمشكلة الجوع ؟
٤٨١	أنزلتكم صاعقة الآية ١٣ - ١٨
٤٨٣	شهد عليهم سمعهم وأبصارهم الآية ١٩ - ٢٤
٤٨٦	وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن الآية ٢٥ - ٢٩
٤٨٩	قالوا ربنا الله ثم استقاموا الآية ٣٠ - ٣٦
٤٩٠	الله والانسان والعمل
٤٩٢	لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه الآية ٣٧ - ٤٦
٤٩٤	الرحلة الى القمر
٤٩٧	اسرائيل والقرآن
٥٠٣	اليه يرد علم الساعة الآية ٤٧ - ٥٠
٥٠٥	سنريهم آياتنا في الآفاق الآية ٥١ - ٥٤
٥٠٦	الكون هو قرآن الله الكبير

سورة الشورى

- ٥٠٩ كذالك يوحى اليك الآية ١ - ٨
 ٥١٢ أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه الآية ٩ - ١٤
 ٥١٦ واستقم كما أمرت الآية ١٥ - ١٨
 ٥١٨ الله لطيف بعباده الآية ١٩ - ٢٢
 ٥٢٠ أطعني تكن مثلي
 ٥٢١ من هم القربى الآية ٢٣ - ٢٦
 ٥٢٤ الرزق بالعمل لا بالدعاء الآية ٢٧ - ٣٥
 ٥٢٧ وما عند الله خير وأبقى الآية ٣٦ - ٤٣
 ٥٣٠ الخاسر من خسر نفسه الآية ٤٤ - ٥٠
 ٥٣٣ صورة الاتصال بين الله ورسله الآية ٥١ - ٥٣

سورة الزخرف

- ٥٣٦ وانه في أم الكتاب الآية ١ - ١٤
 ٥٣٩ أم اتخذ مما يخلق بنات الآية ١٥ - ٢٥
 ٥٤٢ أهم يقسمون رحمة ربك الآية ٢٦ - ٣٥
 ٥٤٥ لماذا كرم الله وجه علي ؟
 ٥٤٨ أفأنت تسمع الصم الآية ٣٦ - ٤٥
 ٥٥١ موسى الآية ٤٦ - ٥٦
 ٥٥٤ ولما ضرب ابن مريم مثلاً الآية ٥٧ - ٦٦
 ٥٥٧ الانحلاء يومئذ الآية ٦٧ - ٨٠
 ٥٦٠ ان كان للرحمن ولد الآية ٨١ - ٨٩